

مشروع
ملشروع
٢٠٠٤

التفسير الموضوعي المبسّر

للقصص السور المفصل

مشروع المسودة الخامسة ١٤٣١/٠٨/٠١ هـ

نأمل من الإخوة مراجعته وإبداء الملاحظات والمقترحات حوله

في إطار الأهداف والتصور المرفق

إعداد/

د. محمد بن عبدالعزيز بن محمد العواجي

الأستاذ المشارك بكلية القرآن الكريم والدراسات الإسلامية

aboayob@hotmail.com

المدينة المنورة ص.ب (٢٠٠٤٤) فاكس ٠٤٨٢٦١٩٥٤

معجم خزانة القرآن الكريم والتفسير

تفسير القرآن الكريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، المنفرد بكمال الجمال والإنعام على الخلق أجمعين، الذي أرسل رسله هداية العالمين، وختم رسله بسيد الخلق وإمام المرسلين نبينا محمد عليه وعلى آل بيته وصحابته أفضل الصلاة وأتم التسليم والحمد لله رب العالمين.

فإن كتاب الله خير ما تقضى فيه الأعمار، وتستغل الأوقات في حفظه وتدبره، ومن ثم العمل به وتطبيقه في واقع الحياة، وما زال العلماء قديماً وحديثاً يخدمونه بتأليف تفاسيره، إذا بلغت أعداداً كثيرة، مع اختلاف مشاربها، وتنوع مناهجها، وتباين طرقها، غير أنها تلتقي في نهاية الأمر على خدمة كتاب الله، وتوضيح مبهمة، وبيان غامضة.

و"إنَّ أَيَّْ عِلْمٍ إِنَّمَا يَنَالُ شَرْفَهُ مِنْ إِحْدَى ثَلَاثَةِ أُمُورٍ: مِنْ جِهَةٍ مَوْضُوعِهِ، أَوْ مِنْ جِهَةٍ غَرَضِهِ، أَوْ مِنْ جِهَةِ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ.

أما من جهة الموضوع فإن موضوعه: كلام الله تعالى الذي هو ينبوع كل حكمة ومعدن كل فضيلة، فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم، لا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه.

وأما من جهة الغرض فلين غرضه: الاعتصام بالعروة الوثقى، والوصول إلى السعادة الحقيقية التي لا تفنى.

وأما من جهة شدة الحاجة؛ فلين كل كمال ديني أو دنيوي، عاجل أو آجل مفتقر إلى العلوم الشرعية والمعارف الدينية، وهي متوقفة على العلم بكتاب الله تعالى^(١).

وثمة اسم جديد للتفسير ظهر على ساحة المعرفة في القرن الرابع عشر الهجري، وأصبح مدرسة بحد ذاتها، له ضوابطه وطرقه يُسمى بالتفسير الموضوعي، فيه تجمع الآيات التي تتحدث عن موضوع واحد في مكان واحد، ويتم تناولها بالدراسة والتحليل والترتيب؛ كيما تستخرج هدايات القرآن، وتستنبط فوائده.

ومن أنواعه المشتهرة: البحث عن موضوع من خلال سورة من القرآن بتحديد الهدف الأساسي للسورة أو غيره من الأهداف ودراسته من خلال تلك السورة. ، فيحدد هدفاً أو مجالاً من مجالات

(١) الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي ٤٣٧/١.

الصورة، ثم يستنبط الهدايات والأحكام ويذكر المناسبة بينها، ويُبرز في هذه التقسيمات ما يدل على فقه الآيات، وسعة أسلوب القرآن الكريم وبراعته.

ومهما كانت أقسامه أو تسمياته فإننا لاننكر أنه كان موجوداً عند الأئمة بقدر حاجة الناس إليه، فما رسالة العبودية ، ورسالة تزكية النفس ، ورسالة التحفة العراقية ثلاثتها لشيخ الإسلام ابن تيمية إلا برهان على وجود هذا اللون من التفسير ، إذ بنى كل رسالة منها على آية ودار مع موضوعها في القرآن بياناً وتفسيراً جامعاً لكل ما يُعينه على تلك المعاني التي يُفسر بها من مآثور ولغة وغيرها.

وإن حاجة الناس اليوم إلى القرآن أشدّ لما يكتنفهم من التحديات ، ويُحيط بهم من الشبهات والشهوات، لانتشار المعلومات، وكثرة التقنيات، ومن أعظم ما يحتاجون إليه الاعتزاز بقيمهم الربانية. ولما في قصار سور المفصل من سور القرآن من تأصيل وبيان؛ فقد أحببت أن أساهم بشيء من ذلك، فإن القرآن الكريم هو كتاب الله الخالد المعجز بلفظه ونظمه، وأشرف العلوم هي تلك التي تدور حوله؛ فتشرح غامضه ، وتوضح مبهمه ، وتبين جوانب العظمة في آياته ، وشرف العلم من شرف المعلوم ، ومن أجل إحياء شعيرة التدبّر في النفوس وهذا ما أمل أن يظهر شيئاً منه هذا البحث.

فهذا المشروع عبارة عن تفسير موضوعي لقصار سور المفصل من سورة الضحى إلى الناس.

وبيان ذلك في النقاط التالية:

أولاً: أسباب اختيار المشروع:

أ - أهداف المشروع :

- (١) ربط المتلقي بكتاب الله، وتهيئته لحفظه والعمل بمقتضاه.(توحيد مصدر التلقي).
- (٢) إبراز منهج النبي ﷺ والسلف الصالح في تلقي القرآن والعمل به (إتباع الأثر).
- (٣) تربية المتلقي وتزكيته بالقرآن (إصلاح وتوجيه).
- (٤) بيان إعجاز وعظمة وشمولية القرآن الكريم وحاجتنا إليه في كافة الميادين (إيمان وتقدير).
- (٥) إبراز عظمة القرآن الكريم، وأثره في سعادة البشرية وهدايتها. (عظم الأثر).
- (٦) تحصين المتلقي وحلّ مشكلاته من خلال المنهج القرآني. (وقاية وعلاج).
- (٧) نشر معاني القرآن السامية إلى العالم بلغاتهم عبر منهجية سهلة ميسرة (دعوة وتعريف).
- (٨) إثراء الخطط والمناهج التعليمية والتربوية والدعوية بالأسس والمفاهيم القرآنية.(تأصيل وتعليم).

ب أسباب ومناسبات:

- ١ العناية بقصار المفصل يأتي بسبب كثرة قراءتها في الفرائض، وحفظ الكثير من الناس لها، مع الجهل الموجود ببعض مفرداتها ومعانيها .
- ٢ أن هذه السور يبتدئ بها العوام، وطالب العلم أول أمره، ولا يستغني عنها طالب العلم، فناسب طرحها بشكل تذكيري موضوعي ميسر، لتقرير المسلك إلى الله، وفتح باب التفكير والتدبر في كلامه.
- ٣ - كثرة تردد هذه السور على المسامع، مع عظم ما تضمنته من المعاني، والتي غالباً ما نغفل عنها، فأحبنا ربط الشيخ، والمتعلم في بداية مشواره؛ بمعانيها العظيمة.
- ٤ - أن هذه السور في أغلبها مكية، تعالج قضايا اعتقادية كلية، لا ينبغي التفريط فيها ولا إغفالها؛ لاسيما من الدعاة إلى الله.
- ٥ - اشتمال هذه السور إجمالاً على جانب الوعظ وربط القلوب بالله تعالى والتذكير بالمنعم.
- ٦ العناية بتفسيرها من شأن طلاب العلم والدعاة إلى الله والمربين، فهي جديرة بالتمدرس في البيت والعائلة والمسجد وحلقات تحفيظ القرآن... الخ.
- ٧ - تضمن المنهج التربوي لرعاية طلاب العلم، جزءاً كبيراً من تلك الموضوعات التي تضمنتها قصار المفصل، وعدم توفر مراجع كافية للتحضير منها، مع تراحم الأعمال على المشرف.
- ٨ إعداد هذا المشروع معونة على استفادة الطلاب بجمعه في محل واحد، وذلك لأنهم يقرؤون من عدة تفاسير ويكتبون الفوائد والعبر المتناثرة مما يقرؤون أو يسمعون، فجمعها في مكان واحد عملٌ يستفيدون منه مستقبلاً بإذن الله تعالى .

ثانياً: خطة البحث :

اشتملت الخطة على: مقدمة ، وتمهيد ، وثلاثة وعشرين فصلاً ، وخاتمة ، وفهارس:
المقدمة : وتضمنت التعريف بالموضوع، وأهميته وأسباب اختياره، وخطة ومنهج البحث.

تمهيد: في مقدمات عن المفصل:

أولاً: فضل قراءة وتعلم المفصل.

ثانياً: أوجه التناسب بين قصار السور.

الفصل الأول : تفسير سورة الضحى.

الفصل الثاني : تفسير سورة الشرح.

- الفصل الثالث : تفسير سورة التين.
- الفصل الرابع : تفسير سورة العلق.
- الفصل الخامس : تفسير سورة القدر.
- الفصل السادس : تفسير سورة البينة.
- الفصل السابع : تفسير سورة الزلزلة.
- الفصل الثامن : تفسير سورة العاديات.
- الفصل التاسع : تفسير سورة القارعة.
- الفصل العاشر : تفسير سورة التكاثر.
- الفصل الحادي عشر : تفسير سورة العصر.
- الفصل الثاني عشر : تفسير سورة الهمزة.
- الفصل الثالث عشر : تفسير سورة الفيل.
- الفصل الرابع عشر : تفسير سورة قريش.
- الفصل الخامس عشر : تفسير سورة الماعون.
- الفصل السادس عشر : تفسير سورة الكوثر.
- الفصل السابع عشر : تفسير سورة الكافرون.
- الفصل الثامن عشر : تفسير سورة النصر.
- الفصل التاسع عشر : تفسير سورة المسد.
- الفصل العشرون : تفسير سورة الإخلاص.
- الفصل الحادي والعشرون : مقدمات تفسير المعوذتين.
- الفصل الثاني والعشرون : تفسير سورة الفلق.
- الفصل الثالث والعشرون : تفسير سورة الناس.
- الخاتمة.
- ثبت المصادر.
- فهرس الموضوعات.

ثالثاً: منهجية البحث :

لقد سلكت في تسطير وصياغة هذه الورقات المتواضعة، والتي أسأل الله تعالى أن ينفع بها ، المنهج

العلمي التالي :

- سلكت أسلوباً ومنهجية التفسير الموضوعي بنوعه المشهور "تتبع المعنى المذكور في الآيات ودراستها وتفسيرها مع مراعاة شروط المفسر أثناء عرض الموضوع".
- التفسير للآيات بطريق الحديث عن ركائز السور وموضوعاتها الأساسية .
- اتبعت أسلوب المقالة في صياغة البحث "لأنه ذا طابع وعظي تذكيري"، مع المحافظة على نصوص الأئمة المنقولة، وذلك قدر جهدي.
- التزمت ما ذكره العلماء المشتهرون في الفن في معنى الآيات على الوجه الأرجح، معرضاً عن ذكر الخلاف في ذلك- ما أمكن- بناء على منهجية هذا النوع من التفسير .
- ما صغته في معاني الآيات والاستشهاد بها فهو ممّا فهمته من جرد كتب التفسير عامّة، وعلى الأخص الكتب التالية:

١. الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي رحمه الله ط. دار الكتاب العربي لبنان.

٢. تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير رحمه الله ط. دار طيبة ، تحقيق سامي سلامه.

٣. تيسير الكريم الرحمن للإمام ابن سعدي رحمه الله ط. مؤسسة الرسالة عناية

د. اللويح ١٤٢٠هـ.

- كل آية ذكرتها أو استشهدت بها فعلى المعنى الذي ذكره المشار إليهم، بإجمال مني وصياغة تقتضيها منهجية المقالة العلمية الموضوعية.
- قدمت بمقدمة عن متعلقات موضوع السورة، حاولت أن أبين فيها ملامح السورة الرئيسة وربطها بحيث تكون موضوعاً واحداً، ونزولها وفضلها ومناسبتها لما قبلها وبعدها، دون ذكر الخلاف والروايات، قدر الجهد والاستطاعة.
- تناولت الموضوعات المذكورة في السورة، مع التقيد بالانطلاق مما ذكره أهل التفسير ورجعت إلى مراجع أخرى تخدم الموضوع الذي تتحدث عنه الآيات.
- حاولت أن تكون خطوات وخطة البحث موافقة لما اتفق عليه أهل فن "التفسير الموضوعي للقرآن الكريم"، وفقاً لما قيده د. زاهر عواض الأملعي في (دراسات في التفسير الموضوعي) ود. مصطفى مسلم في (مباحث في التفسير الموضوعي)، واستلهاماً ممّا سلكه الشيخ العلامة

عبدالرحمن بن ناصر السعدي في كتابيه (تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن) و (فتح
الرحيم الملك العلام)، وإني لأرجو أن أكون وفققت لذلك.

- حاولت ربط الواقع الدعوي الأول بالواقع الدعوي الحاضر. مع التركيز في المعنى على الفوائد العملية، وحرصت على عدم إيراد معلومة لا يبنى عليها فائدة عملية.
- ربطت جوانب السورة ببعضها لكي تخرج كموضوع واحد.
- الحرص على اعتماد الروايات الصحيحة في تفسير الآيات وفي أسباب النزول.
- التزمت الاستشهاد في السنة بالأحاديث الصحيحة فقط، ولم أستشهد بالحديث الضعيف إلا في الضرورة وهذا نادر جداً. واعتمدت على حكم الشيخ الألباني رحمه الله، وعلماء الحديث، وما لم أصل إلى الحكم عليها-وهو قليل جداً- اكتفيت بذكر مصدرها فقط.
- أدرجت في عنوان النزول كل ما يتعلق به ؛ من المكي والمدني ، وسبب النزول إن وجد ، وعدّ آياتها وكلماتها وحروفها. ثم أتبعته بمناسبة السورة لما قبلها على سبيل الإجمال والإيجاز ، وتسهيل الفكرة والعبارة.
- قدمت لهذا البحث بتمهيد ضمنته مسألتين: فضل قراءة وتعلم المفصل، وأوجه التناسب بين قصار السور، تهية للدخول في الموضوع.

●

تمهيد

في مقدمات عن المفصل: أولاً: فضل قراءة وتعلم المفصل:

١. تقسيم سور القرآن:

تنقسم سور القرآن إلى أقسام، فعن واثلة بن الأسقع الليثي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أعطيت مكان التوراة السبع وأعطيت مكان الزبور المئين وأعطيت مكان الإنجيل المثاني وفضلت بالمفصل)^(١) ويقصد بالسبع: السور السبع الطوال من البقرة حتى الأنفال والتوبة. والمئين: هي السور التي يكون عدد آياتها مائة آية فأكثر. والمثاني: وهي التي أقل من مائة آية. والمفصل: ما ولى المثاني من قصار السور، سمي بذلك لكثرة الفصول التي بين السور بالبسملة. وقيل: لقلة المنسوخ منه. ولهذا يسمى بالمحكم أيضاً، كما روى البخاري عن سعيد بن جبير قال: إن الذي تدعونه المفصل هو المحكم^(٢).

وقال الحسن البصري: إن الله أودع علوم الكتب السابقة في القرآن، ثم أودع علوم القرآن في المفصل، ثم أودع علوم المفصل في الفاتحة، فمن علم تفسيرها كان كمن علم تفسير جميع الكتب المتزلة^(٣).
وآخره سورة الناس بلا نزاع. "واختلف في أوله فقيل: ق، وقيل: الحجرات، وقيل، وقيل: الضحى، ووجهه بأن القارئ يفصل بين السور بالتكبير. وقيل غير ذلك.
وللمفصل طوال وأوساط وقصار: فطواله إلى عمّ، وأوساطه منها إلى الضحى، ومنها إلى آخر القرآن قصاره، وهذا أقرب ما قيل فيه"^(٤).

وسمّي مفصلاً لقصر سورته، وكثرة فواصله^(٥).

٢. البدء بالمفصل في العلم والحفظ:

عن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: (أول من قدم علينا مصعب بن عمير وابن أم مكتوم، وكانوا يقرئون^(٦) الناس، فقدم بلال وسعد وعمّار بن ياسر، ثم قدم عمر بن الخطاب في عشرين من

(١) أخرجه الإمام أحمد ١٠٧/٤ (١٧٠٢٣)، والطيالسي ١٣٦/١ (١٠١٢)، والطبراني في الكبير ٢٥٨/٨ (٨٠٠٣) و٧٦/٢٢ (١٨٦)، وفي الشاميين ٦٢/٤ (٢٧٣٤)، والبيهقي في شعب الإيمان ٤٦٥/٢، والمنذري في الترغيب والترهيب وحسنه الألباني في صحيح الترغيب (١٤٥٧) وصححه بمجموع طرقه في السلسلة الصحيحة (١٤٨٠) وصحيح الجامع (١٠٥٩).

(٢) أخرجه البخاري كتاب فضائل القرآن باب صبيان القرآن رقم (٥٠٣٥).

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ٤٥٠/٢ (٢٣٧١)، والتعلي في الكشف والبيان ٩١/١.

(٤) انظر الإتيقان ١٧٩/١-١٨١. مختصراً.

(٥) فتاوى نور على الدرب - ابن عثيمين - ١١٥/١٩.

(٦) وكانوا يقرئون الناس: هكذا وردت. ووجهها ابن حجر على أن أقل الجمع اثنان، وإما على أن من كان يقرأ بأنه كان يقرأ معها أيضاً. وفي رواية الأصيلي وكريمة «فكانا يقرئان الناس» قال ابن حجر: وهو أوجه. أنظر فتح الباري ٣٠٦/٧.

أصحاب نبي الله صلى الله عليه وسلم، ثم قدم النبي صلى الله عليه وسلم فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم برسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى جعل الإماء يقلن: قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فما قدم حتى قرأت ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى ١] في سور من المفصل»^(١). وعن عاصم بن عمر بن الخطاب عن أبيه أنه: كان يأمر بنيه بتعليم المفصل^(٢).

"لقد كان السلف الصالح لهذه الأمة من أشد الناس حرصاً على الاهتمام بكتاب الله تلاوة وتعليماً بعد سماعهم الأحاديث الدالة على الترغيب في تعلمه واستظهاره من نحو قوله صلى الله عليه وسلم: (خيركم من تعلم القرآن وعلمه)^(٣)، فلا يقدمون على تعلمه شيئاً من العلوم، فما أن يعقل الطفل حتى يبدأ في تعليمه حروف [أبي جاد]^(٤) ثم قصار السور من المفصل^(٥)، ويلقن ذلك تلقيناً خمس آيات أو عشر آيات حتى يتم حفظ كتاب الله أو ما تيسر منه بحسب همته وسعة حفظه وإدراكه. "أ.هـ"^(٦).

قال ابن عباس رضي الله عنهما: "توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا ابن عشر سنين، وقد قرأت المحكم". وعنه: "جمعت المحكم في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، فقبل له: ما المحكم؟ قال: المفصل"^(٧)، قال ابن كثير: "فيه دلالة على جواز تعليم الصبيان القرآن لأن ابن عباس أخبر عن سنه حيث موت النبي صلى الله عليه وسلم، وقد كان جمع المفصل وهو من الحجرات، وعمره إذ ذاك عشر سنين"^(٨). فهذا ابن عباس رضي الله عنهم يفاخر أنه قرأ المفصل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو طفل صغير.

٣. كثرة قراءة النبي لها في الصلاة الجهرية:

عن سليمان بن يسار عن أبي هريرة رضي الله عنه قال ما صليت وراء أحد أشبه صلاة برسول الله

(١) أخرجه البخاري كتاب مناقب الأنصار باب مقدم النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه المدينة (٣٧١٠) وانظر: (٤٦٥٧) ، (٤٧٠٩).

(٢) تفسير القرآن من الجامع لابن وهب ١٤/١ (١٧).

(٣) أخرجه البخاري فضائل القرآن باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه (٥٠٢٧).

(٤) الترتيب الأبجدي. تُرتَّب حروف الكلام العربي ترتيباً أبجدياً، وبهذا يتعلمون القراءة والكتابة والحساب ، والمشتهر للتعلم والتعليم الترتيب الألفبائي: وهو ترتيب مبني على المشاهدة بين الحروف في الشكل، والرسم، والتقابل بين الإعجام والنقط، والصوتي بحسب مخارجها. وانظر: الموسوعة العربية العالمية ٢/١.

(٥) بين الإمام البقاعي وجه تسمية هذا الحزب من القرآن الكريم بالمفصل وما قبله بالمتاني بان ذلك من وجهين : "الأول: أن المفصل أول لقب جامع للسور باعتبار القراءة. وفوقه المتاني، ثمّ المفون، ثمّ الطول. فالمتاني: ثانية له حقيقة وما هي ثانية للمنين، إلا أننا ألفينا البدأة بالطول من الطرف الآخر.

الثاني: أنها لما زادت على المفصل كانت قسمة السورة منها في ركعتين من الصلاة كقراءة سورتين من المفصل، فكانت متاني، لتثنيها في مجموع الصلاة باعتبار قراءة بعضها في كل من الركعتين". نظم الدرر ٨/٣٥٧-٣٥٨.

(٦) انظر ندوة: إجازات قراء القرآن الكريم - الجمعية العلمية السعودية للقرآن الكريم وعلومه - بتاريخ ٢٢/١٠/١٤٢٤ هـ كلية أصول الدين - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض.

(٧) فتح الباري ٨٣/٩ .

(٨) فضائل القرآن لابن كثير ٢٢٥، وفتح الباري: ٨٣/٩ .

صلى الله عليه وسلم من فلان^(١) قال سليمان: كان يطيل الركعتين من الظهر ويخفف الآخرين ويخفف العصر ويقرأ في المغرب بقصار المفصل ويقرأ في العشاء بوسط المفصل ويقرأ في الصبح بطوال المفصل^(٢).
 عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: رَمَقْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَشْرِينَ مَرَّةً يقرأ بعد المغرب وفي الركعتين قبل الفجر ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ و ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾^(٣).
 وأخرج مالك في الموطأ عن الصناجي قال: قدمت المدينة في خلافة أبي بكر الصديق فصليت وراءه المغرب فقرأ في الركعتين الأوليين بأم القرآن وسورة سورة من قصار المفصل...^(٤).
 وكتب عمر إلى أبي موسى الأشعري أن يقرأ في صلاة المغرب بقصار المفصل^(٥).
 قال الترمذي: "وعلى هذا العمل عند أهل العلم . وبه يقول: ابن المبارك وأحمد وإسحق.
 وذكر عن مالك أنه كره أن يقرأ في صلاة المغرب بالسور الطوال، نحو: الطور والمرسلات. قال الشافعي: لا أكره ذلك، بل أستحب أن يقرأ بهذه السور في صلاة المغرب"^(٦).
 قال الطحاوي: "فتبت بما ذكرنا أن ما ينبغي أن يقرأ به في صلاة المغرب هو قصار المفصل وهذا قول أبي حنيفة، وأبي يوسف، ومحمد، رحمهم الله تعالى"^(٧).
 قال الحافظ ابن رجب: "وهذا يشعر بحكاية الإجماع عليه"^(٨).
 وكذا في صلاة العصر، قال الترمذي: "ورأى بعض أهل العلم أن القراءة في صلاة العصر كنحو القراءة في صلاة المغرب يقرأ بقصار المفصل، وروي عن إبراهيم النخعي أنه قال: تعدل صلاة العصر بصلاة المغرب في القراءة"^(٩).

-
- (١) كان عمر بن عبدالعزيز أشبه الناس في زمانه صلاة برسول الله صلى الله عليه وسلم كما نص عليه في رواية الضياء في الأحاديث المختارة (٢١٤١) وحسن محققه إسناده.
- (٢) أخرجه النسائي في الكبرى باب طول القراءة وقصرها (٣٨١٨-٣٨١٩). وفي الصغرى كتاب الصلاة باب القراءة في المغرب (٩٨٣) وصححه النووي في المجموع ٣/٣٨٣، وابن تيمية في اقتضاء الصراط المستقيم ١/٣٢٠ وقال: إسناده على شرط مسلم، وصححه ابن عبدالمهادي في المحرر ١١٣، والألباني في صحيح النسائي ٩٨٣.
- (٣) أخرجه النسائي كتاب الصلاة باب القراءة في المغرب (٩٩٢)، والترمذي كتاب الصلاة باب ما جاء في تخفيف ركعتي الفجر (٤١٧) وقال حديث حسن، وأحمد ٢/٤٧٦٣ (٥٨/٢) (٥٢١٥)، وأبو داود الطيالسي (٢٠٠٥) ومن طريقه البيهقي ٣/٤٣، وابن أبي شيبة في المصنف ٢/٥٠، ومن طريقه مسلم في التمييز ٢٠٧، والطبراني في الكبير (١٣٥٢٨)، ومن طريقه ابن المنذر في الأوسط ٥/٢٢٦، وابن عبد البر في التمهيد ٤١/٢٤. والخلال في فضائل سورة الإخلاص (٢٠) وانظر: ابن حجر في نتائج الأفكار ١/٤٩٨ وقال: "هذا حديث حسن... ورجاله رجال الصحيح"، وإتحاف الخيرة المهرة للبوصيري (٢٣٠٠).
- (٤) أخرجه مالك في الموطأ ١/٧٨.
- (٥) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ٢/١٠٤ (٢٦٧٢) وعبدالرزاق ٢/١٠٤ (٢٦٧٢)، والترمذي تعليقا، كتاب الصلاة باب القراءة في المغرب ١/٤٠١-٤٠٣.
- (٦) جامع الترمذي ٢/١١٢ عند حديث (٣٠٨).
- (٧) شرح معاني الآثار ١/٢١٤ بعد الأثر (١٢٨٠).
- (٨) فتح الباري لابن رجب ٤/٤٣١.
- (٩) جامع الترمذي ٢/١١٠ عند حديث (٣٠٧).

وكان صلى الله عليه وسلم يقرأ بركعتي الوتر قبل الأخيرة بـ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ و ﴿قُلْ يَتَّيْبًا الْكَافِرُونَ﴾ وفي الركعة الأخيرة من الوتر بسورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ وبذلك عمل الشافعي ومالك وأحمد فاستحبا قراءة قل هو الله أحد في الركعة الأخيرة من الوتر وحدها.

ومعرفة المفصل مهمة حتى **نقتدى في صلاتنا** برسولنا الحبيب صلى الله عليه وسلم بأبي هو وأمي وروحي ، ولذلك ينبغي على الإنسان أن يعرف هذا وخصوصا من الأئمة أن يعرفوا هذا الأمر حتى يقرأوا في صلاتهم بما كان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في صلاته الجهرية والسرية.

ومهمة من **جهة التدبر والتكرار والتجديد** في قراءتها كما كان النبي صلى الله عليه وسلم وسلفنا الصالح يفعلون، فيخالفون ذلك أحيانا، قال ابن القيم : "المحافظة فيها على الآية القصيرة والسورة من قصار المفصل خلاف السنة"^(١).

"وإنما اختيار المفصل ، ليكون ذلك أسهل في حفظه على المأمومين ، لأنه إذا تكرر عليهم المفصل حفظوه ،...الأفضل المحافظة على المفصل"^(٢). "ومن الحكمة في الاستمرار بقراءة المفصل: أن المأمومين كلما تكررت عليهم السور حفظوها وسهل عليهم قراءتها" .. و "إذا قرأ - الإمام - من السور القصيرة عرف - المأموم - المبتدى والمتنهي فاطمأن"^(٣) أي: في صلاته، وانصرف ذهنه للقرآن وتدبره.

٤. التقسيم للتسهيل والتنويع:

"قال بعض السلف: في القرآن ميادين وبساتين ومقاصير وعرائس وديابيح ورياض فميادينه ما افتتح بـ ﴿المر﴾ وبساتينه ما افتتح بـ ﴿الر﴾ ومقاصيره الحامدات وعرائسه المسبحات وديابجه آل عمران ورياضه المفصل"^(٤). فإذا دخل القارئ الميادين، وقطف من البساتين، ودخل المقاصير، وشهد العرائس، ولبس الديابيح، وتتره في الرياض؛ استغرقه ذلك، وشغله عما سواه، فلم يعزب قلبه، ولم يتفرق فكره"^(٥).

٥. الحكمة من التدرج :

وقد تضمن المفصل الحكمة من التدرج في التشريع قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: ". . . إنما نزل أول ما نزل منه - أي القرآن - سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا تاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام. ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندع الخمر أبداً. ولو

(١) زاد المعاد ١/٢٠٣.

(٢) الشرح الممتع ١٨/١ وذكر في الحاشية عن الشيخ في الدرس التالي قوله : بأن ذلك "على سبيل الاستحباب".

(٣) فتاوى نور على الدرب - ابن عثيمين - ١٩/١١٥.

(٤) جمال القراء ١/٣٥.

(٥) وانظر: إحياء علوم الدين ١/٢٨٢ ، والبرهان في علوم القرآن ١/٤٥٤ ، وقوت القلوب ١/٨٦ .

نزل: لا تزنوا، لقالوا: لا ندع الزنا أبداً" (١).

وقد بين ابن حجر رحمه الله في شرحه لهذا الحديث الحكمة من هذا التدرج فقال: "أشارت إلى الحكمة الإلهية في ترتيب النزول، وأن أول ما نزل من القرآن الدعاء إلى التوحيد، والتبشير للمؤمن والمطيع بالجنة، وللكافر والعاصي بالنار، فلما اطمأنت النفوس على ذلك أنزلت الأحكام، ولهذا قالت: (ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا لا ندعها) وذلك لما طبعت عليه النفوس من النفرة عن ترك المألوف" (٢).

٦. صفة قراءته للمفصل في الصلاة:

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رجلاً قال له: إني أقرأ المفصل في ركعة واحدة. فقال: (هذا كهذ الشعر؟! إن قوما يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم. ولكن إذا وقع في القلب فرسخ فيه نفع) (٣). قال النووي: "لا بأس بالجمع بين سورتين في ركعة واحدة فقد ثبت في الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لقد عرفت النظائر التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرن بينهما فذكر عشرين سورة من المفصل كل سورتين في ركعة" (٤).

عن أبي وائل قال: غدونا على عبد الله بن مسعود فقال رجل: قرأت المفصل البارحة. فقال: (هذا كهذ الشعر!! إنا قد سمعنا القراءة وإني لأحفظ القرآن التي كان يقرأ بها النبي صلى الله عليه وسلم: ثماني عشرة سورة من المفصل وسورتين من آل حم) (٥).

(١) أخرجه البخاري كتاب فضائل القرآن باب تأليف القرآن (٤٧٠٧).

(٢) فتح الباري ٤٨/١٠.

(٣) أخرجه مسلم كتاب صلاة المسافرين، باب ترتيل القرآن... وإباحة سورتين فأكثر في كل ركعة (٨٢٢)، والبخاري كتاب صفة الصلاة، باب الجمع بين السورتين في الركعة (٧٧٥).

(٤) التبيين في آداب حملة القرآن ٥٨.

(٥) أخرجه البخاري كتاب فضائل القرآن، باب وما يكره أن يهذ الشعر (٤٧٥٦). ومسلم كتاب صلاة المسافرين، باب ترتيل القرآن... وإباحة سورتين فأكثر في ركعة (٧٢٢) من حديث طويل. والقرناء: السور التي كان يقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم ببعضها في قراءته.

ثانياً: أوجه التناسب بين قصار السور عموماً

قال ابن تيمية رحمة الله عليه: " فصل: السور القصار في أواخر المصحف متناسبة.

فسورة ﴿ أَقْرَأ ﴾ هي أول ما نزل من القرآن ، ولهذا افتتحت بالأمر بالقراءة ، وختمت بالأمر بالسجود، ووسطت بالصلاة التي أفضل أقوالها وأولها بعد التحريم هو القراءة وأفضل أفعالها وآخرها قبل التحليل هو السجود. ولهذا لما أمر بأن يقرأ . وأنزل عليه بعدها المدثر لأجل التبليغ فقبل له ﴿ قُرْآنًا ذُرِّيًّا ﴾ فبالأولى صار نبياً . وبالثانية صار رسولاً . ولهذا خوطب بالمدثر وهو المتدفئ من برد الرعب ، والفرع الحاصل بعظمة ما دهمه لما رجع إلى خديجة ترجف بواده ، وقال: دثروني دثروني^(١). فكأنه نُهي عن الإستدفاء، وأمر بالقيام للإندار. كما خوطب في المزمّل وهو المتلفف للنوم لما أمر بالقيام إلى الصلاة. فلما أمر في هذه السورة بالقراءة ذكر في التي تليها نزول القرآن ليلة القدر ، وذكر فيها تنزل الملائكة والروح، وفي المعارج: عروج الملائكة والروح ، وفي النبأ قيام الملائكة والروح ، فذكر الصعود والتزول والقيام.

ثم في التي تليها تلاوته على المنذرين حيث قال: ﴿ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ ﴾ فهذه السور الثلاث منتظمة للقرآن أمراً به وذكرًا لتزوله و لتلاوة الرسول له على المنذرين. ثم سورة الزلزلة والعاديات والقارعة والتكاثر ؛ متضمنة لذكر اليوم الآخر وما فيه من الثواب والعقاب، وكل واحد من القرآن واليوم الآخر قيل: هو ﴿ أَنبِيَاءَ الْعَظِيمِ ﴾.

ثم سورة العصر والهمزة والفيل و﴿ لِإِيلَافِ ﴾ و﴿ أَرَاءَيْتَ ﴾ والكوثر والكافرون والنصر و﴿ تَبَّتْ ﴾ متضمنة لذكر الأعمال، حسنها وسيئها، وإن كان لكل سورة خاصة.

وأما سورة الإخلاص والمعوذتان ؛ ففي الإخلاص : الثناء على الله ، وفي المعوذتين : دعاء العبد ربه ليعيده. والثناء مقرون بالدعاء كما قرن بينهما في أم القرآن المقسومة بين الرب والعبد نصفها ثناء للرب ونصفها دعاء للعبد^(٢). والمناسبة في ذلك ظاهرة ؛ فإن أول الإيمان بالرسول : الإيمان بما جاء به من الرسالة، وهو القرآن، ثم الإيمان بمقصود ذلك وغايته وهو ما ينتهي الأمر إليه من النعيم والعذاب ، وهو الجزاء، ثم معرفة طريق المقصود وسببه، وهو الأعمال؛ خيرا ليفعل، وشرها ليرك.

ثم ختم المصحف بحقيقة الإيمان ، وهو ذكر الله ودعاؤه ، كما بنيت عليه أم القرآن ، فإن حقيقة الإنسان المعنوية: هو المنطق . والمنطق قسمان : خبر وإنشاء، وأفضل الخبر وأنفعه وأوجه ما كان خبراً عن الله كنصف الفاتحة وسورة الإخلاص ، وأفضل الإنشاء -الذي هو الطلب- وأنفعه وأوجه ما كان طلباً من الله كالنصف الثاني من الفاتحة والمعوذتين "أ.هـ"^(٣).

(١) يشير إلى حديث بدء الوحي وسيأتي في تفسير سورة العلق، أخرجه البخاري كتاب بدء الوحي باب كيف كان بدء الوحي إلى

رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣)، ومسلم كتاب الإيمان باب بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم (١٦٠).

(٢) يشير إلى حديث (قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل) أخرجه مسلم كتاب الصلاة باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة (٣٩٥).

(٣) مجموع الفتاوى ٤٧٧/١٦.

تفسير سورة الضحى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالضُّحَىٰ ١ ﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ٢ ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ٣ ﴾ وَاللَّآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ٤ ﴿ وَلَسَوْفَ
يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ٥ ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ٦ ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ٧ ﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلًا
فَأَغْنَىٰ ٨ ﴿ فَاَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ٩ ﴿ وَفَاَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ١٠ ﴿ وَفَاَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ١١ ﴿

المبحث الأول

مقدمات حول السورة

أولاً: نزولها ومناسبتها:

هي مكية باتفاق^(١)، وهي أول سورة في قصار المفصل.

أما عدد آياتها: (١١)، وكلماتها: (٤٠)، وحروفها: (١٧٢)^(٢).

وورد في سبب نزولها: عن جندب بن سفيان رضى الله عنه قال اشتكى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يقم ليلتين أو ثلاثا، فجاءت امرأة فقالت يا محمد إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك، لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاثا. فأنزل الله عز وجل ﴿ وَالضُّحَىٰ ١ ﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ٢ ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ

﴿ ٣ ﴾.

مناسبتها لما قبلها:

"أقسم سبحانه في سورة « الليل » ، بالليل إذا يغشى ، وبالنهار إذا تجلى ..

وبدأ بالقسم بالليل ، ثم أعقبه بالقسم بالنهار ..

وهنا يقسم الله سبحانه بالنهار أولا « و الضحى » ثم بالليل ثانيا .. « و ليل إذا سجدى » وبهذا

يتوازن الليل والنهار ، فيقدم أحدهما في موضع ويقدم الآخر في موضع ، ولكل من التقديم والتأخير في

الموضعين مناسبتة .. وقد أشار قبل إلى تقدم الليل على النهار في سورة الليل ، وهنا كانت المناسبة

تقدم النهار على الليل"^(٤).

(١) الجامع لأحكام القرآن ٩١/٢٠، المحرر والوجيز ٤٨٦/١، ولم يذكرها صاحب الإتيقان في السور المختلف فيها، الإتيقان ٣٠/١.

(٢) التفسير القرآني للقرآن ٧٣/٣.

(٣) أخرجه البخاري كتاب التفسير باب تفسير سورة الضحى (٤٩٥٠)، ومسلم كتاب الجهاد والسير باب ما لقي النبي صلى الله

عليه وسلم من أذى المشركين والمنافقين (١٧٩٧).

(٤) التفسير القرآني للقرآن ٧٣/٣. بتصرف .

ثانياً: موضوعها :

"إبطال قول المشركين إذ زعموا أن ما يأتي من الوحي للنبي صلى الله عليه و سلم قد انقطع عنه، وزاده بشارة بأن الآخرة خير له من الأولى على معنيين في الآخرة والأولى. وأنه سيعطيه ربه ما فيه رضاه وذلك يغيظ المشركين.

ثم ذكّر الله بما حفه به من الطافه وعنايته في صباه وفي فتوته وفي وقت اكتهاله، وأمره بالشكر على تلك النعم بما يناسبها مع نفع لعبيده وثناء على الله بما هو أهله"^(١).
فهذه السورة فيها عدة أمور:

قسم: ﴿ وَالضُّحَىٰ ١ ﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿

وتوضيح : أنه ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿

وبشرى : بأنه ﴿ وَاللَّآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿

ووعده : بأنه ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿

وامتنان: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَكَوَىٰ ٦ ﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿ ٧ ﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿

ووصية : ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ٩ ﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿ ١٠ ﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿ ١١ ﴾ ﴿

ثالثاً: المعنى الإجمالي للسورة:

أقسم الله تعالى بوقت الضحى، والمراد به النهار كله، وبالليل إذا سكن بالخلق واشتد ظلامه. ثم بين الله تعالى لنبية أنه ما تركه، وما أبغضه بإبطاء الوحي عنه، ثم بشره بأن الدار الآخرة خير من دار الدنيا، وأن الله سيعطيه من أنواع الإنعام في الآخرة، ما يرضيه بذلك.

ثم امتن الله عليه بعدد من المنن أولها: ألم يجدك من قبل يتيماً، فأواك ورعاك؟ ووجدك لا تدري ما الكتاب ولا الإيمان، فعلمك ما لم تكن تعلم، ووفقت لأحسن الأعمال؟ ووجدك فقيراً، فساق لك رزقك، وأغنى نفسك بالقناعة والصبر؟

وبعد ذلك أوصاه بثلاثة وصايا وهي: فأما اليتيم فلا تُسئْ معاملته، وأما السائل فلا تزجره، بل أطعمه، واقض حاجته، وأما بنعمة ربك التي أسبغها عليك فتحدث بها^(٢).

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٣٩٣.

(٢) التفسير الميسر باختصار وتصرف ص ٥٩٦.

المبحث الثاني وقفات حول السورة المطلب الأول

وقفات مع المقسم به والمقسم عليه

أولاً: المقسم به : ﴿ وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝﴾

﴿ وَالضُّحَىٰ ۝﴾ أي: سطوع الضوء وعظمه^(١)، "ومناسبة القسم بـ ﴿ وَالضُّحَىٰ ۝﴾ أن الضحى وقت انبثاق نور الشمس فهو إيماء إلى تمثيل نزول الوحي وحصول الاهتداء به، ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝﴾: سكن واستقر ليلاً تماماً"^(٢).

"لقد أطلق التعبير جواً من الحنان اللطيف، والرحمة الوديدة، والرضل الشامل، والشجى الشفيف ذلك الحنان. وتلك الرحمة. وذاك الرضى. وهذا الشجى: تنسرب كلها من خلال النظم اللطيف العبارة، الرقيق اللفظ.

وقد جعل الله تعالى الإطار من الضحى الرائق، ومن الليل الساجي. أصفى آنين من آونة الليل والنهار. وأشرف آنين تسري فيهما التأملات، وتتصل فيها الروح بالخالق. وتحس بعبادة الكون كله لمبدعه، وتوجهه لبارئه بالتسبيح والفرح والصفاء. وصورهما في اللفظ المناسب. فالليل هو ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝﴾، لا الليل على إطلاقه بوحشته وظلامه. الليل الساجي الذي يرقُ ويسكن ويصفو، وتغشاه سحابة رقيقة من الشجى الشفيف، والتأمل الوديع، كجو اليتيم والعيلة، ثم ينكشف ويجارى مع الضحى الرائق الصافي .. فتلتئم ألوان الصورة مع ألوان الإطار، ويتم التناسق والاتساق. إن هذا الإبداع في كمال ليدل على الصنعة- صنعة الله التي لا تماثلها صنعة، ولا يتلبس بها تقليد!"^(٣).

ثانياً: المقسم عليه ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝﴾ :

إن جواب القسم هو قوله تعالى: ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ ۝﴾ "أي: ما تركك منذ اعتنى بك، ولا أهملك منذ رباك ورعاك، بل لم يزل يربيك أحسن تربية، ويعليك درجة بعد درجة"^(٤).
أما قوله: ﴿ وَمَا قَلَىٰ ۝﴾ أي: وما أبغضك^(٥).

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٣٩٤.

(٢) المحرر الوجيز ١٥/٤٨٦.

(٣) في ظلال القرآن ٦/٣٩٢٦ بتصرف.

(٤) تيسير الكريم الرحمن ٩٢٨.

(٥) تفسير القرآن العظيم ٨/٤٢٥.

"إن الوحي ولقاء جبريل والاتصال بالله، كانت هي: زاد الرسول صلى الله عليه وسلم في مشقة الطريق، وسقيه في هجير الجحود، وروحه في لأواء التكذيب، وكان صلى الله عليه وسلم يحيا بها في هذه الهاجرة المحرقة التي يعانيتها في النفوس النافرة الشاردة العصية العنيدة، ويعانيتها في المكر والكيد والأذى المصوب على الدعوة؛ على الإيمان، وعلى الهدى من طاعة المشركين .

فلما فتر الوحي انقطع عنه الزاد، وانحبس عنه ينبوع، واستوحش قلبه من الحبيب، وبقي للهاجرة وحده بغير ما اعتاد من صلة الحبيب الودود، وهو أمر أشد من الاحتمال من جميع الوجوه، وخصوصاً أنه في بداية أمر الدعوة"^(١).

ثالثاً: الحكمة من فتور الوحي:

تحدث علماء السيرة قديماً وحديثاً عن فترة الوحي، فقال ابن حجر: "وفتور الوحي عبارة عن تأخير مدة من الزمان، وكان ذلك ليُذهِبَ ما كان صلى الله عليه وسلم وجده من الروع، وليحصل له التشوق إلى العود"^(٢).

فعن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما قال وهو يحدث- أي بحديث النبي صلى الله عليه وسلم- عن فترة الوحي: (بينما أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصري، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فرعبت منه، فرجعت فقلت: زملوني فأنزل الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الْمَدْيَنُ ۝١ قُرْآنٌ ذَرُّ ۝٢ وَرَبِّكَ فَكَبِيرٌ ۝٣ وَيَأْتِيكَ فَطَهْرٌ ۝٤ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝٥﴾ [المدثر: ١-٥] فحمى الوحي وتتابع"^(٣).

قال المباركفوري: أما مدة فترة الوحي فاختلّفوا فيها على عدة أقوال، والصحيح أنها كانت أياماً، وقد روى ابن سعد عن ابن عباس رضي الله عنهما ما يفيد ذلك^(٤)، وأما ما اشتهر من أنها دامت ثلاث سنين أو سنتين ونصف فليس بصحيح^(٥)، وقد بقي صلى الله عليه وسلم في فترة الانقطاع حزيناً كثيراً تعثر به الحيرة والدهشة^(٦)، وأما ما يقال أن ذلك جعله يغدو ليرتدى من شواهد الجبال، وأن جبريل عليه السلام كان يظهر له في كل مرة ويبشره بأنه رسول الله فمرسل ضعيف، كما أنه يتنافى مع عصمة النبي صلى الله عليه وسلم"^(٧).

(١) في ظلال القرآن ٦/٣٩٢٥

(٢) فتح الباري ١/٣٦.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب بدء الوحي باب ٣ ح (٤). ومسلم كتاب الإيمان باب بدء الوحي (١٦١).

(٤) أخرجه الطبري ٤٨٦/٢٤ بلفظ (أبطأ عنه جبريل أياماً) ...

(٥) وانظر: فتح الباري ٨/٧١٠.

(٦) الرحيق المختوم ص ٧٩-٨٠.

(٧) الروض الأنف للسهيلي ٢/٤٣٣-٤٣٤.

المطلب الثاني

بشرى ووعد من الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم

قال تعالى: ﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۖ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ ۖ﴾ (٥)

أما البشري: ﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۖ﴾ أي: "كل حالة متأخرة من أحوالك، فإن لها الفضل على الحالة السابقة"^(١).

والمراد أن "الدار الآخرة: خير لك من هذه الدار. ولهذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أزهد الناس في الدنيا، وأعظمهم لها إطراحاً، كما هو معلوم من سيرته. ولما خيّر عليه السلام في آخر عمره بين الخلد في الدنيا إلى آخرها ثم الجنة، وبين الصيرورة إلى الله عز وجل، اختار ما عند الله على هذه الدنيا الدنية"^(٢).

فعن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جلس على المنبر فقال: (إن عبداً خيره الله بين أن يؤتاه من زهرة الدنيا ما شاء، وبين ما عنده، فاختر ما عنده)، فبكى أبو بكر رضى الله عنه وقال: فدينك بآبائنا وأمهاتنا. فعجبنا له!! وقال الناس انظروا إلى هذا الشيخ، يخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عبد خيره الله بين أن يؤتاه من زهرة الدنيا وبين ما عنده وهو يقول فدينك بآبائنا وأمهاتنا. فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو المخير، وكان أبو بكر هو أعلمنا به^(٣).

وأما الوعد: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۖ﴾ أي: "لا تسأل عن حاله في الآخرة من تفاصيل

الإكرام وأنواع الإنعام. فهذا أمر لا يمكن التعبير عنه بغير هذه العبارة الجامعة الشاملة"^(٤). ويشمل أيضاً: "أن يعطيه في الدار الآخرة حتى يرضيه في أمته، وفيما أعدّه له من الكرامة، ومن جملته نهر الكوثر. وقيل: من رضاء محمد صلى الله عليه وسلم ألا يدخل أحد من أهل بيته الذين ماتوا على سنته وهدية النار، وقيل معنى العطاء: الشفاعة"^(٥).

(١) تيسير الكريم الرحمن ٩٢٨.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ٩٢٨.

(٣) أخرجه البخاري كتاب مناقب الأنصار باب هجرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلى المدينة (٣٩٠٤)، ومسلم كتاب فضائل الصحابة باب فضائل أبي بكر الصديق ٢٣٨٢.

(٤) تيسير الكريم الرحمن ٩٢٨.

(٥) انظر هذه الأقوال في تفسير القرآن العظيم ٤٢٦/٨ بتصرف واختصار.

المطلب الثالث

صور رحمة الله تعالى ورعايته لنبيه صلى الله عليه وسلم

قال تعالى: ﴿الَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۖ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۖ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾

يمضي سياق السورة يُذكر الرسول صلى الله عليه وسلم ما كان من شأن ربه معه منذ أول الطريق. ليستحضر في خاطره جميل صنع ربه به، ومودته له، وفيضه عليه، ويستمتع باستعادة مواقع الرحمة والود والإيناس الإلهي وذلك من خلال الصور التالية:

الصورة الأولى: ﴿الَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾

"وذلك أن أباه تُوفِّي وهو حَمْلٌ في بطن أمه، وقيل: بعد أن ولد عليه السلام، ثم توفيت أمه آمنة بنت وهب وله من العمر ست سنين. ثم كان في كفالة جده عبد المطلب، إلى أن توفي وله من العمر ثمان سنين، فكفله عمه أبو طالب. ثم لم يزل يحوطه وينصره ويرفع من قدره ويوقِّره، ويكف عنه أذى قومه بعد أن ابتعثه الله على رأس أربعين سنة من عمره، هذا وأبو طالب على دين قومه من عبادة الأوثان، وكل ذلك بقدر الله وحسن تدبيره، إلى أن تُوفي أبو طالب قبل الهجرة بقليل، فأقدم عليه سفهاء قريش وجُهاَّهم، فاختر الله له الهجرة من بين أظهرهم إلى بلد الأنصار من الأوس والخزرج، كما أجرى الله سنته على الوجه الأتم والأكمل. فلما وصل إليهم آووه ونصروه وأحاطوه وقاتلوا بين يديه رضي الله عنهم أجمعين، وكل هذا من حفظ الله له وكلاءته وعنايته به"^(١).

الصورة الثانية: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾

قال ابن كثير: "هذا مثل قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾^(٥٢) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ" [الشورى: ٥٢-٥٣].

أي: وجدك لا تدري ما الكتاب ولا الإيمان، فعلمك ما لم تكن تعلم، ووقفك لأحسن الأعمال والأخلاق"^(٢).

"ولقد نشأت في جاهلية مضطربة التصورات والعقائد، منحرفة السلوك والأوضاع، فلم تطمئن روحك إليها، ولكنك لم تكن تجد لك طريقاً واضحاً مطمئناً، لا فيما عند الجاهلية ولا فيما عند أتباع

(١) تفسير القرآن العظيم ٤٢٦/٨.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ٩٢٨.

موسى وعيسى عليهما السلام الذين حرفوا وبدلوا وانحرفوا وتاهوا، ثم هداك الله بالأمر الذي أوحى به إليك، وبالمنهج الذي يصلك به.

والهداية من حيرة العقيدة وضلال الشيعاب فيها هي: المنة الكبرى، التي لا تعدلها منة؛ وهي الراحة والطمأنينة من القلق الذي لا يعدله قلق؛ ومن التعب الذي لا يعدله تعب، ولعلها كانت بسبب مما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعانیه في هذه الفترة، من انقطاع الوحي وشماتة المشركين ووحشة الحبيب من الحبيب. فجاءت هذه الآيات تُذكِّره وتطمئنه على أن ربه لن يتركه بلا وحي في التيه وهو لم يتركه من قبل في الحيرة والتهيه!"^(١).

قال شيخ الإسلام رحمه الله: "فإن الله سبحانه وتعالى هدى نبيه بما أوحاه إليه وعلمه ما لم يكن يعلم وأمره بسؤال الزيادة من العلم بقوله: ﴿رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] وهذا يقتضي أنه كان عالماً، وأنه أمر بطلب المزيد من العلم، ولذلك أمر هو والمؤمنون بطلب الهداية في قوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]، وقد قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، فمن يهدي الخلق كيف يكون حائراً والله قد ذم الحيرة في القرآن في قوله: ﴿قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٧١].

وفي الجملة فالحيرة من جنس الجهل والضلال ومحمد صلى الله عليه وسلم أكمل الخلق علماً بالله وبأمره، وأكمل الخلق اهتداءً في نفسه، وأهدى لغيره، وأبعد الخلق عن الضلال والجهل قال تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَاضٍ صَاحِبِكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: ١-٤]"^(٢).

الصورة الثالثة: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ العائل: الذي لا مال له ﴿فَأَغْنَىٰ﴾ أي: "بما فتح الله عليك

من البلدان، التي جُيِّتْ لك أموالها وخراجها"^(٣).

وقيل: أي "فأغناك بخديجة رضي الله عنها. وقيل: فرضاك بما أعطاك من الرزق، وقيل: قنعك

بالرزق، وقيل: ووجدك فقير النفس، فأغنى قلبك، وقيل: وجدك فقيراً من الحجج والبراهين، فأغناك بها"^(٤).

(١) في ظلال القرآن ٦/٣٩٢٧

(٢) الفتاوى الكبرى ٥/٥٧.

(٣) تيسير الكريم الرحمن ٩٢٨ باختصار..

(٤) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/٩٩-١٠٠ مختصراً.

ويدخل في ذلك نشأته صلى الله عليه وسلم في مكة في قبيلة قريش التي كانت تتاجر في الشتاء والصيف، وكانت مشهورة بذلك، وكانت قائمة على أمور الحج، وهذا أعطاها مركزاً تجارياً عظيماً في المنطقة، بينما هي في مكان يصعب العيش فيه، كما في قوله تعالى حكاية عن دعاء إبراهيم عليه السلام:

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْنِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [إبراهيم: ٣٧].

فإبراهيم عليه السلام دعا لهذه المنطقة أن تكون منطقة مليئة بالثمرات فاستجاب الله دعاء إبراهيم

عليه السلام فقال تعالى ممتناً عليهم: ﴿وَقَالُوا إِن نَّبِيعَ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُنْخِطِفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْلَمَ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجَبِّي إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [القصص: ٥٧].

وقال تعالى: ﴿لَا يَلْفُ فُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِيْلَهُمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ

﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾﴾.

فنشأة النبي صلى الله عليه وسلم في هذه المنطقة الفقيرة الخالية من الثمرات، ثم بتيسير الله وفضل من الله أصبحت هذه المنطقة من أغنى المناطق وأوفرها رزقاً، كل ذلك فضل من الله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم لما هاجر إلى المدينة المنورة لم تكن أقل من مكة في التجارة والخير بل كانت مركزاً تجارياً، وبه مجموعة كبيرة من التجارات كما في مكة.

وكذلك أنعم الله عليه بالغنى بالأولاد والذرية، والصحة والأخلاق الرفيعة، والسُّمعة الحسنة والجاه الرفيع، وهذه المعاني كلها داخلية في الآية ولا شك، لكنها على سبيل المثال لا الحصر. فهذه دعوة الله تعالى ييسر لها السبل والطرق والأشخاص والغنى بجميع أشكاله؛ غنى في الرزق، وفي النفس، وفي الأسرة وفي الصحة، والعافية، وفي الأخلاق الكريمة.

وهذا كله لكي نقوم بالدعوة إلى الله حق القيام، فما على الدعاة إلا استغلال هذا الغنى المتاح، والآب ينظروا إلى العقبات والمشكلات؛ بل ينظروا إلى الحلول والإمكانات المتاحة.

المطلب الرابع

واجب النبي صلى الله عليه وسلم تجاه هذه النعم

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾.

هذه ثلاث واجبات مقابل النعم الثلاث، فالذي أزال عنك هذه النقائص، سيزيل عنك كل نقص، والذي أوصلك إلى الغنى، وآواك ونصرك وهداك، قابل نعمته بالشكران بفعل الواجبات الثلاث:

الواجب الأول: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾: وهذا يقابل نعمته في قوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾

"أي: كما كنت يتيمًا فأواك الله؛ فلا تقهر اليتيم، أي: لا تذله وتنهره وتنهه، ولكن أحسن إليه، وتلطف به. وقيل: كن لليتيم كالأب الرحيم"^(١)، "ولا تسيء معاملة اليتيم، ولا يضق صدرك عليه، ولا تنهره. بل أكرمه، وأعطه ما تيسر، واصنع به كما تحب أن يصنع بولدك من بعدك"^(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (أنا وكافل اليتيم له أو لغيره كهاتين). وأشار بالسبابة والوسطى^(٣).

الواجب الثاني: ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾: وهذا يقابل نعمته في قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾

﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ "أي: وكما كنت ضالًّا فهداك الله، فلا تنهر السائل في العلم المسترشد. وقيل: فلا تكن جبارًا، ولا متكبرًا، ولا فحاشًا، ولا فظًّا على الضعفاء من عباد الله. وقيل: يعني ردَّ المسكين برحمة ولين"^(٤).

"وهذا يدخل فيه السائل للمال، والسائل للعلم، ولهذا كان المعلم مأمورًا بحسن الخلق مع المتعلم، ومباشرته بالإكرام والتحنن عليه، فإن في ذلك معونة له على مقصده، وإكرامًا لمن كان يسعى في نفع العباد والبلاد"^(٥).

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كذلك: فعن معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه قال: بينا أنا أصلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ عطس رجل من القوم فقلت: يرحمك الله. فرماني القوم بأبصارهم. فقلت: واثكل أميأه!! ما شأنكم تنظرون إلي. فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم،

(١) تفسير القرآن العظيم ٤٢٧/٨.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ٩٢٨.

(٣) أخرجه مسلم كتاب الزهد والرفائق باب الإحسان إلى الأرملة واليتيم والمسكين (٢٩٨٣).

(٤) تفسير القرآن العظيم ٤٢٧/٨.

(٥) تيسير الكريم الرحمن ٩٢٨.

فلما رأيتهم يصمتونني لكني سكت، فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فبأبي هو وأمي ما رأيت معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه فوالله ما كهرني ولا ضربني ولا شتمني، قال: (إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن)^(١).

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوصي بطلاب العلم: (سيأتيكم أقوام يطلبون العلم، فإذا رأيتموهم فقولوا لهم: مرحباً بوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأقنوهم^(٢))^(٣).

وعن صفوان بن عسال المرادي رضي الله عنه قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متكئ في المسجد على برد له، فقلت له: يا رسول الله إني جئت أطلب العلم. فقال: مرحباً بطالب العلم، إن طالب العلم لتحفة الملائكة وتظله بأجنحتها ثم يركب بعضه بعضاً حتى يبلغوا السماء الدنيا من حبهم لما يطلب فما جئت تطلب؟ قال صفوان: يا رسول الله لا نزال نساfer بين مكة والمدينة فأفتنا عن المسح على الخفين؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ثلاثة أيام للمسافر ويوم وليلة للمقيم)^(٤).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: إن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (يأتيكم رجال من قبل المشرق يتعلمون، فإذا جاءوكم فاستوصوا بهم خيراً)، قال الراوي: وكان أبو سعيد إذا رآنا قال: (مرحباً بوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم) وفي لفظ: قال الراوي - وهو أبو هارون العبدي - : (كنا نأتي أبا سعيد فيقول: مرحباً بوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن الناس لكم تبع، وإن رجلاً يأتونكم من أقطار الأرض يتفقهون في الدين، فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيراً)^(٥).

هذا في مجال السؤال والتعليم أما في مجال المعاملات فحدث ولا حرج، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعائشة رضي الله عنها: (يا عائشة لا تردى المسكين ولو بشق تمر، يا عائشة أحيي المساكين وقربهم فإن الله يقربك يوم القيامة)^(٦).

(١) أخرجه مسلم كتاب المساجد باب تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحته (٥٣٧) مطولاً .

(٢) أقنوهم : أي علموهم، انظر : تحفة الأحوذى ٣٤٣/٧، وقال السيوطي: أي علموهم واجعلوا لهم قنية من العلم يستغنون بها إذا احتاجوا إليه كذا في المجمع القنية بالكسر والضم ما اكتسبه وحزنه لحاجته، انظر شرح سنن ابن ماجه : ٢٢/١.

(٣) أخرجه ابن ماجه باب الوصية بطلبة العلم (٢٤٧) وحسنه الألباني انظر الصحيحة ٢٨٠ وصحيح سنن ابن ماجه (٢٠١).

(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٥٤/٨ ح (٧٣٤٧) وحسنه في صحيح الترغيب والترهيب (٧١). وانظر الصحيحة (٣٣٩٧).

(٥) أخرجه ابن حبان ٦٩/١٥ (٦٦٧٧) قال شعيب الأرنؤوط: رجاله ثقات رجال الصحيحين إلا أنه مرسل، وحلية الأولياء ٢٥٣/٩.

(٦) أخرجه الترمذي كتاب الزهد باب ما جاء أن فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم (٢٥٢٦)، قال الألباني: حسن لغيره، انظر: صحيح وضعيف الترغيب والترهيب برقم (٣١٩٢).

الواجب الثالث: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾^(١١) ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾^(٧) ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ أي: "أثن على الله بها، وخصَّصها بالذكر إن كان هناك مصلحة. وإلا فحدث بنعم الله على الإطلاق، فإن التحدث بنعمة الله، داع لشكرها، وموجب لتحبيب القلوب إلى من أنعم بها، فإن القلوب مجبولة على محبة المحسن"^(١).
وقيل: "أي أنشر ما أنعم الله عليك بالشكر والثناء. والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، والحكم عام له ولغيره"^(٢).

وعن الحسن بن علي رضي الله عنهما قال: "إذا أصبت خيراً، أو عملت خيراً، فحدث به الثقة من إخوانك"^(٣).

وقال الحسن البصري: "أكثرُوا من ذكر هذه النعم، فإن ذكرها شكر"^(٤)، "وقد أمر الله تعالى نبيه أن يحدث بنعمة ربه، والله تعالى يحب من عبده أن يرى عليه أثر نعمته، فإن ذلك شكرها بلسان الحال"^(٥).
قال ابن القيم: "وفي هذا التحديث المأمور به قولان، أحدهما: أنه ذكر النعمة والإخبار بها؛ وقوله: أنعم الله عليّ بكذا وكذا، قال مقاتل: يعني اشكر ما ذكر من النعم عليك في هذه السورة: من جبر اليتيم والهدى بعد الضلال والإغناء بعد العيلة، والتحدث بنعمة الله شكر كما في حديث جابر مرفوعاً: (من صنع إليه معروف فليجز به فإن لم يجد ما يجزي به فليثن فإنه إذا أثنى عليه فقد شكره وإن كتبه فقد كفره)^(٦)... والقول الثاني: أن التحدث بالنعمة المأمور به في هذه الآية: هو الدعوة إلى الله وتبليغ رسالته وتعليم الأمة"^(٧).

قال ابن عثيمين: "لكن تحدث بها إظهاراً للنعمة وشكراً للمنع، لا افتخاراً بها على الخلق؛ لأنك إذا فعلت ذلك افتخاراً على الخلق كان هذا مذموماً. أما إذا قلت أو إذا ذكرت نعمة الله عليك تحدثاً بالنعمة، وشكراً للمنع فهذا مما أمر الله به"^(٨).

(١) تيسير الكريم الرحمن ٩٢٨.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٠٢/٢٠.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٤٢٤/١٢ من طريقين، و الطيوريات ٩٠/٥ (٤٣٤)، وانظر الدر المنثور ٥٤٥/٨، وذكره الرازي في تفسيره: ٢٢١/٣١ ثم قال: "إلا أن هذا إنما يحسن إذا لم يتضمن رياء، ووطن أن غيره يقتدي به".

(٤) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ١٠٢/٤ (٤٤٢١)، وابن المبارك في الزهد ٥٠٣ (١٤٣٤)، وابن أبي الدنيا في الشكر ٢١ (٣٣)، وذكر السيوطي آثاراً بمعناه أيضاً في الدر المنثور ٥٤٥/٨-٥٤٧.

(٥) عدة الصابرين ٩٨.

(٦) صحيح الأدب المفرد باب من صنع إليه معروف فليكافئه ح(٢١٥).

(٧) مدارج السالكين ٢٤٨/٢.

(٨) تفسير جزء النبأ لابن عثيمين (٢٤٤).

ويمكن أن يستنبط من هذه الآية جواز إخبار الرجل عن جوانب الخير في نفسه إن لم يكن فخرًا أو كبيرًا والتحدث بنعمة الله تعالى التي منَّ بها على العبد، فلقد أكرم الله تعالى كعب بن مالك وصاحبيه رضي الله عنهم بالتوبة عند تخلفهم عن غزوة تبوك^(١).

فإخبار كعب رضي الله عنه عن هذه التوبة وإتمام نعمة الله عليهم فرحةً وتحدثًا بنعمة الله، كل هذا جائز، وإن كانت تزكية النفس منهيًا عنها فإنها في هذا الموطن جائزة.

وتجوز حين يريد الرجل أن يلفت النظر إلى نِعَمِ الله التي أنعم بها عليه ليستفيد منه الآخرون، فلقد قال

يوسف عليه السلام عن نفسه أنه ﴿حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ يذكر بذلك نعمة الله عليه بالعلم والحفظ، ولكي

يستغل هذه النعمة، ويشترك بها في خدمة مجتمعه وأُمَّته: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾

﴿يوسف: ٥٥﴾، فلو لم يتحدث يوسف عليه السلام بنعمة الله عليه من الحفظ والعلم لاستولى على

خزائن مصر من ليس أهل لها وحصلت بذلك الفوضى الاقتصادية . والله تعالى أعلم.

(١) انظر القصة في: صحيح البخاري كتاب المغازي باب حديث كعب بن مالك (٤٤١٨)، ومسلم كتاب التوبة باب حديث توبة

كعب بن مالك وصاحبيه (٢٧٦٩)

تفسير سورة النثر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴿٨﴾ ﴾

المبحث الأول

مقدمات حول السورة

أولاً: تسميتها ونزولها ومناسبتها:

سميت في معظم التفاسير وفي صحيح البخاري وجامع الترمذي: سورة ألم نشرح^(١). وسميت في بعض التفاسير: سورة الشرح^(٢) وفي بعض التفاسير تسميتها: سورة الانشراح^(٣).

نزولها:

مكية في قول الجميع^(٤). وآياتها: ٨ آيات، وكلماهما: ٢٦ كلمة، وحروفها: ١٥٠ حرفاً^(٥).

مناسبتها لما قبلها

"هذه السورة متممة لسورة « الضحى » قبلها ، فكلاهما عرض لما أنعم الله به على النبي ، وتذكير له بهذه النعم ، وتوجيه له إلى ما ينبغي أن يؤديه لها من حقّ عليه .. وهكذا شأن كل نعمة ينعم الله بها على الإنسان ، لا تتم إلا بالشكر للمنعم ، وبالإنفاق منها على كل ذي حاجة إليها"^(٦).

ثانياً: موضوعها :

"هذه السورة تتحدث عن:

١ - مكانة الرسول صلى الله عليه وسلم الجليلة ومقامه الرفيع عند الله تعالى.

٢ - نعم الله العديدة على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

(١) الدر المنثور ١٥/٤٩٥، جامع البيان ٢٤/٤٩٢، الجامع لأحكام القرآن ١٥/١٠٤، تفسير القرآن العظيم ٨/٤٢٩.

(٢) التحرير والتنوير ٣٠/٤٠٧، معالم التنزيل ٨/٤٦٣، روح المعاني ٣٠/١٦٥، المحرر الوجيز ١٥/٤٩٤.

(٣) تفسير حقي ٥/١٩٣، زاد المسير ٩/١٦٢.

(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٢٠/١٠٤، والمحرر الوجيز ١٥/٤٩٤، ولم يذكرها صاحب الإتيقان في السور المختلف فيها، انظر الإتيقان ١/٣٠.

(٥) انظر: التفسير القرآني للقرآن ٣/٧٨.

(٦) التفسير القرآني للقرآن ٣/٧٨.

٣ - دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم وهو بمكة يقاسي مع المؤمنين الشدائد والأهوال من الكفرة المكذبين، فأنسته بقرب الفرج، وقرب النصر على الأعداء.

٤ - تذكير المصطفى صلى الله عليه وسلم بأسباب انشراح الصدر. من التفرغ لعبادة الله تعالى، وتبليغ دعوته شكراً لله على ما أولاه من النعم الجليلة^(١).

ثالثاً: المعنى الإجمالي للسورة:

يتمن الله على نبيه صلى الله عليه وسلم بعدد من النعم بقوله: ألم نوسع -أيها النبي- لك صدرك لشرائع الدين، والدعوة إلى الله، والاتصاف بمكارم الأخلاق، وحططنا عنك بذلك حملك الذي أثقل ظهرك، وجعلناك -بما أنعمنا عليك من المكارم- في منزلة رفيعة عالية؟ وبناء على ذلك فلا يثنيك أذى أعدائك عن نشر الرسالة؛ فإن مع الضيق فرجاً، إن مع الضيق فرجاً، وإذا فرغت من أمور الدنيا وأشغالها فجدّ في العبادة، وإلى ربك وحده فارغب فيما عنده.

(١) إيجاز البيان في سور القرآن ص ٢٠٣.

المبحث الثاني وقفات مع السورة المطلب الأول

تعدد نعم الله تعالى على نبينا محمد ورفع مكانته في العالمين

قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾

هذه الآيات "تشير بأن هناك ضائقة كانت في نفس الرسول صلى الله عليه وسلم لأمر من أمور هذه الدعوة التي كَلَّفَهَا ، ومن العقبات الوعرة في طريقها؛ ومن الكيد والمكر المضروب حولها . . تُوحى بأن صدره صلى الله عليه وسلم كان مثقلاً بهموم هذه الدعوة الثقيلة، وأنه كان يحس العبء فادحاً على كاهله، وأنه كان في حاجة إلى عون وزاد وورصيد . .

ثم كانت هذه المناجاة الحلوة، وهذا الحديث الودود"^(١) بذكر عدد من النعم والمنن التي أعطها الله تعالى لحبيبه صلى الله عليه وسلم، ومنها:

أولاً ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾﴾: أي: نوسعه لشرائع الدين والدعوة إلى الله، والاتصاف بمكارم الأخلاق، والإقبال على الآخرة، وتسهيل الخيرات؛ فلم يكن ضيقاً حرجاً، لا يكاد ينقاد لخير، ولا تكاد تجده منبسطاً"^(٢) كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ﴿١٢٥﴾﴾ [الأنعام: ١٢٥].

وابتدأت الآية بـ " الاستفهام التقريري، ومقصوده التذكير لأجل أن يراعي هذه المنة عندما يخالجه ضيق صدر مما يلقاه من أذى قوم يريد صلاحهم وإنقاذهم من النار ورفع شأنهم بين الأمم، ليدوم على دعوته العظيمة نشيطاً غير ذي أسف ولا كمد، كما قال تعالى: ﴿فَلَا نَذْهَبْ نَفْسَكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾﴾ [فاطر: ٨]، والصدر المراد به الإحساس الداخلي الباطني الجامع لمعنى العقل والإدراك"^(٣).

قال ابن كثير: "وكما شرح الله صدره جعل شرعه فسيحاً واسعاً سمحاً سهلاً لا حرج فيه ولا ضيق"^(٤).

(١) في ظلال القرآن ٦/٣٩٢٩.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ٩٢٩.

(٣) التحرير والتنوير ٤٠٨/٣٠ باختصار وزيادة.

(٤) تفسير القرآن العظيم ٨/٤٢٩.

وقد شرح الله صدر نبيه صلى الله عليه وسلم في الحس والواقع أيضاً ، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن مالك بن صعصعة رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (بيننا أنا عند البيت بين النائم واليقظان إذ سمعت قائلاً يقول أحد الثلاثة بين الرجلين. فَأُتِيتُ فَأَنْطَلِقُ بِي فَأُتِيتُ بِطُسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ فِيهَا مِنْ مَاءٍ زَمْزَمٍ، فَشَرَحَ صَدْرِي إِلَى كَذَا وَكَذَا). قال قتادة: فقلت للذي معي: ما يعني؟ قال إلى أسفل بطنه (فاستخرج قلبي فغسل بماء زمزم، ثم أعيد مكانه ثم حُشِيَ إيماناً^(١)).

وعلى هذا فشرح صدر النبي صلى الله عليه وسلم يشتمل على ثلاثة أمور:

١ - تهيئته لحمل الرسالة ونشرها في العالمين.

٢ - تشجيعه على المضي في الدعوة إلى الله وإظهار الحق ولو كره المشركون .

٣ - تنظيف صدره من غوائل الدنيا وشهواتها وإبداله مكانها بالعلم والإيمان .

ثانياً ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ ﴾ : "أي حططنا عنك ذنبك، وهذه الآية مثل قوله

تعالى: ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيَتَبَّعْ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ ﴾ [الفتح: ٢] "٢".

"الوزر هو: الثقل الذي كان على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحيرته قبل البعثة إذ كان يرى

سوء ما قريش فيه من عبادة الأصنام، وكان لم يتجه له من الله أمر واضح، فوضع الله تعالى عنه ذلك الثقل بنبوته وإرساله. وقيل: خففنا عنك أثقال النبوة، وأعناك على الناس"^(٣).

"وقوله: ﴿ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ ﴾ أي أثقله حتى سمع قيضه، أي صوته. وأهل اللغة يقولون: أنقض الحمل

ظهر الناقة: إذا سمعت له صريراً من شدة الحمل.

فـ ﴿ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ ﴾ أي: أثقله وأوهنه، وإنما وصفت ذنوب الأنبياء بهذا الثقل، مع كونها

مغفورة لشدة اهتمامهم بها وندمهم منها وتحسرهم عليها.

قال الحسين ابن الفضل: يعني الخطأ والسهو. وقيل: كان في الابتداء يثقل عليه الوحي.

وقيل: عصمناك عن احتمال الوزر، وحفظناك قبل النبوة في الأربعين من الأدناس، حتى نزل عليك

الوحي وأنت مطهر من الأدناس"^(٤).

(١) أخرجه مسلم كتاب الإيمان باب الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم (١٦٤).

(٢) انظر: جامع البيان ٢٤/٤٩٣-٤٩٤، والجامع لأحكام القرآن ٢٠/١٠٥-١٠٦ بتصرف واختصار.

(٣) المحرر الوجيز ١/٤٩٧.

(٤) انظر: جامع البيان ٢٤/٤٩٣-٤٩٤، والجامع لأحكام القرآن ٢٠/١٠٥-١٠٦ بتصرف واختصار.

ثالثاً: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾: "أي: أعلينا قدرك، وجعلنا لك الثناء الحسن العالي الذي لم يصل إليه أحد من الخلق، فلا يذكر الله عز وجل - غالباً - إلا ويذكر معه رسوله صلى الله عليه وسلم، كما في شهادة الدخول في الإسلام، وفي الأذان، والإقامة، والخطب، وغير ذلك من الأمور التي أعلی الله بها ذكر رسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

وله في قلوب أمته من المحبة والإجلال والتعظيم ما ليس لأحد غيره، بعد الله تعالى، فجزاه الله عن أمته أفضل ما جازى نبياً عن أمته"^(١).

"ورفع الذكر يكون بإلهام الناس لأن يذكروه بخير، وذلك بإيجاد أسباب تلك السمعة حتى يتحدث بها الناس، واستعير الرفع لحسن الذكر لأن الرفع جعل الشيء عالياً لا تناله جميع الأيدي ولا تدوسه الأرجل، فقد فطر صلى الله عليه وسلم على مكارم أخلاقٍ يعزُّ وجود نوعها ولم يبلغ أحدٌ شأواً ما بلغه منها حتى لقب في قومه بالأمين"^(٢).

"ورفع الذكر نعمة على الرسول صلى الله عليه وسلم، وكذلك جميلٌ حسنٌ للقائمين بأمور الناس، وخمول الذكر والاسم حسن للمنفردين للعبادة"^(٣).

وهنا نقطتان يجب التنبيه عليهما:

النقطة الأولى: مواطن الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم:

ومن المواطن التي يشرع فيها الصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم رفعة لشأنه وتذكيراً بفضله:

١ **بعد الأذان:** قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثلما يقول، ثم صلوا

علي، فإنه من صلى علي صلاة صلى الله عليه بها عشراً...)^(٤).

٢ **في التشهد الأخير وهي واجبة**^(٥): عن أبي مسعود البدرى رضي الله عنه قال: أقبل رجل حتى

جلس إلى النبي ﷺ ونحن عنده فقال: أما السلام عليك فقد عرفناه، فكيف نصلي عليك إذا نحن صلينا

صلاتنا صلى الله عليك؟ قال: (قولوا: اللهم صل على محمد، وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم

وعلى آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم، في العالمين إنك حميد

مجيد)^(٦).

(١) تيسير الكريم الرحمن ٩٢٩ بتصرف.

(٢) التحرير والتنوير ٤١٢/٣٠.

(٣) المحرر الوجيز ٤٩٨/١٥.

(٤) أخرجه مسلم كتاب الأذان باب استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه ثم يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم (٣٨٤).

(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم وترجيحه الوجوب وأدلة ذلك ٤٦٠/٦.

(٦) أخرجه مسلم كتاب الصلاة باب الصلاة على النبي بعد التشهد (٤٠٧).

٣ في صلاة الجنائز بعد التكبير الثانية: عن أبي أمامة بن سهل أنه أخبره رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أن السنة في صلاة الجنائز أن يكبر الإمام ثم يقرأ بفاتحة الكتاب بعد التكبير الأولى سرّاً ثم يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم...^(١).

٤ في الدعاء أوله وآخره: قال أبو سليمان الداراني "من أراد أن يسأل الله حاجة فليبدأ بالصلاة على النبي ﷺ، ثم يسأل الله حاجته، ثم يختم بالصلاة على النبي ﷺ، فإن الله يقبل الصلاتين، وهو أكرم من أن يرد ما بينهما"^(٢).

٥ عند دخول المسجد والخروج منه: لقول النبي ﷺ (إذا دخل أحدكم المسجد فليسلم على النبي ﷺ ثم ليقل: اللهم افتح لي أبواب رحمتك وإذا خرج فليسلم على النبي ﷺ وليقل اللهم أجرني من الشيطان)^(٣).

٦ في يوم وليلة الجمعة: فقد ورد أنه ﷺ قال: (من أفضل أيامكم يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه قبض، وفيه النفخة، وفيه الصعقة، فأكثرُوا علي من الصلاة فيه، فإن صلاتكم معروضة علي)^(٤).

٧ عند السلام عليه ﷺ: سواء عند زيارته، أو من أي مكان كان الإنسان، عن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: (إن لله ملائكة سياحين في الأرض يبلغوني من أمتي السلام)^(٥). وقال: (وصلّوا عليّ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم)^(٦).

٨ عند ذكره ﷺ: قال رسول الله ﷺ: (البحيل من ذكرت عنده ثم لم يصل علي)^(٧). فعلى هذا يجب علينا أن نداوم على الصلاة على النبي ﷺ في جميع أحوالنا، وكلما ذكر سواء باللسان أو بالكتابة ونحن نقرأ أو نكتب، ولا يفتر لساننا عن الصلاة عليه على كل حال^(٨).

النقطة الثانية: ومن مظاهر رفع ذكره صلى الله عليه وسلم غير ما سبق:

١ وجوب احترام صحابته رضي الله عنهم.

(١) أخرجه البيهقي في السنن ٣٩/٤، المستدرک علی الصحیحین ٣٧٥/٢. وصححه الألباني في الإرواء ١٨٠/٣.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٢٣٥/١٤.

(٣) صحيح سنن ابن ماجه كتاب المساجد باب الدعاء عند دخول المسجد (٧٧٣).

(٤) صحيح سنن أبي داود كتاب الصلاة باب فضل يوم الجمعة وليلة الجمعة (١٠٤٧). وصحيح سنن ابن ماجه كتاب الجنائز باب ذكر وفاته ودفنه ﷺ (١٦٣٦).

(٥) أخرجه أحمد ١/٤٤١ (٣٦٦٦)، إسناده صحيح ورجاله رجال الصحيح الموسوعة الحديثية ٢٦٠/٧.

(٦) أخرجه أبو داود كتاب المناسك باب زيارة القبور (٢٠٤٢)، وأحمد ٣٦٧/٢ (٨٧٩٠). وانظر: صحيح سنن أبي داود.

(٧) أخرجه أحمد ١/٢٠١ (١٧٣٦)، إسناده قوي ورجاله رجال الصحيح الموسوعة الحديثية ٢٥٨/٣.

(٨) للاستزادة حول موضوع الصلاة على النبي ﷺ انظر: تفسير القرآن العظيم ٤٥٩/٦. وبمحت حقوق النبي صلى الله عليه وسلم وأهل بيته دراسة موضوعية من خلال سورة الأحزاب للمؤلف.

٢ وجوب احترام أزواجه وأهل بيته رضي الله عنهم.

٣ وجوب العمل بكل ما روي عنه ، والدفاع عنه وعن سنته: فذلك برهان على صدق محبة الله

تعالى ومحبة رسوله ﷺ قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ

رَحِيمٌ ﴿٣١﴾ [آل عمران ١٨].

٤ وجوب احترام أهل العلم وورثته صلى الله عليه وسلم المبلغون عنه^(١).

٥ عدم الإسراع بقول أو فعل قبل أن يقول فيه الله تعالى أو رسول الله ﷺ: قال تعالى: ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ

ءَامَنُوا لَا نُفَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَانفُوا لِلَّهِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ [الحجرات: ١] إشارة إلى احترام رسول الله وعدم تقديم قول أحد على قوله، وعدم إصدار الأحكام قبل معرفة قول رسول الله ﷺ فيها.

٦ التآدب مع رسول الله في الاستماع والإنصات: قال تعالى: ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ

فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ، بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ [الحجرات: ٢] قال القاضي أبو بكر بن العربي "حرمة النبي ميتاً كحرمة حياً، وكلامه المأثور بعد موته في الرفعة مثال كلامه المسموع من لفظه، فإذا قرئ كلامه وجب على كل حاضر ألا يرفع صوته عليه ولا يعرض عنه، كما كان يلزمه ذلك في مجلسه عند تلفظه به"^(٢).

٧ لا يخاطب الرسول ﷺ باسمه وكنيته كما يخاطب الناس بعضهم بعضاً: قال تعالى: ﴿ وَلَا تَجْهَرُوا

لَهُ، بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ وقال تعالى: ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ لِيُنْذِرَكُمْ كَدُّعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ﴾ [النور ٦٣]

٨- محبة الرسول ﷺ:

وهذا من أعظم رفع الذكر مع رسول الله ﷺ حيث إنه المبلغ عن الله تعالى فهو أعظم الخلق إحساناً

إلى المرء، فهو الذي أُرشدنا إلى الصراط المستقيم، طريق الجنة قال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ

مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطَ اللَّهِ الَّذِي لَهُ، مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ [الشورى ٥٢-٥٣]^(٣).

(١) للاستزادة حول الموضوع يمكن مراجعة بحث تفسير سورة الأحزاب دراسة موضوعية للمؤلف تحت موضوع: الأدب مع العلماء.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٣٠٧/١٦ .

(٣) للاستزادة حول الموضوع يمكن مراجعة بحث تفسير سورة الحجرات دراسة موضوعية للمؤلف تحت موضوع: الأدب مع النبي صلى الله عليه وسلم .

المطلب الثاني بشرى من الله تعالى

قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۖ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾:

"العُسْرُ: المشقة في تحصيل المرغوب والعمل المقصود، واليسر: سهولة تحصيل المرغوب، وعدم التعب فيه" (١).

وهذه "بشارة عظيمة، أنه كلما وجد عسر وصعوبة، فإن اليسر يقارنه ويصاحبه، حتى لو دخل العسر جحر ضب لدخل عليه اليسر" (٢)، كما قال تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧] وكما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (وإن الفرج مع الكرب، وإن مع العسر يسرا) (٣). وتعريف العسر في الآيتين يدل على أنه واحد، وتنكير اليسر يدل على تكراره، فلن يغلب عسر يسرين (٤).

وفي تعريفه بالألف واللام، الدالة على الاستغراق والعموم يدل على أن كل عسر - وإن بلغ من الصعوبة ما بلغ - فإنه في آخره التيسير ملازم له" (٥).

"وكتب أبو عبيدة بن الجراح إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما يذكر له جموعاً من الروم، وما يتخوف منهم، فكتب إليه عمر رضي الله عنه: أما بعد، فإنه مهما يتزل بعبد مؤمن من منزل شدة، يجعل الله بعده فرجاً، وإنه لن يغلب عسر يسرين، وإن الله تعالى يقول في كتابه: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]" (٦).

قال القرطبي " فهذا الفضل كله في أمور الدنيا، وإن كان - لفظه - خاصاً بالنبي صلى الله عليه وسلم فقد يدخل فيه بعض أمته - إن شاء الله تعالى -.. فهذا وعد من الله تعالى عام لجميع المؤمنين لا يخرج أحد منه، أي: إن مع العسر في الدنيا للمؤمنين يسراً في الآخرة لا محالة، وربما اجتمع يسر الدنيا ويسر الآخرة" (٧).

(١) التحرير والتنوير ٤١٥/٣٠.

(٢) هذا القول لابن مسعود انظر: جامع البيان ٤٩٦/٢٤.

(٣) مسند أحمد ٣٠٧/١ ح (٣٨٠٤)، قال: شعيب الأرنؤوط: صحيح، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٣٨٢).

(٤) هذه المقولة مروية عن عمر بن الخطاب كما سيأتي الموطأ ٤٤٦/٢.

(٥) تيسير الكريم الرحمن ص ٩٢٩.

(٦) الموطأ ٤٤٦/٢.

(٧) الجامع لأحكام القرآن ١٠٨/٢٠ مختصراً.

وقفه مع مبدأ التيسير في الإسلام:

ومن هذا أخذ الفقهاء رحمهم الله قاعدة: (المشقة تجلب التيسير) ^(١) أي: "المشقة التي تنفك عنها التكاليف الشرعية، أما المشقة التي لا تنفك عنها التكاليف الشرعية كمشقة الجهاد وألم الحدود؛ ورجم الزناة وقتل البغاة والمفسدين والجناة فلا أثر لها في جلب تيسير ولا تخفيف" ^(٢).

ودلت على هذه القاعدة آيات قرآنية، منها قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة ١٨٥]، وقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة ٢٨٦]، وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء ٢٨]، وقوله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة: ٦].

ومن الأحاديث قول المصطفى صلى الله عليه وسلم: (إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه فسددوا وقاربوا وأبشروا) ^(٣). وقوله: (لولا أن أشق على أمتي ما قعدت خلف سرية، ولوددت أني أقتل في سبيل الله ثم أحيأ ثم أقتل ثم أحيأ ثم أقتل) ^(٤)، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم) ^(٥).

وأوصى الرسول صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل وأبا موسى الأشعري رضي الله عنهما حين بعثهما إلى اليمن فقال: (يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا) ^(٦). وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قام أعرابي فبال في المسجد فتناوله الناس، فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: (دعوه وأهريقوا على بوله سجلا من ماء، أو ذنوبا من ماء، فإنما بعثتم ميسرين، ولم تبعثوا معسرين) ^(٧). وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا أمرهم، أمرهم من الأعمال بما يطيقون) ^(٨).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لولا أن أشق على أمتي

(١) هذه القاعدة مثبتة في كتب القواعد الفقهية، انظر: شرح القواعد الفقهية للزرقا/١٥٧.

(٢) شرح القواعد الفقهية للزرقا/١٥٧.

(٣) أخرجه البخاري كتاب الإيمان باب الدين يسر (٣٩).

(٤) أخرجه البخاري كتاب الإيمان باب الجهاد من الإيمان (٣٦).

(٥) أخرجه مسلم كتاب الحج باب فرض الحج مرة في العمر (١٣٣٧).

(٦) أخرجه البخاري كتاب الجهاد والسير باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب وعقوبة من عصى إمامه (٣٠٣٨)،

ومسلم كتاب الجهاد والسير باب في الأمر باليسر وترك التنفير (١٧٣٣).

(٧) أخرجه البخاري كتاب الوضوء باب صب الماء على البول في المسجد (٢٢٠).

(٨) أخرجه البخاري كتاب الإيمان باب قول النبي صلى الله عليه وسلم (أنا أعلمكم بالله...) (٢٠).

لأمرتهم بالسواك مع كل صلاة^(١)، وعن عائشة رضی الله عنها أنها قالت: "ما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أمرين إلا أخذ أيسرهما، ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه"^(٢). قال عمر بن إسحاق: "لما أدركت من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر ممن سبقني منهم؛ فما رأيت قوماً أيسر سيرة ولا أقلّ تشديداً منهم"^(٣). والأدلة التي تؤيد هذه القاعدة أكثر من أن تحصر، ولذا يقول الإمام الشافعي: "إن الأدلة على رفع الحرج في هذه الأمة بلغت مبلغ القطع"^(٤).

"المشقة التي تجلب التيسير سبعة أنواع:

- ١ - السفر وتيسيراته كثيرة.
- ٢ - المرض وتيسيراته.
- ٣ - الإكراه وهو التهديد ممن هو قادر على الإيقاع بضربٍ مبرح، أو بإتلاف نفس، أو عضوٍ، أو بحبس، أو قيد مديدين مطلقاً، أو بما هو دون ذلك لذي جاه، وبما يوجب غماً يعدم الرضا.
- ٤ - النسيان، وهو عدم تذكر الشيء عند الحاجة إليه، واتفق العلماء على أنه مسقط للعقاب.
- ٥ - الجهل، وهو عدم العلم ممن شأنه أن يعلم وهو قد يجلب التيسير.
- ٦ - العسر وعموم البلوى.
- ٧ - النقص، وفيه نوع من المشقة يتسبب عنها التخفيف، وذلك كالصغر والجنون والأنوثة"^(٥).

(١) أخرجه البخاري كتاب الجمعة باب السواك يوم الجمعة (٨٨٧)، ومسلم كتاب الطهارة باب السواك (٢٥٢).

(٢) أخرجه البخاري كتاب المناقب باب صفة النبي صلى الله عليه وسلم (٣٥٦٠). ومسلم كتاب الفضائل باب مباحثته صلى الله عليه وسلم لآتام واختياره من المباح أسهله (٢٣٢٧).

(٣) أخرجه الدارمي ٥١/١.

(٤) الموافقات ٢٣١/١.

(٥) شرح القواعد الفقهية للزرقي ١٥٧/١ - ١٦١ مختصراً، وللإستزادة من الأمثلة يمكن الرجوع للكتاب.

المطلب الثالث: ذكر مواقع التيسير وأسباب الانشراح

قال تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْجِعْ ﴿٨﴾﴾

أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين تبعاً: بشكره والقيام بواجب نعمه، وذلك بأمرين مرتبطين ببعضهما:

أولاً: متابعة العمل: قال تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ قيل في معنى هذه الآية أقوال كثيرة، ومنها:

١- "إذا تفرغت من أشغالك وأمور دنياك وأشغالها ، ولم يبق في قلبك ما يعوقه، فاجتهد في العبادة والدعاء، وقم إليها نشاطاً فارغ البال وأخلص لربك في النية والرغبة"^(١).
والنصب : أن يدأب على ما أمر به ولا يفتر^(٢).

٢- وقيل: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ﴾ من صلاتك ﴿فَانصَبْ﴾ أي بالغ في الدعاء وسله حاجتك، كما قال

تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾ [النساء: ١٠٣].

٣- وقيل: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ﴾ من الفرائض ﴿فَانصَبْ﴾ في قيام الليل، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم

مَنَسِكَكُم فَادْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: ٢٠٠].

٤- وقيل: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ﴾ من تبليغ الرسالة ﴿فَانصَبْ﴾ أي استغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات ،

كما قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾﴾
فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾﴾ [النصر: ١ - ٣]، وقوله: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩].

٥- وقيل: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ﴾ من جهاد عدوك، ﴿فَانصَبْ﴾ لعبادة ربك، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا

مَكَانَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ

بِالْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحج: ٤١].

٦- وقيل: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ﴾ من دنياك، ﴿فَانصَبْ﴾ في صلاتك، كما قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا

إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١﴾﴾ فَإِذَا

(١) تفسير القرآن العظيم ٤٣٣/٨ بتصرف .

(٢) المحرر الوجيز ٤٩٩/١ .

فُضِّيتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْنِعُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ ﴿الجمعة: ٩ - ١٠﴾.

٧- وقيل: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ﴾ من أمر الخلق، فاجتهد في عبادة الحق، كما قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الْمُرْمَلُ ﴿١﴾
﴿قُرْ أَيْلًا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نَصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ
نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَأَذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَبُّ
الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَأَهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ ﴿الزمل ١-١٠﴾^(١).
وكل هذه الأقوال تشير إلى المسارعة والإكثار من العبادة في جميع الأوقات، وأن يخرج المؤمن من
عبادة فيبادر في الدخول إلى عبادة أخرى، كما قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا
وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

وقوله صلى الله عليه وسلم: (ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع الله به الدرجات؟) قالوا:
بلى يا رسول الله. قال: (إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطى إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد
الصلاة، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط)^(٢).

ثانياً: **حسن الرجاء**: قال تعالى: ﴿وَالِإِي رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ أي: ﴿وَالِإِي رَبِّكَ﴾ وحده ﴿فَارْغَبْ﴾ فقد أمر
رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتوكل على الله عز وجل وصرف وجه الرغبات إليه لا سواه^(٣).
وقيل: "أعظم الرغبة في إجابة دعائك وقبول عباداتك، ولا تكن ممن إذا فرغوا وتفرغوا لعبوا وأعرضوا
عن ربهم وعن ذكره، فتكون من الخاسرين"^(٤).

وقد مدح الله تعالى الأنبياء بقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا
وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء: ٩٠]. قال ابن القيم رحمه الله: "الرغبة طلب وهي ثمرة الرجاء
فإنه إذا رجا الشيء طلبه والرغبة من الرجاء كالهرب من الخوف فمن رجا شيئاً طلبه ورغب فيه"^(٥)،
فالذي يقبل على الله تعالى ويرغب فيما عنده هانت عليه كل مصائب وهموم وضيق الدنيا.

(١) في هذه الأقوال انظر: جامع البيان ٢٤/٤٩٧ - ٥٠٠، والجامع لأحكام القرآن ٢٠/١٠٨ - ١٠٩ باختصار وزيادة الأدلة.

(٢) أخرجه مسلم كتاب الطهارة باب تبلغ الخلية حيث يبلغ الوضوء (٢٥١).

(٣) المحرر الوجيز ١/٥٠٠.

(٤) تيسير الكريم الرحمن ٩٢٩.

(٥) مدارج السالكين ٢/٥٥.

المطلب الرابع

ماذا بعد العبادة

المسألة الأولى: الذكر بعد العبادة:

"قيل: إن معنى قوله: فإذا فرغت من الصلاة وأكملتها، فانصب في الدعاء، وإلى ربك فارغب في سؤال مطالبك.

واستدل من قال بهذا القول، على مشروعية الدعاء والذكر عقب الصلوات المكتوبات"^(١) كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾ [النساء: ١٠٣].

وكذلك ذكر الله بعد الصيام، قال تعالى: ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْتُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ [البقرة: ١٨٥].

وكذلك بعد الحج: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٩﴾﴾ فَإِذَا قُضِيَتْ مِنْسِكَكُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴿البقرة: ٩٩-٢٠٠﴾.

"ولما كانت هذه الإفاضة، والمذكورات آخر المناسك، أمر تعالى عند الفراغ منها باستغفاره والإكثار من ذكره، فالاستغفار للخلل الواقع من العبد، في أداء عبادته وتقصيره فيها، وذكر الله شكر الله على إنعامه عليه بالتوفيق لهذه العبادة العظيمة والمنة الجسيمة.

وهكذا ينبغي للعبد، كلما فرغ من عبادة، أن يستغفر الله عن التقصير، ويشكره على التوفيق، لا كمن يرى أنه قد أكمل العبادة، ومن بها على ربه، وجعلت له محلا ومترلة رفيعة، فهذا حقيق بالملت، ورد الفعل"^(٢).

المسألة الثانية: الفرح بعد العبادة:

روي عن شريح رحمه الله أنه مر بقوم يلعبون يوم عيد، فقال ما بهذا أمر الفارغ"^(٣).

(١) تيسير الكريم الرحمن ٩٢٩.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ٩٣.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٤/١٩٣٨، وأخرجه عبد الله بن أحمد بن حنبل في زوائده على الزهد (٢٦٢).

قال القرطبي رحمه الله: " وفيه نظر، فإن الحبش كانوا يلعبون بالدرق والحراب في المسجد يوم العيد، والنبي صلى الله عليه وسلم ينظر، وجعل عائشة رضي الله عنها تنظر^(١)، ودخل أبو بكر رضي الله عنه في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم على عائشة رضي الله عنها وعندها جاريتان من جواري الأنصار تغنيان، فقال أبو بكر: أمزور الشيطان في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال: (دعهما يا أبا بكر)^(٢) (٣).

وانظر إلى صفات المؤمنين التي جمعت كثير من العبادات القلبية والبدنية فقد ختمها الله بصفة الذكر فقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنِينَ وَالْقَنِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّامِتِينَ وَالصَّامِتَاتِ وَالْحَافِظِينَ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ [الأحزاب: ٣٥].

(١) أخرج القصة البخاري في صحيحة كتاب العيدين باب الحراب والرق يوم العيد (٩٥٠)، ومسلم كتاب صلاة العيدين باب الرخصة في اللعب الذي لا معصية فيه أيام العيد (٨٩٢).

(٢) أخرج القصة البخاري في صحيحة كتاب العيدين باب الحراب والرق يوم العيد (٩٤٩)، ومسلم كتاب صلاة العيدين باب الرخصة في اللعب الذي لا معصية فيه أيام العيد (٨٩٢).

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٠٩/٢٠-١١٠.

المطلب الخامس

حسن الختام للسورة

"وتنتهي هذه السورة كما انتهت سورة الضحى، وقد تركت في النفس شعورين ممتزجين: الشعور بعظمة الود الحبيب الجليل الذي ينسم على روح الرسول صلى الله عليه وسلم من ربه الودود الرحيم. والشعور بالعطف على شخصه صلى الله عليه وسلم، ونحن نكاد نلمس ما كان يساور قلبه الكريم في هذه الآونة التي اقتضت ذلك الود الجميل، إنها الدعوة؛ هذه الأمانة الثقيلة والعبء الذي ينقض الظهر!"^(١).

النور الإلهي هو الوحي الذي يستضاء به، والروح التي يحيا بها العبد المؤمن، ويشقى بها المنافق والكافر، والدواء والشفاء لعباد الله الصالحين، كما قال تعالى: ﴿ وَنُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء: ٨٢] وقوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى: ٥٢] .

(١) في ظلال القرآن ٦/٣٩٣٠.

تفسير سورة التين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالذِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾ ﴾

المبحث الأول

مقدمات حول السورة

أولاً: تسميتها :

"سميت في معظم كتب التفسير ومعظم المصاحف (سورة والتين) بإثبات الواو تسمية بأول كلمة فيها . وسماها بعض المفسرين (سورة التين) وبذلك عنونها الترمذي^(١) وبعض المصاحف"^(٢).

ثانياً: نزولها ومناسبتها:

وهي مكية عند أكثر العلماء^(٣) قال ابن عطية: لا أعرف في ذلك خلافاً بين المفسرين^(٤)، ولم يذكرها في الإتيان في عداد السور المختلف فيها. أما عدد آياتها (٨) آيات، وكلماتها: (٣٤) كلمة، وحروفها: (١٥٠) حرفاً^(٥).

مناسبتها لما قبلها:

"ختمت سورة « الانشراح » بالدعوة إلى الكد وال نصب ، في الحياة الدنيا ، ليبنى الإنسان بذلك دار مقامه في الآخرة ، ويعمرها بما يساق إليه فيها من نعيم الله ورضوانه"^(٦).

(١) جامع الترمذي كتاب التفسير باب سورة التين .

(٢) التحرير والتنوير ٤١٩/٣٠ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١١٤/٢٠ . التحرير والتنوير ٤١٩/٣٠ .

(٤) المحرر الوجيز ٥٠١/١٥ .

(٥) التفسير القرآني للقرآن ٧٩/٣ .

(٦) التفسير القرآني للقرآن ٧٩/٣ .

ثالثاً: فضلها :

عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : "كان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في سَفَرٍ في إحدى الركعتين بالتين والزيتون"^(١)، وفي رواية لمسلم: "فما سمعت أحداً أحسن صوتاً أو قراءة منه"^(٢).

رابعاً: موضوعها :

تعرض السورة حقيقة الفطرة القويمة التي فطر الله الإنسان عليها، واستقامة طبيعتها مع طبيعة الإيمان، والوصول بها معه إلى كمالها المقدور لها، وهبوط الإنسان وسفوله حين ينحرف عن سواء الفطرة واستقامة الإيمان بالله واليوم الآخر، وعن شكر نعمة الله تعالى.

فتعالج من الموضوعات :

- ١ - رفع شأن البقاع المقدسة والأماكن المشرفة.
- ٢ - تكريم الله تعالى للنوع البشري.
- ٣ - بيان جزاء من كفر وجزاء من شكر هذه النعمة.
- ٤ - بيان الإيمان بالجزاء والحساب.
- ٥ - بيان عدل الله تعالى بإثابته المؤمنين وعقابه الكافرين.

خامساً: المعنى الإجمالي للسورة:

أقسم الله تعالى بالتين والزيتون، وهما من الثمار المشهورة، وأقسم بجبل "طور سيناء" الذي كلم الله عليه موسى تكليماً، وأقسم بهذا البلد الأمين من كل خوف وهو "مكة" مهبط الإسلام. وهذا القسم كله على أنه قد خلق الإنسان في أحسن صورة، ثم سيرده إلى النار إن لم يطع الله ويتبع الرسل، لكن الذين آمنوا وعملوا الأعمال الصالحة لهم أجر عظيم غير مقطوع ولا منقوص. ثم يخاطب الله تعالى الإنسان ويسأله سؤال استنكار: أيُّ شيء يحملك -أيها الإنسان- على أن تكذب بالبعث والجزاء مع وضوح الأدلة على قدرة الله تعالى على ذلك؟ أليس الله الذي جعل هذا اليوم للفصل بين الناس بأحكام الحاكمين في كل ما خلق؟^(٣).

(١) أخرجه البخاري كتاب التفسير باب سورة التين (٤٩٥٢)، ومسلم كتاب الصلاة باب القراءة في العشاء (٤٦٤).

(٢) أخرجه مسلم كتاب الصلاة باب القراءة في العشاء (٤٦٤).

(٣) التفسير الميسر ص ٥٩٧.

المبحث الثاني

وقفات مع السورة

المطلب الأول

وقفات مع المقسم به

قال تعالى: ﴿وَاللَّيْنِ وَالزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۝٣﴾

الوقفة الأولى: رفع شأن التين والزيتون:

قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْنِ وَالزَّيْتُونِ ۝١﴾:

"﴿وَاللَّيْنِ ۝١﴾: الثمرة المشهورة بهذا الاسم، وهي: ثمرة تشبه في شكلها شكل الكمثرى، ذات قشر لونه أزرق إلى السواد، تتفاوت أصنافه في قتومة قشره، سهلة التقشير، تحتوي على مثل وعاء أبيض في وسطه عسل طيب الرائحة، مخلوط ببزور دقيقة مثل السمسم الصغير.

وهي من أحسن الثمار صورة وطعما وسهولة مضغ، فحالتها دالة على دقة صنع الله ومؤذنة بعلمه وقدرته.

فالقسم بها لأجل دلالتها إلى صفات إلهية كما يقسم بالاسم لدلالته على الذات مع الإيدان بالمنة على الناس إذ خلق لهم هذه الفاكهة التي تنبت في كل البلاد والتي هي سهلة النبات لا تحتاج إلى كثرة عمل وعلاج

﴿وَالزَّيْتُونِ ۝٢﴾ ظاهره: الثمرة المشهورة، ذات الزيت الذي يعصر منها فيطعمه الناس ويستصبحون به . والقسم بها كالقسم بالتين من حيث إنها دالة على صفات الله، مع الإشارة إلى نعمة خلق هذه الثمرة النافعة الصالحة التي تكفي الناس حوائج طعامهم وإضاءتهم^(١).

وهذا أصح ما قيل في تفسير ﴿وَاللَّيْنِ وَالزَّيْتُونِ ۝١﴾ أنهما هذان الأكلان اللذان نعرفهما بحقيقتهما، وليس هناك رمز لشيء وراءهما، أو أنهما هما رمز لمنبتهما من الأرض^(٢).

قال ابن جرير: " والصواب من القول في ذلك عندنا: قول من قال: التين: هو التين الذي يُؤكل، والزيتون: هو الزيتون الذي يُعصر منه الزيت. لأن ذلك هو المعروف عند العرب، ولا يُعرف جبل يسمى تينا، ولا جبل يقال له زيتون، إلا أن يقول قائل: أقسم ربنا جل ثناؤه بالتين والزيتون، والمراد من

(١) التحرير والتنوير ٤٢٠/٣٠.

(٢) انظر هذه الأقوال في تفسير الطبري ٥٠١/٢٤ - ٥٠٦، وتفسير القرآن العظيم ٤٣٤/٨.

الكلام: القسم بمنابت التين، ومنابت الزيتون، فيكون ذلك مذهباً، وإن لم يكن على صحة ذلك أنه كذلك دلالة في ظاهر التزيل، ولا من قول من لا يجوز خلافه، لأن دمشق بها منابت التين، وبيت المقدس منابت الزيتون"^(١).

الوقفة الثانية : رفع شأن الأماكن المشرفة:

قوله تعالى: ﴿ وَطُورِ سَيْنِينَ ﴾: الطور: اسم الجبل الذي كلم الله عليه موسى ^(٢) "و﴿ سَيْنِينَ ﴾ لغة في سيرة وهي صحراء بين مصر وبلاد فلسطين"^(٣).

أما القسم الأخير في قوله تعالى: ﴿ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴾ مكة المكرمة^(٤).
"وإن الأقرب أن يكون ذكر التين والزيتون إشارة إلى أماكن أو ذكريات ذات علاقة بالدين والإيمان"^(٥)، ولذا "قال بعض الأئمة: هذه محالُّ ثلاثة، بعث الله في كل واحد منها نبياً مرسلًا من أولي العزم أصحاب الشرائع الكبار:

فالأول: محلة التين والزيتون: وهي بيت المقدس التي بعث الله فيها عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام.

والثاني: طور سينين: وهو طور سيناء الذي كلم الله عليه موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام.
والثالث: البلد الأمين: مكة الذي من دخله كان آمناً، وهو الذي أرسل فيه محمداً صلى الله عليه وسلم"^(٦).

"وإن في ذكر البلد الأمين لترشيح لهذا المعنى-أي ردّ الإنسان إلى التوحيد- ؛ لأن الله جعل الحرم لأهل مكة أمناً كصورة الأمن في الجنة، فإن امتثلوا وأطاعوا نعموا بهذا الأمن ، وإن تمردوا وعصوا ، فيخرجون منها ويحرمون أمنها.

وهكذا تكون السورة ربطاً بين الماضي والحاضر ، وانطلاقاً من الحاضر إلى المستقبل"^(٧).
"والأمن: أكبر شروط حسن المكان لأن الساكن أول ما يتطلب الأمن وهو السلامة من المكاره والمخاوف فإذا كان آمناً في منزله كان مطمئناً البال شاعراً بالنعيم الذي يناله."^(٨). فهو الذي يأمن

(١) تفسير الطبري ٥٠٦/٢٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٤٣٤/٨.

(٣) التحرير والتنوير ٤٢١/٣٠.

(٤) تفسير القرآن العظيم ٤٣٤/٨.

(٥) في ظلال القرآن ٣٩٣٣/٦.

(٦) تفسير القرآن العظيم ٤٣٤/٨.

(٧) أضواء البيان ١٠/٩.

(٨) التحرير والتنوير ٣١٧/٢٥.

صاحبه ومن دخل فيه من كل صوب ، بل يأمن فيها الطير والوحش والقاتل المطلوب .
فقد كان مطلع الرسالة الخاتمة لما شرع الله للناس ، وبها يختم الفصل الأخير من حياة الإنسان على هذه الأرض ، وهو الذي أرسل فيه محمدا صلى الله عليه وسلم ، وجعله الله خير بلاده "فلو لم يكن البلد الأمين خير بلاده ، وأحبها إليه ، ومختاره من البلاد ؛ لما جعل عرصاتها مناسك لعباده ؛ فرض عليهم قصدها ، وجعل ذلك من أكد فروض الإسلام ، وأقسم به في كتابه العزيز في موضعين منه ، فقال تعالى : ﴿ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴾ [التين ٣] ، وقال تعالى : ﴿ لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ۝ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ۝ ﴾ [البلد ١-٢] .

وليس على وجه الأرض بقعة يجب على كل قادر السعي إليها ، والطواف بالبيت الذي فيها ؛ غيرها ، وليس على وجه الأرض موضع يشرع تقبيله واستلامه ، وتخط الخطايا والأوزار فيه ؛ غير الحجر الأسود ، والركن اليماني^(١) .
فأقسم سبحانه بهذه الأمكنة الثلاثة العظيمة التي هي مظاهر أنبيائه ورسله أصحاب الشرائع العظام والأمم الكثيرة ، أقسم بها على بداية الإنسان ونهايته .

(١) خصائص جزيرة العرب ٢٢ .

المطلب الثاني

وقفات مع المقسم عليه

الوقفة الأولى: تكريم الله تعالى للنوع البشري:

قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾

"هذا هو المقسم عليه، وهو أنه تعالى خلق الإنسان في أحسن صورة، وشكل منتصب القامة، سوي الأعضاء حسنها"^(١).

"وفي ابتداء السورة بالمقسم بما يشمل إرادة مهابط أشهر الأديان الإلهية؛ براعة استهلال لغرض السورة وهو أن الله خلق الإنسان ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ أي خلقه على الفطرة السليمة، مدركاً لأدلة وجود الخالق ووحدانيته. وفيه إيماء إلى أن ما خالف ذلك من النحل والملل قد حاد عن أصول شرائع الله كلها، بقطع النظر عن اختلافها في الفروع، ويكفي في تقويم معنى براعة الاستهلال ما يلوح في المعنى من احتمال"^(٢).

وقوله: ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ "وهو اعتداله واستواء شبابه، كذا قال عامة المفسرين. وهو أحسن ما يكون، لأنه - سبحانه وتعالى - خلق كل شيء منكباً على وجهه، وخلقه هو مستوياً، وله لسان ذلق، ويد وأصابع يقبض بها"^(٣).

قال ابن العربي: "ليس لله تعالى خلق أحسن من الإنسان، فإن الله خلقه حياً عالماً، قادراً مريداً متكلماً، سميعاً بصيراً، مدبراً حكيماً. وهذه صفات الرب سبحانه"^(٤).

"والله سبحانه ﴿أَحْسَنَ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ [السجدة: ٧]، ولكن تخصيص الإنسان هنا وفي مواضع قرآنية أخرى بحسن التركيب، وحسن التقويم، وحسن التعديل. . فيه فضل عناية بهذا المخلوق. وإن عناية الله بأمر هذا المخلوق على ما به من ضعف؛ وعلى ما يقع منه من انحراف عن الفطرة وفساد، لتشير إلى أن له شأناً عند الله، ووزناً في نظام هذا الوجود، وتتجلى هذه العناية في خلقه وتركيبه على هذا النحو الفائق، سواء في تكوينه الجثمانى البالغ الدقة والتعقيد، أم في تكوينه العقلي الفريد، أم في تكوينه الروحي العجيب"^(٥).

"وأفادت الآية أن الله كون الإنسان تكويناً ذاتياً متناسباً لم خلق له نوعه، من الإعداد لنظامه وحضارته. وليس تقويم صورة الإنسان الظاهرة هو المعتبر عند الله تعالى، ولا جديراً بأن يقسم عليه، إذ لا أثر له في

(١) تفسير القرآن العظيم ٤٣٥/٨.

(٢) التحرير والتنوير ٤٢٢/٣٠-٤٢٣.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١١٤/٢٠.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ١٩٥٢/٤.

(٥) في ظلال القرآن ٣٩٣٣/٦.

إصلاح النفس وإصلاح الغير وإصلاح الأرض، ولأنه لو كان هو المراد لذهبت المناسبة التي في القسم بالتين والزيتون وطور سنين والبلد الأمين. وإنما هو متمم لتقويم النفس قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم)^(١) فإن العقل أشرف ما خص به نوع الإنسان من بين الأنواع ..

فالمرضيُّ عند الله هو تقويم إدراك الإنسان ونظرة العقلي الصحيح لأن ذلك هو الذي تصدر عنه أعمال الجسد إذ الجسم آلة خادمة للعقل"^(٢).

والله تعالى كرم هذه البشرية بأن خلقها على الفطرة فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء). ثم قال أبو هريرة رضي الله عنه: واقرؤوا إن شئتم قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الروم: ٣٠]^(٣).

الوقفه الثانية: بيان جزاء من كفر نعمة التكريم وجزاء من شكرها:

قال تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥٠﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾

أولاً: جزاء من كفر ، قال تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾:

"الإنسان مهياً حين ينتكس لأن يهوي إلى الدرك الذي لا يبلغ إليه مخلوق قط: ﴿أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ .. حيث تصبح البهائم أرفع منه وأقوم، لاستقامتها على فطرتها، وإلهامها تسييح ربها، وأداء وظيفتها في الأرض على هدى، بينما هو المخلوق في أحسن تقويم، يجحد ربه، ويرتكس مع هواه، إلى درك لا تملك البهيمة أن ترتكس إليه"^(٤)، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَأَلْأَنفِمْ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: ١٧٩]. وقال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكَيْلًا ﴿٤٣﴾﴾ أم تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان ٤٣-٤٤].

فهم لما ابتعدوا عن الفطرة حصل لهم هذا السفول بل والخسران كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لِفِي خُسْرٍ﴾ والخسران هو: "مصدر وهو: ضد الربح في التجارة، واستعير هنا لسوء العاقبة لمن يظن لنفسه

(١) أخرجه مسلم كتاب البر والصلة باب تحريم ظلم المسلم..(٢٥٦٤).

(٢) التحرير والتنوير ٣٠/٤٢٤.

(٣) أخرجه البخاري كتاب الجنائز باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه(١٣٥٨)، ومسلم كتاب القدر باب معنى كل مولود يولد على الفطرة (٢٦٥٨).

(٤) في ظلال القرآن ٦/٣٩٣٣.

عاقبة حسنة"^(١)، وعلى هذا فالخسران المقصود في الآية هو: " ذهاب رأس مال الإنسان في هلاك نفسه وعمره بالمعاصي، وهما أكبر رأس ماله"^(٢).

قال ابن كثير رحمه الله عند قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفَجَارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ [المطففين: ٧]، "أي: إن مصيرهم ومأواهم لفي سجين-فعل من السَّجَن، وهو الضيق، و"سجين" مأخوذ من السَّجَن، وهو الضيق، فإن المخلوقات كل ما تسافل منها ضاق، وكل ما تعالی منها اتسع، فإن الأفلاك السبعة كل واحد منها أوسع وأعلى من الذي دونه، وكذلك الأرضون كل واحدة أوسع من التي دونها، حتى ينتهي السفل المطلق والمحل الأضيق إلى المركز في وسط الأرض السابعة.

ولما كان مصير الفجار إلى جهنم وهي أسفل السافلين، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْتُهُ أَصْفَلَّ سَفَلِينَ﴾ [٥] إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾^(٣).

ثانياً: جزاء من شكر: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾.

ثم استثنى الله تعالى فرقة لن تكون في أسفل سافلين وهم: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ كما استثناهم من الخاسرين فقال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالْحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾ .

فالإنسان سيرد في أسفل سافلين وإلى الخسران إلا إذا آمن بالله تعالى وعمل عملاً صالحاً، قال القرطبي: "إن الإنسان إذا عمر في الدنيا وهرم؛ لفي نقص وضعف وتراجع، إلا المؤمنين، فإنهم تكتب لهم أجورهم التي كانوا يعملونها في حال شبابهم"^(٤).

فهؤلاء هم الذين يبقون على الفطرة، ويكملونها بالإيمان والعمل الصالح^(٥)، ويرتقون بها إلى الكمال المقدر لها، حتى ينتهوا بها إلى حياة الكمال في دار الكمال"^(٦).

"فهذه وتلك نهايتان طبيعتان لنقطة البدء: إما استقامة على الفطرة القويمية، وتكميل لها بالإيمان، ورفع لها بالعمل الصالح، فهي واصلة في النهاية إلى كمالها المقدر في حياة النعيم وهو المعبر عنه في قوله تعالى: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾.

وإما انحراف عن الفطرة القويمية، واندفاع مع النكسة، وانقطاع عن النفخة الإلهية، فهي واصلة في النهاية إلى دركها المقرر في حياة الجحيم وهو المعبر عن في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْتُهُ أَصْفَلَّ سَفَلِينَ﴾^(١).

(١) التحرير والتنوير مختصراً ٥٣١/٣٠.

(٢) معالم التنزيل ٥٢٢/٨.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٣٤٩/٨.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، ١٨٠/٢٠.

(٥) سيأتي الحديث في سورة العصر عن دور الإيمان والعمل الصالح نجا الإنسان من السفل والخسران، وما علاقة الإيمان والعمل الصالح بالنجاة وما حقيقة الإيمان والعمل الصالح الذي ينجي .

(٦) الجامع لأحكام القرآن، ١١٦/٢٠.

ثالثاً: وقفة مع نوعية الجزاء:

قال تعالى: ﴿ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ أي: "غير مقطوع"^(٢).

وإن المتدبر لقوله تعالى: ﴿ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ يجد الفضل الكبير من الله تعالى للذي يحافظ على نعمه. يقول ابن بطال: "فإن قطع العمل بمرض أو شغل وضعف عنه فلا لوم عليه، بل يرجى له من الله ألا يقطع أجره، فقد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إذا مرض العبد أو سافر، كتب له مثل ما كان يعمل مقيماً صحيحاً)^(٣)، وفي كتاب الله ما يشهد لذلك قوله: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ أي: غير مقطوع وإن ضعفوا عن العمل يكتب لهم أجر عملهم في الشباب والصحة"^(٤).

وقال: "﴿ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ أي: يريد أن لهم أجرهم في حال الكبر والضعف عما كانوا يفعلونه في الصحة غير مقطوع لهم؛ فلذلك كل مرض وكل آفة من سفر وغيره يمنع من العمل الصالح المعتاد؛ فإن الله قد تفضل بإجراء أجره"^(٥). "فهو غير مقطوع بزمان، أو كبر، أو ضعف. ففي هذا أن الإنسان يبلغ بنيته أجر العامل إذا كان لا يستطيع العمل الذي ينويه"^(٦). كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن بالمدينة أقواماً ما سلكتنا وادياً وشعباً إلا وهم معنا، حسبهم العذر)^(٧). والذي يدعو إلى الله ثم يتوفاه الأجل فإن أجر من علمهم ودعاهم إلى الله سيظل يجري عليه إلى يوم القيامة، كما قال صلى الله عليه وسلم: (من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً)^(٨)، وقال: (من سن في الإسلام سنة حسنة فعمل بها بعده كتب له مثل أجر من عمل بها ولا ينقص من أجورهم شيء)^(٩).

(١) في ظلال القرآن ٦/٣٩٣٣ بتصرف.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/١١٦.

(٣) كتاب الجهاد والسير باب يكتب للمسافر مثل ما كان يعمل في الإقامة (٢٩٩٦).

(٤) شرح ابن بطال على البخاري ٣/١٤٦.

(٥) شرح ابن بطال على البخاري ٤/١٥٤.

(٦) شرح ابن بطال على البخاري ٥/٤٥.

(٧) أخرجه البخاري كتاب المغازي باب نزول النبي صلى الله عليه وسلم الحجر (٤٤٢٣).

(٨) أخرجه مسلم كتاب العلم باب من سن في الإسلام سنة حسنة.. (٢٦٧٤).

(٩) أخرجه مسلم كتاب الزكاة باب الحث على الصدقة.. (١٠١٧).

المطلب الثالث

تذكير بموضوع الإيمان بالجزاء والحساب

قال تعالى: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدَ بِالِّدِينِ﴾ :

"﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ﴾ يعني: يا ابن آدم ﴿بَعْدَ بِالِّدِينِ﴾ أي: بالجزاء في المعاد، وقد علمت البداية، وعرفت أن من قدر على البداية. فهو قادر على الرجعة بطريق الأولى، فأى شيء يحملك على التكذيب بالمعاد وقد عرفت هذا؟"^(١)، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ يُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

"فما الذي يكذبك بأن الناس يدانون بأعمالهم، كأنه قال: ومن يقدر على تكذيبك بالثواب والعقاب بعد ما تبين له خلقنا الإنسان على ما وصفنا"^(٢).

"وإن كان الخطاب للكافر؛ فهو: توبيخ وإلزام للحجة. أي: إذا عرفت أيها الإنسان أن الله خلقك في أحسن تقويم، وأنه يردك إلى أرذل العمر، وينقلك من حال إلى حال، فما يحملك على أن تكذب بالبعث والجزاء، وقد أخبرك محمد صلى الله عليه وسلم به؟
كأنه قال: فمن يقدر على ذلك. أي على تكذيب الثواب والعقاب، بعد ما ظهر من قدرتنا على خلق الإنسان والدين والجزاء"^(٣).

(١) تفسير القرآن العظيم ٤٣٥/٨.

(٢) أخرجه البخاري كتاب التفسير باب (٩٥) والتين والزيتون، وقد ذكره ابن جرير في جامع البيان ٥٢٤/٢٤.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١١٦/٢٠.

المطلب الرابع

الشهادة لله بالحكمة والحكم والإحكام

قال تعالى : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ ﴾ (٨) :

بعد إدراك قيمة الإيمان في حياة الناس، وبعدهما تبين مصير الذين لا يؤمنون، ولا يهتدون بهذا النور، ولا بمسكون بجبل الله المتين!! بعد هذا يقرر الله سبحانه قضية مهمة وهي قوله تعالى: ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ

الْحَاكِمِينَ ﴾ وهذا الاستفهام التقريري له معان كلها تصب في باب الحكمة والعدل وإحسان الخلق،
فيمن معاني الآية :

أولاً: العادل في حكمه: قال ابن كثير: أي: أما هو أحكم الحاكمين، الذي لا يجور ولا يظلم
أحدًا، ومن عدله أن يقيم القيامة فينصف المظلوم في الدنيا ممن ظلمه^(١).

ومما يستفاد من هذا المعنى:

١ "وعيد للكفار وأنه عز وجل يحكم عليهم بما هم أهلهم من العذاب"^(٢).

٢ "وتسليته صلى الله عليه وسلم في تركهم والإعراض عنهم"^(٣).

٣ "أن هذا تنبيه من الله تعالى لنبيه عليه السلام بأنه يحكم بينه وبين خصومه يوم القيامة بالعدل"^(٤).

٤ "يعمل بالعدل مع الكفار، ومع المؤمنين بالفضل"^(٥).

٥ "ومعنى التفضيل أن حكمه أسد وأنفذ"^(٦).

٦ "كيف يظن إذا أن الناس يعملون متفاوتين في أعمالهم في هذه الدنيا ثم يموتون سواء ولا جزاء بعد

بالثواب ولا بالعقاب هذا ظلم وباطل ومنكر يتره الرب عنه سبحانه وتعالى فقضية البعث الآخر لا

تقبل الجدل والمماحكة بحال من الأحوال"^(٧).

"فهل تقتضي حكمته أن يترك الخلق سدى لا يؤمرون ولا ينهون، ولا يثابون ولا يعاقبون؟ أم الذي

خلق الإنسان أطواراً بعد أطوار، وأوصل إليهم من النعم والخير والبر ما لا يحصونه، ورباهم التربية

الحسنة، لا بد أن يعيدهم إلى دار هي مستقرهم وغايتهم، التي إليها يقصدون، ونحوها يؤمون"^(٨).

(١) تفسير القرآن العظيم ٤٣٥/٨.

(٢) روح المعاني ٣٠/٢٢٦.

(٣) زاد المسير ٩/١٧٤.

(٤) مفاتيح الغيب ١٢/٣٢.

(٥) بحر العلوم للسمرقندي ٣/٥٩٦.

(٦) التحرير والتنوير ٣٠/٥٣٣.

(٧) أيسر التفسير للجزائري ٤/٤١٤.

ثانياً: المتقن خلقه: قال القرطبي: " أي أتقن الحاكمين صنعا في كل ما خلق: ﴿يَا حَكِيمَ الْحَكِيمِينَ﴾ قضاء بالحق، وعدلا بين الخلق" (٢).

ومما يستفاد من هذا المعنى:

- ١ - " تحقيق لما ذكر من خلق الإنسان ثم رده إلى أرذل العمر.
- ٢ - وإذا ثبتت القدرة والحكمة بهذه الدلالة صح القول بإمكان الحشر ووقوعه، أما الإمكان فبالنظر إلى القدرة، وأما الوقوع فبالنظر إلى الحكمة لأن عدم ذلك يقدح في الحكمة ، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧] (٣).

ثالثاً: "أحكم الحاكمين علماً وقدرة وعدلاً وحكمة: بما شوهد من إبداعه الخلق ومفاوتته بينهم، وجعل الإنسان من بينهم على أحسن تقويم، فلا بد أن يقيم الجزاء ويضع الموازين القسط ليوم القيامة فيظهر عدله وحكمته وفضله، وهذا الآخر هو أولها قسماً من جهة النبوات التي ظهر بها حكمه وحكمته، ومقسماً عليه من حيث إن الخلق في أحسن تقويم يقتضي العدل لا محالة، والرد أسفل سافلين يتقاضى الحكم حتماً لأجل ما يقع من الظلم والتشاجر بين من استمر على الفطرة القويمة ومن رد لأسفل سافلين" (٤).

"وأياً ما كان فالاستفهام على ما قيل تقرير بما بعد النفي" (٥)، فقد ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: (فإذا قرأ أحدكم ﴿وَاللَّيْنِ وَالزَّيْتُونَ﴾ فأتى على آخرها: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَكِيمِينَ﴾ فليقل: بلى، وأنا على ذلك من الشاهدين) (٦).

(١) تيسر الكريم الرحمن ٩٢٩.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١١٧/٢٠.

(٣) مفاتيح الغيب ١٢/٣٢.

(٤) نظم الدر للبقاعي ٤٦٦/٩.

(٥) روح المعاني ٢٢٦/٣٠.

(٦) أخرجه أبو داود باب مقدار الركوع والسجود (٨٨٤)، وأحمد ٢٤٩/٢ (٧٣٨٥)، والترمذي كتاب تفسير القرآن باب ومن سورة التين (٣٣٤٧)، قال البوصيري في إتحاف المهرة ٩٨/٦ " هذا إسناد ضعيف لجهالة التابعي"، ضعيف أبي داود (١٥٦)، وحسنه بعضهم موقوفاً، انظر: تخريج أحاديث وآثار كتاب في ظلال القرآن ٥١٦ (٩٦٢).

تفسير سورة العلق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ ١ ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ ٢ ﴿أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ ٣ ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ ٤ ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ ٥ ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ﴾ ٦ ﴿أَن رَّاهُ أَسْتَعْيَبَ﴾ ٧ ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ﴾ ٨ ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ﴾ ٩ ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَىٰ الْهُدَىٰ﴾ ١٠ ﴿أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ﴾ ١١ ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ ١٢ ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ ١٣ ﴿كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ ١٤ ﴿نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ ١٥ ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ ١٦ ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ ١٧ ﴿كَلَّا لَا نُطِيعُكَ وَأَسْجُدُ وَاقْتَرِبَ﴾ ١٨ ﴿﴾ ١٩ ﴿﴾

المبحث الأول

مقدمات حول السورة

أولاً : تسميتها:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: (أول سورة نزلت من القرآن ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ﴾^(١)، وبذلك عنونها الترمذي^(٢)، وعنونها البخاري ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾^(٣).
وسميت في المصاحف ومعظم التفاسير (سورة العلق)^(٤)، وتسمى (سورة اقرأ)^(٥) وقد تسمى بهما^(٦).
أما عدد آياتها (١٩) آية، وكلماتها: (٣٤) كلمة، وحروفها: (١٥٠) حرفاً^(٧).

ثانياً: نزولها:

وهي مكية باتفاق، وأول ما نزل من القرآن^(٨).

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک ١٧٩/٩ برقم (٣٩١٤)، وقال حديث صحيح على شرطهما ولم يخرجاه.

(٢) جامع الترمذي كتاب التفسير باب ما جاء في ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ﴾ رقم (٨٤).

(٣) أخرجه البخاري كتاب التفسير باب سورة ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾.

(٤) القرطبي ١١٧/٢٠، البغوي ٤٧٤/٨، روح المعاني ١٧٧/٣٠ وغيرها.

(٥) جامع البيان ٥٢٧/٢٤، تفسير القرآن العظيم ٤٣٦/٨، تيسير الكريم الرحمن ٩٢٩ وغيرهم.

(٦) ذكر ذلك ابن عاشور في التحرير والتنوير ٤٣٣/٣٠ عن الكواشي في التلخيص.

(٧) التفسير القرآني للقرآن ٧٩/٣.

(٨) تفسير القرآن العظيم ٤٣٧/٨ القرطبي ١١٧/٢٠.

فمن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت: أول ما بدئ به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه - وهو التعبد - الليالي ذوات العدد قبل أن يتزعج إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ. قال: (ما أنا بقارئ). قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ. قلت: ما أنا فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥)﴾.

فرجع بها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فقال: (زملوني زملوني)^(١). فزملوه حتى ذهب عنه الروع^(٢)، فقال لخديجة وأخبرها الخبر (لقد خشيت على نفسي). فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل^(٣)، وتكسب المعدوم^(٤)، وتقري^(٥) الضيف، وتعين على نوائب الحق. فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى - ابن عم خديجة - وكان امرأً تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمى - فقالت له خديجة: يا ابن عم اسمع من ابن أخيك. فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خبر ما رأى. فقال له ورقة: هذا الناموس^(٦) الذي نزل الله على موسى عليه السلام يا ليتني فيها جذعاً^(٧)، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أومخرجي هم؟! قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً. ثم لم ينشب ورقة أن توفي، وفتر^(٨) الوحي^(٩)).

(١) زمل: لف وغطى.

(٢) الروع: الفزع والخوف.

(٣) الكل: أصله الثقل ويدخل في حمل الكل الإنفاق على الضعيف واليتيم والعيال.

(٤) تكسب: تعطى المال للفقير، والمعدوم: الشيء المعدوم الذي لا يجدونه أو الفقير الذي صار كالمعدوم.

(٥) تقري: تكرم الضيف وتقوم بحق ضيافته.

(٦) الناموس: الوحي.

(٧) جذعاً: شاباً فتياً.

(٨) فتر: انقطع.

(٩) أخرجه البخاري كتاب بدأ الوحي باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣)، ومسلم كتاب الإيمان

باب بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم (١٦٠).

ثالثاً: فضلها ومناسبتها :

قال ابن كثير رحمه الله: " فأول شيء نزل من القرآن هذه الآيات الكريمة المباركات وهُنَّ أول رحمة رَحِمَ اللهُ بها العباد، وأول نعمة أنعم اللهُ بها عليهم"^(١).

مناسبتها لما قبلها :

تضمنت "سورة « التين » مواجهة للإنسان في خلقه القويم ، الجليل ، الذي خلقه الله عليه ، وأن هذا الإنسان إذا استطاع أن يحتفظ بهذا الخلق الكريم ، كان في أعلى عليين .. أما إذا لم يحسن سياسة هذا الخلق ، ولم يحسن تدبيره فإنه يهوى إلى أسفل سافلين.

وتبدأ سورة « العلق » بهذه الواجهة مع الإنسان في أعلى منازلها ، وأكرم وأشرف صورة له ، وهو رسول الله « محمد » صلوات الله وسلامه عليه ، مدعوًا من ربه إلى أكمل كمالات الإنسان ، وأكرم ما يتناسب مع كماله وشرفه ، وهو القراءة ، التي هي مجلى العقل ، ومنازة هديه ورشده. وبهذا تكون المناسبة جامعة بين السورتين ، ختامًا ، وبدءًا"^(٢).

رابعاً: موضوعها :

١- ابتدأت بفضل الله تعالى بإنزاله القرآن ، وعرض نعم الله تعالى على الإنسان من الخلق والتربية، والتعليم، والكرامة بالإسلام والهداية بعدما ما كانت البشرية في جهل في جميع المجالات، وذل للواقع والشهوات.

٢- وتحدثت عن طغيان الإنسان في هذه الحياة بالقوة والثراء وتمرده على أوامر الله بسبب الغنى، بينما الواجب عليه أن يشكر النعمة لا أن يجحدها.

٣- ثم تناولت قصة أبي جهل الذي كان يتوعد الرسول عليه الصلاة والسلام وينهاه عن الصلاة والدعوة إلى الهدى والتقوى.

٤- إعلام النبي صلى الله عليه وسلم أن الله عالم بأمر من يناوئنه وأنه قامعهم وناصر رسوله صلى الله عليه وسلم وأن لا يعبأ بقوة أعدائه لأن قوة الله تقهرهم.

٥- تثبيت الرسول صلى الله عليه وسلم على ما جاءه من الحق والصلاة والتقرب إلى الله، وتابعت ذلك بوعيد ذلك الكافر بأشد العقاب إن استمر على ضلاله ، كما أمرت الرسول الكريم بعدم الإصغاء له ، ثم ختمت بالدعوة للصلاة والعبادة وبذلك يتناسق البدء مع الختام.

(١) تفسير القرآن العظيم ٤٣٧/٨ .

(٢) تفسير القرآن العظيم ٤٣٧/٨ ، والقرطبي ١١٧/٢٠ .

خامساً: المعنى الإجمالي للسورة:

﴿ أَقْرَأُ ﴾ أيها النبي ما أنزل إليك من القرآن مُفْتَتِحًا ﴿ بِأَسْمِ رَبِّكَ ﴾ المتفرد بالخلق، الذي خلق كل إنسان من قطعة دم غليظ أحمر. ﴿ أَقْرَأُ ﴾ أيها النبي - ما أنزل إليك، وإن ربك لكثير الإحسان واسع الجود، ﴿ الَّذِي عَلَّمَ ﴾ خلقه الكتابة ﴿ بِالْقَلَمِ ﴾، ﴿ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ ﴾ ما لم يكن يعلم، ونقله من ظلمة الجهل إلى نور العلم.

﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ ﴿٦﴾ أَنْ رَأَاهُ اسْتَعْجَى ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجُوعَ ﴿٨﴾ ﴾ حقاً إن الإنسان ليتجاوز حدود الله إذا أبطره الغنى، فليعلم كل طاغية أن المصير إلى الله، فيجازي كل إنسان بعمله.

﴿ أَرَأَيْتَ ﴾ أعجب من طغيان هذا الرجل - وهو أبو جهل - ﴿ الَّذِي بَنَىٰ ﴾ عبداً ﴿ لَنَا ﴾ ﴿ إِذَا صَلَّى ﴾ لربه. ﴿ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ ﴾ المنهي عن الصلاة ﴿ عَلَى الْهَدْيِ ﴾ فكيف ينهاه؟ أو إن كان أمراً غيره ﴿ بِالنَّقْوَى ﴾ أينهاه عن ذلك؟ ﴿ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ ﴾ هذا الناهي بما يدعى إليه، وأعرض عنه، ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى ﴾ يرى كل ما يفعل؟ ليس الأمر كما يزعم أبو جهل.

فلئن لم يرجع هذا عن شقاؤه وأذاه لناخذن بمقدم رأسه أخذاً عنيفاً، ويُطرح في النار، ناصيته ﴿ نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ ﴾ في مقالها، ﴿ خَاطِئَةٍ ﴾ في أفعالها. فليحضر هذا الطاغية أهل ناديه الذين يستنصر بهم، سندعو ملائكة العذاب. ف ﴿ لَا نُطْعِمُهُ ﴾ فيما دعاك إليه من ترك الصلاة، ﴿ وَأَسْجُدْ ﴾ لربك ﴿ وَأَقْرَبْ ﴾ ﴿ مِنْهُ ﴾ بالتحجب إليه بطاعته^(١).

(١) التفسير الميسر ٥٩٧ - ٥٩٨.

المبحث الثاني وقفات حول سورة العلق المطلب الأول

حدث عظيم في تاريخ البشرية

إنه حادث عظيم، عظيم جداً، ومهما حاولنا اليوم أن نحيط بقيمته فإن جوانب كثيرة منه ستظل خارج تصورنا! إنه حادث عظيم بحقيقته، وعظيم بدلالته، وبعيدٌ بآثاره في حياة البشرية.. وهذه اللحظة التي تم فيها هذا الحادث تعد - بغير مبالغة - أهم لحظة مرت بهذه الأرض في تاريخها الطويل.

حقيقة هذا الحدث: أن الله جل جلاله قد كرم هذه الخليقة باختيار واحد منها ليكون مُلقِي نوره الإلهي، ومبلغ كلماته إلى العالمين، وممثل قدره الذي يريده سبحانه بهذه الخليقة، وخاتم رسله إلى الناس أجمعين. بل رسوله إلى الثقليين.

أما دلالة هذا الحدث: فهي أن الله سبحانه ذو الفضل الواسع، والرحمة السابغة، الكريم الودود المنان. يفيض من عطائه ورحمته على خلقه بلا سبب منهم، ولا حاجة إليهم، سوى أن هذا الفيض والعطاء بعض آثار أسمائه وصفاته الحسنى .

ومن دلالاته: أن الله سبحانه قد أكرم الإنسان كرامة لا يكاد يتصورها، ولا يملك أن يشكرها. وأن هذه وحدها لا ينهض لها شكره ولو قضى عمره راعياً ساجداً.. وهي: أن يذكره الله، ويلتفت إليه، ويصله به، ويختار من جنسه رسولاً يوحي إليه بكلماته. وأن تصبح الأرض مهبطاً لهذه الكلمات التي

يجيا بها الخلق في خشوع وابتهاال، قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ [آل عمران: ١٦٤].

فأما آثار هذا الحادث: فقد بدأت منذ اللحظة الأولى، بدأت في تحويل خط الجهة التي يتطلع إليها الإنسان ويتلقى عنها تصورات وقيم وموازينه.. إنها ليست الأرض وليس الهوى .. إنما هي الرسالة والوحي الذي يبلغه الرسول صلى الله عليه وسلم عن الرب سبحانه وتعالى.

ومنذ هذه اللحظة عاش الذين استقرت في أرواحهم هذه الحقيقة .. في كنف الله ورعايته المباشرة الظاهرة. عاشوا يتطلعون إلى الله مباشرة في كل أمرهم - كبيره وصغيره - يهيشون ويتحركون تحت عين الله. وينتظرون ويتلهفون أن تمتد رعايته سبحانه فتنتقل خطاهم في الطريق خطوة خطوة، تردهم عن الخطأ وتقودهم إلى الصواب، وفي كل ليلة كانوا يبيتون في ارتقاب أن يتزل عليهم من الله وحي يحدثهم بما تحتاجه نفوسهم، ويفصل في مشكلاتهم، ويقول لهم: خذوا هذا ودعوا ذاك!

لقد كانت فترة الثلاثة والعشرين عاماً التالية لهذا الحدث العظيم فترة لا يتصور حقيقتها إلا الذين عاشوها، وأحسوها، وشهدوا بدأها ونهايتها، وذاقوا حلاوة هذا الاتصال، ورأوا من أين بدأوا وإلى أين انتهوا.. كيف كانوا في السابق وكيف أصبحوا بعد هذا الوحي، وهي مسافة هائلة لا تقاس بأي مقياس من مقياس الأرض، قال تعالى: ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ

فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وكانوا يعرفون مذاقها. ويدركون حلاوتها. ويشعرون بقيمتها، ويحسون وقع فقدانها حينما انتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى، وانقطعت هذه الفترة العجيبة التي لا يكاد العقل يتصورها لولا أنها وقعت حقاً، ونحن نعيش اليوم نقتطف ثمارها ونرى آثارها.

فعن أنس رضي الله عنه قال: قال أبو بكر لعمر رضي الله عنهما بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم: انطلق بنا إلى أم أيمن رضي الله عنها نزورها كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزورها. فلما أتيا إليها بكت. فقالا لها: ما يبكيك؟! أما تعلمين أن ما عند الله خير لرسول الله صلى الله عليه وسلم! قالت: بلى، إني لأعلم أن ما عند الله خير لرسول صلى الله عليه وسلم، ولكن أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء. فهيجتهما على البكاء، فجعلا يبكيان معها^(١).

ولقد ظلت آثار هذا الوحي ظاهرة في حياة البشر منذ تلك اللحظة إلى هذه اللحظة، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، لقد ولد الإنسان من جديد باستمداد قيمه من السماء لا من الأرض، واستمداد شريعته من الوحي الإلهي لا من الهوى قال تعالى: ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾.

وكان هذا الحدث هو مفرق الطريق. وقامت المعالم عليه ومنه في الأرض، واضحة عالية لا يطمسها الزمان، ولا تطمسها الأحداث. وقام في الإنسان تصور للوجود وللحياة وللقيم لم يسبق أن اتضح بمثل هذه الصورة بعيد وحي من الله عز وجل. ولن يجيء بعده تصور في مثل شموله ونصاعته وطلاقته من اعتبارات الأرض جميعاً، مع واقعيته وملاءمته للحياة الإنسانية. ولقد استقرت قواعد هذا الدين الإلهي في الأرض، وتبينت خطوطه ومعالمه ﴿لِيَقْضَىٰ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَن هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ

مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢] لا غموض ولا إبهام. إنما هو الضلال عن علم، والانحراف عن عمد، والالتواء عن قصد^(٢)، قال تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكَذِبُونَكَ وَلَكِنَّ

الظَّالِمِينَ بَعَايَتْ إِلَهُهُمُ لِيَحْدُونَ ﴿٣٣﴾ [الأنعام: ٣٣].

نسأل الله العفو والعافية، وأن يثبتنا على الهدى والنور إلى يوم نلقاه.

(١) أخرجه مسلم كتاب فضائل الصحابة باب فضائل أم أيمن (٢٤٥٤).

(٢) في ظلال القرآن ٦/٣٩٣٦-٣٩٣٨ باختصار وتصرف.

المطلب الثاني

آيات التوجيه الأولى للأمة

﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ هذه خمس آيات هي أول توجيه لمحمد صلى الله عليه وسلم وأمته، فيا ترى ما هي أسرار ذلك التوجيه وأثره في بداية الدعوة؟

المحور الأول: أسرار التوجيه في الآيات

أولاً: البداية بالأمر بالبسملة: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ :

هذه بداية السورة الأولى من القرآن، وهي التوجيه الأول؛ في اللحظة الأولى من الوحي، وفي أول خطوة من خطوات طريق الدعوة إلى الله فهي تبدأ باسم الله . وفي هذا إشارة إلى بداية كل أمر أن تكون بالبسملة، وهذه سنة الله تعالى في كتابه فقد بدأت أول سورة في المصحف بالبسملة وهي آية من الفاتحة على الراجح.

وهذا نبي الله سليمان عليه السلام يفتتح كتابه إلى ملكة سبأ بالمسئلة قال تعالى: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [النمل: ٣٠].

وفي قصة نوح عليه السلام يقول الله تعالى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِبَهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [هود: ٤١].

ونرى هذا جلياً في تعليم النبي صلى الله عليه وسلم لأمته حيث كان يأمرهم في بداية كل أمر أن يقولوا بسم الله، في الوضوء ودخول المسجد، ودخول البيت والخروج منه، وفي بداية الطعام، وفي اتيان الرجل زوجته وفي كل أحوالهم، والأدلة على ذلك كثيرة.

وقد ابتدأ البخاري رحمه الله كتابه الصحيح بالبسملة فقال رحمه الله: "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . كَيْفَ كَانَ بَدْءَ الْوَحْيِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"، وعلق ابن حجر على هذه البداية بقوله:

ويؤيده أن أول شيء نزل من القرآن ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ فطريق التأسي به الافتتاح بالبسملة، ويؤيده أيضاً وقوع كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الملوك وكتبه في القضايا مفتوحة بالتسمية كما سيأتي في حديث أبي سفيان في قصة هرقل في هذا الباب، وفي حديث البراء في قصة سهيل بن عمرو في صلح الحديبية، وغير ذلك من الأحاديث .. (١).

(١) انظر: فتح الباري ١/١ مختصراً.

ثانياً: اختيار اسم الله (الرب) في بداية التزييل: ﴿يَاسِرَ رَبِّكَ﴾:

﴿يَاسِرَ رَبِّكَ﴾ فيه إشارة على ربوبية الله تعالى، وعنايته به وبخلقه، وتذكيرهم بهذه النعمة، فعندما خلقهم لم يتركهم سدى!! بل ربّاهم وقام على إصلاح شؤونهم .

"وعدل عن اسم: (الله) العلم إلى صفة ﴿رَبِّكَ﴾ لما يؤذن وصف الرب من الرأفة بالمربوب والعناية به، مع ما يتأتى بذكره من إضافته إلى ضمير النبي صلى الله عليه وسلم إضافة مؤذنة بأنه المنفرد بربوبيته عنده، رداً على الذين جعلوا لأنفسهم أرباباً من دون الله، فكانت هذه الآية أصلاً للتوحيد في الإسلام"^(١).

ثالثاً: من أعظم آثار الرب صفة الخلق والبدء: ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾:

مئة من الله تعالى في بداية رسالته لخلقه أن يذكرهم أنه هو الذي خلقهم، ولذلك فهو أعلم بهم وبما يصلحهم، وأنه يجب عليهم أن يشكروا تلك النعمة بالاستسلام لما سيمليه عليهم من توجيهات.

"وجاء في وصف الرب ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ لأن في ذلك استدلالاً على انفراد الله بالإلهية لأن هذا القرآن سيتلى على المشركين، وإذا كانت علة الإقبال على ذكر اسم الرب هي أنه خالقٌ دل ذلك على بطلان الإقبال على ذكر غيره مما ليس بخالق، فالمشركون كانوا يقبلون على اسم اللات واسم العزى!! وأما كون الله هو الخالق فهم يعترفون به، قال تعالى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [لقمان: ٢٥]، فلما كان المقام مقام ابتداء الإسلام دين التوحيد كان مقتضياً لذكر أدل الأوصاف على وحدانيته"^(٢).

رابعاً: تخصيص خلق الإنسان بالذكر: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾:

وهذا التخصيص سببه "أن الإنسان هو المقصود من الاستدلال إذ لا يغفل أحد من الناس عن نفسه، ولا يخلو من أن يخطر له خاطر البحث عن الذي خلقه وأوجده لذلك، وفيه تعريض بتحقيق المشركين الذين ضلوا عن توحيد الله تعالى مع أن دليل الوحداية قائم في أنفسهم"^(٣). وخص الإنسان بالذكر تشريفاً له.

خامساً: أول خلق الإنسان ومبدأه وأول مرحلة من مراحل: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾:

العلق: "جمع علقة، والعلقة الدم الجامد، سميت بذلك لأنه تعلق لرطوبتها بما تمر عليه، فإذا جفت لم تكن علقة، وأراد أن يبين قدر نعمته عليه بأن خلقه من علقة حتى صار بشراً سوياً وعقلاً مميّزاً"^(٤).

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٤٣٧.

(٢) التحرير والتنوير ٣٠/٤٣٧، باختصار وتصرف .

(٣) التحرير والتنوير ٣٠/٤٣٨، مختصراً

(٤) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/١١٩.

وفي هذا "إشارة إلى ما ينطوي في أصل خلق الإنسان من بديع الأطوار والصفات التي جعلته سلطان هذا العالم الأرضي .

ومن المعلوم أن نطفة الذكر ونطفة المرأة بعد الاختلاط ومضي مدة كافية تصيران علقه، فقد أخذت الآية في ذكر أطوار التكون؛ فجعلت العلقه مبدأ الخلق، ولم تجعل النطفة مبدأ الخلق؛ ولأن النطفة اشتهرت في ماء الرجل فلو لم تخالطه نطفة المرأة لم تصر العلقه فلا يتخلق الجنين. وفيه إشارة إلى أن خلق الإنسان من علق ثم مصيره إلى كمال أشده هو خلق ينطوي على قوى كامنة وقابليات عظيمة أقصاها قابلية العلم والكتابة"^(١) المشار إليها في الآية بعد.

سادساً: بيان كرم الله تعالى على خلقه: ﴿ أَقْرَأُ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴾ :

﴿ الْأَكْرَمُ ﴾ هو: "كثير الصفات واسعها، كثير الكرم والإحسان، واسع الجود"^(٢).

"وَوَصَفُ ﴿ الْأَكْرَمُ ﴾ مصوغٌ للدلالة على قوة الاتصاف بالكرم وليس مصوغاً للمفاضلة"^(٣).

"فدل على كمال كرمه سبحانه، بأنه علم عباده ما لم يعلموا، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم"^(٤)، وقبل ذلك خلقهم من العدم ﴿ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين: ٤]، وأرسل إليهم أفضل رسله وأنزل إليهم خير كتبه، وجعلهم الأمة الخاتمة، وأكمل لهم دينهم، ورضي لهم الإسلام ديناً، قال تعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ بِنِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣].

وجعلهم من خير أمة أخرجت للناس متى تمسكوا بهذا الدين علماً وعملاً ودعوة، قال تعالى: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

بل رحمهم بشريعة سمحة كلها تيسير ورحمة، قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۗ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

ولو تركنا المجال للحديث عن كرم الله تعالى من خلال هذه الرسالة الخالدة لن نحصيها والله يقول:

﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [النحل: ١٨].

ومن كرمه نعمة العلم بعد الجهل التي في الآية التالية :

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٤٣٨ . مختصراً

(٢) تيسير الكريم الرحمن ٩٣٠ .

(٣) التحرير والتنوير ٣٠/٤٣٦ .

(٤) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/١٢٠ .

سابعاً: المنة بتعليم الإنسان: ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾:

وذكر القلم عن سائر أدوات التعليم: "لأن القلم كان وما يزال أوسع وأعمق أدوات التعليم أثراً في حياة الإنسان، ولم تكن هذه الحقيقة إذ ذاك بهذا الوضوح الذي نلمسه الآن ونعرفه في حياة البشرية.

ويعلمنا الله سبحانه قيمة القلم، فيشير إليه في أول لحظة من لحظات الرسالة الخاتمة للبشرية، في أول سورة من سور القرآن الكريم، مع أن الرسول الذي جاء بها لم يكن كاتباً بالقلم"^(١).

قال قتادة: "القلم نعمة من الله تعالى عظيمة، لولا ذلك لم يقيم دين، ولم يصلح عيش"^(٢)، فدل "ونبه على فضل علم الكتابة، لما فيه من المنافع العظيمة، التي لا يحيط بها إلا هو.

وما دونت العلوم، ولا قيدت الحكم، ولا ضببت أخبار الأولين ومقالاتهم، ولا كتب الله المتزلة إلا بالكتابة، ولولا هي ما استقامت أمور الدين والدنيا"^(٣).

قال القرطبي: "قال علمائنا: الأقلام في الأصل ثلاثة:

الأول: الذي خلقه الله بيده وأمره أن يكتب"^(٤).

والثاني: أقلام الملائكة جعلها الله بأيديهم يكتبون بها المقادير والكوائن والأعمال"^(٥).

والثالث: أقلام الناس جعلها الله بأيديهم يكتبون بها كلامهم"^(٦).

"وهذه إشادة بالقلم وخطره، والعلم ومترلته، في بناء الشعوب والأمم وفيها إشارة واضحة بأن من أحص خصائص الإنسان العلم والمعرفة"^(٧).

ثامناً: مصدر العلم والتعلم: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾:

"إذا نظرت إلى الآية مستقلة عما تضمنه حديث عائشة في وصف سبب نزولها كان الاستئناف ناشئاً

عن سؤال يجيش في خاطر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يقول كيف: أقرأ وأنا لا أحسن القراءة والكتابة فأجيب بأن الذي علم القراءة بواسطة القلم أي بواسطة الكتابة يعلمك ما لم تعلم.

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٩٣٩ بتصرف.

(٢) جامع البيان ٢٤/ ٥١٩.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ١٢٠.

(٤) يشير إلى حديث النبي صلى الله عليه وسلم: (أول ما خلق الله القلم فقال: اكتب! قال: رب وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة) أخرجه أحمد ٥/ ٣١٧ (٢٢٧٥٧)، وابن أبي شيبة ٧/ ٢٦٤ (٣٥٩٢٢)، والترمذي (٣٣١٩) وصححه الألباني في صحيح وضعيف جامع الترمذي.

(٥) يشير إلى قوله تعالى: ﴿كَرَامًا كُنِينًا﴾ [الانفطار: ١١]، وحديث النبي صلى الله عليه وسلم: (إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون علقه مثل ذلك، ثم يكون مضغاً مثل ذلك، ثم يبعث الله ملكاً يؤمر بأربع كلمات ويقال له: اكتب عمله، ورزقه، وأجله، وشقي أو سعيد..) أخرجه البخاري كتاب بدء الخلق باب ذكر الملائكة (٣٢٠٨) والفظ له، ومسلم في القدر باب كيفية خلق آدمي في بطن أمه (٢٦٤٣).

(٦) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/ ١٢١.

(٧) في ظلال القرآن ٦/ ٣٩٣٩ بتصرف.

وإذا قرنت بين الآية وبين الحديث المذكور كان الاستئناف جواباً عن قوله لجبريل (ما أنا بقارئ) (فالمعنى: لا عجب في أن تقرأ وإن لم تكن من قبل عالماً بالقراءة إذ العلم بالقراءة يحصل بوسائل أخرى مثل الإملاء والتلقين والإلهام" (١).

وفي هذا الخبر إبراز مصدر التعليم؛ إن مصدره هو الله؛ منه يستمد الإنسان كل ما عليم، وكل ما يعلم، وكل ما يفتح له من أسرار العلم مستقبلاً؛ سواء من أسرار الحياة، أو من أسرار نفسه، فهو من ذلك المصدر الواحد الذي هو أعلم بما خلق.

"وفي هذا الحادث العظيم تظهر مكانة ومنزلة العلم في الإسلام، فأول كلمة في النبوة تصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم هي الأمر بالقراءة، وما زال الإسلام يحث على العلم، ويأمر به، ويرفع درجة أهله، ويميزهم على غيرهم، قال تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١]، وقال سبحانه: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمَلُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْمَلُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩].

إن مصدر العلم النافع من الله عز وجل، فهو الذي علم بالقلم، وعلم الإنسان ما لم يعلم، ومتى حادت البشرية عن هذا المنهج، وانفصل علمها عن التقيد بمنهج الله تعالى رجع علمها وبالاً عليها وسبباً في إبادتها (٢).

بهذا المقطع وضعت قاعدة التصور الإيماني العريضة، فكل أمر، وكل حركة، وكل عمل باسم الله يبدأ.. وباسم الله يهتدى.. وإلى الله يتجه.. وإليه يهتدى.

(١) التحرير والتنوير ٤٣٦/٣٠.

(٢) انظر: الوحي وتبليغ الرسالة، ص ٣٤.

المحور الثاني: أثر الوحي على الدعوة

عندما نقف عند سبب نزول الآيات وملايساتها من خلال حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها نجد فيها من الفوائد والعبر الشيء الكثير ومن أهمها :

أولاً : حال النبي صلى الله عليه وسلم قبل الوحي إليه :

١- أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم قبل التوجيه :

عندما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده، دخل على أم المؤمنين خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فقال: (زملوني زملوني). فزملته حتى ذهب عنه الروع، ثم لما أخبر خديجة الخبر، قال: (لقد خشيت على نفسي)، فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق^(١).

"كان موقف خديجة رضي الله عنها من خير الوحي يدل على سعة إدراكها، حيث قارنت بين ما سمعت، وواقع النبي صلى الله عليه وسلم، فأدركت أن من جُبل على مكارم الأخلاق لا يخزيه الله أبداً، فقد وصفته بأنه (يصل الرحم)، وكون الإنسان يصل أقاربه دليل على استعداده النفسي لبذل الخير والإحسان إلى الناس، فإن أقارب الإنسان هم المرآة الأولى لكشف أخلاقه، فإن نجح في احتواء أقاربه، وكسبهم بما له عليهم من معروف كان طبيعياً بأن ينجح في كسب غيرهم من الناس"^(٢).

"ولم تعرف الحياة في سنن الكون الاجتماعية أن الله تعالى جمّل أحداً من عباده بفطرة الأخلاق الكريمة، ثم أذقه الخزي في حياته، ومحمد صلى الله عليه وسلم بلغ من المكارم ذروتها، فطرة فطره الله عليها، لا تُطاول ولا تُسامى"^(٣).

فهذه هي صفات الداعية التي يجب أن تكون في الداعية لبدأ دعوته، ويحق له أن يكون داعية بحق.

٢- كان يخلو صلى الله عليه وسلم بغار حراء فيتحنث فيه:

حبب إلى نفس النبي صلى الله عليه وسلم الخلوة قبل بعثته، ليتفرغ قلبه وعقله وروحه إلى ما سيلقى إليه من أعلام النبوة، فاتخذ من غار حراء متعبداً. لينقطع عن مشاغل الحياة ومخالطة الخلق. واستجماعاً لقواه الفكرية، ومشاعره الروحية، وإحساساته النفسية، ومداركه العقلية. وتفرغاً لمناجاة مبدع الكون وخالق الوجود.

كانت هذه الخلوة التي حببت إلى نفس النبي صلى الله عليه وسلم لوئناً من الإعداد الخاص، وتصفية النفس من علائق المادية البشرية إلى جانب تعهده الخاص بالثبوتية الإلهية والتأديب الرباني في جميع أحواله،

(١) تقدم تخريج القصة.

(٢) السيرة النبوية للصلاحي ١/١٠٠.

(٣) محمد رسول الله لمحمد صادق عرجون ١/٢٣٢.

وكان تعبده صلى الله عليه وسلم قبل النبوة بالتفكير في بديع ملكوت السماوات، والنظر في آياته الكونية الدالة على بديع صنعه وعظيم قدرته، ومحكم تدبيره، وعظيم إبداعه^(١).

وهذه الخلوة مهمة لكل مسلم سواء كان حاكماً أو عالماً، أو قائداً، أو تاجراً.. لتنقية الشوائب التي تعلق بالنفوس والقلوب، ونصحح واقعنا على ضوء الكتاب والسنة، ونحاسب أنفسنا قبل أن نحاسب^(٢). وينبغي للدعاة والمربين أن يعطوا لأنفسهم فترة من الوقت للمراجعة الشاملة والتوبة، والتأمل في واقع الدعوة وما هي عليه من قوة أو ضعف واكتشاف عوامل الخلل، ومعرفة الواقع بتفاصيله، خيره وشره.

٣- الرؤيا الصالحة أول الوحي :

عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت: "أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح"^(٣). وتسمى أحياناً بالرؤيا الصادقة، والمراد بها هنا رؤى جميلة ينشرح لها الصدر وتركوها الروح^(٤)، ولعل الحكمة من ابتداء الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بالوحي بالمنام، أنه لو لم يبتدئه بالرؤيا، وأتاه الملك فجأة ولم يسبق له أن رأى ملكاً من قبل، فقد يصيبه شيء من الفزع، فلا يستطيع أن يتلقى منه شيئاً، لذلك اقتضت حكمة الله تعالى أن يأتيه الوحي أولاً في المنام ليتدرب عليه ويعتاده^(٥). والرؤيا الصالحة من البشرى في الحياة الدنيا فقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله: (أيها الناس، إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو تُرى له)^(٦). فكان صلى الله عليه وسلم قبل نزول جبريل عليه السلام عليه بالوحي في غار حراء يرى الرؤى الجميلة فيصحو منشحو الصدر، متفتح النفس لكل ما في الحياة من جمال^(٧) يراها في النوم فتجيء في اليقظة كاملة، واضحة؛ شبهتها السيدة عائشة رضي الله عنها بظهور ضوء الصبح^(٨).

وقد تحدث العلماء عن أنواع الوحي فذكروا منها:

١- الرؤيا الصادقة: وكانت مبدأ وحيه صلى الله عليه وسلم.

٢- الإلهام: وهو أن ينفث الملك في روعه - أي قلبه - من غير أن يراه كما قال عليه الصلاة

(١) محمد رسول الله لمحمد صادق عرجون ٢٥٤/١ بتصرف.

(٢) السيرة النبوية للصلاحي ٩٨ / ١.

(٣) أخرجه البخاري في المقدمة كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٣).

(٤) طريق النبوة والرسالة، حسين مؤنس ص ٢١.

(٥) منامات الرسول صلى الله عليه وسلم، عبد القادر الشيخ إبراهيم ص ٥٧.

(٦) أخرجه ابن ماجه كتاب تعبير الرؤيا باب في الدعاء في الركوع والسجود (٣٨٩٩)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن

أبي داود.

(٧) طريق النبوة والرسالة ص ٢٢.

(٨) محمد رسول الله ٢٥٤/١.

والسلام: (إن روح القدس نفث في روعي، أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب)^(١).

٣- أن يأتيه مثل صلصلة الجرس: أي مثل صوته في القوة، وهو أشده، كما في حديث عائشة رضي الله عنها: أن الحارث رضي الله عنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف يأتيك الوحي؟ فقال صلى الله عليه وسلم: (أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشد علي، فيفصم عني وقد وعيت ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول)^(٢).

٤- ما وحده الله تعالى إليه بلا وسطة تلك وثوقها لتبين صلى الله عليه وسلم في حديث خنيس

للإمام.

٥- أنه يرى لك في صورته علي خلق عليها: فوحي إليه مثل ما خلقه تعالى أن وحيه، كما في هذه

المسورة

٦- أنه صلى الله عليه وسلم كان يتمثل له الملك رجلاً: فيخاطبه حتى يعي عنه ما يقول له وفي هذه المرتبة كان يراه الصحابة أحياناً. هذا ما قاله ابن القيم عن مراتب الوحي^(٣).

ثانياً: ما حدث وقت الوحي إليه :

الشدة التي تعرض لها النبي صلى الله عليه وسلم ووصف ظاهرة الوحي:

لقد قام جبريل عليه السلام بضغط النبي صلى الله عليه وسلم مراراً حتى أجهده وأتعبه، وبقي رسول الله صلى الله عليه وسلم يلقى من الوحي شدة وتعباً وثقلاً، وكان في ذلك حكماً عظيماً لعل منها: بيان أهمية هذا الدين وعظمته وشدة الاهتمام به، وبيان للأمة أن دينها الذي تنتعم به ما جاءها إلا بعد شدة وكرب.

لقد كان وقع نزول الوحي شديداً على رسول الله صلى الله عليه وسلم كما هو واضح من النص، بالرغم من أنه كان أشجع الناس وأقواهم قلباً، كما دلت على ذلك الأحداث خلال ثلاث وعشرين سنة، وذلك لأن الأمر ليس مخاطبة بشر لبشر، ولكنه كان مخاطبة عظيم الملائكة وهو يحمل كلام الله تعالى، ليستقبله من اصطفاه الله جل وعلا لحمل هذا الكلام وإبلاغه لعامة البشر.

ولقد كان موقفاً رهيباً ومسئولية عظمى، لا يقوى عليها إلا من اختاره الله تبارك وتعالى لحمل هذه الرسالة وتبليغها^(٤).

ومما يصور رهبة هذا الموقف ما جاء في هذه الرواية من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لقد

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ٧٩/٧ (٣٤٣٣٢)، والبيهقي في شعب الإيمان ٢٩٩/٧ (١٠٣٧٦)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٨٦٦).

(٢) أخرجه البخاري كتاب بدأ الوحي باب كيف كان بدأ الوحي على رسول الله (٢).

(٣) انظر: زاد المعاد ٧٨/١ مؤسسة الرسالة.

(٤) التاريخ الإسلامي مواقف وعبر للحميدي ٦٠/١.

خشيت على نفسي) وقول عائشة رضي الله عنها في هذا الحديث: (فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها قال: (زملوني زملوني) فزملوه حتى ذهب عنه الروع).

ومما بين ثلثة نزل الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم في حث عثثة رضي لله عنها قالت (ولقد رأيتني نبي رسول لله عليه وسلم ينزل عليه الوحي في اليوم الثلث البرد فيصم عنه، وإن حيه ليصد عرقاً) ^(١) وحيث علق بن لعلت ^(٢) قل: (كلني لله صلى لله عليه وسلم إذا نزل عليه الوحي كبر لك وترت وجهه) ^(٣)!

ثالثاً: ما حصل بعد الوحي:

١- أثر المرأة الصالحة في خدمة الدعوة:

كان موقف خديجة رضي الله عنها يدل على قوة قلبها، حيث لم تفرع من سماع هذا الخبر، واستقبلت الأمر بهدوء وسكينة، ولا أدل على ذلك من ذهابها فور سماعها الخبر إلى ورقة بن نوفل، وعرضت الأمر عليه ^(٤).

لقد قلت خديجة رضي لله عنها بمر مهم في حية التي صلى لله عليه وسلم لما لها من شخصيتي مجتمع قومها، ولما جلت عليه من الكفايتي لجلات النفسية التي تقوم على لألألق العاليتي من الرحمة والحلم والحكمة والكرم وغير ذلك من مكرم لألألق قويم خديجة بذلك الدور الأكبر للإلام من لله تعالى لجميع حملة الدعوة للإسلامية علميش عظم أن يسلكوا في هذا الجلل من التلبي رسول لله صلى لله عليه وسلم حتى يتحقق لهم بلوغ لقطد العاليتي التي يبعون لتحقيقها ^(٥).

إن أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها مثال حسن، وقدوة رفيعة لزوجات الدعاة، فالداعية إلى الله ليس كباقي الرجال الذين هم بعيدون عن أعباء الدعوة، ومن الصعب أن يكون مثلهم في كل شيء، إنه صاحب هم ورسالة، وإنه يحتاج إلى زوجة تدرك واجب الدعوة وأهميته، وتدرك تماماً ما يقوم به الزوج وما يتحملة من أعباء، وما يعانيه من مشاق، فتقف إلى جانبه تيسر له مهمته وتعينه عليها، لا أن تقف عائقاً وشوكة في طريقه ^(٦).

ولأنك أن الوجة لصلالة المؤهلة لجل مثل هذه الرسالة لها دور عظيم في نجاح زوجها في مهمته في هذه الحية، وخطة لأمر التي يجلل بها النمل، فإنها وفي الدعية لوجه لصلالة خت كماله في ذلك من أهم عوامل نجاحه مع الآخر ^(٧).

(١) أخرجه البخاري كتاب بدء الوحي رقم (٢)، ومسلم كتاب الفضائل باب قوله (فيصم) رقم (٢٣٣٣).

(٢) أخرجه مسلم كتاب الفضائل باب عرق النبي صلى الله عليه وسلم في البرد وحين يأتيه الوحي رقم (٢٣٣٥).

(٣) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي ٦١/١.

(٤) المصدر السابق ٦٩/١.

(٥) انظر: وقفات تربوية من السيرة النبوية، البلاي ص ٤٠.

(٦) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي ٦٨/١.

٢- سنة تكذيب المرسلين:

لقد قال ورقة للنبي صلى الله عليه وسلم: (يا ليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أَوْ مُخْرَجِيَّ هَمْ؟) قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا) (١).

فبين له سنة من سنن الأمم مع من يدعوهم إلى الله عز وجل وهي التكذيب والإخراج، كما قال تعالى عن قوم لوط: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْظَهُرُونَ﴾ (٨٢) [الأعراف: ٨٢].

و قال قوم شعيب: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَرِهِينَ﴾ (٨٨) [الأعراف: ٨٨].

وقال تعالى عن الأنبياء جمعاً: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهَلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ (١٣) [إبراهيم: ١٣].

٣- فتور الوحي:

تحدث علماء السيرة عن فترة الوحي، قال الحافظ ابن حجر: وفتور الوحي عبارة عن تأخيره مدة من الزمان، وكان ذلك ليذهب ما كان صلى الله عليه وسلم وجده من الروح، وليحصل له التشوق إلى العود (٢).

فعن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه قال وهو يحدث- أي بحديث النبي صلى الله عليه وسلم- عن فترة الوحي: (بينما أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصري، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فرعبت منه، فرجعت فقلت: زملوني فأنزل الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الْمُدَّثِّرُ ١ قُمْ فَأَنْذِرْ ٢ وَرَبِّكَ فَكَبِيرٌ ٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ٤ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ٥﴾ [المدثر: ١-٥] فحمى الوحي وتتابع (٣).

وقد سبق الكلام عن مدته وما نزل بسببه عند تفسير قوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى: ٣].

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري كتاب بدء الوحي رقم ٤.

المطلب الثالث

صفة الطغيان عند الإنسان وعلاجها

قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ ﴿٦﴾ أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْنَى ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ﴿٨﴾﴾ من مقتضيات الحقيقة التي بينها الله في بداية السورة - وهي حقيقة أن الله هو الرب الذي خلق، وهو الذي علم، وهو الذي أكرم- أن يشكر. ولكن الذي حدث كان غير هذا ، فوقع الانحراف عن الشكر إلى الطغيان الذي بينه الله في هذا المقطع من السورة .

أولاً: الصفة الذميمة: الطغيان عند الاستغناء:

قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ ﴿٦﴾﴾ "والطغيان: مجاوزة الحد في العصيان"^(١).

"وعلة هذا الخلق ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ ﴿٦﴾﴾ إن الاستغناء يحدّث صاحبه نفسهُ بأنه غير محتاج إلى غيره، وأن غيره محتاج إليه، فيرى نفسه أعظم من أهل الحاجة، ولا يزال ذلك التوهم يربو في نفسه حتى يصبو خُلُقاً، حيث لا وازع يزعجه من دين أو تفكير صحيح، فيطغى على الناس لشعوره بأنه لا يخاف بأسهم لأن له ما يدفع به الاعتداء من لأمّة سلاحٍ وخدمٍ وأعوانٍ وعفاةٍ؛ ومنتفعين بماله من شركاء وعمال وأجراء، فهو في عزّة عند نفسه. فقد بينت هذه الآية حقيقةً نفسيةً عظيمة من الأخلاق وعلم النفس. وتّبّعت على الحذر من تغلغلها في النفس"^(٢)، وقد رُوي هذا المعنى مرفوعاً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: (منهومان لا يشبعان: طالب علم، وطالب دنيا)^(٣).

ولذلك نقول: "إن السبب الرئيسي لعدم إيمان الكثير من الناس بالله وعدم قيامهم بحقوق عبوديته هو عدم استشعارهم حاجتهم إليه، ففي ظنهم أنهم يمتلكون أسباب القوة مما يجعلهم في غنى عنه سبحانه، وعندما يستبدل حالهم من اليسر إلى العسر ومن السعة إلى الضيق، ومن الأمن إلى الخوف؛ فإنهم يتجهون بكلّيتهم إلى الله عز وجل بعد أن زالت عنهم عوارض القوة، وعاشوا في حقيقة فقرهم وضعفهم واستشعروا حاجتهم الماسة إليه سبحانه فتراهم يعودون إليه متضرعين منكسرين مخلصين له الدين..

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسِرُّكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينَكُمْ بِهِمْ بِرِيحٍ طَبَّيَّةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٢٣/٢٠.

(٢) التحرير والتنوير ٤٤٥/٣٠ بتصرف يسير.

(٣) رواه الحاكم في المستدرک ٩٢/١ من طريق قتادة، عن أنس به مرفوعاً، ورواه الطبراني في المعجم الكبير ٢٢٣/١ من طريق زيد بن وهب، عن ابن مسعود به مرفوعاً، وفي إسناده ضعف.

رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنِ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾ [يونس: ٢٢].

ولقد كان الرسل جميعاً يركزون في دعوتهم للناس على إشعارهم بحاجتهم إلى الله فيذكروهم بحجم النعم التي أنعمها عليهم سبحانه ويخوفونهم من سوء مآلهم إن هم عصوه وكفروا به^(١).

ثانياً: العلاج بالتذكر بالرجوع إلى الله :

قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجُوعَ﴾: "وهذه موعظة وتهديد على سبيل التعريض لمن يسمعه من الطغاة وتعليم للنبي صلى الله عليه وسلم وتثبيت له، أي لا يجزئك طغيان الطاغية فكذلك مرجعه إلى، ومرجع الطاغية إلى

العذاب، قال تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٣١﴾ لِلطَّغْيِينِ مَتَابًا ﴿٣٢﴾﴾ [النبا: ٢١ - ٢٢]، وهو موعظة

للطاغية بأن غناه لا يدفع عنه الموت، والموت: رجوع إلى الله، كقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ

رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴿٦﴾﴾ [الانشقاق: ٦].

وفيه معنى آخر وهو أن استغناؤه غير حقيقي لأنه مفتقر إلى الله في أهم أموره، ولا يدري ماذا يصيرُه

إليه ربه من العواقب، فلا يزدده غنى زائف في هذه الحياة. فيكون معنى ﴿الرُّجُوعَ﴾ مستعملاً في الاحتياج إلى المرجوع إليه.

وتأكيد الخبر بـ ﴿إِنَّ﴾ مُراعى فيه المعنى التعريضي؛ لأن معظم الطغاة ينسون هذه الحقيقة بحيث يتزلون منزلة من ينكرها^(٢).

"وهكذا تجتمع أطراف التصور الإيماني: .. الخلق والنشأة . والتكريم والتعليم . . ثم . . الرجعة والمآب لله وحده بلا شريك"^(٣).

(١) الإيمان أولاً كيف نبداً به ١٨٠.

(٢) التحرير والتنوير ٤٤٦/٣٠.

(٣) في ظلال القرآن ٣٩٤٢/٦.

المطلب الرابع

صورة من طغيان الإنسان وعاقبتها

أولاً: طغيان من يجارب الهدى ويكذب به ويؤذي أهله:

قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّى ﴿١٠﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى ﴿١٢﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿١٣﴾﴾

*سبب نزول الآيات :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال أبو جهل: هل يعرف محمد وجهه بين أظهركم؟ قالوا: نعم. قال: فقال: واللات والعزى لئن رأيتني يصلي كذلك لأطأن على رقبته ولأعفرن وجهه في التراب، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي ليطأ على رقبته، قال: فما فجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيديه، قال: فقيل له: ما لك؟ فقال: إن بيني وبينه خندقاً من نار وهولاً وأجنحة. قال: فقال رسول الله: (لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً) . قال: وأنزل الله: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظِرٌ ﴿١﴾﴾ آخر السورة^(١).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : قال أبو جهل: لئن رأيت محمداً يصلي عند الكعبة لأطأن على عنقه. فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: (لئن فعله لأخذته الملائكة)^(٢).

*أسلوب الآيات:

"والتشنيع والتعجيب واضح في طريقة التعبير ، التي تتعذر مجازاتها في لغة الكتابة . ولا تؤدى إلا في أسلوب الخطاب الحي، الذي يعبر بلمسات متقطعة في خفة وسرعة!

﴿أَرَأَيْتَ﴾: أرأيت هذا الأمر المستنكر؟! أرأيت يقع؟! ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّى ﴿١٠﴾﴾. أرأيت حين تضم شناعة إلى شناعة؟! وتضاف بشاعة إلى بشاعة؟! أرأيت إن كان هذا الذي يصلي ويتعرض له من ينهاه عن صلاته. ﴿إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى ﴿١٢﴾﴾؟ ثم ينهاه من ينهاه مع أنه ﴿عَلَى الْهُدَى﴾؟ أمر بالتقوى!! أرأيت إن أضاف إلى الفعل المستنكرة فعلة أخرى أشد نكراً؟ ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿١٣﴾﴾^(٣).

(١) أخرجه مسلم كتاب صفة القيامة والجنة والنار باب إن الإنسان ليطغى (٢٧٩٧).

(٢) أخرجه البخاري كتاب التفسير باب سوره اقرأ باسم ربك (٤٩٥٨).

(٣) في ظلال القرآن ٦/٣٩٤٢.

فلاستفهام هنا يفيد الإنكار والتعجب مع بيانه لحال طرفي القضية، فالناهي: مكذب ومتولي، والمنهي عبدٌ مصلي متبع لطريق الهدى والنور، هادٍ غيره إليه، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٥٢﴾ [الشورى: ٥٢ - ٥٣].

صِرَاطُ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ [الشورى: ٥٢ - ٥٣].
فليس بخيلاً ولا ضنيناً به بل هو باذل لمعرفه مع علمه به، فهو قد جمع في دعوته بين حسن القدوة وحسن الطلب مع حسن الهدى والعمل بخلاف الطرف الأول -الناهي- فقد جمع بين الكذب، وهو مخالفة الأمر للواقع عن قصد وغير قصد- بل هو إلى الأول أقرب- وبين التكذيب وهو الجحد والنكران للرب المنعم المفضل، وبين التولي والإعراض. فهو غير مستمتع ولا متعقل لما عليه الطرف المنهي وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ١٠﴾ [الملك: ١٠].
ثانياً: جزاء هذا الطغيان:

بين الله تعالى في الآيات جزاء هذا الطغيان فقال: ﴿الرَّيْلَمَ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى ١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنْتَه لَسَفَعْنَا بِالنَّاصِيَةِ ١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ١٧﴾ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ١٨﴾. فتضمنت الآيات التهديد والتخويف بأمور:

- ١ - التهديد برؤية الله تعالى والتخويف بذلك.
- ٢ - الزجر والوعيد.
- ٣ - التهديد بعدم منفعة الأصحاب المساعدين في عداء.
- ٤ - التخويف بملائكة العذاب يوم القيامة.

وإليك بيانها:

أولاً: التهديد برؤية الله تعالى والتخويف بذلك:

قال تعالى: ﴿الرَّيْلَمَ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى ١٤﴾: فهو سبحانه يرى تكذبيه وتولييه، ويرى نهيته للعبد المؤمن إذا صلى؛ وهو على الهدى؛ آمراً بالتقوى. يرى وللرؤية ما بعدها! فهذا تذكير بالله تعالى وتخويف به. قال ابن كثير: "أما علم هذا الناهي لهذا المهتدي أن الله يراه ويسمع كلامه، وسيجازيه على فعله أتم الجزاء"^(١). وهذا التهديد يؤثر على النفس تأثير عظيم فهو "يثير الهمم الراكدة، ويسيل العيون الجامدة، ويبعث على الحياء والمراقبة"^(٢). فالتخويف برؤية الله تنبيه على المراقبة.

قال الغزالي: "فلعلم أن الله مطلع على ضميرك، ومشرف على ظاهرك وباطنك، ومحيط بجميع لحظاتك، وخطراتك، وخطواتك، وسائر سكناتك وحركاتك؛ وأنت في مخالطتك وخلواتك متردد بين يديه؛ فلا

(١) تفسير القرآن العظيم ٤٣٨/٨.

(٢) تفسير الثعالبي ٢٧٠/٤.

يسكن في الملك والملكوت ساكن، ولا يتحرك متحرك، إلا وجبار السموات والأرض مطلع عليه، ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩]، و﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧] فتأدب أيها المسكين ظاهراً وباطناً بين يديه سبحانه؛ واجتهد أن لا يراك حيث هناك ولا يفقدك حيث أمرك، ولا تدع عنك التفكير في قرب الأجل، وحلول الموت القاطع للأمل، وخروج الأمر من الاختيار، وحصول الحسرة والندامة بطول الاغترار^(١).

والملاحظ أن الله تعالى هدّد وذكر وتوعد بالرؤية قبل الوعيد المفصل، وذلك لأن الرؤية تستلزم الجزاء، وهذا الذي يصد عن الصلاة وأعمال الخير لا يكون جزاءه إلا بالعذاب والنكال والخزي .

ثانياً: الزجر والوعيد:

قال تعالى: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنْتَه لَسَفَعْنَا بِالنَّاصِيَةِ﴾ [١٥] نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ . "أي: ﴿لَئِن لَّمْ يَنْتَه﴾ أبو جهل عن أذاك يا محمد، ﴿لَسَفَعْنَا﴾ أي لناخذن ﴿بِالنَّاصِيَةِ﴾ فلنذله، وقيل: لناخذن بناصيته يوم القيامة وتطوى مع قدميه، وي طرح في النار، كما قال تعالى: ﴿يَعْرِفُ الْمَجْرُمُونَ بِسِمَتِهِمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّاصِيَةِ وَالْأَقْدَامِ﴾ [الرحمن: ٤١]، وإن كانت في أبي جهل فهي عظة للناس، وتهديد لمن يمتنع أو يمنع غيره عن الطاعة .

والسفع: الجذب بشدة، أي لنجرن بناصيته إلى النار. وقيل: الضرب، أي لنلظمن وجهه. **والناصية:** مقدم الرأس. وخص الناصية بالذكر: على عادة العرب وغيرهم فيمن أرادوا إذلاله وإهانته أخذوا بناصيته^(٢).

"والأخذ من الناصية أخذ من لا يترك له تمكن من الانفلات فهو كناية عن أخذه إلى العذاب ، وفيه إذلال لأنهم كانوا لا يقبضون على شعر رأس أحد إلا لضربه أو لجره"^(٣)، كما ذكر الله ذلك عن موسى وهارون ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٠].

فهذه الصورة التي هي الجذب أو الضرب بشدة والسحب من مقدمة رأس الإنسان فيها من الذلة والمهانة لأولئك الذين يصدون عن سبيل الله؛ بل ويعادون أهل العلم والصلاح والدعوة إلى الله، فكان مصيرهم الذل والمهانة .

(١) بداية الهداية للغزالي ص ٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/١٢٥.

(٣) التحرير والتنوير ٣٠/٤٥٠.

ثم وصف الله تعالى الناصية بأنها: ﴿ نَاصِيَةٌ كَذِبَةٌ حَاطِيَةٌ ﴾: أي " كاذبة في مقالها، خاطئة في فعالها" (١).
وفي الأبحاث العلمية الحديثة يقولون: " إن دراسة التشريح لمخ الإنسان والحيوان تدل على تشابه في
وظيفة الناصية، فالناصية هي: مركز القيادة والتوجيه عند الإنسان وكذلك كل الحيوانات" (٢).

يقول الشيخ الزنداني تعليقاً على هذا الكلام: " لفت هذا القول انتباهي إلى قوله تعالى: ﴿ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا
هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [هود: ٥٦]، وتذكرت أيضاً بعض أحاديث النبي صلى
الله عليه وسلم في الناصية كقوله: (اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك ناصيتي بيدك) (٣)، وقوله: (أعوذ
بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته) (٤) وقوله: (الخيال معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة) (٥).
فإذا جمعنا معاني هذه النصوص نستنتج أن الناصية هي مركز القيادة والتوجيه لسلوك الإنسان، وكذلك
سلوك الحيوان" (٦).

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: " قال الله عز وجل: ﴿ كَلَّا لَئِن لَّرَبَّنَا لَسَفَعْنَا بِالنَّاصِيَةِ ﴾ أي: ناصية هذا المجرم
المعتدي ﴿ نَاصِيَةٌ كَذِبَةٌ حَاطِيَةٌ ﴾ لأن العادة أنه يمسك الإنسان بناصيته، ثم يؤخذ بجريمته، ولا يبعد أن
الناصية هي محل الإقدام؛ لأنها هي مقدم الرأس، والرأس هو محل التفكير والتصور، فلا يبعد أن الله أراد
هذا المعنى. وإن كان في ظني والله أعلم: أن الناس في ذلك العهد لا يعلمون بهذا الشيء، لكن لا مانع إذا
شهد الحس والأمر الواقع لمعنى صحيح يقاربه القرآن، أقول: لا مانع من أن نقول أنه دال عليه" (٧).

ثانياً: التهديد بعدم منفعة الأصحاب المساعدين في عداء الدعوة:

قال تعالى: ﴿ فَلَئِنْ نَادَيْتُهُ ﴾ "أي ﴿ فَلَئِنْ ﴾ أهل مجلسه وعشيرته، فليستنصر بهم" (٨).
فأعوان الظالمين يتخلون عنهم وقت الشدة:

(١) تفسير القرآن العظيم ٤٣٨/٨.

(٢) مؤتمر الإعجاز العلمي في القرآن والسنة في القاهرة عام ١٩٨٥، نقلاً عن كتاب بينات الرسول ومعجزاته ص ٨٦.

(٣) أخرجه أحمد ٤٥٢/١ (٤٣١٨)، قال الهيثمي في الزوائد ١٣٦/١٠ "رجاله رجال الصحيح غير أبي سلمة الجهني وقد وثقه ابن
حبان، وأخرجه الحاكم ٦٩٠/١ (١٨٧٧) وقال: صحيح على شرط مسلم، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٥٢٨).

(٤) أخرجه مسلم كتاب الذكر والدعاء باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع (٢٧١٣).

(٥) أخرجه البخاري كتاب المناقب باب ٢٨ (٣٦٤٣)، ومسلم كتاب الإمارة باب الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة
(١٨٧١).

(٦) بينات الرسول ومعجزاته ص ٨٦ - ٨٧.

(٧) لقاء الباب المفتوح عند تفسير قوله تعالى: ﴿ نَاصِيَةٌ كَذِبَةٌ حَاطِيَةٌ ﴾ اللقاء (١٥٨) فتوى رقم (١٦).

(٨) الجامع لأحكام القرآن ١٢٦/٢٠.

ففي الدنيا: كما فعل إبليس يوم بدر، قال تعالى: ﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ [الأنفال: ٤٨].

وكذلك المنافقين واليهود في الغزوات، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِنَابِ لَئِن أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نَطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ شَهِدٌ لِّئِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِن أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَصَرُوهُمْ لَيُولَّيْنَنَّ الْأَدْبَرَ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ ﴿١٢﴾ [الحشر: ١١ - ١٢]. والأمثلة على ذلك كثيرة .

أما في الآخرة: فإبليس اللعين كذلك سيتخلى عن كل من أغواهم، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَوَعَدْتَكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْلَمْوَ أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وكذلك أهل الغواية والباطل يتحلون عمّن أغووههم، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ أُتْبِعُوا مِنْ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا نَاكِرَةً فَنُتَبِّرًا مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾ [البقرة: ١٦٥ - ١٦٧] والأمثلة على ذلك كثيرة .

ثالثاً: التخويف بملائكة العذاب يوم القيامة :

قال تعالى: ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ أي: الملائكة الغلاط الشداد، وهو مأخوذ من الزبن، وهو: الدفع^(١)، سموها لأنهم يدفعون أهل النار إليها^(٢).

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي عند المقام فمر به أبو جهل بن هشام فقال: يا محمد، ألم أهلك عن هذا - وتوعده - فأغلظ له رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/١٢٦.

(٢) معالم التنزيل ٨/٤٨١.

وانتهره، فقال: يا محمد، بأي شيء تهددني؟ أما والله إني لأكثر هذا الوادي نادياً! فأنزل الله: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ (١٧) سَدَّ الزَّانِبَةَ ﴿ قال ابن عباس: لو دعا نادية لأخذته ملائكة العذاب من ساعته (١).

ثالثاً: واجب الدعوة أمام هذا الطغيان :

قال تعالى: ﴿كَلَّا لَا نُطِيعُ مَا نَسَجَدُ وَأَقْرَبَ﴾ (١١) ﴿ في ضوء هذا المصير الرهيب.. تختم السورة بتوجيه المؤمن إلى الإصرار والثبات على إيمانه وطاعته.. وذلك من خلال توجيهين:

١- عدم طاعة الطغاة: قوله: ﴿كَلَّا لَا نُطِيعُ﴾ يعني: "يا محمد، لا تطعه فيما ينهك عنه من المداومة على العبادة وكثرتها، وصلِّ حيث شئت ولا تباله؛ فإن الله حافظك وناصرك، وهو يعصمك من الناس" (٢).

وعلى غرار هذا التوجيه يأتي التحذير الدائم من الله تعالى في كتابه العزيز من طاعة أعداء الله في مواضع كثيرة من القرآن، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ [آل عمران ١٤٩]. وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾ (١٥١) الَّذِينَ يَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يَصْلِحُونَ ﴿ [الشعراء: ١٥١ - ١٥٢]، وهذا السبب في تحذير الله لعباده من طاعة الكفار والمنافقين، فإنهم يبعدون الناس عن دين الله، ويوقعونهم في الضلال والخسران والكفر بالله تعالى.

٢- التقرب لله تعالى بالطاعة: ﴿وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ :

عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء) (٣).

فالله تعالى حينما يأمر نبيه بعدم طاعة الكفار يأمره بطاعته لأنها هي المنجية له من كيد الكفار قال تعالى ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ (١٠٠) وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ، وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدِ هَدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿ [آل عمران: ١٠١]

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٣٢٩/١ (٣٠٤٥)، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٧٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم ٤٣٩/٨.

(٣) أخرجه مسلم كتاب الصلاة باب ما يقال في الركوع والسجود (٤٨٢).

١٠٠ - ١٠١]، وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يُرَدُّوكُمْ عَلَىٰ

أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ [آل عمران: ١٤٩ - ١٥٠]،

وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا

﴿١﴾ وَأَتَّبِعَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ

بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ ﴿٤﴾

، قال الشيخ السعدي: "وهذا عامٌ لكل ناه عن الخير ونهي عنه، وإن كانت نازلة في شأن أبي جهل حين
نهي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصلاة وعبث به وآذاه"^(١).

وهذا التوجيه يعطينا بعداً تربوياً لا بد للدعاة أن ينتبهوا إليه، ألا وهو التضرع لله وبيان الذلل له

والتقرب إليه خصوصاً في أيام الأزمات، فالله تعالى يقول: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا ﴿١﴾ [الأنعام:

٤٣]، وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيْتُمْ فَعِزَّةٌ فَاتَّبَتُوا وَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ

﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنزَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾ [الأنفال:

٤٥ - ٤٦].

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَد جَعَلُوا لَكُمْ فَأَخْشَوْهُمْ فزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ

وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَأَنْقَلِبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّهْمُ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ

﴿١٧٤﴾ [آل عمران: ١٧٣ - ١٧٤].

(١) تيسير الكريم الرحمن ٩٣٠.

تفسير سورة القدر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ نَزَّلَ الْمَلَكُ الْكَلِمَةَ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِّنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَّمَ هِيَ حَتَّىٰ مَطَلَعِ الْفَجْرِ ﴿٥﴾ ﴾

المبحث الأول

مقدمات حول السورة

أولاً : تسميتها:

سميت هذه السورة في المصاحف وكتب التفسير وكتب السنة (سورة القدر) وهذه التسمية هي المشهورة والمتعارف عليها ، ولكن سماها بعض العلماء (سورة ليلة القدر)^(١).

ثانياً : نزولها ومناسبتها:

عدها صاحب الإتيان من السور المختلف فيها وقال: والأكثر أنها مكية^(٢).

قال الخطابي: "لما اجتمع أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم على القرآن، ووضعوا سورة القدر عقب العلق، استدلوا بذلك على أن المراد بهاء الكناية في قوله: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ الإشارة إلى قوله: ﴿ أَقْرَأُ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ [العلق: ١]، قال القاضي أبو بكر بن العربي وهذا بديع جداً"^(٣).
أما عدد آياتها (٥) آية، وكلماتها: (٣٠) كلمة، وحروفها: (١١٢) حرفاً^(٤).

وفي سبب نزولها :

عن مجاهد رحمه الله قال : إن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر رجلاً من بني إسرائيل لبس السلاح في سبيل الله ألف شهر، فعجب المسلمون من ذلك، فترلت : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ قال: خير من التي لبس فيها السلاح ذلك الرجل^(٥).

(١) هذه التسمية عند ابن كثير في إحدى النسخ انظر: هامش تفسير ابن كثير ٤٤١/٨ وكذا ذكرها في نهاية تفسير سورة

القدر ٤٥٣/٨، والخصائص في أحكام القرآن ٣٧٣/٥، والتحرير والتنوير ٤٥٥/٣٠.

(٢) انظر: الإتيان ١٣/١. وقيل مدنية في أحد قولي ابن عباس، وذكر الواقدي أنها أول سورة نزلت بالمدينة، قال ابن عاشور التحرير

والتنوير ٤٥٥/٣٠، "إن المتبادر أنها تتضمن الترغيب في إحياء ليلة القدر، وإنما كان ذلك بعد فرض رمضان بعد الهجرة"، انظر:

الناسخ والمنسوخ لابن سلام ٢٨/١، وللمقرئ ٢٠١/١، وللنحاس ١٥٣/٣، ولابن حزم ٦٦/١. والإتيان ٢٧/١، والمحرر الوجيز

٥١٨/١٥، والجامع لأحكام القرآن ١٢٩/٢٠.

(٣) أسرار الترتيب ٢٣/١.

(٤) التفسير القرآني للقرآن ٨١/٣.

(٥) ذكره الواحدي في أسباب النزول (٤٩٥)، وابن كثير في التفسير ٤٤١/٨، والبيهقي في السنن الكبرى ٣٠٦.

وعن مجاهد قال: "كان في بني إسرائيل رجل يقوم الليل حتى يصبح، ثم يجاهد العدو بالنهار حتى يمسي، ففعل ذلك ألف شهر، فأنزل الله هذه الآية: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ قيام تلك الليلة خير من عمل ذلك الرجل"^(١).

ومناسبتها لما قبلها:

"ختمت سورة « العلق » بقوله تعالى: ﴿كَلَّا لَا نُطِيعُكَ وَأَسْجُدُ وَأَقْرَبُ﴾ وجاءت بعد ذلك سورة القدر، وفيها تنويه بشأن هذا القرآن الذي أنزل على النبي، والذي هداه ربه، وملاً قلبه إيماناً وبقينا بعظمته وجلاله.. وبهذا الإيمان الوثيق يتجه النبي إلى ربه لا يخشى وعيدا، ولا يهرب تهديدا"^(٢).

ثالثاً: موضوعها:

١- الحديث عن تلك الليلة المشهودة التي فضلها الله على غيرها بتزول الوحي من الله بالقرآن الكريم، الذي لم تشهد الأرض مثله في عظمته، وفي دلالاته، وفي آثاره في حياة البشرية جميعاً إلى قيام الساعة.

٢- بين الله فيها عدة أمور:

أ- التنويه بفضل القرآن وعظمته بإسناد إنزاله إلى الله تعالى.

ب- الرد على الذين أنكروا أن يكون القرآن متزلاً من الله تعالى.

ج- رفع شأن الوقت الذي أنزل فيه القرآن وشرفه بتزول الملائكة في ليلة إنزاله.

د- تفضيل الليلة التي توافقت ليلة إنزاله من كل عام، وتخصيص المسلمين على تحين ليلة القدر بالقيام وجميع أعمال البر.

رابعاً: المعنى الإجمالي للسورة:

يقول تعالى مبيناً لفضل القرآن وعلو قدره: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ وذلك أن الله ابتداءً بإنزاله في رمضان في ليلة القدر، ورحم الله بها العباد رحمة عامة، لا يقدر العباد لها شكراً.

ثم فحتم شأنها، وعظم مقدارها فقال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾ أي: فإن شأنها جليل، ومقدارها عظيم.

ثم فصل في هذا الفضل فقال: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ أي: تعادل في فضلها ألف شهر، فالعمل الذي يقع فيها، خير من العمل في ألف شهر خالية منها.

وذكر من فضلها: ﴿نَزَّلُ الْمَلَائِكَةَ وَالرُّوحَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي: يكثرون نزلهم فيها.

ومن فضلها: ﴿مِن كُلِّ أَمْرِ﴾ ^(٤) **سَلَّمَ هِيَ** أي: سالمة من كل آفة وشر، وذلك لكثرة خيرها، ﴿حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ أي: مبتدأها من غروب الشمس ومنتهاها طلوع الفجر^(٣).

(١) جامع البيان ٥٤٦/٢٤، تفسير القرآن العظيم ٤٤١/٨ من رواية ابن جرير عن مجاهد مرسلًا.

(٢) التفسير القرآني للقرآن ٨١/٣.

(٣) تفسير الكريم الرحمن ٩٣١ مختصراً.

المبحث الثاني

وقفات حول السورة

المطلب الأول

أنزل الله القرآن في ليلة القدر

قال تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾:

هذه الآية اشتملت على عدة فوائد منها:

- تنويه عظيم بالقرآن فافتتحت بحرف ﴿ إِنَّا ﴾، وبالإخبار عنها بالجملة الفعلية وكلاهما من طرق التأكيد والتقوية، وهذا أسلوب بليغ للرد على الذي أنكروا أن يكون القرآن منزلاً من عند الله تعالى. - وفي ضمير العظمة وإسناد الإنزال إليه تشریفٌ عظيمٌ للقرآن. وفي الإتيان بضمير القرآن دون الاسم الظاهر: إيماء إلى أنه حاضر في أذهان المسلمين؛ لشدة إقبالهم عليه، فكون الضمير دون سبق معاد إيماء إلى شهرته بينهم.
- "والمقصود من تشریف الليلة التي كان ابتداء إنزال القرآن فيها؛ تشریف آخر للقرآن بتشریف زمان ظهوره، تنبيهاً على أنه تعالى اختار لابتداء إنزاله وقتاً شريفاً مباركاً، لأن عِظَمَ قَدْرِ الفِعْلِ يقتضي أن يُختار لإيقاعه أفضل الأوقات والأمكنة، فاختيار أفضل الأوقات لابتداء إنزاله ينبئ عن علو قدره عند الله تعالى" (١).
- والآية صريحة في أن الآيات الأولى من القرآن نزلت ليلاً وهو الذي يقتضيه حديث بدء الوحي لقول عائشة رضي الله عنها فيه: (فكان يتحنث في غار حراء الليالي ذوات العدد) (٢) فكان تعبه ليلاً. وعليه يكون قول عائشة رضي الله عنها (فرجع بها رسول الله يرجف فؤاده) (٣) معناه أنه خرج صلى الله عليه وسلم من غار حراء إثر الفجر بعد انقضاء تلقيه الآيات الخمس من سورة اقرأ، إذ يكون نزولها عليه في آخر تلك الليلة، وذلك أفضل أوقات الليل، كما قال تعالى: ﴿ وَالْمُسْتَفْزِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴾ [آل عمران: ١٧] (٤).

(١) التحرير والتنوير ٤٥٨/٣٠.

(٢) أخرجه البخاري كتاب بدأ الوحي باب كيف كان بد الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣)، ومسلم كتاب الإيمان باب بدأ الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم (١٦٠).

(٣) المرجع السابق في نفس الرواية.

(٤) التحرير والتنوير ٤٥٦/٣٠-٤٥٨ بتصرف واختصار.

ولذلك أنزل الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك بقليل: ﴿يَأْتِيهَا الْمُرْمَلُ ۝١ قُرْآنَ اللَّيْلِ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِصْفَهُ ۚ أَوْ أَنْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْكَ وَأَفْوَمُ قِيلًا ۝٦﴾ [المزمل: ١ - ٦] .
-وتدل الآية على أن واجبنا تجاه القرآن:

١ قراءة القرآن في الليل، وفي الثلث الأخير من الليل، في الوقت الذي اختار الله تعالى فيه نزول القرآن، والله تعالى يتزل فيه إلى السماء الدنيا كما صح ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال: (يتزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، يقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفري فأغفر له)^(١)، وقد حث النبي صلى الله عليه وسلم على قيام ليلة القدر، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه)^(٢).

٢ تقدير القرآن واحترامه، وعدم قرائته والذهاب به إلا في الأماكن المحترمة والاستعداد لقراءته، وأن نملأ به بيوت الله - المساجد - بالتلاوة والتدارس فإنها أفضل وأطهر، بل وأحب مكان عند الله يقرأ فيه القرآن، قال تعالى: ﴿ فِي بُيُوتٍ أُذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۝٣٦﴾ [النور: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿ وَمَسْجِدٌ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ۝﴾ [الحج: ٤٠].

٣ كما أن هذه المعرفة للوقت والشرف توجب علينا أثراً في السلوك والاعتقاد تجاه هذا القرآن كما قال تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ۝﴾ [البقرة: ١٨٥] .

(١) أخرجه البخاري كتاب التهجد باب الصلاة والدعاء آخر الليل (١١٤٥)، ومسلم كتاب الصلاة باب في الليل ساعة مستجاب فيها الدعاء (٧٥٨).

(٢) أخرجه البخاري كتاب الصوم باب من صام رمضان إيماناً واحتساباً ونية (١٩٠١)، كتاب الصلاة باب في الليل ساعة مستجاب فيها الدعاء (٧٥٩).

المطلب الثاني

لماذا سميت بليلة القدر

للقدر معانٍ كثيرة كلها تفيد التعظيم والإجلال والاحترام، ومنها :

١- ليلة الحُكْم: كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبْرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾ (٣) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ [الدخان: ٣ - ٤]. قال ابن جرير: "وهي ليلة الحُكْم التي يقضي الله فيها قضاء السنة؛ وهو مصدر من قولهم: قَدَرَ اللهُ عَلَيَّ هذا الأمر، فهو يَقْدُرُ قَدْرًا"^(١).

٢- ليلة التقدير: سميت بذلك لأن الله تعالى يقدر فيها ما يشاء من أمره، إلى مثلها من السنة القابلة، من أمر الموت والأجل والرزق وغيره، قال عكرمة رحمه الله: يكتب حاج بيت الله تعالى في ليلة القدر بأسمائهم وأسماء آبائهم، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "يُكْتَبُ مِنْ أَمِّ الْكِتَابِ مَا يَكُونُ فِي السَّنَةِ مِنْ رِزْقٍ وَمَطَرٍ وَحَيَاةٍ وَمَوْتٍ، حَتَّى الْحَاجَّ"^(٢).

٣- القَدْرُ والمكانة والشرف: وإنما سميت بذلك:

- لعظمتها وقدرها وشرفها، من قولهم: لفلان قدر، أي شرف ومترلة.
- لأن من لم يكن له قدر ولا شأن يصير في هذه الليلة ذا قَدْرٍ إذا أحيأها.
- لأن للطاعات فيها قدرًا عظيمًا، وثوابًا جزيلاً.
- لأنه أنزل فيها كتاباً ذا قدر، على رسول ذي قدر، على أمة ذات قدر.
- لأنه يتزل فيها ملائكة ذوو قدر وشأن.
- لأن الله تعالى يتزل فيها الخير والبركة والمغفرة.
- لأن الله تعالى قَدَّرَ فيها الرحمة على المؤمنين^(٣).

٤- القدر: "أنه من الضيق أي: هي ليلة تضيق فيها الأرض عن الملائكة الذين يتزلون، ويشهد له قوله

تعالى: ﴿ وَمَنْ قَدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ ﴾ [الطلاق: ٧]"^(٤).

(١) جامع البيان ٥٣١/٢٤.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٢١٤/١٢، والدر المنثور ٣٩٩/٧.

(٣) انظر هذه المعاني والتعليقات في الجامع لأحكام القرآن ١٣١/٢٠ بتصرف واختصار.

(٤) زاد المسير ١٨٢/٩.

المطلب الثالث

عظم أمر ليلة القدر

قال تعالى: ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴾:

"تنويه بطريق الإبهام المراد به: أن إدراك كنهها ليس بالسهل، لما ينطوي عليه من الفضائل الجمّة، وكلمة (ما أدراك ما كذا) كلمة تقال في تفخيم الشيء وتعظيمه، والمعنى: أي شيء يُعرِّفك ما هي ليلة القدر؟ أي يعسر على شيء أن يعرفك مقدارها"^(١).

وفضيلة الزمان إنما تكون بكثرة ما يقع فيه من الفضائل، وفي تلك الليلة يُقسَم الخير الكثير الذي لا يوجد مثله، ويقع فيها من الخير الكثير والرحمة العظيمة.

وفي هذه الليلة حدثت وتحدثت أمور ذات شأن عظيم لعل من أعظمها:

١ - نزول القرآن في ليلة القدر:

قال تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: "أنزل الله القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزّة من السماء الدنيا، ثم نزل مفصلاً بحسب الوقائع في ثلاث وعشرين سنة على رسول الله صلى الله عليه وسلم"^{(٢)(٣)}.

٢ - ليلة مباركة:

قال تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾^(٤) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ^(٥) أَمْرًا مِّنْ عِنْدِنَا إِنَّا

كُنَّا مُرْسِلِينَ^(٦) [الدخان: ٣ - ٦]. "والمباركة: الكثيرة الخير، لما ينتج الله فيها من الأمور التي تتعلق بها منافع العباد في دينهم ودنياهم، ولو لم يوجد فيها إلا إنزال القرآن وحده؛ لكفى به بركة"^(٤)، لأن

القرآن مبارك قال الله تعالى: ﴿ كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾^(٧) [ص:

٢٩] ولذلك فالليلة التي نزل فيها تكون ليلة مباركة.

(١) التحرير والتنوير ٤٥٨/٣٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٤٤١/٨، وهذا الأثر مشكل وفيه دراسة مستقلة في ثبوته وفي تأويله وإن كان عمدة المؤلفين في علوم

القرآن. صححه ابن حجر في الفتح ٥-٤/٩.

(٣) تحدثنا عن بعض المعاني المهمة في هذه الآية في الوقفة الأولى.

(٤) البحر المحیط ٢١/١٠.

ومن بركتها هذه الرحمة التي يترها الله على عباده بمغفرة الذنوب لمن أحيها كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْمُبْرَكَةِ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦﴾ ﴾ [الدخان: ٣ - ٦].

وكما قال صلى الله عليه وسلم: (من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه)^(١). يقول السعدي: " كثيرة الخير والبركة، وهي ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر، فأنزل أفضل الكلام بأفضل الليالي والأيام على أفضل الأنام، بلغة العرب الكرام، لينذر به قوما عمّتهم الجهالة وغلبت عليهم الشقاوة فيستضيئوا بنوره ويقتبسوا من هداه ويسيروا وراءه فيحصل لهم الخير الدنيوي والخير الآخروي"^(٢).

٣ - نزل فيها القرآن هداية للناس وبيان وفرقان:

قال تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ﴾ [البقرة: ١٨٥]. أي: "الصوم المفروض عليكم، هو: شهر رمضان، الشهر العظيم، الذي قد حصل لكم فيه من الله الفضل العظيم، وهو: القرآن الكريم؛ المشتمل على الهداية لمصالحكم الدينية والدنيوية، وتبيين الحق بأوضح بيان، والفرقان بين الحق والباطل، والهدى والضلال، وأهل السعادة وأهل الشقاوة"^(٣).

٤ - ليلة القدر خير من ألف شهر:

قال تعالى: ﴿ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: دخل رمضان فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن هذا الشهر قد حضركم، وفيه ليلة خير من ألف شهر، من حرمها فقد حرم الخير كله، ولا يحرم خيرها إلا كل محروم)^(٤).

أما معنى الخيرية: فقال سفيان الثوري رحمه الله: بلغني عن مجاهد رحمه الله: ﴿ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ قال: عملها، صيامها وقيامها خير من ألف شهر^(٥)، والقول بأنها أفضل من عبادة ألف شهر ليس فيه ليلة القدر هو اختيار ابن جرير^(٦). قال ابن كثير: "وهو الصواب لا ما عده"^(٧).

(١) أخرجه البخاري كتاب الصوم باب من صام رمضان إيماناً واحتساباً ونية (١٩٠١)، ومسلم كتاب الصلاة باب الترغيب في قيام رمضان وهو التراويح (٧٦٠).

(٢) تيسير الكريم الرحمن ٧٧١.

(٣) تيسير الكريم الرحمن ٨٦.

(٤) أخرجه ابن ماجة كتاب الصيام باب فضل شهر رمضان (١٦٤٤)، قال الألباني: حسن صحيح (١٣٣٣)، وانظر صحيح الترغيب (٩٨٩ و ٩٩٠).

(٥) جامع البيان ٥٤٥/٢٤، وتفسير القرآن العظيم ٤٤١/٨.

(٦) جامع البيان ٤٥٧/٢٤.

(٧) تفسير القرآن العظيم ٤٤١/٨.

قال السعدي: " وهذا مما تتحير فيه الألباب، وتندesh له العقول، حيث من الله تبارك وتعالى على هذه الأمة الضعيفة القوة والقوى، بليلة يكون العمل فيها يقابل ويزيد على ألف شهر، عمر رجلٍ معمرٍ عمراً طويلاً نيفاً وثمانين سنة" (١).

قال الإمام مالك في موطأه من رواية ابن القاسم وغيره: سمعت من أثق به يقول: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرى أعمار الأمم قبله، فكأنه تقاصر أعمار أمته ألا يبلغوا من العمل مثل ما بلغ غيرهم في طول العمر، فأعطاه الله تعالى ليلة القدر، وجعلها خيراً من ألف شهر (٢).

٥ - الملائكة تنزل في هذه الليلة :

قال تعالى: ﴿ نَزَّلُ الْمَلَائِكَةَ وَالرُّوحَ فِيهَا ﴾، أي: " يكثر تنزل الملائكة في هذه الليلة لكثرة بركتها، والملائكة يتنزلون مع تنزل البركة والرحمة، كما يتنزلون عند تلاوة القرآن ويحيطون بحلق الذكر، ويضعون أجنحتهم لطالب العلم بصدق تعظيماً له" (٣).

٦ - ليلة فرق فيها من كل أمر حكيم :

قال تعالى: ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾، وهذا المعنى كذلك مأخوذ من قوله تعالى: ﴿ نَزَّلُ الْمَلَائِكَةَ وَالرُّوحَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴾ وذلك إذا قلنا بالوقف عند رأس الآية .

٧ - هذه الليلة أذن الله تعالى لشريعته أن تحكم الأرض وأن تسود:

وذلك بعد ضلال وشرك استمر فترة طويلة: قال تعالى: ﴿ نَزَّلُ الْمَلَائِكَةَ وَالرُّوحَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ أي: "بأمر ربهم" (٤)، فلا يقوم أمر ولا تبدأ دعوة ولا ينفذ أمر إلا بعد إذن الله تعالى، والله تعالى يقول: ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [التكوير: ٢٩]. فالملائكة وجبريل لم يتزلوا على نبينا محمد إلا

بإذن الله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ٩٧].

وهذا الأمر واضح في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾ (٥) ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ (٦) ﴿ أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ (٥) رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (٦).

فقوله تعالى: ﴿ أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا ﴾، إشارة إلى ابتداء أمر جديد من الله لإصلاح البشرية، وقوله: ﴿ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾. إشارة إلى أن هذه الليلة بدأت فيها الرسالة المحمدية .

(١) تيسير الكريم الرحمن ٩٣١.

(٢) شعب الإيمان ١٧٩/٨ ح ٣٥١٢، موطأ مالك ٤٣٨/٢ ح ٧٠٦ باب ما جاء في القدر .

(٣) تفسير القرآن العظيم ٤٤٤/٨.

(٤) تفسير القشيري ٩٤/٨.

ولم يقم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بالدعوة إلا بعد إذن الله له قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [النساء: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿ الرَّكَّةُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ [إبراهيم: ١] بل كل الرسل لم يقوموا بالدعوة إلا بعد إذن الله تعالى، قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِبَيِّنَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [الرعد: ٣٨]. وقد قام نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بأمر ربه وإذنه حتى أتاه اليقين، ثم أكمل المسيرة لتطبيق ذلك الإذن وتعليم تلك الأوامر صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم من بعدهم إلى أن جاء هذا العصر ونحن نرى أن شريعة الله وتوحيد الله تعالى يسري بين الناس بقوة مصداقاً لحديث النبي صلى الله عليه وسلم: (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك)^(١).

نعم. إن تلك الفئة موجودة في كل عصر تطبق إذن الله تعالى فتدعو لأن يكون الدين كله لله، كما قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٣].

وهذا الإظهار والسيادة والنصر لا يكون إلا بإذن الله كما قال تعالى: ﴿ كُمْ مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةٌ كَثِيرَةٌ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤٩]. وقال تعالى: ﴿ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٥١]. وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ نَخَفْ اللَّهَ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [الأنفال: ٦٦].

نسأل الله كما أذن لشريعته أن تحكم الأرض وأن تسود، بأن يتم هذا النعمة علينا، وأن يمكن لدينه في الأرض، وأن يفتح له قلوب الناس، وأن يستعملنا لذلك ولا يستبدلنا.

٨ - هذه الليلة سالمة من كل شر: ﴿ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴾ [سَلَّمَ هِيَ]

قال مجاهد: سلام هي من كل أمر. وفي قوله: ﴿ سَلَّمَ هِيَ ﴾ قال مجاهد: هي سالمة، لا يستطيع الشيطان أن يعمل فيها سوءاً أو يعمل فيها أذى، وقال ابن زيد: هي خير كلها، ليس فيها شر إلى مطلع الفجر^(٢). وكلمة ﴿ سَلَّمَ ﴾ نكرة، والنكرة للعموم فأخبر الله تعالى عن هذه الليلة بأنها سلام بالنكرة للمبالغة في السلام الذي سيأتي على الناس والخير الذي سيعمهم في دنياهم وأخراهم.

(١) أخرجه مسلم كتاب الإمارة باب لا تزال طائفة من أمتي.. (١٩٢٠).

(٢) تفسير القرآن العظيم ٤٤٤/٨.

٩ - تسلم الملائكة على أهل المساجد :

قال تعالى: ﴿سَلَّمُوهَا حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾، فعن أبي إسحاق عن الشعبي قال: "تسليم الملائكة ليلة القدر على أهل المساجد حتى يطلع الفجر وهذا المعنى يستفاد منه"^(١).

١٠ - خفران ما تقدم من الذنوب :

عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه)^(٢)، وهذه جائزة من الله تعالى لمن قام هذه الليلة حق القيام.

(١) تفسير القرآن العظيم ٤٤٤/٨ ، من رواية الشعبي ، وذكره البيهقي في فضائل الأوقات ١١٩/١ (١٠٩).

(٢) تقدم تخريجه.

المطلب الرابع

تعيين ليلة القدر

أولاً: ما ورد في تعيين ليلة القدر:

وقد ورد في تعيين هذه الليلة آثار كثيرة: بعضها يعين الليلة السابعة والعشرين من رمضان، وبعضها يعين الليلة الحادية والعشرين، وبعضها يعينها ليلة من الليالي العشر الأخيرة، وبعضها يطلقها في رمضان كله ومنهم من يقول أنها ثابتة لا تتنقل، والبعض يقول بتنقلها^(١).

ولكن نحن إذا نظرنا في أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم نجدها على النحو التالي :

— يدلنا على وقتها من الشهر: أن "من فضائل الشهر المبارك: أن فيه ليلة القدر، والدليل أن الله تعالى

قال في القرآن العظيم: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ [القدر ١] وقال: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ

الْقُرْآنُ ﴾ [البقرة ١٨٥] فإذا جمعت بين الدليلين صارت النتيجة: أن ليلة القدر في رمضان"^(٢).

— ثمَّ يَحْتَسِنُ عَلَى الْإِهْتِمَامِ بِالْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنَ الشَّهْرِ: فعن عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله صلى

الله عليه وسلم قال: (تَحَرَّوْا لَيْلَةَ الْقَدْرِ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ)^(٣).

— ثمَّ يَدْفَعُنَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْعَنَاءِ بِأَوْتَارِ الْعَشْرِ: فيقول عليه الصلاة والسلام: (تحروا

ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر من رمضان)^(٤).

— وحين يخشى على بعض المسلمين الضعف يوصيهم بالعناية بالسبع البواقي: فيقول صلى الله عليه

وسلم: (التمسوها في العشر الأواخر فإن ضعف أحدكم أو عجز فلا يغلبن على السبع البواقي)^(٥).

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : أن رجلاً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أروا ليلة

القدر في المنام في السبع الأواخر من رمضان، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أرى رؤيا كم

قد تواطأت في السبع الأواخر، فمن كان متحريها فليتحرها في السبع الأواخر)^(٦).

(١) انظر الروايات في تفسير القرآن العظيم ٤٤٧/٨-٤٥١، وفتح الباري ٣٠٠-٣١٦ فقد جمعا جملة طيبة من الأحاديث والآثار وأقوال العلماء في المسألة زادت على أربعين قولاً.

(٢) اللقاء الشهري لابن عثيمين ٦١.

(٣) أخرجه البخاري كتاب فضل ليلة القدر باب تحري ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر (٢٠٢٠)، ومسلم كتاب الصيام باب فضل ليلة القدر والحث على طلبها وبيان محلها وأرجى أوقات طلبها (١١٦٩).

(٤) أخرجه البخاري كتاب فضل ليلة القدر باب تحري ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر (٢٠١٧).

(٥) أخرجه مسلم كتاب الصيام باب فضل ليلة القدر والحث على طلبها وبيان محلها وأرجى أوقات طلبها (١١٦٥).

(٦) أخرجه البخاري كتاب فضل ليلة القدر باب التماس ليلة القدر في السبع الأواخر (٢٠١٥)، ومسلم كتاب الصيام باب فضل ليلة القدر والحث على طلبها وبيان محلها وأرجى أوقات طلبها (١١٦٥).

- ثم بين صلى الله عليه وسلم أن أوتار سبعمها بالتحري ليلة سبع وعشرين: فقال صلى الله عليه وسلم: (من كان متحريها فليتحرها ليلة سبع وعشرين. وقال: تحروها ليلة سبع وعشرين)^(١). وقد كان أبي بن كعب رضي الله عنه يحلف أنها ليلة السابع والعشرين فعنه قال: " والله الذي لا إله إلا هو، إنها لفي رمضان -يحلف ما يستثني- والله إني لأعلم أي ليلة القدر، هي: التي أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بقيامها، هي ليلة سبع وعشرين. وأمارتها أن تطلع الشمس في صبيحة يومها بيضاء لا شعاع لها^(٢) .

- **أما في ليلة إحدى وعشرين:** وذلك في رواية أبي سعيد الخدري رضي الله عنه حيث قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم اعتكف العشر الأول من رمضان ثم اعتكف العشر الأوسط في قبة تركية على سدتها حصير - قال - فأخذ الحصير بيده فنحاهما في ناحية القبة ثم أطلع رأسه فكلّم الناس فدنوا منه فقال: (إني اعتكفت العشر الأول ألتمس هذه الليلة ثم اعتكفت العشر الأوسط ثم أتيت فقيل لي: إنها في العشر الأواخر. فمن أحب منكم أن يعتكف فليعتكف). فاعتكف الناس معه قال: (وإني أريتها ليلة وتر وأنى أسجد صبيحتها في طين وماء)، فأصبح من ليلة إحدى وعشرين وقد قام إلى الصبح، فمطرت السماء فوكف المسجد^(٣) فأبصرت الطين والماء، فخرج حين فرغ من صلاة الصبح وجبينه وروثة أنفه^(٤) فيهما الطين والماء، وإذا هي ليلة إحدى وعشرين^(٥).

- **أما ليلة ثلاث وعشرين:** فعن عبد الله بن أنيس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (أريت ليلة القدر ثم أنسيتها، وأراني صبحها أسجد في ماء وطين)، قال فمطرنا ليلة ثلاث وعشرين فصلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فانصرف وإن أثر الماء والطين على جبهته وأنفه^(٦).
وعلى هذا: قال ابن حجر بعد عرضه لأقوال العلماء في المسألة والروايات والآثار: " وأرجحها كلها : أنها في وتر من العشر الأخير وأنها تنتقل، وأرجاها أوتار العشر"^(٧).

(١) أخرجه أحمد ٢٧/٢ ح (٤٨٠٨). قال الهيثمي في مجمع الزوائد: ورجاله رجال الصحيح، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٢) أخرجه مسلم كتاب صلاة المسافر باب الترغيب في الدعاء والذكر آخر الليل والإجابة فيه (٧٦٢).

(٣) وكف المسجد: أي قطر سقفه بالماء. انظر الفتح ١/٢٠٧.

(٤) ورثة أنفه: أي طرف الأنف ويقال لها الأرنبة. انظر شرح النووي على مسلم ٣/٢٥٧.

(٥) أخرجه البخاري كتاب فضل ليلة القدر باب تحري ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر (٢٠١٨)، ومسلم كتاب الصيام باب فضل ليلة القدر والحث على طلبها وبيان محلها وأرجى أوقات طلبها (١١٦٧) واللفظ له.

(٦) أخرجه مسلم كتاب الصيام باب فضل ليلة القدر والحث على طلبها وبيان محلها وأرجى أوقات طلبها (١١٦٨).

(٧) فتح الباري ٤/٣١٣.

فليلة القدر مخفية وهي تنتقل بين أوتار العشر، ولها علامات تبينها، والواجب على من أراد إدراك ليلة القدر أن يتحراها في العشر الأواخر من رمضان وأن يستعد لها حق الاستعداد من بداية رمضان ويتأكد مع بداية العشر الأواخر، وأشد ما يكون رجاؤها في أوتارها.

ثانياً: الحكمة من إخفاء الله عين هذه الليلة:

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ليخبرنا بليلة القدر، فتلاحى رجلان من المسلمين، فقال: (خرجت لأخبركم بليلة القدر، فتلاحى فلان وفلان، فرفعت، وعسى أن يكون خيراً لكم، فالتمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة)^(١).

فقوله: (وعسى أن يكون خيراً لكم) يعني: "عدم تعيينها لكم، فإنها إذا كانت مبهمة اجتهد طلابها في ابتغائها في جميع محال رجائها، فكان أكثر للعبادة، بخلاف ما إذا علموا عينها فإن المهمم تتقاصر على قيامها فقط. وإنما اقتضت الحكمة إبهامها لتعم العبادة جميع الشهر في ابتغائها، ويكون الاجتهاد في العشر الأواخر أكثر"^(٢).

ولهذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتكف العشر الأواخر من رمضان، حتى توفاه الله عز وجل. ثم اعتكف أزواجه من بعده^(٣). وفي رواية عن ابن عمر رضي الله عنهما: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتكف العشر الأواخر من رمضان^(٤). وقالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل العشر: أحيا الليل، وأيقظ أهله، وشد المنزر^(٥). وفي رواية لمسلم: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجتهد في العشر ما لا يجتهد في غيره)^(٦).

قال ابن عاشور: "وحكمة إخفاء تعيينها إرادة أن يكرر المسلمون حسناتهم في ليالٍ كثيرة توخياً لمصادفة ليلة القدر كما أخفيت ساعة الإجابة يوم الجمعة"^(٧).

(١) أخرجه البخاري كتاب فضل ليلة القدر باب رفع ليلة القدر لتلاحى الناس (٢٠٢٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم ٤٥١/٨.

(٣) أخرجه البخاري كتاب الاعتكاف باب الاعتكاف في العشر الأواخر (٢٠٢٦)، ومسلم كتاب الاعتكاف باب الاعتكاف في العشر الأواخر من رمضان (١١٧٢).

(٤) أخرجه البخاري كتاب الاعتكاف باب الاعتكاف في العشر الأواخر (٢٠٢٥) ومسلم كتاب الاعتكاف باب الاعتكاف في العشر الأواخر من رمضان (١١٧١).

(٥) أخرجه البخاري كتاب فضل ليلة القدر باب العمل في العشر الأواخر من رمضان (٢٠٢٤) ومسلم كتاب الاعتكاف باب الاجتهاد في العشر الأواخر من شهر رمضان (١١٧٤).

(٦) أخرجه مسلم كتاب الاعتكاف باب الاجتهاد في العشر الأواخر من شهر رمضان (١١٧٥).

(٧) التحرير والتنوير ٤٦٢/٣٠.

قال ابن حجر: " قال العلماء : الحكمة في إخفاء ليلة القدر ليحصل الاجتهاد في التماسها، بخلاف ما لو عينت لها ليلة لاقتصر عليها، كما تقدم نحوه في ساعة الجمعة، وهذه الحكمة مُطَرِّدَةٌ عند من يقول إنها في جميع من السنة وفي جميع رمضان أو في جميع العشر الأخير أو في أوتاره خاصة، إلا أن الأول ثم الثاني أليق به"^(١).

ثالثاً: علامات ليلة القدر:

ورد في الأحاديث السابقة علامات لتلك الليلة وهذه من عاجل بشرى المؤمن في الدنيا، ولكن إذا لم تُرى تلك العلامات فلا يعنى هذا أن ليلة القدر لم تحصل وإنما قد يراها قوم ولا يراها قوم كما ذكر ذلك ابن حجر"^(٢) ومن العلامات:

- ١ - قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن أمارة ليلة القدر أنها صافية بِلَجَّة، كأن فيها قمراً ساطعاً، ساكنة سحبية، لا برد فيها ولا حر، ولا يحل لكوكب يُرمى به فيها حتى تصبح، وأن أمارتها أن الشمس صبيحتها تخرج مستوية، ليس لها شعاع مثل القمر ليلة البدر، ولا يحل للشيطان أن يخرج معها يومئذ)^(٣). وقال أبي: "وأمارتها أن تطلع الشمس في صبيحة يومها بيضاء لا شعاع لها"^(٤).
- ٢ - وعن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في ليلة القدر: (ليلة سمحة طلقة، لا حارة ولا باردة، وتصبح شمس صبيحتها ضعيفة حمراء)^(٥).
- ٣ - قوله صلى الله عليه وسلم: (وإني أريتها ليلة وتر وأنى أسجد صبيحتها في طين وماء)^(٦).

(١) فتح الباري ٣١٣/٤.

(٢) فتح الباري ٣١٣/٤.

(٣) أخرجه أحمد ٣٢٤/٥ (٢٢٨١٧)، قال ابن كثير في التفسير ٤٤٤/٨: وإسناد هذا الحديث حسن، وفي المتن غرابة، وفي بعض ألفاظه نكارة. وقال شعيب الأرناؤوط: الشطر الأول من الحديث حسن وأما الشطر الثاني فمحمّل للتحسين لشواهد وإسناد هذا الحديث ضعيف، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٧٥/٣ رواه أحمد ورجاله ثقات.

(٤) تقدم تخريجه .

(٥) أخرجه الطيالسي ٣٤٩/١ (٢٦٨٠)، والبيهقي في شعب الإيمان ٣٣٤/٣ (٣٦٩٣)، قال الألباني صحيح انظر صحيح الجامع (٥٤٧٥).

(٦) تقدم تخريجه .

المطلب الخامس

ماذا يستحب في هذه الليلة

في هذه الليلة العظيمة المشهودة يجب أن نقوم بأمر كثيرة، فعلينا أن نتحرى هذه الليلة من أيام العشر الأواخر من رمضان، وأن نجتهد في جمع هذه الأيام لأننا لا نعلم متى هي؟ والذي سينتظرها ويجتهد من بداية العشر إلى نهايتها فحريٌّ به إدراكها.
وأهم الأمور التي تُتحرى بها ليلة القدر:

- ١ التوبة إلى الله تعالى من جميع الذنوب صغيرها وكبيرها .
 - ٢ قيام ليلة القدر إيماناً بالله واحتساباً للأجر من الله: ففي الحديث المتقدم: (من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه)^(١).
 - ٣ الإكثار من فعل كل الطاعات التي يمكن القيام بها .
 - ٤ العفو عن الناس وسلامة الصدر لهم لأن الله تعالى في هذه الليلة عفو كريم : فعن عبد الله بن بريدة، أن عائشة قالت: يا رسول الله، إن وافقت ليلة القدر فما أدعو؟ قال: (قولي: اللهم إنك عفو تحب العفو، فاعف عني)^(٢).
 - ٥ رد الحقوق لأهلها وطلب السماح والعفو منهم .
 - ٦ قراءة القرآن والتعاهد على تطبيقه وحفظه حروفاً وحدوداً.
 - ٧ أمر خاص بالدعاة وهو " أنه حين نتأمل في واقع الناس اليوم نرى خيراً كثيراً وحرصاً أكيداً من معظم الناس على إحياء هذه الليلة الشريفة والظفر ببركتها، لكن هذا الحرص سيزداد كثيراً حين ينبري العلماء الربانيون والدعاة المخلصون فيكونوا قدوة حسنة للناس في قيامها والاجتهاد في إحيائها بالعبادات، كما يزداد حسناً حينما يتم التخلص من بعض جوانب القصور، والتي تحول دون استثمار أمثل لهذا الموسم المبارك وتلك المنح العظيمة من المحسن الجواد عز وجل"^(٣).
- فلنجعل من العشر الأواخر عموماً، ومن ليلة القدر خصوصاً نقطة انطلاق في هذه الأمور لأن الإنسان إذا تعود فعلها في العشر الأواخر مراتٍ عديدة تحرياًً ليلة القدر فستصبح عنده سجيةً وستغرس في

(١) تقدم تخريجه .

(٢) أخرجه أحمد ١٧١/٦ ح (٢٥٤٢٣). قال: شعيب الأرنؤوط : إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين .

(٣) هكذا كان النبي صلى الله عليه وسلم في رمضان ١٣٩ .

نفسه طوال العام ليأتي العام القابل في نفس الوقت ليجدد العهد مع الله تعالى لمواصلة المسير لصالح نفسه ومجتمعه، والأمة جميعاً والبشرية جمعاء.

"فالإسلام ليس شكليات ظاهرية . ولذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في القيام في هذه الليلة أن يكون (إيماناً واحتساباً).. وذلك ليكون هذا القيام استجاباً للمعاني الكبيرة التي اشتملت عليها هذه الليلة (إيماناً)، وليكون تجرداً لله وخلوصاً (واحتساباً).. ومن ثم تنبض في القلب حقيقة معينة بهذا القيام . ترتبط بذلك المعنى الذي نزل به القرآن" (١) .

فلذلك كانت هذه الليلة ليلة التغيير كما قدرها الله تعالى، تغييراً للنفوس وتجديداً للإيمان وللحياة وللواقع بأسره، فأثرها ليس في يومها فقط ولكن كل يوم، بل كل عام، بل إلى قيام الساعة، فهي ليلة مباركة. وقول الله تعالى: ﴿سَلِّمُوا هِيَ حَتَّى مَطَلَعِ الْفَجْرِ﴾ مما يعلمنا الله به أن النصر والتمكين لا يأتي إلا بعد شدة الظلمة، والعباد إذا أتقنوا العبادة إلى وقت الفجر وباتوا قائمين لله ويعملون ويجاهدون أنفسهم على الصلاة والقيام وعبادة الله تعالى وصلّوا الفجر في جماعة، سيطلع عليهم الفجر وسيأتيهم السلام والخير.

(١) في ظلال القرآن ٦/٣٩٤٤.

تفسير سورة البينة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفِكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ (١) رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفًا مُطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قِيمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ﴿٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ حَشِيَ رَبَّهُ ﴿٨﴾

المبحث الأول

مقدمات حول السورة

أولاً: تسميتها :

لها عدة أسماء :

- ١ - (لم يكن الذين كفروا): وردت هذه التسمية فيما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأبي بن كعب رضي الله عنه: (إن الله أمرني أن أقرأ عليك ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ قال: وسماي لك؟ قال: نعم. فبكى) (١).
- ٢ - (لم يكن): وسميت هذه التسمية في معظم كتب التفسير (٢) وكتب السنة (٣).
- ٣ - (سورة القيمة): في بعض المصاحف وكذلك في بعض التفاسير (٤).
- ٤ - (سورة البينة): في بعض المصاحف والتفاسير (٥).

(١) أخرجه البخاري كتاب التفسير باب سورة لم يكن (٤٩٥٩)، ومسلم كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم باب من فضائل أبي بن كعب وجماعة من الأنصار رضي الله تعالى عنهم (٧٩٩)، والترمذي كتاب الفضائل باب فضل أبي بن كعب رضي الله عنه (٣٧٩٢).

(٢) جامع البيان ٥٥١/٢٤، تيسير الكريم الرحمن ٩٣١، تفسير القرآن العظيم ٤٥٤/٨، المحرر الوجيز ٥٢٦/١٥، الجامع لأحكام القرآن ١٤٠/٢٠.

(٣) أخرجه البخاري كتاب التفسير باب: {كلا لمن لم ينته}، المستدرک ١٨٧/٩، ومستخرج أبي عوانة ٢٣٤/٨.

(٤) الحجة في القراءات السبع ٣٧٤/١، الإتيان ١٥٥/١.

(٥) ابن أبي حاتم ٤٣٧/١٢، والبغوي ٤٩٣/٨.

٥ - " (سورة أهل الكتاب): ذكره السيوطي عن مصحف أبي^(١).

٦ - وسميت سورة (البرية)^(٢).

٧ - وسميت (سورة الانفكاك)^(٣).

فهذه سبعة أسماء كل منها يركز على كلمة لها معنى في السورة ، والله تعالى أعلم .

ثانياً: نزولها ومناسبتها:

قال القرطبي: بأنها مدنية ونسب ذلك إلى الجمهور وابن عباس^(٤).

وقد استدلل ابن كثير على أنها مدنية بحديث أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله صلى

الله عليه وسلم لأبي بن كعب: (إن الله أمرني أن أقرأ عليك: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾) قال: وسماي لك؟

قال: (نعم) فبكى^(٥)، قال السيوطي: "وقد جزم ابن كثير بأنها مدنية واستدل به"^(٦)^(٧).

قال القرطبي: "وفيه من الفقه قراءة العالم على المتعلم لأنه إنما قرأ النبي صلى الله عليه وسلم على أبي

ليعلم الناس التواضع لئلا يأنف أحد من التعلم والقراءة على من دونه في المترلة"^(٨).

أما عدد آياتها (٨) آية، وكلماتها: (٧٤) كلمة، وحروفها: (٣٩٩) حرفاً^(٩).

مناسبتها لما قبلها:

تضمنت "سورة «القدر» تنويها بالليلة المباركة التي نزل فيها القرآن الكريم ، فنالت بشرف نزوله

فيها هذا القدر العظيم الذي ارتفعت به على الليالي جميعاً .. والتنويه بليلة القدر — يتضمن — تنويها

بالقرآن الكريم ، وأن الاتصال به يكسب الشرف ويعلى القدر للأزمان والأمكنة والأشخاص.

وسورة «البيّنة» تحدّث عن هذا القرآن ، وعن رسول الله الحامل لهذا القرآن ، وموقف الكافرين من

أهل الكتاب والمشركين ، من القرآن ، والرسول الداعي إلى الله بالقرآن .. ومن هنا كان الجمع بين

السورتين قائماً على هذا الترابط القويّ ، الذي يجعل منهما وحدة واحدة."^(١٠).

(١) الإتيان ١/١٥٥، وانظر نظم الدر ٩/٤٩٠.

(٢) إملاء ما من به الرحمن ٢/٢٩١، التبيان في إعراب القرآن ٢/٢٩١، الإتيان ١/١٥٥.

(٣) الناسخ والمنسوخ لابن سلام ١/٢٧، الإتيان ١/١٥٥.

(٤) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/١٣٨. واختلف في أنها مكية أو مدنية. قال ابن عطية: الأشهر أنها مكية وهو قول جمهور المفسرين

وهذا عكس ما قاله القرطبي، المحرر الوجيز ١٥/٥٢٦.

(٥) تقدم تخريجه .

(٦) الإتيان ١/٤٥ في تحرير السور المختلف فيها .

(٧) تفسير القرآن العظيم ٨/٤٥٤ .

(٨) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/١٣٩.

(٩) التفسير القرآني للقرآن ٣/٨٢.

(١٠) المصدر السابق، بتصرف.

ثالثاً: موضوعها:

تضمنت السورة:

- ١- توبيخ المشركين وأهل الكتاب على تكذيبهم بالقرآن والرسول صلى الله عليه وسلم.
- ٢- التعجب من تناقض حالهم إذ هم ينتظرون أن تأتيهم البينة فلما أتتهم البينة كفروا بها.
- ٣- تكذيبهم في ادعائهم أن الله أوجب عليهم التمسك بالأديان التي هم عليها.
- ٤- وعيدهم بعذاب الآخرة، وكذلك التسجيل عليهم بأثم شر البرية.
- ٥- الثناء على الذين آمنوا وعملوا الصالحات ووعدهم بالنعيم الأبدي ورضى الله عنهم وإعطائه إياهم ما يرضيهم^(١).

ولذا فإن "السورة تعرض أربع حقائق كما يلي:

الحقيقة الأولى: هي أن بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم كانت ضرورية لتحويل الذين كفروا من أهل الكتاب ومن المشركين عما كانوا قد انتهوا إليه من الضلال والاختلاف، وما كانوا ليتحولوا عنه بغير هذه البعثة .

الحقيقة الثانية: أن أهل الكتاب لم يختلفوا في دينهم عن جهالة ولا عن غموض فيه، إنما اختلفوا من بعد ما جاءهم العلم وجاءهم البينة .

الحقيقة الثالثة: أن الدين في أصله واحد، وقواعده سهلة واضحة، لا تدعو إلى التفرق والاختلاف في ذاتها وطبيعتها السهلة الميسرة .

والحقيقة الرابعة: أن الذين كفروا بعد ما جاءهم البينة هم شر البرية، وأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم خير البرية . ومن ثم يختلف جزاء هؤلاء عن هؤلاء اختلافاً بيناً^(٢) .

رابعاً: المعنى الإجمالي للسورة:

يقول الله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ أي: اليهود والنصارى ﴿وَالْمُشْرِكِينَ﴾ تاركين كفرهم حتى تأتيهم العلامة التي وعدوا بها في الكتب السابقة، وهي ﴿رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: محمد صلى الله عليه وسلم، ﴿يَنْلُؤُا﴾ قرآناً في صحف مطهرة، وفي تلك الصحف ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ أي: أخبار صادقة وأوامر عادلة، تهدي إلى الحق وإلى صراط مستقيم.

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٤٦٨ .

(٢) في ظلال القرآن ٦/٣٩٤٧-٣٩٤٨ باختصار.

ثم بين تعالى أنه ما اختلف الذين أوتوا الكتاب من اليهود والنصارى في كون محمد صلى الله عليه وسلم رسولا حقاً؛ لما يجدونه من نعته في كتابهم، إلا من بعد ما تبينوا أنه النبي الذي وعدوا به في التوراة والإنجيل، فكانوا مجتمعين على صحة نبوته، فلما بعث جحدوها وتفرقوا.

﴿ وَمَا أُمِرُوا ﴾ في سائر الشرائع ﴿ إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ وحده قاصدين بعبادتهم وجهه، ﴿ حُنَفَاءَ ﴾ مائلين عن الشرك إلى الإيمان، ﴿ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيَوْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ﴾ أي: الاستقامة، وهو الإسلام.

ثم يقول تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ من اليهود والنصارى ﴿ وَالْمُشْرِكِينَ ﴾ عقابهم ﴿ نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴾ أي: أشد الخليقة شرا.

﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴾ ﴿ ٧ ﴾ ﴿ جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ يوم القيامة ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ ﴾ أي: إقامة واستقرار في منتهى الحسن، ﴿ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا أَنْهَارٌ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ فقبل أعمالهم الصالحة، ﴿ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ بما أعد لهم من أنواع الكرامات، ﴿ ذَلِكَ ﴾ الجزء الحسن ﴿ لِمَنْ حَسِيَ رَبُّهُ ﴾ أي: خاف الله واجتنب معاصيه^(١).

(١) انظر: التفسير الميسر ص ٥٩٨ - ٥٩٩.

المبحث الثاني وقفات مع السورة

المطلب الأول

إصرار الكفار مع احتياجهم إلى رسالة جديدة

قال تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفِكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۗ﴾ (١)

أي: "لم يكن الذين كفروا من اليهود والنصارى والمشركون من عبدة الأوثان والنيران" (١).

﴿مُنْفِكِينَ﴾ "أي: منفصلين متفرقين" (٢) "عن كفرهم وضلالهم الذي هم عليه، أي: لا يزالون في

غيهم وضلالهم، لا يزيدهم مرور السنين إلا كفراً ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ الواضحة والبرهان الساطع" (٣).

"فقد كانت الأرض في حاجة ماسة إلى رسالة جديدة؛ إذ كان الفساد قد عمَّ أرجاءها كلها بحيث لا يرتجى لها صلاح إلا برسالة جديدة، وكان الكفر قد تطرق إلى عقائد أهلها جميعاً، سواء أهل الكتاب الذين عرفوا الديانات السماوية من قبل ثم حرفوها، أو المشركين في الجزيرة العربية وفي خارجها سواء" (٤).

وهذا المعنى قرره الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم في قوله: (ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا.. وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فاحتالتهن عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً. وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم (٥) عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب..) (٦).

"ثم إن كلمة ﴿حَتَّى﴾ لانتهاء الغاية، فهذه الآية تقتضي أنهم صاروا منفكين عن كفرهم عند إتيان الرسول صلى الله عليه وسلم، وهذا يقتضي أن كفرهم قد ازداد عند مجيء الرسول صلى الله عليه وسلم" (٧).

(١) تفسير القرآن العظيم ٤٥٦/٨.

(٢) المحرر الوجيز ٥٢٧/١.

(٣) تيسير الكريم الرحمن ٩٣١.

(٤) في ظلال القرآن ٣٩٤٨/٦.

(٥) المقت: أشد البغض.

(٦) أخرجه مسلم كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار (٢٨٦٥)

(٧) التحرير والتنوير ٤٦٩/٣٠.

وهذه "الآيات وردت مورد إقامة الحجة؛ على الذين لم يؤمنوا من أهل الكتاب، وعلى المشركين بأنهم متنصلون من الحق متعللون للإصرار على الكفر عناداً، كأنه قيل: كنتم تقولون لا نترك ما نحن عليه حتى تأتينا البينة!! وهذا تعريض بالتوبيخ بأسلوب الإخبار المستعمل في إنشاء التعجب أو الشكاية من صلف المخبر عنه، وهو استعمال عزيز بديع"^(١).

وحاصل المعنى: أنكم كنتم تقولون لا نترك ما نحن عليه من الدين حتى تأتينا البينة، أي العلامة التي وعدنا بها.

وقد حكى الله عن اليهود أنهم قالوا مثل ذلك: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عٰهَدَ إِلَيْنَا آلا نُوْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾ [آل عمران: ١٨٣]. وقال عنهم: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ [البقرة: ٨٩].

وعن النصارى بقوله تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصف: ٦].

وقال عن الفريقين: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

وحكى ذلك عن المشركين بقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوْ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرٍ﴾ [القصص: ٤٨]، وقولهم: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأُولُونَ﴾ [الأنبياء: ٥].

"و لم يختلف أهل الكتابين في أنهم أخذ عليهم العهد بانتظار نبي ينصر الدين الحق وجعلت علاماته دلائل تظهر من دعوته"^(٢).

"وكلمة ﴿الْبَيِّنَةُ﴾ تعبر عن المعنى الوارد في كلامهم، ولذلك نرى مادتها متكررة في آيات كثيرة من القرآن في هذا الغرض كما في قوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ أَوْ لَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةٌ مَّا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ﴾ [طه: ١٣٣] وقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ وقوله: ﴿مِن بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُمُ

(١) التحرير والتنوير ٤٧١/٣٠.

(٢) التحرير والتنوير ٤٧٣/٣٠.

أَلْحَقُ ﴿١﴾ وقال عن القرآن: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ﴾ [البقرة: ١٨٥] (١).

"و ﴿ مِنْ ﴾ في قوله ﴿ مِنْ أَهْلِ الْكُتُبِ وَالْمُشْرِكِينَ ﴾. بيانية بيان للذين كفروا، وإنما قدم أهل الكتاب على المشركين هنا مع أن كفر المشركين أشد من كفر أهل الكتاب؛ لأن لأهل الكتاب السبق في هذا المقام، فهم الذين بثوا بين المشركين شبهة انطباق البينة الموصوفة بينهم، فأيدوا المشركين في إنكار نبوة محمد صلى الله عليه و سلم بما هو أتقن من ترهات المشركين - إذ كان المشركون أميين لا يعلمون شيئاً من أحوال الرسل والشرائع- فلما صدمتهم الدعوة المحمدية فزعوا إلى اليهود ليتلقوا منهم ما يردون به تلك الدعوة، وخاصة بعدما هاجر النبي صلى الله عليه و سلم إلى المدينة" (٢).

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٤٧٤.

(٢) التحرير والتنوير ٣٠/٤٧٥.

المطلب الثاني

صفات البينة

قال تعالى: ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾﴾ .
فسر الله تعالى البينة بقوله :

- ١ - ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: "أرسله الله، يدعو الناس إلى الحق.
 - ٢ - ﴿يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ وأنزل على الرسول زيادة في البينة كتاباً يتلوه؛ ليعلم الناس، ويزكيهم، ويخرجهم من الظلمات إلى النور.
- صفة هذا الكتاب أنه ﴿صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ أي: محفوظة عن قربان الشياطين، لا يمسه إلا المطهرون، لأنها في أعلى ما يكون من الكلام"^(١).
- "وما كانوا لينفكوا المشركون وأهل الكتاب ليتحولوا عن هذا الكفر الذي صاروا إليه إلا بهذه البينة المتمثلة في الرسالة الجديدة، وعلى يد رسول يكون هو بينة واضحة فارقة فاصلة"^(٢).
- "الظاهر أن الرسول الموعود به في كتبهم يوصف بأنه يتلو صحفاً مطهرة، والتلاوة: إعادة الكلام دون زيادة عليه ولا نقص منه، سواء كان كلاماً مكتوباً، أو محفوظاً عن ظهر قلب. ففعل ﴿يَتْلُو﴾ مؤذن بأنه يقرأ عليهم كلاماً لا يُبدلُ ألفاظه، وهو الوحي المنزل عليه صلى الله عليه وسلم.
- والصحف: الكتب"^(٣)، وهي جمع صحيفة، وهي الورقة أو اللوح أو ما أشبه ذلك مما يكتب به"^(٤).
- "والوحي المنزل على الرسول سُمِّيَ كتاباً في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ فِي ذَٰلِكَ لِرَحْمَةٍ وَذِكْرٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١] وقوله: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لِآرْتَابِ الْمُبِطُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].
- ووصفت الصحف بـ ﴿مُطَهَّرَةً﴾؛ وهو وصف مشتق من الطهارة، أي كون معانيه لا لبس فيها ولا تشتمل على ما فيه تضليل. وهذا تعريض ببعض ما في أيدي أهل الكتاب من التحريف والأوهام"^(٥).

(١) تيسير الكريم الرحمن ٩٣١ بتصرف .

(٢) في ظلال القرآن ٣٩٤٨/٦ بتصرف .

(٣) معالم التنزيل ٤٩٣/٨ .

(٤) تفسير جزء النبأ للعثيمين ٢٧٧ .

(٥) التحرير والتنوير ٤٧٦/٣٠ بتصرف .

٣ - ﴿فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ﴾ "ثم زاد البينة أكثر بأن وصف ما في الصحف التي أنزلت على الرسول صلى الله عليه وسلم بأنها أخبار صادقة، وأوامر عادلة تهدي إلى الحق وإلى صراط مستقيم، فإذا جاءتهم هذه البينة، فحينئذ يتبين طالب الحق ممن ليس له مقصد في طلبه، ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢]"^(١).

"والقيمة: المستقيمة أي شديدة القيام الذي هو هنا الكمال والصواب، وهذا من تشبيه المعقول بالمحسوس، لاستعداده للعمل النافع، وضده العوج قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۗ﴾ [الكهف: ١] أي: لم يجعل فيه نقص الباطل والخطأ"^(٢).

"والكتاب يطلق على الموضوع - كما يقال كتاب الطهارة وكتاب الصلاة، وكتاب القدر، وكتاب القيامة، وهذه الصحف المطهرة وهي هذا القرآن ﴿فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ﴾ أي موضوعات وحقائق قيمة"^(٣).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩] وبلا شك فكل ما تضمنه القرآن فهو حقائق يقينية .

فالقرآن أنزله الله هادياً وطريقاً ولم يترله ألغازاً^(٤) وترانيم^(٥)، ولذا قال شيخ الإسلام رحمه الله: " لا يجوز أن يكون الله أنزل كلاماً لا معنى له، ولا يجوز أن يكون الرسول صلى الله عليه وسلم وجميع الأمة لا يعلمون معناه كما يقول ذلك من يقوله من المتأخرين!! وهذا القول يجب القطع بأنه خطأ. فإن الدلائل الكثيرة من الكتاب والسنة وأقوال السلف على أن جميع القرآن مما يمكن علمه وفهمه وتدبره وهذا مما يجب القطع به"^(٦).

(١) تيسير الكريم الرحمن ٩٣٢ بتصرف .

(٢) التحرير والتنوير ٤٧٧/٣٠ .

(٣) في ظلال القرآن ٣٩٤٨/٦ .

(٤) الألغاز: ألغز الكلام أي عمي مراده وأضمره على خلاف ما أظهره. انظر: اللسانه/٤٠٥، والقاموس المحيط ص٦٧٤ .

(٥) الترانيم: من الترنم وهو التطريب والتغني وتحسين الصوت. انظر اللسان ٢٥٦/١٢ .

(٦) مجموع الفتاوى ٣٩٠/١٧ مختصراً.

المطلب الثالث

تفرق أهل الكتاب مع وجود البينة عندهم

قال تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾

ثم بين الله تعالى سنة الذين كفروا " أنه لم يؤمن أهل الكتاب لهذا الرسول وينقادوا له، فليس ذلك ببدع من ضلالهم وعنادهم، فإنهم ما تفرقوا واختلفوا وصاروا أحزاباً ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ التي توجب لأهلها الاجتماع والاتفاق. ولكنهم لرداءتهم ونذالتهم، لم يزدتهم الهدى إلا ضلالاً ولا البصيرة إلا عمى" (١).

"فيقرر الله تعالى أن أهل الكتاب خاصة لم يتفرقوا ويختلفوا في دينهم عن جهل أو عن غموض في الدين أو تعقيد، إنما تفرقوا واختلفوا ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، و﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ من دينهم على أيدي رسلهم" (٢).

والمراد بالتفرق: "تفرق أهل الكتب المتزلة على الأمم قبلنا، بعد ما أقام الله عليهم الحجج والبيانات تفرقوا واختلفوا في الذي أراده الله من كتبهم، واختلفوا اختلافاً كثيراً، كما جاء في الحديث المروي من طرق: (والذي نفس محمد بيده لتتفرقن أمتي على ثلاث وسبعين فرقة فواحدة في الجنة، واثنان وسبعون في النار)" (٣) (٤).

قال ابن جرير: "وما تفرَّق اليهود والنصارى في أمر محمد صلى الله عليه وسلم، فكذبوا به، إلا من بعد ما جاءهم البينة، يعني: من بعد ما جاءت هؤلاء اليهود والنصارى البينة، يعني: أن بيان أمر محمد أنه رسول بإرسال الله إياه إلى خلقه، يقول: فلما بعثه الله تفرقوا فيه، فكذب به بعضهم، وآمن بعضهم، وقد كانوا قبل أن يُبعث غير مفترقين فيه أنه نبي" (٥).

(١) تيسير الكريم الرحمن ٩٣٢ بتصرف .

(٢) في ظلال القرآن ٦/٣٩٥٠.

(٣) أخرجه ابن ماجه كتاب الفتن، باب افتراق الأمم (٣٩٩٢)، وأبو داود كتاب السنة باب شرح السنة (٤٥٩٦)، والترمذي كتاب الإيمان باب ما جاء في افتراق هذه الأمة (٢٦٤١)، وابن أبي عاصم في كتاب السنة (٦٣)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه، ٢/٣٦٤. وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن ابن ماجه، وقد ورد هذا الحديث عن أبي هريرة، وأنس، وسعد بن أبي وقاص، ومعاوية، وعمر بن عوف المزني، وعوف بن مالك، وأبي أمامة، وجابر بن عبد الله -رضي الله عنهم- قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى ٣/٣٤٥: "الحديث الصحيح المشهور" وانظر: تخريج أحاديث الكشاف للزيلعي ١/٤٤٧-٤٥٠.

(٤) تفسير القرآن العظيم ٨/٤٥٧.

(٥) جامع البيان ٢٤/٥٤٠.

"تفرق بني إسرائيل بين مكذب لعيسى عليه السلام ومؤمن به، وما آمن به إلا نفر قليل من يهود، وجعل التفرق كناية عن إنكار البينة لأن تفرقهم كان اختلافاً في تصديق بينة عيسى عليه السلام كقوله:

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ۗ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾ [البقرة: ٢١٣] (١).

"ويجوز أن يكون المراد بهذه البينة الثانية- التي تفرقوا عليها- هي محيى عيسى عليه الصلاة والسلام فإن الله أرسله كما وعدهم أنبياءهم أمثال إلياس واليسع وأشعياى عليهم الصلاة والسلام" (٢).

ولا شك أن ذلك كله واقع فهم لو لم يتفرقوا فيما جاءهم به أنبيائهم موسى وعيسى وغيرهم عليهم السلام لم بتفرقوا بعدُ فيما جاءهم به محمد صلى الله عليه وسلم؛ فإن الإيمان بالأنبياء يستلزم ذلك،

وترك الإيمان ببعضهم أو ببعض ما جاءوا به يستلزم التفرق أيضاً كما قال تعالى: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا

أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ۗ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ ۖ وَكُتُبِهِ ۖ وَرُسُلِهِ ۖ لَا تَفْرُقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ۗ وَقَالُوا

سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۗ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة: ٢٨٥]. وعابهم على ذلك فقال: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ

بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۗ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۗ وَيَوْمَ

الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [البقرة: ٨٥].

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٤٧٨.

(٢) التحرير والتنوير ٣٠/٤٧٨.

المطلب الرابع

من صفة البيئة جمعها أصول الشرائع

قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾.

فبيّن الله تعالى أن الكتب كلها جاءت بأصل واحد، ودين واحد فما أمروا في سائر الشرائع إلا:

١- ﴿لِيَعْبُدُوا اللَّهَ﴾: والعبودية هي: "اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة"^(١).

"واللام في ﴿لِيَعْبُدُوا﴾ بمعنى: أن، كقوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ [النساء: ٢٦] أي أن يبين"^(٢)،
"العرب تجعل اللام في موضع أن في الأمر كثيراً"^(٣) وعلى هذا فاللام هنا تفيد الأمر.

"والجمله حالية، أي: والحال أنهم ما كلفوا في كتابهم بما كلفوا به لشيء من الأشياء إلا لأجل عبادة الله تعالى"^(٤)، ولذلك جاء بصيغة المضارع تنبيهاً على أن حالتهم يجب أن تكون في عبادة مستمرة من غير

توقف، وفي كل شؤونهم كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢].

وعلى هذا فالعبادة داخلية في كل أعمال الإنسان الظاهرة والباطنة فأركان الإسلام تمثل العبادة الظاهرة، وأركان الإيمان تمثل العبادة الباطنة والذي يجمع بينهما وبين شعب الإيمان يصل إلى درجة الإحسان التي هي: (أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك)^(٥) فالتوكل والخوف والذل والرجاء وغيرها من العبادات القلبية داخلية في الإحسان الذي لا يتم إلا إذا تم الإسلام والإيمان.

والعبودية هي التي يطلق عليها العلماء توحيد الألوهية فهي مستلزمة لتوحيد الربوبية.

"والعبادة ما وجبت لكونها مفضية إلى ثواب الجنة، أو إلى البعد عن عقاب النار، بل لأجل أنك عبّ وهو رب، فلو لم يحصل في الدين ثواب ولا عقاب البتة، ثم أمرك بالعبادة. وجبت لمحض العبودية. وفيها أيضاً إشارة إلى أنه من عبد الله للثواب والعقاب؛ فالمعبود في الحقيقة هو الثواب والعقاب.

(١) العبودية ٣.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٤٤/٢٠.

(٣) معاني القرآن للقرطبي ٢٨٢/٣.

(٤) روح المعاني ٢٦١/٣٠.

(٥) أخرجه البخاري كتاب الإيمان باب سؤال جبريل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة (٥٠).

ومسلم في كتاب الإيمان باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان (٩ و ١٠).

ولا بد في كون الفعل عبادة من شيئين: غاية التعظيم، وأن يكون مأموراً به^(١).

٢- ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾: "قاصدين بجميع عباداتهم الظاهرة والباطنة وجه الله، وطلب الزلفى لديه"^(٢).

قال صلى الله عليه وسلم: (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى ..)^(٣).

فلا شك أن أثر الإخلاص عظيم، وخطر الرياء جسيم في حياة العابدين والناس أجمعين، قال سفيان الثوري: "ما عالجت شيئاً أشد علي من نيي"^(٤)، ذلك أن آفات الإخلاص كثيرة والشهوات والمطامع لا تنقطع، فكم ممن خرج إلى ربه مخلصاً ولكن تحولت النية وتقلبت به الأهواء.

٣- ﴿حُنَفَاءَ﴾: أي: "معرضين مائلين عن سائر الأديان المخالفة لدين التوحيد"^(٥)، "والحنيف في كلام العرب: المستقيم المخلص ولا استقامة أكثر من الإسلام، وعن مجاهد: متبعين"^(٦) "وقال أبو قلابة: الحنيف الذي يؤمن بالرسول كلهم من أولهم إلى آخرهم"^(٧).

وقيل: "الحنف هو إقبال القدم وميلها إلى أختها، فالحنف الميل عن الشيء بالإقبال على آخر. فالدين الحنيف هو: الإقبال على الله وحده، والإعراض عما سواه. وهو الإخلاص الذي ترجمته كلمة الحق والكلمة الطيبة لا إله إلا الله"^(٨).

٤- ﴿وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾: أمر الله تعالى بإقامة الصلاة بكل ما تشمله من أركان وواجبات، وإقامتها: أدائها في وقتها، في جماعة المسجد، والسعي إليها بأدب، وتسوية الصفوف، والخشوع. "إقامتها: بحدودها وفروضها وأوقاتها"^(٩).

وللصلاة قيمتها وقدرها في الإسلام:

- فالصلاة هي أحد أركان الإسلام العملية. قال رسول الله ﷺ: (بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم رمضان)^(١٠).

(١) تفسير الرازي ٤٤/٣٢-٥٤.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ٩٣١.

(٣) أخرجه البخاري كتاب بدء الوحي باب كيف كان بدء وحي النبي صلى الله عليه وسلم (١).

(٤) تذكرة السامع والمتكلم ٦٨.

(٥) تيسير الكريم الرحمن ٩٣١.

(٦) در التعارض بين العقل والنقل ٤/٢٨٢.

(٧) تفسير القرآن العظيم ٤٤٨/١.

(٨) مجموع الفتاوى ٣١٩/٩.

(٩) تفسير القرآن العظيم ٦/٣٣٨.

(١٠) أخرجه البخاري كتب الإيمان باب قول النبي ﷺ: (بني الإسلام على خمس) (٨). ومسلم كتاب الإيمان باب أركان الإسلام

ودعائمه العظام (١٦).

- وهي من السمات التي تتسم بها هذه الأمة من حيث الاهتمام، وقد جعلها الشارع مدار قبول باقي الأعمال الأخرى، وهي كما قال رسول الله ﷺ: (أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته، فإن صلحت فقد أفلح وأنجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر)^(١).

- ومن أهميتها أمر الله بالمحافظة عليها في الحضر والسفر، والأمن والخوف، والصحة والمرض، وفي كل حال. قال تعالى: ﴿ حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوَسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ [البقرة ٢٣٩].

- وعلى هذا فالصلاة أعظم سبب في تقويم حياة الناس وسلوكهم ومعاشهم، وتقويم ما يقعون فيه من انحراف كما قال تعالى: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ [العنكبوت ٤٥].
- وبالصلاة يمحو الله الخطايا: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (أرأيتم لو أن نهرًا بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات، هل يبقى من درنه شيء. قالوا: لا يبقى من درنه شيء. قال: فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا)^(٢).

- والصلاة دليل على صدق الإيمان. قال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [الذين هم في صلاتهم خاشعون] [المؤمنون ١-٢].

- وفي الصلاة إعانة على مقاومة الجزع والهلع عند مس الضر، والمنع عند الخير، والتغلب على جوانب الضعف الإنساني. قال تعالى: ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴾ [إذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا] [وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرٌ مَنُوعًا] [إِلَّا الْمُصَلِّينَ] [الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ] [المعارج ١٩-٢٣].

- وترك الصلاة من الأمور العظيمة في مخالفة أمر الله، قال تعالى عن الكفار واعترافهم يوم القيامة: ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ﴾ [قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ] [المدثر ٤٢]، وقال رضي الله عنه: (العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر)^(٣).

(١) أخرجه أبو داود كتاب الصلاة باب قول النبي ﷺ (كل صلاة لا يتمها صاحبها تتم من تطوعه) (٨٦٤)، وابن ماجه كتاب إقامة الصلاة باب أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة (١٤٢٥) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٠٢٠).

(٢) أخرجه البخاري كتاب مواقيت الصلاة باب الصلوات الخمس كفارة (٥٢٨)، ومسلم كتاب المساجد باب المشي إلى الصلاة تمحا به الخطايا وترفع به الدرجات (٦٦٧).

(٣) أخرجه الترمذي كتاب الإيمان باب ترك الصلاة (٢٦٢٣) وقال الإمام الترمذي حديث حسن صحيح. وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢١١٣)، وصحيح سنن ابن ماجه (١٠٧٩).

- والصلاة من العبادات المشتركة بين كل الشرائع فقد قال عن إبراهيم عليه السلام: ﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ﴾ [إبراهيم: ٤٠] وقال عن عيسى عليه السلام: ﴿ وَجَعَلْنِي مُبَارِكًا آمِنًا مَا كُنْتُ وَأَوْصِنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ [مریم: ٣١] وقال عن إسماعيل عليه السلام: ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴾ [مریم: ٥٥] وقال عن زكريا عليه السلام: ﴿ فَنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [آل عمران: ٣٩].

٥- ﴿ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ﴾:

"وهي لغة: النماء والزيادة، يقال: زكا الزرع إذا نما وزاد.

وشرعاً: التبعّد لله تعالى بإخراج جزء واجب شرعاً في مال معين لطائفة أو جهة مخصوصة"^(١).

"فسميت زكاة لما يكون فيها من رجاء البركة، وتركية النفس وتنميتها بالخيرات"^(٢).

"وخص الصلاة والزكاة بالذكر مع أنهما داخلان في قوله: ﴿ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ لفضلهما

وشرفهما، وكونهما العبادتين اللتين من قام بهما قام بجميع شرائع الدين"^(٣).

وكذلك لأن في الصلاة القيام بحق الله تعالى، وفي الزكاة قيام بحق المخلوقين، وكثيراً ما يربط الله بين

هذين الواجبين في القرآن .

ومعنى "إيتاء الزكاة أي أداء حق المال طاعة لله وقربى عن رضى نفس ورغبة. فلكو كاة عبادة مالية. وهذه

هي ميزة المنهج الإسلامي الذي يحقق أهدافاً شتى بالفريضة الواحدة فلكو كاة تعني اسمها ومدلولها؛ إنها

قبل كل شيء: طهارة ونماء، إنها زكاة للضمير؛ بكونها عبادة لله، وبالشعور الطيب المصاحب لها تجاه

الإخوة الفقراء. بما أنها عبادة لله يرجو عليها فاعلها حسن الجزاء في الآخرة، كما يرجو منها نماء المال في

الحياة الدنيا بالبركة- وبالنظام الاقتصادي المبارك- ثم بالشعور الطيب في نفوس الفقراء الآخذين أنفسهم

؛ إذ يشعرون أنها فضل الله عليهم إذ قررها لهم في أموال الأغنياء، ولا يشعرون معها بالحقد والتشفي

من إخوانهم الأغنياء. مع تذكر أن الأغنياء في الإسلام لا يكسبون إلا من حلال، ولا يجورون على حق

أحد وهم يجمعون نصيبهم من المال"^(٤).

(١) الشرح الممتع ١٢/٦-١٣.

(٢) فقه السنة ٤٥٩/١.

(٣) تيسير الكريم الرحمن ٩٣٢.

(٤) في ظلال القرآن ٣٩٣/٢ بتصرف.

ثم وصف الله تعالى هذه الأوامر وهذه الأصول بأنها: ﴿وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾: أي التوحيد والإخلاص في الدين، مع القيام - حق القيام- بحق الله، وحق خلقه؛ ابتداء من النفس وشمولاً لجميع الخلق، قياماً بالعدل والإحسان، مع تعلق القلب بالله، وإخلاص العمل له في كل ذلك .

﴿دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ أي: "الدين المستقيم الموصل إلى جنات النعيم، وما سواه فطرق موصلة إلى الجحيم"^(١) أعاذنا الله منها.

(١) تيسير الكريم الرحمن ٩٣٢ .

المطلب الخامس

جزاء أهل الإيمان وجزاء أهل الكفر

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ۖ﴾ (٦)
إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ۖ ﴿٧﴾ جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ. ﴿٨﴾

"إن محمداً صلى الله عليه وسلم هو خاتم الرسل عليهم الصلاة والسلام كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝٤٠﴾ [الأحزاب: ٤٠] ؛
وإن الإسلام الذي جاء به هو الرسالة الأخيرة كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا
لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا ۖ﴾ [المائدة: ٤٨].

وقد كانت الرسل تتوالى كلما فسدت الأرض لترد الناس إلى الصلاح. وكانت هناك فرصة بعد فرصة ومهلة بعد مهلة، لمن ينحرفون عن الطريق، فأما وقد شاء الله أن يختم الرسالات إلى الأرض بهذه الرسالة الأخيرة الجامعة الشاملة الكاملة، فقد تحددت الفرصة الأخيرة، فإما إيمان فنجاة، وإما كفر فهلاك. ذلك أن الكفر حينئذ دلالة على الشر الذي لا حد له ، وأن الإيمان دلالة على الخير البالغ أمدته"^(١).

أولاً: جزاء الكفار من أهل الكتاب والمشركين :

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ

﴿٦﴾

"يجزر تعالى عن مآل الفجار، من كفره أهل الكتاب، والمشركين المخالفين لكتب الله المتزلة وأنبياء الله المرسله: أنهم يوم القيامة: ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: ماكتين، لا يحولون عنها ولا يزولون ﴿أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ۖ﴾ (٦) أي: شر الخليقة التي برأها الله وذراها"^(٢).

"حكم قاطع لا جدال فيه ولا محال، مهما يكن من صلاح بعض أعمالهم وآدابهم ونظمهم ما دامت تقوم على غير إيمان، بهذه الرسالة الأخيرة، وبهذا الرسول الأخير، لا نستريب في هذا الحكم لأي مظهر من مظاهر الصلاح، المقطوعة الاتصال بمنهج الله الثابت القويم"^(٣).

(١) في ظلال القرآن ٦/٣٩٥٢.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٨/٤٥٧.

(٣) في ظلال القرآن ٦/٣٩٥٢ بتصرف.

ثانياً: جزاء المؤمنين بالنبي صلى الله عليه وسلم وبما جاء به :

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴿٨﴾

"إنه حكم قاطع لا جدال فيه ولا محال. ولكن شرطه واضح لا غموض فيه ولا احتيال. إنه الإيمان. لا مجرد مولد في أرض تدعى الإسلام، أو في بيت يقول: إنه من المسلمين. ولا بمجرد كلمات يتشدد بها الإنسان! وليس هو الكلام الذي لا يتعدى الشفاه! إنه الإيمان الذي ينشئ آثاره في واقع الحياة: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾. والصالحات هي: كل ما أمر الله بفعله؛ من عبادةٍ وخُلُقٍ وعَمَلٍ وتعاملٍ. فهي إقامة شريعة الله في الأرض، والحكم بين الناس بما شرع الله. فمن كانوا كذلك فهم خير البرية"^(١).

﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بما قاموا به من مرضيه، ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ بما أعد لهم من أنواع الكرامات وجزيل المثوبات"^(٢) في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور: ٥٥]. "إن هذا الرضا من الله وهو أعلى وأندى من كل نعيم.

وهذا الرضا في نفوسهم عن ربهم؛ الرضا عن قدره فيهم، والرضا عن إنعامه عليهم، والرضا بهذه الصلة بينه وبينهم.

الرضا الذي يغمر النفس بالهدوء والطمأنينة والفرح الخالص العميق. إنه تعبير يلقي ظلالة بذاته..

﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ حيث يعجز أي تعبير آخر عن إلقاء مثل هذه الظلال!"^(٣).

"قيل: ذلك الرضا في الدنيا؛ ورضاه عنهم هو ما أظهره عليهم من أمارات رحمته وغفرانه، ورضاهم عنه: هو رضاهم بجميع ما قَسَمَ لهم من جميع الأرزاق والأقدار.

قال بعض الصالحين: رضى العباد عن الله: رضاهم بما يرد من أحكامه. ورضاه عنهم: أن يوفقهم للرضل عنه.

وقال أبو بكر بن طاهر: الرضا عن الله خروج الكراهية عن القلب حتى لا يكون إلا فرح وسرور. وقال السري: إذا كنت لا ترضى عن الله فكيف تطلب منه الرضا عنك؟.

(١) في ظلال القرآن ٦/٣٩٥٣ بتصرف.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ٩٣٢ .

(٣) في ظلال القرآن ٦/٣٩٥٣.

وقيل: ذلك الرضا في الآخرة؛ فرضاهم عنه: رضاهم بما منّ به عليهم من النعم. ورضاهم عنه هو: ما روي أن الله تعالى يقول لأهل الجنة: (يا أهل الجنة. يقولون: لبيك ربنا وسعديك. فيقول هل رضيتم فيقولون: وما لنا لا نرضى!! وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك. فيقول: أنا أعطيتكم أفضل من ذلك. قالوا: يا رب!! وأي شيء أفضل من ذلك؟! فيقول: أُحِلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً)^(١)^(٢).

والآية عامة فتشمل كل الرضا العاجل في الدنيا والآجل في الآخرة.

(١) أخرجه البخاري كتاب الرقاق باب صفة الجنة والنار (٦٥٤٩)، ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها باب إحلال الرضوان على أهل الجنة (٢٨٢٩).

(٢) المحرر الوجيز ١٥/٥٣١-٥٣٢ بتصرف يسير .

الوقفة السادسة

سبب حصول الخير للمؤمنين

قال تعالى: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ "يعني: أن السبب الذي أنالهم ذلك الجزاء هو خشيتهم الله، فإنهم لما خشوا الله توقعوا غضبه إذا لم يصغوا إلى ما يقول لهم، فأقبلوا على النظر في دلائل صدق الرسول فاهتدوا وآمنوا.

وأما الذين آثروا حظوظ الدنيا فأعرضوا عن دعوة رسول من عند الله ولم يتوقعوا غضب مرسله فبقوا في ضلالهم" (١). ﴿ذَلِكَ﴾ الجزاء الحسن ﴿لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ أي: لمن خاف الله، فأحجم عن معاصيه، وقام بواجباته" (٢).

"وذلك هو التوكيد الأخير. التوكيد على أن هذا كله متوقف على صلة القلب بالله، ونوع هذه الصلة، والشعور بخشيته؛ خشية تدفع إلى كل صلاح، وتنهي عن كل انحراف. الشعور الذي يزيح الحواجز، ويرفع الأستار، ويوقف القلب عارياً أمام الواحد القهار. فيخلص العبادة ويخلص العمل من شوائب الرياء والشرك في كل صورة من صورته. فالذي يخشى ربه حقاً: لا يملك أن يُخطر في قلبه ظلاً لغيره من خلقه. وهو يعلم أن الله يرد كل عمل ينظر فيه العبد إلى غيره معه؛ فهو أغنى الشركاء عن الشرك. فإما عمل خالص له، وإلا لم يقبله" (٣).

"وخص الله بالذكر أهل الخشية لأئها: رأس كل بركة، الناهية عن المعاصي، الآمرة بالمعروف" (٤).

"والخشية أخص من الخوف، فإن الخشية للعلماء بالله تعالى، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨] خوفاً مقروناً بمعرفة.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (إني أتقاكم لله، وأشدكم له خشية) (٥)، فالخشية للعلماء العارفين، وعلى قدر العلم والمعرفة يكون الخوف والخشية، فصاحب الخوف يلتجئ إلى الهرب، وصاحب الخشية يلتجئ إلى الاعتصام بالعلم" (٦).

(١) التحرير والتنوير ٤٨٦/٣٠-٤٨٧.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ٩٣٢.

(٣) في ظلال القرآن ٦/٣٩٥٣ بتصرف.

(٤) المحرر الوجيز ١٥/٥٣٢.

(٥) أخرجه البخاري كتاب النكاح باب الترغيب في النكاح (٥٠٦٣)، ومسلم كتاب النكاح باب استحباب النكاح لمن تافت نفسه إليه (١٤٠١).

(٦) أعمال القلوب للمنجد ٣٧ باختصار.

إن الخشية الحقة والخوف المحمود هلم؛ الحامل على العمل، الذي لا يزال يدفع بصاحبه إلى الطاعة، وينفره عن المعصية.

الخشية الحقة هي التي تربي القلب حتى لا يفرق بين معصية وأخرى، فلا ينظر إلى صغر المعصية، ولكن ينظر إلى عظمة من عصي.

وقد حصر الله المنتفعين بالذكرى فقال تعالى: ﴿طه ١﴾ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿٢﴾ إِلَّا

تَذَكُّرًا لِمَنْ يَخْشَى ﴿٣﴾ [طه: ١ - ٣]. وقال سبحانه: ﴿سَيَذَكَّرُ مَنْ يَخْشَى﴾ [الأعلى: ١٠].

أهل الخشية هم السعداء في الدنيا، الفائزون في الآخرة، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور: ٥٢]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ [٧] جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ. ﴿٨﴾ ، وقال: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْجَنَّةَ لِمُنْقِبِينَ غَيْرِ بَعِيدٍ﴾ [٣١] هَذَا مَا تُوْعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَن خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ [ق: ٣١-٣٥].

واليوم عاثت الدنيا بأهلها فأضحى المخلوق يخشى المخلوق دون الخالق!! يرجو المربوب دون الرب سبحانه!! فعجباً لمن يخشى الناس، ويخاف الناس، ويهاب عيون الناس، وألسنة الناس، وعقاب الناس!! فأعماله للخلق، وسؤاله للخلق، يُعْطِي ليرضي فلائلاً، ويمنع ليحظى بقرب فلان. يحب للدنيا، ويبغض للدنيا!! خاب وخسر، ما قام في قلبه الوجل من ربه، ولا عرف الله حق المعرفة ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

اللهم إنا نسألك خشيتك في الغيب والشهادة، اللهم إنا نسألك من خشيتك ما تحول به بيننا وبين

معصيتك.

تفسير سورة الزلزلة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْزَنْهُمْ حَزَنُ الْيَوْمِ الَّذِي بَلَغَكُمْ وَذُنُوبِكُمْ وَلَا تَخَوُفُوا وَلَا حُزْنٌ لَكُمُ الْيَوْمَ الَّذِي تَخَوَّيْتُمُ الْيَوْمَ الَّذِي تَخَوَّيْتُمْ أَنْ يَكُونَ عَلَيْكُمْ حَافِيًا ﴿٥﴾ وَأَنْ بَلَغَكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَاعْتَمَلْتُمْ مِنْكُمْ حَسَنًا ﴿٦﴾ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾

المبحث الأول

مقدمات حول السورة

أولاً: نزولها ومناسبتها:

السورة مدنية كما في رواية عن ابن عباس، وقيل أنها مكية^(١). قال السيوطي في الإتيان: "ويستدل لكونها مدنية بما أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: لما نزلت ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ الآية. قلت: يا رسول الله، إني لراء عملي؟ قال: (نعم). قلت: تلك الكبار الكبار؟! قال: (نعم). قلت: الصغار الصغار؟! قال: (نعم). قلت: وأتكل أُمي. قال: (أبشر يا أبا سعيد؛ فإن الحسنة بعشر أمثالها - يعني إلى سبعمائة ضعف - ويضاعف الله لمن يشاء، والسيئة بمثلها أو يغفر الله، ولن ينجو أحد منكم بعمله). قلت: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: (ولا أنا إلا أن يتغمدني الله منه برحمة)^(٢) وأبو سعيد لم يكن إلا بالمدينة، ولم يبلغ إلا بعد أحد^(٣).

أما عدد آياتها (٨) آية، وكلماتها: (٣٥) كلمة، وحروفها: (١٢٩) حرفاً^(٤).

مناسبتها لما قبلها:

"ختمت سورة «البينة» قبل هذه السورة بما يلقي الكافرون، من عذاب، خالدون في النار، وبما يلقي المؤمنون، من نعيم، خالدون فيه خلوداً مؤبداً في الجنة.. وجاءت سورة الزلزلة محدثة بهذا اليوم الذي يجزى فيه كل من الكافرين والمؤمنين هذا الجزاء الذي يستحقه كل فريق منهم، فكان عرض هذا اليوم مناسباً^(١).

(١) انظر: الناسخ والمنسوخ للنحاس ١٥٣/٣، والدر المنثور ٥٧٩/١٥، ورجح أنها مدنية الحافظ ابن كثير في تفسيره ٤٥٩/٨، وابن

سلام في الناسخ والمنسوخ ٢٩/١، وابن حزم في الناسخ والمنسوخ ٦٦/١ وعليه جمهور المفسرين.

(٢) ذكره ابن كثير في التفسير ٤٦٣/٨-٤٦٤، والسيوطي في الدر المنثور ٥٨٧/١٥، ولآخره شاهد في الصحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) الإتيان في علوم القرآن ٣٦/١.

(٤) التفسير القرآني للقرآن ٨٣/٣.

ثانياً: موضوعها :

هذه السورة هزة عنيقة للقلوب الغافلة، وصيحة قوية مزلزلة للأرض ومن عليها؛ تتحدث عن الزلزال العنيف الذي يكون بين يدي الساعة، حيث يندك كل صرح شامخ، وينهار كل جبل راسخ، ويحصل من الأمور الغريبة ما يندهش له الإنسان، كإخراج الأرض ما فيها من موتى، وإلقاءها ما في بطنها من كنوز ثمينة من ذهب وفضة، وشهادتها على كل إنسان بما عمل على ظهرها، كما تتحدث عن انصراف الخلائق من أرض المحشر إلى الجنة أو إلى النار، ومحاسبة الله لهم على كل صغيرة وكبيرة^(١).

ثالثاً: فضلها :

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: أتى رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أقرئني يا رسول الله. قال له: (اقرأ ثلاثاً من ذات آل). فقال له الرجل: كبر سني واشتد قلبي، وعُظ لساني. قال: (فاقرأ من ذات حم)، فقال مثل مقالته الأولى. فقال: (اقرأ ثلاثاً من المسبحات)، فقال مثل مقالته. فقال الرجل: ولكن أقرئني -يا رسول الله- سورة جامعة. فأقرأه: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ حتى إذا فرغ منها قال الرجل: والذي بعثك بالحق، لا أزيد عليها أبداً، ثم أدبر الرجل، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أفلح الرويحل! أفلح الرويحل!)^(٢).

رابعاً: المعنى الإجمالي للسورة:

يخبر الله تعالى عن مشهد من مشاهد يوم القيامة فيقول تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ أي: إذا رجَّت ﴿الْأَرْضُ﴾ رجاً شديداً، ﴿وَأَخْرَجَتِ﴾ ما في بطنها من موتى وكنوز، وتساءل الإنسان فرعاً: ما الذي حدث لها؟

﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم القيامة تخبر الأرض بما عمل عليها من خير أو شر، وبأن الله سبحانه وتعالى أمرها بأن تخبر بما عمل عليها.

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ﴾ أي: يرجع الناس عن موقف الحساب ﴿أَشْنَاءًا﴾ أي: أصنافاً متفرقين؛ ليربهم الله ما عملوا من السيئات والحسنات، ويجازيهم عليها.

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ﴾ أي: وزن نملة صغيرة خيراً، ير ثوابه في الآخرة، ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ﴾ وزن نملة صغيرة شراً، ير عقابه في الآخرة^(٣).

(١) التفسير القرآني للقرآن ٨٣/٣ بتصرف.

(٢) انظر إيجاز البيان في سور القرآن ٣٠٨ باختصار.

(٣) أخرجه أحمد في المسند ١٦٩/٢ (٦٥٧٥)، وأبو داود في سننه أبواب قراءة القرآن وتخزيه وترتيله باب تحزيب القرآن (١٣٩٩)، والبيهقي في شعب الإيمان ٤٩٦/٢ (٢٥١٢)، والحاكم في المستدرک ١٩١/٩ (٣٩٢٣)، وقال الحاكم صحيح الإسناد ولم يخرجاه. قال شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن.

(٤) انظر التفسير الميسر (٥٩٩).

المبحث الثاني

وقفات مع السورة حول مشهد وأهوال يوم القيامة^(١)

المطلب الأول

زلزال يوم القيامة

قال الله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۖ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۖ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آتِقُورًا رَبِّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١﴾ يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُذْهِلُ كُلُّ مَرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾ [الحج: ١ - ٢].

إنه يوم القيامة حيث ترتجف الأرض الثابتة ارتجافاً، وتزلزل زلزالا، وتنفض ما في جوفها نفصاً، وتخرج ما يتقلها من أجساد ومعادن وغيرها مما حملته طويلاً، وكأنها تتخفف من هذه الأثقال، التي حملتها طويلاً!!، وهو مشهد يهز المستمعين لهذه السورة كل شيء ثابت؛ ويخيل إليهم أنهم يترنحون ويتأرجحون، والأرض من تحتهم تهتز وتمور! مشهد يخلع القلوب من كل ما تشبث به من هذه الأرض، وتحسبه ثابتاً باقياً.

إن الإنسان قد يجهل الزلازل والبراكين من قبل أو سمع بها، وكان يصاب منها بالهلع والذعر، ويحسّ الهلاك والدمار، ولكنه حين يرى زلزال يوم القيامة لا يجد أن هناك شيئاً بينه وبين ما كان يقع من الزلازل والبراكين في الحياة الدنيا إلا الاسم فقط، فهذا أمر جديد لا عهد للإنسان به، أمر لا يعرف له سراً، ولا يذكر له نظيراً، أمر هائل يقع للمرة الأولى!

إن زلازل الدنيا تذكرنا بزلزال الآخرة، ولكن شتان بين زلزال الدنيا وزلزال الآخرة:

زلزال الدنيا: أرض ترتجف، ومبان تسقط، يموت من يموت، ويحيا من بقي له من عمره بقية.

أما زلزال الآخرة: ففيه تذهل المراضع، وتضع الحوامل، وتشيب الولدان، ويكون الناس كالسكارى، من هول الموقف ومن الذعر.

زلزال الدنيا: يذهل الناس فيه من شدة الفاجعة في قطعة محدودة ثم ينتهي الأمر.

(١) هذا الموضوع منتقى من عدة كتب من كتب التفاسير دجحت بعضها ببعض محاولاً الخروج بنظرة عامة وصغت بها بأسلوبى ولم أعزو كل مقطع لأن الكلام متداخل جداً، وعمدتها تفسير السعدي وابن كثير والقرطبي فمعظم المعاني منها، وظلال القرآن ٦/٣٩٥٤ - ٣٩٥٦ كان مساعداً في الصياغة.

أما زلزال الآخرة : فالأرض كلها تبدل، والسموات، والجبال الشاخنة تنسف نسفاً، والبحار تفجر، وتنشق السماء وتكشط، وتغيرات عجيبة: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ^ط وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾ [إبراهيم ٤٨]. ﴿وَدَسَّأُوكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلَّ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٦﴾ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٧﴾﴾ [طه ١٥-١٧].

لقد سمعنا في زلزال الدنيا اليسير عمناً ذهلاً من هول الفاجعة عن زوجه وأولاده، بل خرج من بيته وقد نسي ما يستر به جسده، فقد شغل بما هو أعظم.

وفي يوم القيامة: عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: (يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً) قلت: يا رسول الله النساء والرجال جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض!!؟ قال ﷺ: (يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض)^(١).

(١) أخرجه البخاري كتاب الرقاق باب كيف الحشر (٦٥٢٧). ومسلم كتاب الجنة باب فناء الدنيا وبيان الحشر (٢٨٥٩).

المطلب الثاني

حال الناس في ذلك الهول

﴿ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا هَذَا ﴾ يزيد هول المشهد وضوحاً بتصوير الإنسان ورسم انفعالاته وهو يشهد هذا الهول العظيم ويقول: ﴿ مَا هَذَا ﴾؟! وهو سؤال المشدوه المبهوت المفجوع، الذي يرى ما لم يعهد، ويواجه ما لا يدرك، ويشهد ما لا يملك الصبر أمامه والسكوت حياله؛ وكل ما حوله يمور موراً شديداً! إنه يوم عظيم حُقَّ للإنسان أن يسأل فيه هذا السؤال، لأنه يرى الأرض تتغير من حوله، بل الكون كله يتغير، قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ۗ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ (٤٨)، وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلاً ﴾ (١٤) [الزلزل: ١٤]، وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴾ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧) [عبس: ٣٤-٣٧] وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تَهْتَلُ كُلُّ مَرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ (٢) [الحج: ١-٢]. وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ (٨) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ (٩) وَلَا يَسْتَلُ حِمِيمٌ حِمِيمًا (١٠) يُبْصِرُونَهُمْ يَوْمَئِذٍ لَّوِ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ (١١) وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ (١٢) وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ (١٣) وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ (١٤) ﴾ [المعارج: ٨-١٤]: وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (٤) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ﴾ (٥) [القارعة: ٤-٥]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ (١٧) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ (١٨) يَوْمَ لَا تَمَلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ (١٩) ﴾ [الانفطار: ١٧-١٩]، وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى (٣٥) وَبُرِزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى (٣٦) ﴾ [النازعات: ٣٥-٣٦]، وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (٦) تَتَّبِعُنَّهَا الرَّادِفَةُ (٧) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ (٨) أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ (٩) يَقُولُونَ أَيْنَا نَا لِمَرَدُّودُونَ فِي الْحَافِرَةِ (١٠) أَيْنَا ذَا كُنَّا عِظْمًا فُخْرَةً (١١) قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ (١٢) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) ﴾ [النازعات: ٦-١٣]، وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا (٣٨) ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اخْتِذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا (٣٩) إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا (٤٠) ﴾ [النبا: ٣٨-٤٠]، وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَنَأْتُونَ أَفْوَاجًا (١٨) وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا (١٩) وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا (٢٠) ﴾ [النبا: ١٨-٢٠]، وقال تعالى: ﴿ يَسْتَلُّ أَيَّانَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ (٦) فَإِذَا بَرِقَ الْبَصُرُ (٧) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (٨) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (٩) يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ (١٠) كَلَّا لَا وَزَرَ (١١) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (١٢) ﴾ [القيامة: ٦-١٢]، هذه فقط نماذج مما يحدث يوم القيامة مما يجعل الإنسان يسأل ﴿ مَا هَذَا ﴾!؟

المطلب الثالث

الأرض تشهد بأمر الله

﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ نعم. يوم يقع هذا الزلزال، ويُشده أمامه الإنسان ﴿تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ أي: تشهد على العاملين بما عملوا على ظهرها من خير وشر، فإن الأرض من جملة الشهود الذين يشهدون على العباد بأعمالهم، وهذا ليس من تلقاء نفسها وإنما هو أمر من الله لها ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ أمرها تنزل زلزالها؛ وأن تخرج أثقالها، وأن تخبر بما عمل عليها فأطاعت أمر ربها.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية: ﴿تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ قال: (أتدرون ما أخبارها؟). قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: (فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها، أن تقول: عمل كذا وكذا، يوم كذا وكذا، فهذه أخبارها)^(١).

وفي الجواب ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ تبكيت لمن لم يستجب لأمر الله عز وجل في الدنيا حيث يشهد عبودية الكائنات كلها لله عين اليقين يوم القيامة، وقد كان أمر بالعبودية فأبى ونكص على عقبيه، وأنكر بل وتجر وتعاظم حتى ادعى الألوهية والربوبية - والعياذ بالله تعالى - ولكن في هذا اليوم لا ينفع الندم ولا الرجوع .

(١) أخرجه أحمد ٣٧٤/٢ (٨٨٥٤)، والترمذي كتاب تفسير القرآن باب سورة إذا زلزلت (٢٤٢٩) وقال: حسن غريب، والنسائي في الكبرى كتاب التفسير باب سورة الزلزلة (١١٦٩٣)، والحاكم ٢٨١/٢ (٣٠١٢) وقال: صحيح على شرط الشيخين، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده ضعيف، وضعفه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي.

المطلب الرابع

مشهد القيام للحساب

وفي لحظة يصف الله تعالى لنا من أهوال ذلك اليوم مشهد القيام للحساب فقال تعالى : ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا﴾ أي يرجعون عن مواقف الحساب أنواعاً وأصنافاً ما بين شقي وسعي، مأمور به إلى الجنة ومأمور به إلى النار، منبغثين من أرجاء الأرض ﴿خُشَعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ﴾ [القم: ٧]. وهو مشهد لا عهد للإنسان به من قبل. مشهد الخلائق في أجيالها جميعاً تتبعث من هنا ومن هناك كما قال تعالى : ﴿يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [ق: ٤٤] وقال تعالى : ﴿يَوْمَ يُفْعَلُ فِي الصُّورِ فَنَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ [النبأ: ١٨]، وقال تعالى : ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ [القارعة: ٤].

نعم. إنه مشهد لا تُعبر عن صفته لغة البشر بأبلغ من لفظ الباري هذا، إنه مشهد هائل مروّع ، مفرع، مرعب، مذهل^(١). مع ملاحظة أن ذلك الصدور متعدد، منهم يخرجون من قبورهم أشتاتاً، ثم يصلون ويجولون في أرض المحشر أشتاتاً، ثم يصدرون عن موقف الفصل أشتاتاً. والله المستعان على هون ذلك الموقف العظيم.

(١) سيكون الحديث عن خروج الناس من قبورهم وحشرهم إلى أرض المحشر في تفسير سورة العاديات عند قوله تعالى : ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعِثَ رَمَاهُ فِي الْقُبُورِ﴾ ويكفي هنا عرض المشهد والهول العظيم .

المطلب الخامس

لا تحقرن شيئاً

ولكن لماذا يخرجون؟ ولماذا يهربون؟ وإلى من يلوذون؟ إنهم: ﴿لَيُرَوَّا أَعْمَالَهُمْ﴾ .. وهذه أشد وأدهى .. إنهم ذاهبون إلى حيث تعرض عليهم أعمالهم، ليواجهوها ويواجهوا جزاءها. ومواجهة الإنسان لعمله قد تكون أحياناً أقسى من كل جزاء. وإن من عمله ما يهرب من مواجهته بينه وبين نفسه، ويشيح بوجهه عنه لبشاعته حين يتمثل له في نوبة من نوبات الندم ولذع الضمير. فكيف به وهو يواجه بعمله على رؤوس الأشهاد، في حضرة الجليل العظيم الجبار المتكبر سبحانه ولنيل الجائزة على ذلك العمل؟!.

ثم يبين الله تعالى بعد ذلك مباشرة كيفية مجازاة الناس وعدل الله سبحانه فيهم، فيقول عز شأنه:

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ. ﴿٨﴾﴾

عندئذ لا يحقر الإنسان شيئاً من عمله، خيراً كان أو شراً، ولا يقول: هذه صغيرة لا حساب لها ولا وزن، إنما يرتعش وجدانه أمام كل عمل من أعماله، إرتعاشة ذلك الميزان الدقيق الذي ترجح به الذرة أو تشيل.

﴿ذَرَّةٍ﴾ المفسرون يقولون : إنها البعوضة . ويقولون : إنها الهباءة التي ترى في ضوء الشمس، فقد

كان ذلك أصغر ما يتصورون من لفظ الذرة.

فنحن الآن نعلم أن الذرة شيء محدد يحمل هذا الاسم أيضاً، وأنه أصغر بكثير من تلك الهباءة التي ترى في ضوء الشمس، فالهباءة ترى بالعين المجردة . أما الذرة فلا ترى أبداً حتى بأعظم المجاهر في المعامل، إنما هي رؤيا في ضمير العلماء! لم يسبق لواحد منهم أن رآها بعينه ولا بمجهره، وكل ما رآه هو آثارها! فهذه أو ما يشبهها من ثقل ، من خير أو شر ، تحضر ويراها صاحبها ويجد جزاءها!..

لأن التعبير بالذرة هنا ليس مقصوداً لذاته بل للدلالة على أن ما يحقره الناس ويستصغرونه لا يضيع

عند الله جزاؤه إن خيراً فخير وإن شراً فعذل، ولفظ الآية يبقى على ما يعرفه الأميون من معهود

خطابهم، وسبحان من أنزله بلسان عربي مبين.

إنه ميزان لم يوجد له نظير أو شبيهه بعد في الأرض، إلا في القلب المؤمن. القلب الذي يرتعش لمثقال

ذرة من خير أو شر.. وفي الأرض اليوم قلوبٌ لا تتحرك للجليل من الذنوب والمعاصي والجرائر، ولا

تتأثر وهي تسحق رواسي من الخير ، إنها قلوب مسحوقة تحت أثقالها تلك في يوم الحساب!!

عن عدي رضي الله عنه مرفوعاً: (اتقوا النار ولو بشقِّ تمرّة، فإن لم يجد فبكلمة طيبة)^(١).
وفي الصحيح: (لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منبسط)^(٢).
وفي الصحيح أيضاً: (يا نساء المؤمنات، لا تحقرن جارة لجاتها ولو فرسن شاة)^(٣)^(٤).

قال مالك: وبلغني "أن مسكينا استطعم عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها وبين يديها عنب، فقالت لإنسان: خذ حبة فأعطه إياها، فجعل ينظر إليها، ويعجب، فقالت عائشة: أتعجب؟ كم ترى في هذه الحبة من مثقال ذرّة!!"^(٥).

وعن عوف بن الحارث رضي الله عنه: أن عائشة رضي الله عنها أخبرته: أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول: (يا عائشة، إياك ومحقرات الذنوب، فإن لها من الله طالبا)^(٦).

وعن أنس رضي الله عنه قال: كان أبو بكر رضي الله عنه يأكل مع النبي صلى الله عليه وسلم فتزلت

هذه الآية: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾^(٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ^(٨) ﴿﴾
فرفع أبو بكر يده وقال: يا رسول الله، إني أجزى بما عملت من مثقال ذرة من شر؟ فقال: (يا أبا بكر، ما رأيت في الدنيا مما تكره فبمثاقيل ذر الشر، ويدخر الله لك مثاقيل ذر الخير حتى تُوفاه يوم القيامة)^(٧).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إياكم ومحقرات الذنوب، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه)، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب لهن مثلاً كمثل قوم نزلوا أرض فلاة، فحضر صنيع القوم، فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود، والرجل يجيء بالعود، حتى جمعوا سواداً، وأججوا ناراً، وأنضحوا ما قذفوا فيها^(٨).

(١) أخرجه البخاري كتاب الزكاة باب الصدقة قبل الرد (١٤١٣). ومسلم كتاب الزكاة باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرّة أو كلمة طيبة وأنها حجاب من النار (١٠١٦).

(٢) أخرجه مسلم كتاب البر والصلة باب استحباب طلاقة الوجه عند اللقاء (٢٦٢٦).

(٣) فرسن شاة: حافر الشاة.

(٤) أخرجه البخاري كتاب الهبة باب فضل الهبة (٢٥٦٦) ومسلم كتاب الزكاة باب الحث على الصدقة ولو بالقليل (١٠٣٠).

(٥) في الموطأ ١٤٥٢/٥ (٣٦٥٦)، وجامع الأصول لابن الأثير (٤٦٥٣).

(٦) أخرجه أحمد في المسند ١٥١/٦ (٢٥٢١٨) وابن أبي شيبة ٨٠/٧ (٣٤٣٣٧) والبيهقي في شعب الإيمان ٤٥٤/٥ (٧٢٦١)، وصححه الألباني في الترغيب والترهيب (٢٤٧٢)، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن.

(٧) جامع البيان ٥٦٦/٢٤، والطبراني في المعجم الأوسط (٣٤١٨)، والبيهقي في الشعب ١٥١/٧ (٩٨٠٨)، "مجمع البحرين" من طريق أبي الخطاب، به، وقال: "لم يروه عن أيوب إلا سماك، ولا عنه إلا الهيثم. تفرد به زيادة". وذكره ابن كثير في تفسيره ٤٦٣/٨. قال محقق ابن كثير: الهيثم بن الربيع ضعيف.

(٨) أخرجه أحمد في المسند ٤٠٢/١ (٣٨١٨)، والبيهقي في الشعب ٤٥٦/٥ (٤٢٦٧)، وقال الألباني: صحيح لغيره، انظر صحيح الترغيب والترهيب (٢٤٧٠)، قال شعيب الأرنؤوط: حسن لغيره.

تفسير سورة العاديات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ۝١ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ۝٢ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ۝٣ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ۝٥﴾ إِنَّ
الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعِثَ رَمَلًا
فِي الْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ۝١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ۝١١﴾

المبحث الأول

مقدمات حول السورة

أولاً : نزولها ومناسبتها :

قال السيوطي في الإتيان: "فيها قولان ويستدل على كونها مدنية ما أخرجه الحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما: قال: بعث صلى الله عليه وسلم خيلاً سرية إلى بني كنانة وأمر عليها المنذر بن عمرو الأنصاري رضي الله عنه فأسهبت -أي أمعت في سهب وهي الأرض الواسعة- شهراً وتأخر خيرهم، فلوجف المنافقون؛ وقالوا: قتلوا جميعاً. فأخبر الله عنهم بقوله ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ الآيات. إعلماً بأن خيلهم قد فعلت جميع ما في تلك الآيات^(١) (٢).

وجمهور المفسرين على أنها مكية^(٣). وهو الصحيح إن شاء الله تعالى.

أما عدد آياتها (١١) آية، وكلماتها: (٤٠) كلمة، وحروفها: (١٦٠) حرفاً^(٤).

مناسبتها لما قبلها:

"الزلزلة التي تزلزلها الأرض يوم البعث، وإخراج الأرض أثقالها وما في جوفها من الموتى، وصدور الناس أشتاتاً من القبور إلى موقف الحشر، والمواجهة هناك بين الكافرين والمؤمنين - كل هذا تمثله صورة واقعة في الحياة، نجدها حين تقوم حالة حرب بين الناس، فتزلزل الأرض تحت أقدام الجيوش

(١) أخرجه البزار في مسنده (٢٢٩١)، وذكره الواحدي في أسباب النزول ص(٣٠٥)، والهيثمي في مجمع الزوائد ٥١/٧ (١١٥١٥) وقال: رواه البزار وفيه حفص بن جميع وهو ضعيف، قال ابن كثير ٤٦٧/٨: روى أبو بكر البزاز هنا حديثاً غريباً جداً وساق الحديث قريباً مما للواحدي، وذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥٤٤/١٥. وذكره ابن حجر في الفتح وقال في إسناده ضعف ٧٢٧/٨، وذكره ابن أبي حاتم في العلل ٦٢/٢، وذكره القرطبي في تفسيره ١٥٥/١٥. قال ابن عاشور: وأقول غرابة الحديث لا تناكد قبوله وهو مروى عن ثقات إلا أن في سنده حفص بن جميع وهو ضعيف. فالراجع أن السورة مدنية ٤٩٧/٣٠.

(٢) الإتيان في علوم القرآن ٣٦/١.

(٣) انظر: المحرر الوجيز ٥٤٣/١٥، ومعالم التنزيل ٥٠٥/٨، والجامع لأحكام القرآن ١٥٣/٢٠، وتفسير القرآن العظيم ٤٦٥/٨، والدر المنثور ٥٩٧/١٥.

(٤) التفسير القرآني للقرآن ٨٤/٣.

الزاحفة نحو ساحة القتال ، بما يركبون من خيل ، وما يحملون من عدد القتال ، وهم يصدرون من بيوتهم في سرعة الرياح العاصفة إلى لقاء العدو ، لا يمسكهم شيء عن الانطلاق حتى يبلغوا ساحة الحرب ..

قوم إذا الشرّ أبدى ناجذيه لهم طاروا إليه زرافات ووحدانا هكذا يوم الحرب .. إنه من يوم القيامة قريب في أهواله ، وشدائده ، وما يلقي الناس منه ، من هول وشدّة.

ففي ميدان الحرب ، حساب وجزاء ، وريح وخسران ، وهول وفزع ، يشمل المحاربين جميعا . فالحرب ، وميدانها في الدنيا ، هي أقرب شيء يمثّل به المحشر ، والحساب ، والجزاء في الآخرة .. ولهذا جاءت سورة العاديات مناسبة لسورة الزلزلة^(١).

ثانياً : موضوعها :

بدأت السورة بالقسم بخيل الغزاة وحالتها في الحرب إظهاراً لشرفها وفضلها عند الله، ثم ذم خصال تفضي بأصحابها إلى الخسران في الآخرة، وهي خصال غالباً على المشركين والمنافقين، ويُراد تحذير المسلمين منها، ووعظ الناس بأن وراءهم حساباً على أعمالهم بعد الموت ليتذكروا المؤمن فيتعظ به، ويهدد به الجاحد، وأنه لا ينفع في الآخرة مال ولا جاه وإنما ينفع العمل الصالح^(٢).

ثالثاً: المعنى الإجمالي للسورة:

﴿ وَالْعَدِيَّتِ صَبْحًا ﴾ أقسم الله تعالى في هذه السورة بالخيال الجارية في سبيله نحو العدو، حين يظهر صوتها من سرعة عدوها. ﴿ فَأَلْمُورِيَّتِ قَدْحًا ﴾ أي: فالخيال اللاتي تنقذ النار من صلابة حوافرها؛ من شدة عدوها. ﴿ فَأَلْمُغِيرَتِ صَبْحًا ﴾ فالمغيرات على الأعداء عند الصبح، ﴿ فَأَثْرَنَ بِهِ نَقْعًا ﴾ فهيجن بهذا العدو غباراً. ﴿ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴾ فتوسطن بركبتهن جموع الأعداء.

﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ﴾ أي: إن الإنسان لنعم ربه لجحود، وإنه بجحوده ذلك لمقر. وإنه لحب المال لشديد.

﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴾ أي: أفلا يعلم الإنسان ما ينتظره إذا أخرج الله الأموات من القبور للحساب والجزاء؟ ﴿ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴾ أي: واستخرج ما استتر في الصدور من خير أو شر ﴿ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴾ أي: إن ربهم بهم وبأعمالهم يومئذ لخبير، لا يخفى عليه شيء من ذلك^(٣).

(١) التفسير القرآني للقرآن ٨٤/٣.

(٢) انظر: التحرير والتنوير ٤٩٨/٣٠، إيجاز البيان في سور القرآن ٣٠٩.

(٣) انظر التفسير الميسر ص ٥٩٩ - ٥٦٠.

المبحث الثاني وقفات مع السورة المطلب الأول وقفات مع المقسم به

﴿وَالْعَدِيدِ صَبْحًا ۝١﴾ فَأَلْمُورِبَتِ قَدْحًا ۝٢﴾ فَأَلْمُغِيرَتِ صُبْحًا ۝٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ۝٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ۝٥﴾
أولاً : المقسم به :

يقسم الله سبحانه بخيل المعركة، ويصف حركاتها بتدرج منذ أن تبدأ عدوها وجريها ضابحة بأصواتها المعروفة حين تجري، قارعة للصخر بجوافرها حتى توري الشرر منها، مغيرة في الصباح الباكر لمفاجأة العدو، مثيرة للنقع والغبار؛ غبار المعركة على غير انتظار، وهي تتوسط صفوف الأعداء على غرة فتوقع بينهم الفوضى والاضطراب!

فقوله: ﴿وَالْعَدِيدِ صَبْحًا﴾ أي: "الخيل إذا جرت في سبيله فعدت وضبحت، والصبح: هو الصوت الذي يُسمع من الفرس حين تعدو"^(١).

ومن المفسرين من قال أن المقصود الإبل وليس الخيل، قال ابن عطية: "والظاهر في الآية أن القسم بالخيل أو الإبل أو بهما"^(٢)، وقال القرطبي: "جمهور العلماء والمفسرون وأهل اللغة على أنها الخيل"^(٣).

فإنه تعالى يقسم بالخيل لما فيه من آيات باهرات، ونعم ظاهرات، والخيل هو الحصان المعروف وله شأن عظيم في ذلك الزمان لأنه يستخدم كثيراً في الحروب والقتال^(٤) ولا زال يستعمل في الشرط إلى زماننا.

قوله: ﴿فَأَلْمُورِبَتِ قَدْحًا﴾ أي: "اصطكاك نعلها للصخر فتقدح منه النار، ﴿فَأَلْمُغِيرَتِ صُبْحًا﴾ يعني الإغارة وقت الصباح"^(٥) وهو أحسن ما يكون في الإغارة على العدو أن يكون في الصباح، لأنه يكون في غفلة ونوم، حتى لو استيقظ من الغارة فسوف يكون على كسل وإعياء"^(٦).

فمن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: أن النبي صلى الله عليه وسلم (كان إذا غزا بنا قوما لم يكن يغزو بنا حتى يصبح وينظر فإن سمع أذانا كف عنهم وإن لم يسمع أذانا أغار عليهم)^(٧).

(١) تفسير القرآن العظيم ٤٦٥/٨.

(٢) المحرر الوجيز ٥٤٥/١٥.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٥٣/٢٠.

(٤) انظر: تفسير السور القصار للهميلي ١٦.

(٥) تفسير القرآن العظيم ٤٦٥/٨.

(٦) تفسير جزء النبأ لابن عثيمين ٢٩٢.

(٧) أخرجه البخاري كتاب الأذان باب ما يحقن الأذان من الدماء (٦١٠).

﴿ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ﴾ هو الغبار في مكان معترك الخيول، ﴿ فَوَسَّطَنَ بِهِ جَمْعًا ﴾ أي توسطن ذلك المكان كلهن جمعاً من الأعداء^(١). وهذا من فرائد الخيل فإنها تُتقدّم في القتال ولو بلغ الدم إلى ركبها^(٢) بخلاف غيرها من الحيوانات فإنها تهاب الدم.

ثانياً: المراد من بهذا القسم:

هذا القسم ضرب به المثل بالخيال في طاعتها لربها المالك لها المنعم عليها، وخوضها غمار المهالك استجابة لطلبه، بينما الإنسان يعرض عن ربه خالقه من العدم والمنعم عليه بكامل النعم ويترك أمره، بل ويجحده!! ومع ذلك يتمنى من ربه المزيد من الخير مع إعراضه وجحوده!!.

ثالثاً: فائدة ذكر وصف العاديات:

"إن أريد بـ ﴿ وَالْعَدِيَّتِ ﴾ رواحل الحجيج: لكي يصدق المشركون بوقوع المقسم عليه، لأن القسم بشعائر الحج لا يكون إلا باراً، حيث هم لا يصدقون بأن القرآن كلام الله؛ ويزعمونه قول النبي صلى الله عليه وسلم.

وإن أريد بـ ﴿ وَالْعَدِيَّتِ ﴾ وما عطف عليها خيل الغزاة: فالقسم بها لأجل التهويل والترجيع، لإشعار المشركين بأن غارة تترقبهم؛ وهي غزوة بدر. مع تسكين نفس النبي صلى الله عليه وسلم من التردد في مصير السرية التي بعث بها مع المنذر بن عمرو رضي الله عنه - إذا صح خبرها - فيكون القسم بخصوص هذه الخيل إدماجاً للاطمئنان"^(٣).

رابعاً: الخيل في الإسلام:

قال الله تعالى: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ [الأنفال: ٦٠]. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الخيال معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة)^(٤). وقال عليه الصلاة والسلام: (البركة في نواصي الخيل)^(٥).

(١) تفسير القرآن العظيم ٤٦٥/٨.

(٢) أخرج أبو يعلى عن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (تجيء رايات سود من قبل المشرق، تخوض الخيل الدم إلى ثنتها، يظهرون العدل، ويطلبون العدل فلا يعطونه، فيظهرون فيطلب منهم العدل فلا يعطونه). نقله عن ابن كثير في البداية والنهاية ٢٧٩/٩ وقال: وهذا إسناد حسن. وفي حديث الفتن عند نعيم بن حماد (١٣٧٩) (حتى تخوض الخيل في الدم إلى ثنتها).

(٣) التحرير والتنوير ٥٠٢/٣٠.

(٤) أخرجه البخاري كتاب الجهاد باب الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة (٢٨٥٠)، ومسلم كتاب الإمارة باب فضيلة الخيل وأن الخير معقود بنواصيها (١٨٧٢).

(٥) أخرجه البخاري كتاب الجهاد باب الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة (٢٨٥١).

وقال صلى الله عليه وسلم: (من احتبس فرساً في سبيل الله إيماناً بالله وتصديقاً بوعده فإن شبعه ورّيه وروثه وبوله في ميزانه يوم القيامة) ^(١). وفي رواية: قالوا: بم ذاك يا رسول الله؟ قال: (الأجر والمغنم) ^(٢) "قال الطيبي: يحتمل أن يكون الخير الذي فسر بالأجر والمغنم استعارة لظهوره وملازمته. وخص الناصية: لرفعة قدرها وإشارة إلى أن الفضل في الإقدام بها على العدو، دون المؤخرة لما فيه من الإشارة إلى الأدبار.

وقال الخطابي: وفيه إشارة إلى أن المال الذي يكتسب باتخاذ الخيل من خير وجوه الأموال وأطيبها والعرب تسمي المال خيراً، وقال ابن عبد البر: فيه إشارة إلى تفضيل الخيل على غيرها من الدواب، لأنه لم يأت عنه صلى الله عليه وسلم في شيء غيرها مثل هذا القول، فعن أنس بن مالك: لم يكن شيء أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من الخيل" ^(٣).

"والخيل المراد بها ما يتخذ للغزو: بأن يقاتل عليه، أو يرتبط لأجل ذلك، لقوله صلى الله عليه وسلم: (الخيل لثلاثة: لرجل أجر، ولرجل ستر، وعلى رجل وزر، فأما الذي له أجر: فرجل ربطها في سبيل الله، فأطال في مرج أو روضة) ^(٤)، فما أصابت في طيلها ^(٥) ذلك من المرج أو الروضة كانت له حسنات، ولو أنها قطعت طيلها فاستنت شرفاً أو شرفين كانت أرواثها وآثارها حسنات له، ولو أنها مرت بنهر فشربت منه ولم يرد أن يسقيها كان ذلك حسنات له. ورجل ربطها فخراً ورتاء ونواء ^(٦) لأهل الإسلام فهى وزر على ذلك) ^(٧).

"واعترض بعضهم بأن المباح لم يذكر في الحديث لأن القسم الثاني الذي يتخيل فيه ذلك جاء مقيداً بقوله (و لم ينس حق الله فيها) فيلتحق بالمندوب قال: والسر فيه: أنه صلى الله عليه وسلم غالباً إنما يعتني بذكر ما فيه حض أو منع، وأما المباح الصرف فيسكت عنه، لما عرف أن سكوته عنه عفو. ويمكن أن يقال: القسم الثاني هو في الأصل المباح إلا أنه ربما ارتقى إلى الندب بالقصد بخلاف القسم الأول فإنه من ابتدائه مطلوب" ^(٨).

(١) أخرجه البخاري كتاب الجهاد باب من احتبس فرساً في سبيل الله (٢٨٥١).

(٢) أخرجه مسلم كتاب الإمارة باب فضيلة الخيل وأن الخير معقود بنواصيها (١٨٧٣).

(٣) فتح الباري ٦/٧٣.

(٤) المرج موضع الكلاً وأكثر ما يطلق على الموضع المظمن والروضة أكثر ما يطلق في الموضع المرتفع.

(٥) طيلها: هو الخيل الذي تربط به ويطول لها لترعى.

(٦) نواء: ناوأت العدو مناوأة ونواء وأصله من ناء إذا نهض ويستعمل في المعادة.

(٧) أخرجه البخاري كتاب الجهاد باب الخيل لثلاث (٢٨٦٠).

(٨) فتح الباري ٦/٧٥.

المطلب الثاني

وقفات مع المقسم عليه

﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ﴾

المحور الأول

الصفات الإنسانية في السورة

إن من خصائص المنهج الرباني تطهير النفس البشرية مما تحمله من صفات سيئة وتحويلها إلى صفات حميدة أو التقليل من آثار تلك الصفات السيئة ، وقد تحدث القرآن الكريم كثيراً عن ذلك وأشار إلى الطريق الذي يمكن به تطهير النفس والرقى بها^(١).

وفي هذه السورة صفتان من صفات النفس الإنسانية أقسم الله تعالى عليها، وهاتان الصفتان لا تستقيمان إلا بالإيمان والمراقبة لله ومعرفة حقيقة هذه الدنيا حق المعرفة، والصفتان هما :

الصفة الأولى: ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ ﴾ :

﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴾ الكنود هو الجحود الكفور لعدم ربه، العاصي بلغة كندة، الذي يعدُّ المصائب وينسى النعم^(٢)، والذي تنسيه سيئة واحدة حسنات كثيرة، ويعامل الله على عقد عوض^(٣)، قال تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١١﴾ ﴾ [الحج: ١١] وقال: ﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿٥٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ﴿١٣﴾ ﴾ [الفجر: ١٥ - ١٦].

"والتعريف في ﴿ الْإِنْسَانَ ﴾ للجنس ، يفيد الاستغراق غالباً، أي أن في طبع الإنسان الكنود لربه، أي: كفران نعمته. وهذا عارض يعرض لكل إنسان على تفاوتٍ فيه ولا يسلم منه إلا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وكُمّل أهل الصلاح؛ لأنه عارض ينشأ عن إثارة المرء نفسه، وهو أمرٌ في الجبل لا تدفعه إلا المراقبة النفسية وتذكرُ حق غيره"^(٤)، وذلك يتحصل بالإيمان باليوم الآخر كما في هذه السورة وغيرها.

(١) تفسير قصار السور للهميلي ١٦.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٤٦٧/٨.

(٣) المحرر الوجيز ٤٥٩/١٥.

(٤) التحرير والتنوير ٥٠٣/٣٠.

"والإنسان يحس بذلك من نفسه في خطراته، ويتوانى أو يغفل عن مقاومته لأنه يشتغل بإرضاء داعية نفسه وبذلك قد يذهل أو ينسى حق الله، والأنفس متفاوتة في تمكن هذا الخلق منها، والعزائم متفاوتة في استطاعة مغالبتها"^(١).

أما قوله: ﴿وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۗ﴾^(٧)

فيحتمل أن يكون الضمير يعود على الله، أي: "إن الله على ذلك من أمره لشاهد"^(٢).

ويحتمل أن يكون عائد على الإنسان، أي: "وإن الإنسان على كونه كنوداً لشهيد، أي: بلسان حاله، أي ظاهر ذلك عليه في أقواله وأفعاله"^(٣).

وعلى هذا الأخير يتمثل كنوده وجحوده في مظاهر شتى تبدو منه أفعالاً وأقوالاً، فتقوم عليه مقام الشاهد الذي يقرر هذه الحقيقة. وكأنه يشهد على نفسه بما. أو لعله يشهد على نفسه يوم القيامة بالكنود والجحود.

ولا تنافي بين المعنيين فلا شك أن الله شاهد على جحوده ذلك، كما أن الإنسان يشهد على نفسه

بذلك في الدنيا وفي الآخرة، وأشد من ذلك شهود أعضائه عليه قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ

وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۗ﴾ [النور: ٢٤]، وكذلك الأرض ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۗ﴾^(٤) بِأَنَّ

رَبِّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۗ﴾ [الزلزلة: ٤ - ٥]، والملائكة وغيرهم من مخلوقات الله، والله المستعان.

الصفة الثانية: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۗ﴾ :

أي أن الإنسان شديد الحب للخير وفيه معانٍ:

١ - "لشديد المحبة للمال.

٢ - إنه لحريص بخيل، من محبة المال"^(٤).

٣ - الخير الدنيوي من مال وصحة وجاه عند الملوك ونحوه، لأن الكفار والجهال لا يعرفون غير ذلك"^(٥).

"فهو شديد الحب لنفسه، ومن ثم يحب الخير. وهذه فطرته وهذا طبعه، ما لم يخالط الإيمان قلبه؛ فيغير من تصوراته وقيمه وموازينه واهتماماته، ويحيل كنوده وجحوده اعترافاً بفضل الله وشكراناً، كما يبذل

(١) المصدر السابق بتصرف.

(٢) جامع البيان ٥٨٩/٢٤.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٤٦٧/٨.

(٤) المصدر السابق.

(٥) المحرر الوجيز ٥٥٠/١٥.

أثرته وشحه إثارةً ورحمةً، ويريه القيم الحقيقية التي تستحق الحرص والتنافس والكد والكدح، وهي قيم أعلى من المال والسلطة والمتاع الحيواني بأعراض الحياة الدنيا..

إن الإنسان بغير إيمان حقير صغير. حقير المطامع، صغير الاهتمامات، ومهما كبرت أطماعه واشتدت طموحه وتعالته أهدافه فإنه يظل مرتكساً في حمأة الأرض، مقيداً بحدود العمر، سجيناً في سجن الذات، لا يطلقه ولا يرفعه إلا الاتصال بعالم أكبر من الأرض، وأبعد من الحياة الدنيا، وأعظم من الذات؛ إنه عالم الإيمان بالله تعالى، إيمان متصل فيه الدنيا بالآخرة^(١) فيجمع بين التفكير بالمشاهدة والإيمان بالغيب، إيمان بالجزاء والحساب والدين، ثم إيمان بعدل الله ورحمته وحكمته في خلقه.

(١) في ظلال القرآن ٦/٣٩٥٨ بتصرف .

المحور الثاني

تقويم وعلاج تلك الصفات

قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعِثَ مَا فِي الْقُبُورِ ۖ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ۗ إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ۝۱۱﴾^(١) بعد أن عرض الله تعالى لنا مشهد الخيل الغازية، وما في هذا المشهد من قوة عن طريق القسم به، ثم بين بعض الصفات الإنسانية التي فيها هلاك الإنسان إن لم يقومها ويعدها من نفسه، بين الله تعالى حقارة الدنيا ومصيرها وما يحدث بعدها، مزهداً فيها، ومرغباً في الآخرة، ومنبهاً على ما هو كائن بعد هذه الحال، وما يستقبله الإنسان من الأهوال: فتأتي هذه اللفتة الأخيرة في السورة لعلاج الكنود والجحود والأثرة والشح، لتحطيم قيد النفس وإطلاقها منه، وذلك بأمور:

الأمر الأول: التخويف بعرض مشهد البعث والحشر:

قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعِثَ مَا فِي الْقُبُورِ ۖ﴾. فهذه الصورة تنسي حب الخير الفاني، وتؤسس لحب الخير الباقي في الدارين، وتوقظ من غفلة البطر.

"معنى: ﴿بُعِثَ﴾: انقلبَ باطنها ظاهرها. والبعثرة: الانقلاب، يقال: بعثر المتاع إذا قلب بعضه على بعض. فبعثرة القبور: حالة من حالات الانقلاب الأرضي والحسف خصت بالذكر من بين حالات الأرض لما فيها من الهول باستحضار حالة الأرض وقد ألفت على ظاهرها ما كان في باطن المقابر من جثث كاملة ورفات"^(١) وهذا جزء من الصورة المشار إليها في السور السابقة- الزلزلة- كما في قوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۖ﴾ [الزلزلة: ٢] وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ۝۴۴﴾ [ق: ٤٤].

فالله سبحانه وتعالى إذا شاء إعادة العباد وإحياءهم أمر إسرافيل فنفخ في الصور فتعود الأرواح إلى الأجساد ويقوم الناس لرب العالمين قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ۝۶۸﴾ [الزمر: ٦٨].

وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ۝۵۱﴾ قَالُوا يَا نُبُوْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ۝۵۲﴾ إِنَّ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ۝۵۳﴾ [يس: ٥١ - ٥٣].

(١) التحرير والتنوير، ٣٠/١٧٢.

وأول من يبعث وتنشق عنه الأرض يوم القيامة هو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه: (أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر..) الحديث (١).

والخلق كلهم سيحشرون إلى الله يوم القيامة (٢) كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [هود: ١٠٣]. وقال تعالى: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾﴾ [الكهف: ٤٧].

ويحشر العباد في هذا اليوم حفاة عراة غرلاً - أي ليسو محتونين - فعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إنكم محشورون حفاة عراة غرلاً) ثم قرأ: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٤] (٣). وعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً) قلت: يا رسول الله النساء والرجال جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض!! قال صلى الله عليه وسلم: (يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض) (٤).

ويبعث كل عبد على ما مات عليه، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال بينما رجل واقف بعرفة إذ وقع عن راحلته فوقصته - أو قال فأوقصته - فقتل النبي صلى الله عليه وسلم: (اغسلوه بماء وسدر، وكفنوه في ثوبين، ولا تحنطوه ولا تخمروا رأسه، فإنه يبعث يوم القيامة ملبياً) (٥). ومن هنا استحب تلقين الميت لا إله إلا الله لكي يموت على التوحيد ثم يبعث يوم القيامة وهو ينطق بها (٦).

الأمر الثاني: الوعيد بإظهار ما كان في صدورهم:

قال تعالى: ﴿وَحِصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ أي: "ظهر وبان ما فيها، وما استتر في الصدور من كمائن الخير والشر؛ فصار السر علانية، والباطن ظاهراً، وبان على وجوه الخلق نتيجة أعمالهم" (٧).

(١) أخرجه مسلم كتاب الفضائل باب فضل نسب النبي صلى الله عليه وسلم (٢٢٧٨).

(٢) بين شيخ الإسلام أنه حتى البهائم جميعها يحشرها الله عز وجل كما قال تعالى: ﴿وَمِمَّن دَابَّتْ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا فَرَقْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنعام: ٣٨] انظر مجموع الفتاوى ٤/ ٢٤٨.

(٣) أخرجه البخاري كتاب أحاديث الأنبياء باب قوله تعالى: ﴿وَأَتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥] (٣٣٤٩)، ومسلم باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة (٢٨٦٠).

(٤) أخرجه مسلم باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة (٢٨٥٩).

(٥) أخرجه البخاري كتاب الجنائز باب الكفن في ثوبين (١٢٦٥)، ومسلم باب ما يفعل بالحرم إذا مات (١٢٠٦).

(٦) القيامة الكبرى للأشقر ٢٥١.

(٧) تيسير الكريم الرحمن ٩٣٣.

قال الألويسي: "أي: جُمع ما في القلوب من العزائم المصممة وأُظهِر كإظهار اللب من القشر، وجمعه، أو ميز خيره من شره. فقد استعمل: حُصِّلَ الشيء بمعنى: ميزه من غيره. وأصل التحصيل: إخراج اللب من القشر، كإخراج الذهب من حجر المعدن، والبرُّ من التبن. وتخصيص ما في القلوب: لأنه الأصل لأعمال الجوارح ولذا كانت الأعمال بالنيات، وكان أول الفكر آخر العمل، فجميع ما عمل تابع له، فيدل على الجميع صريحاً وكناية"^(١).

قال الرازي: "اعلم أن الصدر يجيء والمراد منه القلب: .. كما في قوله: ﴿يَعْلَمُ حَايِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩]"^(٢) فالقلب يحتوي الكثير من العبادات كالحب والبغض، والإيمان والنفاق، والرضا والسخط، والإخلاص والرياء، حتى ولو ظهر على الجوارح خلاف ما في القلب، فإن هذا يظهر يوم القيامة.

يقول الشيخ ابن عثيمين: "﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ أي: ما في القلوب من النيات، وأعمال القلب: كالتوكل، والرغبة، والرغبة، والخوف، والرجاء وما أشبه ذلك. وهنا جعل الله عز وجل العمدة ما في الصدور كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَلَى السَّرَائِرُ﴾ ٩ ﴿فَاللَّهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ ١٠ [الطارق: ٩-١٠]. لأنه في الدنيا يعامل الناس معاملة الظاهر؛ حتى المنافق يعامل كما يعامل المسلم حقاً، لكن في الآخرة: العمل على ما في القلب. ولهذا يجب علينا أن نعتني بقلوبنا قبل كل شيء - قبل الأعمال؛ لأن القلب هو الذي عليه المدار، وهو الذي سيكون الجزاء عليه يوم القيامة"^(٣).

والذي يوضح هذا ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم: (أول الناس يقضى لهم يوم القيامة ثلاثة: رجل استشهد؛ فأُتي به فعرفه نعمه فعرفها؛ قال فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت قال: كذبت!! ولكنك قاتلت ليقال فلان جريء، فقد قيل. ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن؛ فأُتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن. قال: كذبت!! ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم، وقرأت القرآن ليقال قارئ، فقد قيل. ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار. ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله؛ فأُتي به فعرفه نعمه فعرفها، فقال: ما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت!! ولكن ليقال إنه جواد فقد قيل. ثم أمر به فسحب على وجهه فألقي في النار)^(٤).

(١) روح المعاني ٢٣/١٠٠.

(٢) تفسير الرازي ١٠/٣٩٧.

(٣) تفسير جزء لنبا لابن عثيمين ص ٢٩٤.

(٤) أخرجه النسائي في سننه كتاب الجهاد باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا (٣١٣٧)، والترمذي (٢٣٨٢)، وأحمد ٢/٣٢١.

فهذه الأمور التي كشفها الله تعالى وأظهرها يوم القيامة لم تكن معلومة عند الناس في الدنيا، ولكن الله تعالى يعلمها ويكشفها يوم القيامة.

يقول الشيخ ابن عثيمين عند تقسيم الشرك الخفي والجلي: " والخفي: ما كان في القلب، مثل: الرياء، لأنه لا يبين، إذ لا يعلم ما في القلوب إلا الله، ويسمى أيضاً: (شرك السرائر) وهذا هو الذي بينه الله بقوله: ﴿يَوْمَ تَبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق: ٩] لأن الحساب يوم القيامة على السرائر، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ۖ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ۗ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ ١١، وفي الحديث الصحيح فيمن كان يأمر بالمعروف ولا يفعله وينهى عن المنكر ويفعله: أنه (يلقى في النار حتى تندلق أفتاب بطنه، فيدور عليها كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع عليه أهل النار فيسألونه، فيخبرهم أنه كان يأمر بالمعروف ولا يفعله، وينهى عن المنكر ويفعله) (١) (٢).

"ومناسبة الآيتين بعضهما لبعض أن بعثرة ما في القبور إخراج للأجساد من بواطن الأرض. وتحصيل ما في الصدور إخراج لما في الصدور. مما تكنه الصدور. فالبعثرة بعثرة ما في القبور عما تكنه الأرض، وهنا عما يكنه الصدر، والتناسب بينهما ظاهر" (٣).

تنبيه:

وليس المقصود من الآية أن الناس يحاسبون على الخواطر والهواجس وما يدور في الذهن والنفس من إرادة المعصية لقول النبي صلى الله عليه وسلم: (إن الله تجاوز عن أمي ما حدثت بها أنفسها ما لم تتكلم أو تعمل) (٤)، فإذا تكلمت أو عملت حصل لها الوعيد.

ومن فضل الله على العباد أن كتب لهم أجر العمل الصالح إذا همت به النفس ولم تعمله ف عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يروى عن ربه عز وجل قال: (إن الله كتب الحسنات والسيئات، ثم بين ذلك فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو هم بها فعملها كتبها الله له عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو هم بها فعملها كتبها الله له سيئة واحدة) (٥).

(١) أخرجه البخاري كتاب بدء الخلق باب صفة النار (٣٢٦٧)، ومسلم كتاب الزهد باب عقوبة من يأمر بمعروف ولا يفعله (٢٩٨٩).

(٢) مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين ٩٤/١٠ عند شرح كتاب التوحيد.

(٣) تفسير جزء النبأ لابن عثيمين ٢٩٤.

(٤) أخرجه البخاري كتاب الطلاق باب الإغلاق والكره والسكران والجنون .. (٥٢٦٩).

(٥) أخرجه البخاري كتاب الرقائق باب من هم بحسنة أو سيئة (٦٤٩١)، ومسلم باب إذا هم العبد بحسنة كتبت وإذا هم بسيئة لم تكتب (٢٠٦).

الأمر الثالث: بيان الجزاء والحساب بالإشارة إلى علم الله تعالى وخبرته بهم:

قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ أي: "إن ربهم بأعمالهم، وما أسروا في صدورهم وأضمره فيه، وما أعلنوه بجوارحهم منها، عليم لا يخفى عليه منها شيء، وهو مجازيهم على جميع ذلك يومئذ" (١).
"فالمرجع إلى ربه. وإنه لخبير بهم ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ وبأحوالهم وأسرارهم.. والله خبير بهم في كل وقت وفي كل حال، ولكن لهذه الخبرة ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ هي التي تثير الآية انتباههم لها في هذا المقام.. إنها خبرة وراها عاقبة. خبرة وراها حساب وجزاء" (٢).

وهنا أمور يجدر التنبيه إليها:

أولاً: معنى ﴿لَّخَبِيرٌ﴾ وعلاقته بـ﴿لَشَهِيدٌ﴾:

الخبير: "يرجع إلى العلم بالأمر الخفية التي هي في غاية اللطف والصغر، وفي غاية الخفاء" (٣)، "فهو العليم بسرائر عبادته وضمائر قلوبهم" (٤).

فعندما بين الله تعالى أنه يوم القيامة يُظهِر ما في القلوب مما كان مستوراً عن أعين الناس في قوله:

﴿وَحِصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾، بين الله تعالى أنه خبير بهذا المستور فقال: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾

أما الشهيد فهو: "المطلع على جميع الأشياء، الذي أحاط علمه بالظواهر والبواطن، والخفيات والجليات، والمستقبلات، وسمع جميع الأصوات خفيها والجليات، وأبصر جميع الموجودات دقيقها وجليها، وصغيرها وكبيرها، وأحاطه علمه بجميع الموجودات" (٥).

"فإذا اعتبر العلم مطلقاً فهو العليم، وإذا أضيف إلى الغيب والأمور الباطنة فهو الخبير، وإذا أضيف إلى الأمور الظاهرة فهو الشهيد" (٦).

ولذلك عندما ذكر الله تعالى: جحود الإنسان في قوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ وهذا الجحود أمر

يظهر عليه في كلامه وتصرفاته وحاله قال: ﴿وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ (٧).

(١) جامع البيان ٥٩١/٢٤.

(٢) في ظلال القرآن ٣٩٥٩/٦ بتصرف.

(٣) فتح الرحيم الملك العلام ٣٤.

(٤) المنهج الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى ٤٤١/١.

(٥) فتح الرحيم الملك العلام ٢٩.

(٦) المنهج الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى ٤٤١/١.

ثانياً: اسم الله الخبير وأثره التربوي في تركية النفوس المؤمنة:

"الله تعالى العليم بكل شيء، الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، ولا يعزب عن علمه شيء، أحاط علمه بالواجبات والمستحيلات والجائزات، وبالماضيات والحاضرات والمستقبلات قال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظِلْمَةٍ أَلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

فهو سبحانه ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧]. ويعلم ما أكتته الصدور وما توسوس به النفوس، وما فوق السماوات العلى، وما تحت الثرى، الخبير الذي أدرك علمه السرائر، واطلع على مكنون الضمائر، وعلم خفيات البذور، ولطائف الأمور، ودقائق الذرات في ظلمات الدجور.

وكثيراً ما يأتي ذكر العليم والخبير في سياق الأعمال وجزائها؛ ليوقظ القلوب، وينبهاها على: إكمالها وإحسانها وإتقانها وإخلاصها، وليرغبهم ويرهبهم^(١).

"قاله تعالى خبير عليم بأعمال عباده وأقوالهم، وما يجول في صدورهم من خير أو شر قال تعالى: ﴿وَكُنِيَ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ١٧]. وقال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [١٤] [الملك: ١٤]. ولذلك أمرنا سبحانه وتعالى: أن نتقيه ونعمل بما يحب، وأن نبتعد عن كل ما يسخطه

ويغضبه؛ فقال تعالى محرضاً على التقوى والإحسان: ﴿وَإِنْ تَحْسَبُوا أَنَّكُمْ مُؤْمِنُونَ فَادْبُرُوا لِنُصْرَتِنَا فَاصْبِرُوا﴾ [البقرة: ١٧٧].

تَعْمَلُونَ خَيْرًا ﴿[النساء: ١٢٨]﴾^(٢) فهذا حث على التقوى التي في القلب، والإحسان الذي هو أعلى مراتب الدين، الذي يصل فيه القلب إلى درجة عالية جداً من الإيمان، والذي يعلم وصول العبد إلى درجة التقوى والإحسان هو الله تعالى.

(١) فتح الرحيم الملك العلام ٣٣-٣٤ بتصرف يسير.

(٢) المنهج الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى ٢٧٠/١-٢٧١.

المطلب الثالث

وقفات إيمانية مع السورة

في هذه السورة ذكر الله تعالى فيها أموراً غيبية، وعرض الله هذه الأمور بأسلوب وعظي عظيم، فما أثر الإيمان بالغيب والآخرة على السلوك الإنساني؟ وما دور ذلك الأسلوب الوعظي التربوي في القرآن في تركية النفوس وبناء الأمم؟

أولاً: أثر الإيمان بالغيب عموماً وبالآخرة خصوصاً في تهذيب النفس المسلمة:

قال الله تعالى عن صفات المتقين: ﴿الَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥) [البقرة: ١ - ٥].

نعم ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ "إن الإيمان بالغيب لهو من الصفات التي كرم الله بها بني آدم فلم يشأ لهم أن تكون حياتهم محصورة في دائرة ما تدركه حواسهم فحسب، بل شاء لهم - فضلاً منه ومنه وكرماً- أن تكون حياتهم أوسع من ذلك وأرحب، وأن تكون في أرواحهم القدرة على الإيمان بما لا تدركه الحواس وإن كانت تستطيع أن تدرك آثاره.

ومن عجب أن يأتي من يريد أن يطمس هذا الإيمان في روح الإنسان فيعيب عليه أن يؤمن بالغيب ويقول: هذه خرافة وتخلف ورجعية. وإن الإنسان يجب أن يؤمن بالعلم لا بالغيبيات!!

إن وضع هذه الصفة في مقدمة صفات المتقين تنبيه على أنهم لن يتقوا إذا لم يكونوا يؤمنون بالغيب وبالوحي وبالثواب والعقاب.

إن قاعدة حياة المؤمن الرئيسية هي إيمانه بالغيب، الذي يتم عن طريقه إيمانه بالله وباليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين والقدر خيره وشره، ومن ثم يتقرر عن طريق إيمانه خط سلوكه كله في الحياة الدنيا.

ثم يقول تعالى: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ ومن المعلوم أن الإيمان بالآخرة داخل ضمن الإيمان بالغيب، ولكن السياق يبرزه ليعطيه أهمية خاصة.. فالإيمان بالآخرة هو الذي يعين على الاستقامة في الدنيا ويحثها على العطاء والبذل^(١).

ومن هنا يعلم أن الإيمان بالغيب واليوم الآخر يحقق أموراً:

(١) دراسات قرآنية ٢٧٩-٢٨١ باختصار وتصرف.

١ يحقق الإيمان بالدين كله: وذلك "لأن الإيمان بالغيب: اعتقاد ما تخبر به الرسل عن وجود الله والعالم العلوي. فإذا آمن به المرء تهيأ لسماع دعوة الرسل، وللنظر فيما يبلغون عن الله تعالى، فسهل عليهم إدراك الأدلة"^(١).

٢ يحقق الارتفاع عن مرتبة الحيوانية التي لا تؤمن إلا بما تشاهده^(٢).

٣ يحقق التقوى: قال الله تبارك وتعالى: ﴿الْم ﴿١﴾ ذَلِكِ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾ [البقرة ١-٥].

٤+الإيمان بالغيب يحقق الهداية والفلاح والفوز: قال تعالى عن عباده المؤمنين بالغيب: ﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

وقال تعالى: ﴿الْم ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾ [لقمان: ١-٥].

ثانياً: الوعظ أسلوب تربوي مهم في تهذيب النفس المسلمة:

الموعظة: كلام مصحوب بزجر. وقيل: النصح والتذكير بالعواقب. وقيل: الأمر والنهي المقرون بالترغيب والترهيب^(٣).

وقد أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بالوعظة، فقال تعالى: ﴿فَاعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾﴾ [النساء: ٦٣]. وقال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴿١٢٥﴾﴾ [النحل: ١٢٥].

فإذا كان عند بعض المدعوين شيء من الجفاء والإعراض والصدود، مع معرفته بالحق وعلمه به، فهذا يدعى بالموعظة الحسنة.

(١) التحرير والتنوير ١/٢٣٠ بتصرف.

(٢) في ظلال القرآن ١/٣٣ بتصرف.

(٣) لسان العرب ١٥/٣٤٥.

وهذا مسلك الأنبياء، يقول تعالى عن نبيه هود عليه الصلاة والسلام وقومه يردون عليه موعظته: ﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴾ [الشعراء: ١٣٦].

والقرآن أغلبه عظة؛ ففيه: الترغيب والترهيب، وذكر الجنة والنار، وقصص الأولين وما حصل عليهم من المثالات، والتواعد للظالمين بأن لهم أمثالها. وأساليب الوعظ كثيرة، ومن أفضلها وأعمقها أثراً: الوعظ بالتذكير بالآخرة، والجنة والنار، والقيامة، والبعث والنشور، والقبر. وكذلك التذكير بنعم الله تعالى.

فالواجب على المرين:

- أ- أن يلتزموا ذلك المنهج القرآني النبوي في تذكير الناس بالله تعالى، وتهذيب نفوسهم.
- ب- وأن يجمعوا بين الخطاب العلمي والخطاب الوعظي، ولا يجعلوا الخطاب العلمي معلومات جافة من غير وعظ وتذكير.
- ج- وأن تصطبغ دروس العلم وحلقات التربية بما يزيد الإيمان، ويرقق القلوب، ويزيد طلبه العلم -الذين هم دعاة المستقبل- بل والناس جميعاً قرباً من الله تعالى.

تفسير سورة القارعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْقَارِعَةُ ١ مَا الْقَارِعَةُ ٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ٣ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ٤ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ٥ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ٨ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ٩ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَةٌ ١٠ نَارٌ حَامِيَةٌ ١١ ﴾

المبحث الأول

مقدمات حول السورة

أولاً: اسمها :

اتفقت المصاحف وكتب التفسير والسنة على تسميتها بسورة (القارعة) ^(١)، وسميت بذلك لأنها تقرع القلوب والأسماع بهولها ^(٢).

ثانياً: نزولها ومناسبتها :

اتفق المفسرون على أنها مكية ^(٣).

أما عدد آياتها (١١) آية، وكلماتها: (٣٦) كلمة، وحروفها: (١٥٠) حرفاً ^(٤).

مناسبتها لما قبلها:

"ختمت سورة «العاديات» بقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ٩ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ١٠ ﴾ إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ ١١ ﴾. وفيها دعوة إلى الناس أن يحاسبوا أنفسهم في الدنيا ، قبل يوم الحساب والجزاء في الآخرة .. وجاءت سورة القارعة تقرع الناس بهذا اليوم ، يوم الجزاء ، وتدعوهم إلى الحساب والجزاء ، بعد أن أخذوا الفرصة الممكنة لهم من حساب أنفسهم ، وإعدادها لهذا اليوم .." ^(٥).

(١) التحرير والتنوير ٥٠٩/٣٠

(٢) إيجاز البيان في سور القرآن ٣١٠.

(٣) المحرر الوجيز ٥٥٢/١٥ ، ولم يذكرها السيوطي في السور المدنية ولا السور المختلف فيها، انظر الإتيقان ٢٨/١-٣٧.

(٤) التفسير القرآني للقرآن ٨٥/٣.

(٥) المصدر السابق.

ثالثاً: موضوعها :

"إثبات وقوع البعث وما يسبق ذلك من الأهوال والشدائد، وما يكون فيها من أحداث عظام: كخروج الناس من قبورهم، وانتشارهم كالفراش المتطاير على غير نظام من شدة حيرتهم وفزعهم، وكذلك نسف الجبال وتطايرها حتى تكون كالصوف المتطاير في الهواء، وإثبات الجزاء على الأعمال، وأن أهل الأعمال الصالحة المعتبرة عند الله في نعيم، وأهل الأعمال السيئة التي لا وزن لها عند الله في قعر الجحيم"^(١).

رابعاً: المعنى الإجمالي للسورة:

يقول الله تعالى عن يوم القيامة: ﴿ الْقَارِعَةُ ﴾ وهو صف الساعة التي تترع قلوب الناس بأهوالها.

﴿ مَا الْقَارِعَةُ ﴾ أي شيء هذه القارعة؟ ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴾ وأي شيء أعلمك بها؟

﴿ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴾ أي: في ذلك اليوم يكون الناس في كثرتهم وتفرقتهم وحركتهم كالفراش المنتشر، وهو الذي يتساقط في النار.

﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ﴾ وتكون الجبال كالصوف متعدد الألوان الذي يُنْفَش باليد، فيصير هباءً ويزول.

﴿ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ، ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾ فأما من رجحت موازين حسناته، فهو

في حياة مرضية في الجنة. ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ، ﴿٨﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾ وأما من خفت موازين حسناته، ورجحت موازين سيئاته، فأواه جهنم.

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ ﴾ وما أدراك -أيها الرسول- ما هذه الهاوية؟ إنها ﴿ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾ أي: قد حميت من الوقود عليها..

(١) التحرير والتنوير، ٣٠/٥١٠-٥١١ باختصار.

المبحث الثاني وقفات حول السورة المطلب الأول

وصف يوم القيامة

المحور الأول: يوم القيامة هو يوم القارعة :

﴿ الْقَارِعَةُ ۝١ مَا الْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ۝ ﴾

قوله تعالى : ﴿ الْقَارِعَةُ ۝ ﴾ أي: "الساعة التي يقرع قلوب الناس هولها وعظيم ما يترل بهم من البلاء عنها وذلك صبيحة لا ليل بعدها" ^(١)، فالقارعة من أسماء يوم القيامة؛ كالحاقة، والطامة، والصاخة، والغاشية .. وغير ذلك.

"والقارعة: وصف؛ من القرع وهو: ضرب الجسم بآخر بشدة لها صوت. وأطلقت ﴿ الْقَارِعَةُ ﴾ على الحدث العظيم وإن لم يكن من الأصوات كقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ ﴾ [الرعد: ٣١].

والتقدير: القارعة قريبة أو أتت القارعة. وقوله تعالى: ﴿ مَا الْقَارِعَةُ ﴾ : استئنافا للتهويل، و﴿ مَا ﴾ استفهامية، والاستفهام مستعمل في التهويل؛ لأن هول الشيء يستلزم تساؤل الناس عنه" ^(٢).

ثم يزيد الله تعالى في تهويل النفوس معظمًا أمرها ومهولًا لشأنها: ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴾ أي: "وما أشعرك يا محمد أي شيء القارعة" ^(٣)، فهي أكبر من أن يحيط بها الإدراك وأن يلتم بها التصور!

وهذا التركيب نظير قوله تعالى: ﴿ الْحَاقَّةُ ۝١ مَا الْحَاقَّةُ ۝٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ۝٣ ﴾ [الحاقة: ١-٣]، وفائدته جذب الانتباه وشد النفس للتطلع للجواب والاهتمام به مع قيام عظمتها وهوله في النفس حتى كأنه بين يديها الآن.

(١) جامع البيان ٥٩٢/٢٤.

(٢) التحرير والتنوير ٥١٠/٣٠ مختصراً .

(٣) جامع البيان ٥٩٣/٢٤.

الخور الثاني: من أهوال يوم القيامة :

ثم فسر ذلك اليوم بأن وصف بعض أهواله، فابتدأها بوصفين:

الوصف الأول: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾

الفراش هو: طير دقيق يتساقط في النار ويقصدها، ولا يزال يفتحم على المصباح ونحوه حتى يحترق^(١).

﴿الْمَبْثُوثِ﴾: أي: المتفرق^(٢).

فيكون معنى الآية أن الناس "في انتشارهم وتفرقهم، وذهابهم ومحييتهم؛ من حيرتهم مما هم فيه، كأنهم

فراش مبعوث"^(٣) قال تعالى: ﴿خُشَعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾ [القمر: ٧].

"والناس أول قيامهم من القبور كالفراش المبعوث، لأنهم يحيئون ويذهبون، على غير نظام، ثم يدعون فيتجهون إلى ناحية المحشر، فهم حينئذ كالجراد المنتشر، لأن الجراد إنما توجُّهه إلى ناحية مقصودة"^(٤).

وجملة ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ﴾ إجابة عن السؤالين في قوله: ﴿مَا الْقَارِعَةُ﴾ وقوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾.

والملاحظ أن الله تعالى أجابهم عن القارعة بقوله ﴿يَوْمَ﴾، ووصف ذلك اليوم بأهواله، ولم يذكر متى ذلك اليوم!! وهذا زيادة للتحويل. كأن الله تعالى يقول لنا: لا تنشغلوا بوقته، ولكن انشغلوا بما سيحصل فيه لكم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، فاعملوا قبل أن يحل بكم ذلك اليوم. يدل على ذلك قوله تعالى:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا أَدْرِيكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمُ الْيَوْمَ ۚ إِنَّمَا أَدْرِيكُمْ بِالسَّاعَةِ حَيْثُ وَرَدَتِهَا ۚ وَهَا هِيَ كَأَنَّهَا كَالْغَيْمِ يُغَشِّوهُمُ غَشًى ۖ﴾ [الأنعام: ٩٣]

﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ [النازعات: ٤٢ - ٤٦].

الوصف الثاني: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ يعني: "قد صارت كأنها الصوف المنفوش،

الذي قد شرع في الذهاب والتمزق"^(٥). فالعهن هو: الصوف^(٦).

أما وصف العهن بأنه منفوش، أي: المفرق بعض أجزائه عن بعض؛ ليغزل أو تحشى به الحشايا^(٧).

(١) المحرر الوجيز ١/٥٥٣.

(٢) جامع البيان ٢٤/٥٩٣.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٨/٤٦٨.

(٤) المحرر الوجيز ١/٥٥٣.

(٥) تفسير القرآن العظيم ٨/٤٦٨.

(٦) جامع البيان ٢٤/٥٩٤.

(٧) التحرير والتنوير ٣٠/٥١٢.

"وقد قرنت الجبال وما سيكون من حالها بينها وبين الناس؛ تنبيهاً على تأثير تلك القارعة في الجبال، حتى صارت كالصوف المندوف، فكيف يكون حال البشر في ذلك اليوم العصيب!؟"^(١).

وخصت الجبال في ذلك لأنها أقوى وأرسى الأشياء التي يعايشها الإنسان على ظهر الأرض، ولذا قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا ۖ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا ۖ﴾ [الواقعة: ٥ - ٦]. وقال:

﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُغِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَقَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ۗ﴾ [النمل: ٨٨]. وقال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ۖ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۖ لَا تَرَى فِيهَا

عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ۗ﴾ [طه: ١٠٥-١٠٧].

"فهذا المشهد للقيامة تطير له القلوب شعاعاً، وترتجف منه الأوصال ارتجافاً، ويحس السامع كأن كل شيء يتشبث به في الأرض قد طار حوله هباءً"^(٢)، فلا نافع لها، ولا مدرك له، ولا منقذ، إلا الله سبحانه، حتى أقوى قوى الأرض جميعاً من جبال الأرض الرواسي التي تُثَبَّتُ الأرض كما قال تعالى:

﴿وَالْجِبَالُ أَوْتَادًا ۗ﴾ [النبا: ٧] وقال: ﴿وَالْجِبَالُ أَرْسَاهَا ۗ﴾ [النازعات: ٣٢]، هذه الجبال تصبح لا تملك من أمرها شيئاً حتى أنها تطير في الهواء .

*لمسة بيانية:

قال في سورة القارعة: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ۗ﴾، وقال في سورة المعارج: ﴿وَتَكُونُ

الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ۗ﴾ [المعارج: ٩]. فزاد كلمة ﴿الْمَنْفُوشِ ۗ﴾ في سورة القارعة فما سبب ذلك؟ والجواب والله أعلم: "أنه لما ذكر القارعة في أول السورة، والقارعة من (القرع)، وهو الضرب بالعصا، ناسب ذلك ذكر النفس؛ لأن من طرائق نفس الصوف أن يُقرعَ بالقرعة. كما ناسب ذلك من ناحية أخرى وهي أن الجبال تهشم بالمقراع - وهو من القرع - وهو فأس عظيم تحطم به الحجارة، فناسب ذلك ذكر النفس أيضاً.

فلفظ القارعة أنسب شيء لهذا التعبير. كما ناسب ذكر القارعة ذكر الفراش المبتوث في قوله: ﴿يَوْمَ

يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ۗ﴾ أيضاً؛ لأنك إذا قرعت طار الفراش وانتشر. ولم يحسن ذكر (الفراش) وحده كما لم يحسن ذكر (العهن) وحده"^(٣).

(١) إيجاز البيان في سور القرآن ٣١٠.

(٢) في ظلال القرآن ٦/٣٩٦١.

(٣) لمسات بيانية ١١٠.

المطلب الثاني

أقسام الناس يوم القارعة وجزائهم

في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ﴾ جمع الله تعالى بين كل الخلق؛ أهل الصلاح وأهل الفساد، أهل السعادة وأهل الشقاء. ولكن أهل الصلاح في هذا اليوم لهم مميزات تميزهم عن غيرهم من جهة الجزاء، بل ومن جهة هول الموقف والإحساس به؛ فأهل الصلاح والسعادة لا يقاسون ما سيقاسيه أهل الشقاء في هذا اليوم فلهم: ظل عرش الرحمن، وحوض النبي صلى الله عليه وسلم، تيسير الحساب. إلى غير ذلك من حسن الجزاء الذي يخفف عنهم فزع ذلك اليوم وشدته.

فهذه الآيات تُفصّل بين الناس في الجزاء، وتبين أن الناس في هذا اليوم سيكونون على قسمين:

قال تعالى ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ، ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ، ﴿٨﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾

وهذا مثل قوله تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ، فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِعَيَابَتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأعراف: ٨ - ٩] وقوله: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ، فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١١﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٢ - ١٠٣]. فهما قسمان لا ثالث لهما:

القسم الأول: من ثقلت موازينه:

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ، ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ هنا عدة وقفات: أولاً: معنى الموازين:

قال ابن عطية: "قال جمهور العلماء والفقهاء والمحدثين: ميزان القيامة بعمود وكفتين، ليبين الله تعالى أمر العباد بما عهدوه وتيقنوه، وجمعت الموازين للإنسان لما كانت له موزونات كثيرة متغايرة"^(١). قال الشيخ ابن عثيمين: "قال بعض أهل العلم: إنه واحد وإنما جمع باعتبار الموزون، لأنه يوزن فيه الحسنات والسيئات، وتوزن فيه حسنات فلان وفلان، وتوزن فيه حسنات هذه الأمة والأمة الأخرى، فهو مجموع باعتبار الموزون لا باعتبار الميزان، وإلا فالميزان واحد. وقال بعض أهل العلم: إنها موازين متعددة، لكل أمة ميزان، ولكل عمل ميزان فهذا جمعت. والأظهر — والله أعلم — أنه ميزان واحد، لكنه جمع باعتبار الموزون على حسب الأعمال، أو على حسب الأمم، أو على حسب الأفراد"^(١).

(١) المحرر الوجيز ١٥/٥٥٥.

ثانياً: ما الذي يوزن في الميزان:

للعلماء في ذلك أقوال:

١- الأعمال نفسها توزن وأنها تجسم :

يقول الشيخ ابن عثيمين: "الأعمال تقلب أعياناً فيكون لها جسم يوضع في الكفة فيرجح أو يخف، وقد ضرب العلماء لذلك مثلاً بما صح به الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم: (يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح فينادى مناد: يا أهل الجنة. فيشربون وينظرون فيقول هل تعرفون هذا فيقولون نعم هذا الموت ، وكلهم قد رآه ، ثم ينادى يا أهل النار ، فيشربون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم. هذا الموت. وكلهم قد رآه. فيذبح، ثم يقول: يا أهل الجنة؛ خلود فلا موت. ويا أهل النار؛ خلود فلا موت)^(٣). ونحن نعلم جميعاً أن الموت صفة ولكن الله -تعالى- يجعله عيناً قائماً بنفسه وهكذا الأعمال تجعل أعياناً فتوزن والله أعلم"^(٣).

وقد دلت نصوص كثيرة أن الأعمال تأتي في يوم القيامة في صورة الله أعلم بها، كما قال صلى الله عليه وسلم: (اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه، اقرأوا الزهراوين البقرة وسورة آل عمران فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان، أو كأنهما غيايتان، أو كأنهما فرقان من طير صواف؛ تحاجان عن أصحابهما)^(٤). والشواهد في هذا كثيرة.

٢- الذي يوزن هو العامل نفسه:

فقد دلت النصوص على أن العباد يوزنون يوم القيامة، فيثقلون في الميزان ويخفون بمقدار إيمانهم، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة. وقال اقرأوا ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا ﴿١٠٥﴾﴾ [الكهف: ١٠٥] ^(٥).

(١) تفسير جزء النبأ لابن عثيمين ٢٩٩.

(٢) أخرجه البخاري كتاب التفسير باب قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ (٤٧٣٠)، ومسلم كتاب الجنة باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء ٢٨٤٩.

(٣) مجموع فتاوى ابن عثيمين اليوم الآخر ٣١/٢.

(٤) أخرجه مسلم كتاب الصلاة باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة ٨٠.

(٥) أخرجه البخاري كتاب التفسير باب ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا﴾ (٢٧٨٥).

وورد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، أنه كان يجتني سواكا من الأراك وكان دقيق الساقين فجعلت الريح تكفه فضحك القوم منه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مم تضحكون) قالوا: يا نبي الله من دقة ساقيه!! فقال: (والذي نفسي بيده لهما أثقل في الميزان من أحد)^(١).

٣- الذي يوزن إنما هو صحائف الأعمال:

كما ورد في حديث البطاقة، فقد ورد في السنة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله سيخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً كل سجل مثل مد البصر، ثم يقول: أتنكر من هذا شيئاً؟ أظلمك كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا يا رب فيقول: أفلك عذر؟ فيقول: لا يا رب فيقول: بلى إن لك عندنا حسنة، فإنه لا ظلم عليك اليوم. فتخرج بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. فيقول: احضر وزنك فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات!! فقال: إنك لا تظلم. قال: فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة فلا يثقل مع اسم الله شيء)^(٢).

والراجح: قال الشيخ حافظ حكيمي: "العامل وعمله وصحيفة عمله كل ذلك يوزن لأن الأحاديث التي في بيان القرآن قد وردت بكل من ذلك ولا منافاة بينهما. ويدل لذلك ما روي عن عبد الله بن عمرو في قصة صاحب البطاقة بلفظ: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (توضع الموازين يوم القيامة فيؤتى بالرجل فيوضع في كفة ويوضع ما أحصى عليه فيمائل به الميزان، قال: فيبعث به إلى النار. قال: فإذا أدبر إذا صائح من عند الرحمن عز وجل يقول: لا تعجلوا فلينه قد بقي له فيؤتى ببطاقة فيه لا إله إلا الله فتوضع مع الرجل في كفة حتى يميل به الميزان)^(٣).

فهذا الحديث يدل على أن العبد يوضع: هو وحسناته وصحيفتها في كفة، وسيئاته مع صحيفتها في الكفة الأخرى. وهذا غاية الجمع بين ما تفرق ذكره في سائر أحاديث الوزن والله الحمد والمنة والله أعلم"^(٤).

(١) أخرجه أحمد في المسند/١/٤٢٠ (٣٩٩١)، وابن حبان ٥٤٦/١٥ (٧٠٦٩) قال شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن.

(٢) أخرجه الترمذي كتاب الإيمان باب ما جاء فيمن يموت ويشهد أن لا إله إلا الله (٢٦٣٩)، وابن ماجه كتاب الزهد باب ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة (٤٣٠٠)، وأحمد في المسند ٢١٣/٢ (٦٩٩٤) والحاكم ٥٢٩/١ وصححه، وصححه الألباني في الصحيحة (١٣٥).

(٣) أخرجه أحمد ٢٢١/٢ (٧٠٦٦)، قال شعيب الأرنؤوط: هذا إسناده حسن. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٢٥/١٠ (١٦٨٠٥). رواه أحمد وفيه ابن هبة وحديثه حسن، وبقيته رجاله رجال الصحيح.

(٤) معارج القبول ٢/٢٧٢، وانظر للإستزادة حول هذه المسألة كتاب القيامة الكبرى للأشقر ٢٥١-٢٥٥.

ثالثاً: الذي يثقل الميزان:

أعظم شيء يثقل ميزان العبد يوم القيامة توحيد الله تعالى، وحديث البطاقة أعظم دليل في ذلك، وحديث (فإن الله قد حرم على النار من قال لا إله إلا الله. يبتغى بذلك وجه الله)^(١)، وكل طاعة لله تعالى هي رفعة لميزانه يوم القيامة، وهناك أعمالٌ بيّن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنها تثقل الميزان، ومنها:

- ١ - حسن الخلق: عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما من شيء في الميزان أثقل من حسن الخلق)^(٢).
- ٢ - التسييح: وقد وردت صيغته في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله العظيم سبحان الله وبحمده)^(٣).
- ٣ - الذكر والاحتساب: وفيه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (بخ بخ!! وأشار بيده بخمس، ما أثقلهن في الميزان سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، والولد الصالح يتوفى للمرء المسلم فيحتسبه)^(٤).
- ٤ - الطهارة والحمد: عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الطهور شرط الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله، والحمد لله تملأ- أو تملأ- ما بين السماوات والأرض...)^(٥).
- ٥ - تجهيز وإعداد فرس للجهاد: قال صلى الله عليه وسلم: (من احتبس فرساً في سبيل الله؛ إيماناً بالله وتصديقاً بوعده، فإن شبعه وريّه وروثه وبوله في ميزانه يوم القيامة)^(٦).

(١) أخرجه البخاري كتاب الصلاة باب المساجد في البيوت (٤٢٥) ومسلم كتاب المساجد باب الرخصة في التخلف عن الجماعة بعدد (٢٦٣).

(٢) أخرجه أبو داود كتاب الأدب باب حسن الخلق (٤٨٩٩)، وجامع الترمذي كتاب البر والصلة باب ما جاء في حسن الخلق (٢٠٠٢)، وصححه الألباني في الصحيحة ٨٧٦.

(٣) أخرجه البخاري كتاب التوحيد باب قوله تعالى ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ ﴾ (٦٠٤٣)، ومسلم كتاب الذكر والدعاء باب فضل التهليل والتسييح والدعاء (٢٦٩٤).

(٤) أخرجه ابن حبان ١١٤/٣ (٨٣٣) قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح، وأحمد في المسند ٦١٨/٢٩ (١٨٠٧٦) و٤٣٠/٢٤ (١٥٦٦٢) و١٨٨/٣٨ (٢٣١٠٠) وصححه شعيب الأرنؤوط، والبيهقي في شعب الإيمان ١٣٦/٧ (٩٧٥٥).

(٥) أخرجه مسلم كتاب الطهارة باب فضل الوضوء (٢٢٣).

(٦) أخرجه البخاري كتاب الجهاد باب من احتبس فرساً في سبيل الله (٢٨٥١).

رابعاً: معنى عيشة راضية:

العيشة الراضية هي: الجنة^(١) ووصف العيشة بأنها راضية "وصف يدعها مجملة بلا تفصيل، توقع في الحس ظلال الرضى وهو أروح النعيم"^(٢).

فالعيشة الراضية وصفت جمع كل النعم التي في الجنة، وأعظمها رضى الله الرحمن الرحيم ، ففي الحديث قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إن الله يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة. فيقولون: لبيك وسعديك والخير في يديك. فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك؟! فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون يا رب وأي شيء أفضل من ذلك؟! فيقول: أحلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً)^(٣).

وكذلك العيشة الراضية في قوله سبحانه وتعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]. فقوله: ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ هي تضعيف ثواب الأعمال، بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، ويشمل ما يعطيهم الله في الجنان من القصور والحُور، والرضا عنهم، وما أخفاه لهم من قرّة أعين، وأفضل من ذلك وأعلاه: النظرُ إلى وجهه الكريم، فإنه زيادة أعظم من جميع ما أعطوه، لا يستحقونها بعملهم، بل بفضلِهِ ورحمته^(٤).

فعن صهيب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إذا دخل أهل الجنة الجنة - قال - يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون ألم تبيض وجوهنا؟! ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟! - قال - فيكشف الحجاب؛ فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل)^(٥).

القسم الثاني: من خفت موازينه:

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ، ﴿٨﴾ فَأَمَّهُ هَكَوِيَةً ﴿٩﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ ﴿١٠﴾ نَارُ حَامِيَةٍ

﴿١١﴾

أولاً: معنى خفة الموازين:

أي: رجحت سيئاته على حسناته^(١)، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: "يحاسب الناس يوم القيامة، فمن كانت حسناته أكثر من سيئاته بوحدة دخل الجنة، ومن كانت سيئاته أكثر من حسناته بوحدة

(١) جامع البيان ٥٩٥/٣٠.

(٢) في ظلال القرآن ٣٩٦١/٦.

(٣) أخرجه البخاري كتاب الرقاق باب صفة الجنة والنار (٦١٨٣)، ومسلم كتاب الجنة وصفة نعيمها باب إحلال الرضوان على أهل الجنة (٢٨٢٩).

(٤) تفسير القرآن العظيم ٢٦٢/٤.

(٥) أخرجه مسلم كتاب الإيمان باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى (١٨٠).

دخل النار. ثم قرأ قول الله: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٨) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ يَمَا كَانُوا بِعَآيِنِنَا يَظْلِمُونَ﴾ (٩). ثم قال: إن الميزان يخفّ بمثقال حبة ويرجح. قال: فمن استوت حسناته وسيئاته كان من أصحاب الأعراف.. (٢).

ثانياً: المقصود بـ ﴿فَأُمَّهُ هَاوِيَةٌ﴾:

معناه: فهو ساقط هاو بأم رأسه في نار جهنم، وعبر عنه بأمه يعني دماغه. أو: ﴿فَأُمَّهُ﴾ التي يرجع إليها، ويصير في المعاد إليها.

﴿هَآوِيَةٌ﴾: اسم من أسماء النار^(٣)، قال ابن زيد: "الهاوية: النار، هي أمه ومأواه التي يرجع إليها ويأوي إليها وقرأ: ﴿وَمَا أَوْلَاهُمْ النَّارُ﴾ [آل عمران: ١٥١]"^(٤).

قال الطبري: "وإنما جعلت النار أمه لأنها صارت مأواه، كما تؤوي المرأة ابنها، فجعلها إذ لم يكن له مأوى غيرها له بمنزلة الأم له"^(٥).

وهذا "تمثيل لحال من خفت موازينه يومئذ بحال الهالك في الدنيا، لأن الناس يكونون عن حال المرء بحال أمه في الخير والشر- لشدة محبتها ابنها- فهي أشد سرورا بسروره، وأشد حزنًا بما يحزنه"^(٦).

ثالثاً: وصف الهاوية بأنها نار حامية :

قال تعالى مفسراً للهاوية: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ﴾ (١٠) ﴿نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ (١١) فالهاوية هي النار .

فقوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ﴾ سؤال تهويل لإخراج الأمر عن حدود التصور وحيز الإدراك! وفائدته جذب الانتباه وشد النفس للتطلع للجواب والاهتمام به، مع قيام عظمتة وهوله في النفس حتى

كأنه بين يديها الآن. ثم يجيء الجواب كنبرة الختام: ﴿نَارٌ حَامِيَةٌ﴾.

"هذه هي أم الذي خفت موازينه! أمه التي يفىء إليها ويأوي! والأم عندها الأمن والراحة. فماذا هو واحد عند أمه هذه الهاوية.. النار.. الحامية!! إنها مفاجأة تعبيرية تمثل الحقيقة القاسية!"^(٧).

فوصف النار بأفها: ﴿نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ أي: حارة شديدة الحر، قوية اللهب والسعير^(٨).

(١) تفسير القرآن العظيم ٤٦٨/٨.

(٢) جامع البيان ٤٥١/١٨.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٤٦٨/٨.

(٤) جامع البيان ٥٩٦/٢٤.

(٥) المصدر السابق.

(٦) التحرير والتنوير ٥١٤/٣٠ بتصرف يسير .

(٧) في ظلال القرآن ٣٩٦١/٦.

(٨) الجامع لأحكام القرآن ١٦٧/٢٠.

عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ناركم جزء من سبعين جزء من نار جهنم). قيل: يا رسول الله، إن كانت لكافية. فقال: (إنها فضّلت عليها بتسعة وستين جزءاً كلهن مثل حرّها)^(١).

وفي رواية (إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم، وضربت بالبحر مرتين، ولولا ذلك ما جعل الله فيها منفعة لأحد)^(٢). وفي رواية: (هذه النار جزء من مائة جزء من جهنم)^(٣). وفي رواية: (أتدرون ما مثل ناركم هذه من نار جهنم؟ لهي أشد سواداً من دخان ناركم هذه بسبعين ضعفاً)^(٤).

وعن أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن أهون أهل النار عذاباً من له نعلان وشراكان من نار يغلى منهما دماغه كما يغلى المرجل ما يرى أن أحداً أشد منه عذاباً وإنه لأهونهم عذاباً)^(٥).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (اشتكت النار إلى ربها فقالت: يا رب، أكل بعضي بعضاً، فأذن لها بنفسين: نفس في الشتاء، ونفس في الصيف، فأشد ما تجدون في الشتاء من بردها، وأشد ما تجدون في الصيف من حرّها)^(٦). وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا اشتد الحر فأبردوا عن الصلاة، فإن شدة الحر من فيح جهنم)^(٧).

﴿ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾: وحماها هنا مطلق فيشمل:

١- لظاها: وقد وصف الله به النار كلها فقال: ﴿ كَلَّا إِنَّهَا لَأَنْظٰى ﴿١٥﴾ نَزَاعَةً لِّلشَّوٰى ﴿١٦﴾ ﴾ [المعارج: ١٥ - ١٦].

٢- دخانها: وقد وصف الله به النار فقال: ﴿ أَنْظِلِقُوا إِلَى ظِلِّ ذِي تَلَدٍ شَعْبٍ ﴿٣٠﴾ لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ الْآلِهَبِ

﴿ ٣١ ﴾ [المرسلات: ٣٠ - ٣١].

(١) أخرجه البخاري كتاب بدء الخلق باب صفة النار وأما مخلوقة (٣٢٦٥)، ومسلم كتاب الجنة باب في شدة حر النار جهنم وبعد قعرها وما تأخذه من المعذبين (٢٨٤٣).

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٢٤٤/٢ (٧٣٢٣) وابن حبان (٢٦٠٨) والحميدي في المسند (١١٢٩) قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣٦٦٦).

(٣) أخرجه أحمد في المسند ٣٧٩/٢ ح (٨٩١٠) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٠٠٦) وقال الأرنؤوط إسناده قوي.

(٤) أخرجه الطبراني في الأوسط ١٥٥/ وفي الكبير ١٢٣/١٩ (٢٨٢) قال الهيثمي ٣٣٣/١٠: رجاله رجال الصحيح.

(٥) أخرجه البخاري كتاب الرقاق باب صفة الجنة والنار (٦١٩٣) و (٦١٩٤)، ومسلم كتاب الإيمان باب أهون أهل النار عذاباً كتاب الرقاق باب صفة الجنة والنار (٢١٣) واللفظ له.

(٦) أخرجه البخاري كتاب بدء الخلق باب صفة النار وأما مخلوقة (٣٢٦٠)، ومسلم كتاب المساجد باب استحباب الإبراد بالظهر في شدة الحر.. (٦١٧).

(٧) أخرجه البخاري كتاب مواقيت الصلاة باب الإبراد بالظهر في شدة الحر (٥٣٣) ومسلم كتاب المساجد باب استحباب الإبراد بالظهر في شدة الحر (٦١٥).

٣- هيبها: وقد وصف الله به النار كما في قصة أبي لهب فقال: ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ [المسد: ٣].

٤- طعامها وشرابها: وقد وصف الله به النار فقال: ﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزُّقُومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامٌ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾

كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلِيِّ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ [الدخان: ٤٣-٤٦].

٥- عذابها: وقد وصف الله به النار فقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّبُهُمْ نَارًا كَمَا نَضَجَتْ جُلُودُهُمْ

بَدَلْنَهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾ [النساء: ٥٦].

٦- وقودها وزبانتها: قال تعالى: ﴿ يَتَأَيَّبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوًا أَنفُسِكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا

مَلَكِيَّةٌ غَلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ [التحریم: ٦].

٧- استمرار ذلك الحميم: قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمَوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ

عَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ ﴿٣٦﴾ [فاطر: ٣٦].

فهذه بعض أوصاف ذلك الحميم الذي سيلاقيه أولئك الذين خفت موازينهم نسال الله السلامة والعافية.

**لمسة بيانية :

"ناسب ذكر العهن المنفوش قوله: ﴿ نَارُ حَامِيَةٍ ﴾ لأن النار الحامية هي التي تذيب الجبال، وتجعلها

كالعهن المنفوش، وذلك من شدة الحرارة: في حين ذكر صفة النار في المعارج بقوله: ﴿ كَلَّا إِنَّهَا لَأَطَىٰ ﴿١٥﴾

نَزَاعَةً لِلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ [المعارج: ١٥-١٦]، والشوى هو: جلد الإنسان، والحرارة التي تستدعي نزع جلد

الإنسان أقل من التي تذيب الجبال، وتجعلها ﴿ كَالْعَهْنِ الْمَنْفُوشِ ﴾، فناسب زيادة ﴿ الْمَنْفُوشِ ﴾

في القارعة من كل ناحية.

كما أن ذكر النار الحامية مناسب للقارعة من ناحية أخرى ، ذلك أن ﴿ الْقَارِعَةُ ﴾ - وهي من لفظ

القارعة - هي القداحة التي تقدح بها النار.

فناسب ذكر القارعة؛ ذكر الصوف المنفوش، وذكر النار الحامية، فناسب آخر السورة أولها.

وبهذا نرى أن ذكر القارعة حسن ذكر ﴿ الْمَبْثُوثِ ﴾ مع الفراش، وذكر ﴿ الْمَنْفُوشِ ﴾ مع الصوف،

وذكر النار الحامية في آخر السورة^(١).

﴿ نَارُ حَامِيَةٍ ﴾ خبر لمبتدأ محذوف تقديره هي نار حامية، والحجىء بالجملة الاسمية: ليفيد الدلالة على

الثبوت واللزوم.

(١) لمسات بيانية ١١٢.

تفسير سورة التكاثر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلْهَمَكُمُ التَّكَاثُرَ ۝١ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤
كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتَسْأَلُنَّ
يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ۝٨﴾ .

المبحث الأول

مقدمات حول السورة

أولاً: تسميتها :

كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمونها (المخيرة)^(١)، وذكر ابن حجر أن الصحابة يسمونها (المقبرة)^(٢).

وسميت في معظم المصاحف ومعظم التفاسير وعند الترمذي في جامعه (سورة التكاثر)^(٣)، وسميت في بعض المصاحف والتفاسير وترجم لها البخاري في كتاب التفسير من صحيحه (سورة الهاكم)^(٤).

ثانياً: نزولها ومناسبتها :

١- وهي مكية عند الجمهور، وقيل: إنها مدنية^(٥). قال ابن عطية: هي مكية لا أعلم فيها خلافاً^(٦).

٢- قال مقاتل والكلبي: نزلت في حين من قريش: بني عبدمناف بن قصي، وبني سهم بن عمرو،

كان بينهم تفاخر، فتعاد السادة والأشراف أيهم أكثر عدداً؟ فقال بنو عبدمناف: نحن أكثر سيداً وأعز

عزيراً وأعظم نفراً وأكثر عدداً. وقال بنو سهم مثل ذلك. فكثرت بنو عبدمناف. ثم قالوا: نعد موتانا.

حتى زاروا القبور فعدوهم، فقالوا: هذا قبر فلان!! وهذا قبر فلان فكثرت بنو سهم بثلاثة أبيات لأنهم

كانوا في الجاهلية أكثر عدداً. فأنزل الله هذه الآية^(٧).

(١) تفسير ابن أبي حاتم، ٣٤٥٩/١ برقم (١٩٤٥٢).

(٢) فتح الباري ٦٠٠/٨.

(٣) جامع الترمذي كتاب التفسير باب سورة التكاثر .

(٤) أخرجه البخاري كتاب التفسير باب تفسير سورة (الهاكم)، وانظر: التحرير والتنوير، ٥١٧/٣.

(٥) الجامع لأحكام القرآن ١٦٨/٢٠، التحرير والتنوير، ٥١٧/٣.

(٦) المحرر الوجيز ٥٥٦/١٥.

(٧) أخرجه الواحدي في أسباب النزول (٥٣٧)، وذكره البغوي ٥١٥/٨.

قال ابن عاشور: "والذي يظهر من معاني السورة وغلظة وعيدها أنها مكية وأن المخاطب بها فريق من المشركين لأن ما ذكر فيها لا يليق بالمسلمين في ذلك الوقت"^(١).

وقال السيوطي في الإتيان: "سورة أهاكم الأشهر أنها مكية، ويدل لكونها مدنية وهو المختار أنها نزلت في قبيلتين من قبائل الأنصار تفاخروا وتكاثروا، فقالت إحداهما: فيكم مثل فلان بن فلان، وفلان؟ وقال الآخرون مثل ذلك، تفاخروا بالأحياء، ثم قالوا: انطلقوا بنا إلى القبور. فجعلت إحدى الطائفتين تقول: فيكم مثل فلان؟ يشيرون إلى القبر - ومثل فلان؟ وفعل الآخرون مثل ذلك، فأنزل الله: ﴿أَلَهَكُمْ التَّكَاثُرُ﴾ ^(١) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهَا رَأْيٌ مِّنْ عِبْرَةٍ لَّيْسَ بِمُعْتَدٍ لِّذِكْرِهَا ۗ﴾^(٢).

وعن قتادة أنها نزلت في اليهود^(٣)، وعن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: "كنا نرى هذا من القرآن يعني لو كان لابن آدم واد من ذهب حتى نزلت ﴿أَلَهَكُمْ التَّكَاثُرُ﴾"^(٤).

وعن علي رضي الله عنه قال: "ما زلنا نشك في عذاب القبر حتى نزلت ﴿أَلَهَكُمْ التَّكَاثُرُ﴾"^(٥) وعذاب القبر لم يذكر إلا بالمدينة كما في الصحيح في قصة اليهودية^(٦) "أ.هـ"^(٧).

أما عدد آياتها: (٨) آيات، وكلماتها: (٢٨) كلمة، وحروفها: (١٢٠) حرفاً^(٨).

مناسبتها لما قبلها:

"الحديث في هذه السورة، متصل بما قبلها من الحديث عن القيامة، وعمّا يذهل الناس عنها، ويشغلهم عن الإعداد لها .. وهو المال والتكاثر منه"^(٩).

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٥١٨.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ١٠/٣٤٥٩ برقم ١٩٤٥٣. تفسير القرآن العظيم ٨/٤٣٧.

(٣) قال قتادة: نزلت في اليهود، قالوا: نحن أكثر من بني فلان، وبنو فلان أكثر من بني فلان، ألهام ذلك حتى ماتوا ضلالاً، أخرجه الواحدي في أسباب النزول ١٦١. وهذا إن صح فلا يعارض أنها نزلت بمكة لأن مرادهم بالنزول هنا وأشمله الحكم.

(٤) أخرجه البخاري كتاب الرقاق باب ما يتقى من فتنة المال (٦٤٤٠).

(٥) أخرجه الترمذي كتاب تفسير القرآن باب ومن سورة ﴿أَلَهَكُمْ التَّكَاثُرُ﴾ (٣٣٥)، وضعفه الألباني في صحيح وضعيف الترمذي.

(٦) الحديث الذي يشير إليه السيوطي هو ما ورد عن عائشة رضي الله عنها: أن يهودية دخلت عليها، فذكرت عذاب القبر، فقالت: لها أعاذك الله من عذاب القبر. فسألت عائشة رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عذاب القبر فقال: (نعم عذاب القبر). قالت عائشة رضي الله عنها: فما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد صلى صلاة إلا تعوذ من عذاب القبر. أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الجنائز باب ما جاء في عذاب القبر (١٣٧٢)، ومسلم كتاب المساجد باب استحباب التعوذ من عذاب القبر (٥٨٦) مطولاً وبلفظ مختلف.

(٧) الإتيان ١/٣٦-٣٧.

(٨) التفسير القرآني للقرآن ٣/٨٦.

(٩) المصدر السابق.

ثالثاً: موضوعها:

هذه السورة نذير، يصيح بقوم غافلين مخمورين سادرين، أشرفوا على الهاوية وعيونهم مغمضة، وحسهم مسحور، وذلك لانشغال الناس بالدنيا وشهواتها عن طاعة الله تعالى، وتكالبهم على جمع حطام الحياة حتى ييغتهم الموت ويقطع عليهم متعتهم وينقلهم من القصور إلى القبور.

نذير يحثهم على التدبير فيما ينجيهم من الجحيم، وأنهم مبعوثون ومستولون عن إهمال شكر المنعم العظيم.

سورة تشغل القلب بهم الآخرة عن سفسف الحياة الدنيا وصغائر اهتماماتها التي يهش لها الفارغون! ونشئ في محاسبة نفسه على الصغير والزهيد.

فهي توضح خطر الغفلة، وتبين أهمية التفكير والتذكر للآخرة، وخصوصاً أول طريق لها وهو القبر. مع التأكيد على تعدد نعم الله على الإنسان، ومحاسبة النفس على القيام بشكرها^(١).

رابعاً: المعنى الإجمالي للسورة:

قوله تعالى: ﴿أَلْهَنَكُمْ التَّكَاثُرُ﴾: أي: "شغلكم حب الدنيا ونعيمها وزهرتها عن طلب الآخرة وابتغائها، قال الحسن البصري: ﴿أَلْهَنَكُمْ التَّكَاثُرُ﴾: في الأموال والأولاد. وقال قتادة: "كانوا يقولون نحن أكثر من بني فلان، ونحن أعدد من بني فلان، وهم كل يوم يتساقطون إلى آخرهم!! والله ما زالوا كذلك حتى صاروا من أهل القبور كلهم"^(٢)، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ (٣٥)

[سياً: ٣٥]

قال ابن سعدي: " ولم يذكر المتكاثر به، ليشمل ذلك كل ما يتكاثر به المتكاثرون، ويفتخر به المفتخرون؛ من التكاثر في الأموال، والأولاد، والأنصار، والجنود، والخدم، والجاه، وغير ذلك مما يقصد منه مكاثرة كل واحد للآخر، ولم يقصد به وجه الله تعالى"^(٣).

قوله تعالى: ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ قال ابن كثير: " الصحيح أن المراد بقوله: ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ أي: صرتم إليها ودفنتم فيها"^(٤)، فقد جاء في الصحيح: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل على رجل

(١) في ظلال القرآن ٦/٢٩٦٢-٣٩٦٣ باختصار وتصرف .

(٢) تفسير القرآن العظيم ٨/٤٧٢ .

(٣) تيسير الكريم الرحمن ٩٣٣ .

(٤) تفسير القرآن العظيم ٨/٤٧٣ .

من الأعراب يعود، فقال: (لا بأس طهور إن شاء الله). فقال: قلت: طهور؟! بل هي حمى تفور، على شيخ كبير، تُزيره القبور! قال: (فَنَعَمْ إِذَا) (١).

"ودلت الآية على أن البرزخ دارٌ مقصودٌ منها النفوذ إلى الدار الآخرة. وأن الله سماهم زائرين، ولم يسمهم مقيمين، ليدل ذلك على البعث والجزاء على الأعمال في دار باقية غير فانية" (٢).

وعن ميمون بن مهران رحمه الله قال: كنت جالسا عند عمر بن عبد العزيز رحمه الله فقراً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْذُرُوا آيَاتِ اللَّهِ يَوْمَ يُنْفَخُ السَّمَاءُ كَمَا يُنْفَخُ السَّمَانُ يَوْمَ هُمْ كَانُوا بُرُودًا﴾ (٣) فلبث هنيهة فقال: يا ميمون، ما أرى المقابر إلا زيارة، وما للزائر بدٌّ من أن يرجع إلى منزله (٤).

قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ (٥) ثم ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي: "ما هكذا ينبغي أن تفعلوا، أن يلهيكم التكاثر.

وقوله: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي: سوف تعلمون إذا زرتم المقابر، أيها الذين ألهاهم التكاثر، غبّ فعلكم، واشتغالكم بالتكاثر في الدنيا عن طاعة الله ربكم.

وقوله: ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي: ثم ما هكذا ينبغي أن تفعلوا أن يلهيكم التكاثر بالأموال، وكثرة العدد، سوف تعلمون إذا زرتم المقابر، ما تلقون إذا أنتم زرتموها، من مكروه اشتغالكم عن طاعة ربكم بالتكاثر. وكرّر قوله: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ مرتين، لأن العرب إذا أرادت التخليط في التخويف والتهديد كرّروا الكلمة مرتين (٦).

وقال الفراء "وتكراره على وجه التأكيد والتخليط" (٧).

وقال الصابوني: "وهذا التكرار في الزجر والوعيد لبيان خطأ الناس في اشتغالهم بالفانية عن الباقية، ونسيانهم لما أمامهم من المخاطر والأهوال، التي لا يجوزها ولا ينجوا منها إلا من قدم صالح الأعمال" (٨).

وقوله: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ أي: لو علمتم حق العلم، لما ألهاكم التكاثر عن طلب الدار الآخرة، حتى صرتم إلى المقابر (٩).

(١) أخرجه البخاري كتاب المرضى باب ما يقال للمريض وما يجيب (٥٦٦٢)

(٢) تيسير الكريم الرحمن ٩٣٣.

(٣) تفسير ابن أبي حاتم ٣٤٥٩/١٠ برقم (١٩٤٥٥)، تفسير القرآن العظيم ٤٧٤/٨.

(٤) جامع البيان ٦٠٠١/٢٤.

(٥) الجامع لأحكام القرآن ١٧٠/٢٠.

(٦) إيجاز البيان في سور القرآن ٣١١.

(٧) تفسير القرآن العظيم ٤٧٤/٨.

ثم قال: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ أي: لترون أيها المشركون جهنم يوم القيامة، ثم لترونها عياناً لا تغيبون عنها^(١).

والفرق بين الرؤيتين:

سئل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن قوله تعالى حق اليقين وعين اليقين وعلم اليقين فما معنى كل مقام منها وأي مقام أعلى؟

فأجاب: "للناس في هذه الأسماء مقالات معروفة: منها أن يقال علم اليقين ما علمه بالسمع والخبر والقياس والنظر، وعين اليقين ما شاهده وعينه بالبصر وحق اليقين ما باشره ووجدته وذاقه وعرفه. فالأولى مثل من أخبر أن هناك عسلاً وصدق المخبر أو رأى آثار العسل فاستدل على وجوده، والثاني مثل من رأى العسل وشاهده وعينه وهذا أعلى. والثالث مثل من ذاق العسل ووجد طعمه وحلاوته ومعلوم أن هذا أعلى مما قبله"^(٢).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾ أي: "ثم لتسألن يومئذ عن شكر ما أنعم الله به عليكم، من الصحة والأمن والرزق وغير ذلك. ما إذا قابلتم به نعمه من شكره وعبادته"^(٣).

النعيم: "الذي تنعمتم به في دار الدنيا، هل قمتم بشكره، وأديتم حق الله فيه، ولم تستعينوا به، على معاصيه، فينعمكم نعيماً أعلى منه وأفضل. أم اغتررتم به، ولم تقوموا بشكره؟ بل ربما استعنتم به على

معاصي الله فيعاقبكم على ذلك، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَّذِينَ أُذْهِبَتْ طَبِيبَتُهُمْ فِي حَيَاتِهِمُ الدُّنْيَا

وَأَسْتَمَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ يُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِذَا كُنتُمْ فَسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأحقاف: ٢٠]"^(٤).

(١) جامع البيان ٢٤/٦٠٠٢.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ١٠/٦٤٥-٦٤٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٨/٤٧٤.

(٤) تيسير الكريم الرحمن ٩٣٤.

المبحث الثاني وقفات مع السورة المطلب الأول

التحذير من الغفلة والانهماك في الدنيا

عن عبد الله بن الشخير رضي الله عنه قال: انتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول: ﴿الْهَنَكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ يقول ابن آدم: مالي مالي. وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفانيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت؟!^(١). وفي زيادة لمسلم: (وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس)^(٢). وعن أنس رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (يهرم ابن آدم وتبقى منه اثنتان: طول الحياة وحب المال)^(٣).

رأى الأحنف ابن قيس في يد رجل درهما فقال: لمن هذا الدرهم؟ فقال الرجل: لي. فقال: إنما هو لك إذا أنفقت في أجر أو ابتغاء شكر. ثم أنشد الأحنف متمثلاً قول الشاعر:

أنتَ للمال إذا أمسكته ... فإذا أنفقتَه فالمالُ لك^(٤).

وهذا يدلُّ على أن الغفلة والتكاثر بكل أنواعه وأشكاله؛ داء عضال لا يعالجه إلا الإيمان بالله وتذكره في كل حين، وعند كل نعمة. التذكر الذي يجلب الطمع في نعيمه وجزاءه الأوفى يوم القيامة. أما التكاثر فيجلب الطمع في الدنيا والغفلة عن الدار الآخرة، والإنسان لن يكون معه في قبره إلا عمله كما قال صلى الله عليه وسلم: (يتبع الميت ثلاثة، فيرجع اثنان ويبقى معه واحد، يتبعه أهله وماله وعمله، فيرجع أهله وماله، ويبقى عمله)^(٥).

فلن ينفع الإنسان عند زيارته للمقابر يتنظر يوم القيامة - في قبره - إلا عمله الصالح الذي ينور له قبره. أما الأولاد والمال فسيتخلون عنه في القبر ويوم القيامة، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾^(٦) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ^(٧) وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا

(١) أخرجه مسلم كتاب الزهد والرفائق باب (٣) برقم (٢٩٥٨).

(٢) أخرجه مسلم كتاب الزهد والرفائق باب (٤) برقم (٢٩٥٩).

(٣) أخرجه البخاري كتاب الرقاق باب من بلغ ستين سنة فقد أعذر الله إليه في العمر (٦٤٢١) ومسلم كتاب الزكاة باب كراهية الحرص على الدنيا (١٠٤٧).

(٤) تاريخ دمشق ٢٤/٣٤٣.

(٥) أخرجه البخاري كتاب الرقاق باب سكرات الموت (٦٥١٤)، ومسلم كتاب الزهد والرفائق باب (٥) برقم (٢٩٦٠).

أُولَٰئِكَ بِأَلْفِي تَقَرَّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعِيفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ [سبأ: ٣٥ - ٣٧].

والنبي صلى الله عليه وسلم يحذر من الغفلة عن الآخرة، والاستكثار من المال والدنيا على حساب الآخرة وأنها سبب للبغضاء والهلاك في الدنيا والآخرة، فقال صلى الله عليه وسلم: (.. فوالله ما الفقر أخشى عليكم. ولكنى أخشى عليكم أن تبسط الدنيا عليكم، كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم)^(١).

(١) أخرجه البخاري كتاب الرقاق باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها (٤/٦٥١)، ومسلم كتاب الزهد والرفائق باب (٦) برقم (٢٩٦١).

المطلب الثاني تذكر الآخرة وأول دار فيها

المحور الأول: أهمية زيارة المقابر:

قال النبي صلى الله عليه وسلم: (كنت نهيتمكم عن زيارة القبور، فزوروا القبور فإنها تزهد في الدنيا وتذكر الآخرة)^(١)، وفي رواية: (إنها تذكر الموت)^(٢)، وفي رواية: (إن فيها عبرة)^(٣) وفي رواية: (إنها ترق القلب، وتدمع العين، وتذكر الآخرة، ولا تقولوا هجراً)^(٤).

قال القرطبي: "زيارة المقابر من أعظم الدواء للقلب القاسي، لأنها تذكر الموت والآخرة، وذلك يحمل على: قصر الأمل والزهد في الدنيا وترك الرغبة فيها. فينبغي لمن أراد علاج قلبه وانقياده بسلاسل القهر إلى طاعة ربه:

أولاً: أن يكثر من ذكر هادم اللذات ومفرق الجماعات وموتم البنين والبنات.

وثانياً: أن يواظب على مشاهدة المحتضرين.

وثالثاً: زيارة قبور أموات المسلمين.

فإن انتفع بالإكثار من ذكر الموت فذاك، وإن استحكمت فيه دواعي الذنب فإن مشاهدة المحتضرين وزيارة قبور أموات المسلمين تبلغ في دفع ذلك ما لا يبلغه الأول، لأنه معاينة ومشاهدة فلذلك كان أبلغ من الأول"^(٥). فالأول من علم اليقين، والثاني من عين اليقين.

وهناك أمر آخر يبرز أهمية زيارة القبور وهو ما ينبغي نفع به الميت من السلام عليه، والدعاء والاستغفار له، -وهو خاص بالمسلم- فقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول إذا مر أو دخل مقبرة: (السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإن شاء الله بكم لاحقون، أسأل الله لنا ولكم العافية)^(٦). وقد اتفقت المذاهب الأربعة على مشروعيتها، بل نقل النووي عن الطيبي الإجماع على استحباب زيارتها.

(١) جامع الترمذي كتاب الجنائز باب ما جاء في الرخصة في زيارة القبور (١٠٥٤) وصححه الألباني في صحيح وضعيف الترمذي. مسند أحمد ٣٥٥/٥ ح (٢٣٠٥٥) قال شعيب الأرنؤوط: حديث صحيح وهذا إسناد قوي رجاله ثقات رجال الشيخين غير عطاء الخراساني وهو ابن مسلم فقد أخرج له مسلم متابعة.

(٢) أخرجه مسلم كتاب الجنائز باب استئذان النبي ربه في زيارة قبر أمه (٩٧٧).

(٣) مسند أحمد ٣٨/٣ (١١٣٤٧)، وأخرجه: الحاكم ٥٣٠/١ (١٣٨٦)، قال الهيثمي عن رواية أحمد (٥٨/٣) رجاله رجال الصحيح، قال شعيب الأرنؤوط: صحيح وهذا إسناد حسن.

(٤) أخرجه أحمد ٢٣٧/٣ (١٣٥١٢) قال شعيب الأرنؤوط: صحيح بطرقه وشواهده، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب حسن صحيح (٣٥٤٣).

(٥) الجامع لأحكام القرآن ١٧٠/٢٠-١٧١.

(٦) أخرجه مسلم كتاب الجنائز باب ما يقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها (٩٧٥).

المحور الثاني: حكم زيارة القبور للنساء:

عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم (لعن زوارات القبور)^(١). قال الترمذي: "وقد رأى بعض أهل العلم أن هذا كان قبل أن يرخص النبي صلى الله عليه وسلم في زيارة القبور، فلما رخص دخل في الرخصة الرجال والنساء. وقال بعضهم: إنما كره زيارة القبور للنساء لقلة صبرهن وكثرة جزعهن"^(٢).

قال القرطبي: "زيارة القبور للرجال متفق عليه عند العلماء، يختلف فيه للنساء: أما الشواب فحرام عليهن الخروج، وأما القواعد فمباح لمن ذلك وجائز لجميعهن ذلك إذا انفردن بالخروج عن الرجال، ولا يختلف في هذا إن شاء الله. وعلى هذا المعنى يكون قوله: (زوروا القبور) عاماً. وأما موضع أو وقت يخشى فيه الفتنة من اجتماع الرجال والنساء فلا يحل ولا يجوز. فبينما الرجل يخرج ليعتبر فيقع بصره على امرأة فيفتتن؛ وبالعكس فيرجع كل واحد من الرجال والنساء مأزورا غير مأجور. والله أعلم"^(٣). وفي الحديث ما يدل على تحريم زيارة النساء للقبور، وأنها من كبائر الذنوب، والعلماء اختلفوا في ذلك على ثلاثة أقوال:

القول الأول: تحريم زيارة النساء للقبور، بل إنها من كبائر الذنوب، لهذا الحديث.
القول الثاني: كراهة زيارة النساء للقبور كراهة لا تصل إلى التحريم، وهذا هو المشهور من مذهب أحمد عن أصحابه، لحديث أم عطية: (نهينا عن اتباع الجنائز، ولم يعزم علينا)^(٤).
القول الثالث: أنها تجوز زيارة النساء للقبور، لحديث المرأة: التي مر النبي صلى الله عليه وسلم بها وهي تبكي عند قبر، فقال لها: (اتقي الله واصبري). فقالت: إليك عني، فإنك لم تصب بمثل مصيبي. فانصرف الرسول صلى الله عليه وسلم عنها، فقيل لها: هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم. فجاءت إليه تعتذر، فيم يقبل عذرها، وقال: (إنما الصبر عند الصدمة الأولى)^(٥)، فالنبي صلى الله عليه وسلم شاهدها عند القبر ولم ينهها عن الزيارة، وإنما أمرها أن تتقي الله وتصبر.
ولما ثبت من حديث عائشة الطويل، وفيه: أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج إلى أهل البقيع في الليل، واستغفر لها ودعا لهم، وأن جبريل أتاه في الليل وأمره، فخرج صلى الله عليه وسلم محتفياً عن عائشة،

(١) الترمذي كتاب الجنائز باب ما جاء في كراهية زيارة القبور للنساء (١٠٥٦)، وابن ماجه كتاب الجنائز باب ما جاء في النهي عن زيارة النساء للقبور (١٥٧٤)، وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٢٧٩).

(٢) جامع الترمذي في كتاب الجنائز باب ما جاء في كراهية زيارة القبور للنساء عند حديث (١٠٥٦).

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٧٠/٢٠-١٧١.

(٤) البخاري: كتاب الجنائز باب اتباع النساء للجنائز (١٢١٩)، ومسلم: كتاب الجنائز باب نهي النساء عن اتباع الجنائز (٩٣٨).

(٥) أخرجه البخاري كتاب الجنائز باب زيارة القبور (١٢٨٣). ومسلم كتاب الجنائز باب في الصبر على المعصية عند الصدمة الأولى

وزار ودعا ورجع، ثم أخبرها الخبر، فقالت: ما أقول لهم يا رسول الله؟ قال: (قولي: السلام عليكم يا أهل الديار من المؤمنين والمسلمين...) (١) الخ.

قالوا: فعلمها النبي - صلى الله عليه وسلم - دعاء زيارة القبور، وتعليمه هذا دليل على الجواز. ورأيت قولاً رابعاً: أن زيارة النساء للقبور سنة كالرجال، لقوله صلى الله عليه وسلم: (كنت نهيتمكم عن زيارة القبور، فزوروها، فإنها تذكركم الآخرة) (٢)، وهذا عام للرجال والنساء. ولأن عائشة رضي الله عنها زارت قبر أخيها، فقال لها عبدالله بن أبي مليكة، أليس النبي صلى الله عليه وسلم قد نهي عن زيارة القبور؟ قالت: إنه أمر بها بعد ذلك (٣). وهذا دليل على أنه منسوخ.

والصحيح القول الأول، ويجب عن أدلة الأقوال الأخرى: بأن الصريح منها غير صحيح، والصحيح غير صريح، وقد أجاب عنها أهل العلم بالتفصيل (٤).

قال الشيخ محمد الشنقيطي: "والناظر في القولين وأدلتهم يرى أن من قال بالتحريم له وجهٌ بالترجيح من جهة الأصول، والقائل بالجواز له وجهٌ وقوة من جهة الأدلة. أما الذين قالوا بالتحريم؛ فإن القاعدة في الأصول: إذا تعارض حاطر ومبيح، يقدم الحاطر على المبيح. ولذلك يقوى قول من قال بالتحريم على قول من قال بالجواز من جهة وجود هذا الأصل؛ لأنه لو قلنا للمرأة الآن: لا تزوري المقابر. فإنه في هذه الحالة يفوتها فضل الزيارة الذي يمكن أن تعوضه بالدعاء والاستغفار للميت والترحم عليه؛ لكننا لو قلنا لها: زوري المقابر. فإننا لا نأمن أن تكون قد أصابت المحذور، أو على الأقل شيئاً مكروهاً؛ ولذلك يكون تغليب باب الحظر من هذا الوجه أقوى وأولى.

ثم إذا نظرنا إلى واقع الناس وحالهم اليوم، وعدم انضباط كثير من النساء بالحدود والضوابط الشرعية؛ فإنه يقوى قول من قال بالحظر. واتفق العلماء على أنه لا تجوز زيارة المقابر إذا كانت المرأة ضعيفة أو لا تتمالك نفسها أو غلب على الظن أنها تفعل المحذور عند القبر، وإذا كانت شابةً فاتنةً وذهبت إلى القبر فتنت غيرها أو فتنت نفسها أو جمعت بين الفتنتين فلا تجوز بالإجماع، فليست هذه مسألة خلافية، إنما الخلاف يكون في امرأة عاقلة حكيمة الغالب على الظن أنها تضبط نفسها، وتريد أن تتعظ؛ فهذا هو الذي يجيزه جمهور العلماء لها من الزيارة، لأن النبي صلى الله عليه وسلم لما مر على المرأة وهي تبكي عند القبر لم يقل لها: لعن الله زائرات القبور، ولم يحظر عليها ذلك، قالوا: فقد أقرها عليه الصلاة والسلام؛ لكن الناظر في حال الناس اليوم قد يجد أغلب النساء - إلا من رحم الله - أنهن لا يطقن

(١) أخرجه مسلم كتاب الجنائز باب ما يقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها (٩٧٤).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه الحاكم ٥٣٢/١ (١٣٩٢)، والبيهقي في السنن ٧٨/٤ (٦٩٩٩)، وصححه الألباني في إرواء الغليل ٣/٢٣٤.

(٤) انظر: كلام شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى ٣٤٣/٢٤. وابن عثيمين في القول المفيد شرح كتاب التوحيد. وكلام

الإمام ابن جرير في شرح عمدة الأحكام. وغيرها من كتب أهل العلم.

الزيارة، مع أنه بإمكانهن أن يعوضن هذا الأمر المشتبه فيه إلى أمرٍ لا شبهة فيه بالدعاء والاستغفار للموتى"^(١).

تنبيه: "ولا شك أن المرأة إذا مرت بالمقبرة غير قاصدة للزيارة فسلمت على أهل القبور فإن ذلك جائز، ولا يدخل في النهي، وعلى هذا فيحمل حديث عائشة رضي الله عنها المذكور على من مرت بالمقبرة، ويبقى النهي محكماً لا معارض له"^(٢).

و لا يجوز لمن الإكثار من زيارة القبور والتردد عليها- حتى عند من أجازها- لأن ذلك قد يفضي بمن إلى مخالفة الشريعة، من مثل الصياح والتبرج واتخاذ القبور مجالس للترهة، وتضييع الوقت في الكلام الفارغ، كما هو مشاهد اليوم في بعض البلاد الإسلامية"^(٣).

(١) مذكرة شرح الزاد - مواد صوتية مفرغة.

(٢) مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين ٣٢٦/١٧.

(٣) هذا الكلام منقول عن الشيخ الألباني من كتاب أحكام الجنائز ص ٧٨-٨١ باختصار وتصرف .

المحور الثالث: آداب زيارة القبور

ينبغي لمن عزم على الزيارة أن يتأدب بآدابها :

- ١ - يحضر قلبه في إتيانها ولا يكون حظه منها التطواف على الأجداد فقط، بل يقصد بزيارته وجه الله تعالى وإصلاح فساد قلبه أو نفع الميت بالبدعاء.
- ٢ - ذكر دعاء دخول المقابر، وقد تقدم .
- ٣ - أن لا يقول عند المقابر ما يغضب الرب سبحانه وتعالى، كدعاء المقبور أو طلب الشفاعة منه والاستغاثة به من دون الله تعالى، أو تركيته والقطع له بالجنة، ونحو ذلك.
- ٤ - لا يستقبل القبور حين الدعاء لها، بل الكعبة، لأن الدعاء صلاة.
- ٥ - ويتجنب المشي على المقابر والجلوس عليها، ولا يمشي بين قبور المسلمين في نعليه. فعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لأن أمشي على حجرة أو سيف، أو أخصف نعلي برجلي؛ أحب إلي من أن أمشي على قبر مسلم، وما أبالي أوسط القبور قضيت حاجتي أو وسط السوق)^(١).

وقد ذكرها القرطبي وأتبعها بقوله : "ثم يعتبر بمن صار تحت التراب وانقطع عن الأهل والأحباب، بعد أن قاد الجيوش والعساكر، ونافس الأصحاب والعشائر، وجمع الأموال والذخائر؛ فجاءه الموت في وقت لم يحتسبه، وهول لم يرتقبه". فليتأمل الزائر حال من مضى من إخوانه ودرج من أقرانه، الذي بلغوا الآمال، وجمعوا الأموال، كيف انقطعت آمالهم، ولم تغن عنهم أموالهم!! ومحا التراب محاسن وجوههم، وافتترقت في القبور أجزاءهم، وترمل من بعدهم نساؤهم، وشمل ذل اليتيم أولادهم، واقتسم غيرهم أموالهم. وليتذكر ترددهم في المآرب، وحرصهم على نيل المطالب، وانخداعهم لمواتة الأسباب وركوبهم إلى الصحة والشباب.

وليعلم أن ميله إلى اللهو واللعب كميلهم، وغفلته عما بين يديه من الموت الفظيع والهلاك السريع كغفلتهم، وأنه لا بد صائر إلى مصيرهم. وليحضر بقلبه ذكر من كان مترددا في أغراضه، وكيف تقدمت رجلاه؛ وكان يتلذذ بالنظر إلى ما حوله، وقد سالت عيناه!! ويصوب ببلاغه نطقه، وقد أكل الدود لسانه!! ويضحك لمواتة دهره، وقد أبلى التراب أسنانه!! وليتحقق أن حاله كحال ومآله كماله، وعند هذا التذكر والاعتبار، تزول عنه جميع الأغيار الدنيويّة، ويقبل على الأعمال الأخروية، فيزهد في دنياه، ويقبل على طاعة مولاه، ويلين قلبه، وتخضع جوارحه"^(٢).

(١) أخرجه ابن ماجه كتاب الجنائز باب ما جاء في النهي عن المشي على القبور والجلوس عليها (١٥٦٧) وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٢٧٣).

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٧١/٢٠-١٧٠.

المطلب الثالث

تعدد نعم الله على الإنسان

أولاً: من المسؤول يوم القيامة :

قال تعالى: ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ (٨)

قال الماوردي: "وهذا السؤال يعم الكافر والمؤمن، إلا أن سؤال المؤمن تبشير بأن يجمع له بين نعيم الدنيا ونعيم الآخرة، وسؤال الكافر تقريع أن قابل نعم الدنيا بالكفر والمعصية. ويحتمل أن يكون ذلك تذكيراً بما أوتوه، ليكون جزاء على ما قدموه"^(١).

"وقال قوم : هذا السؤال عن كل نعمة إنما يكون في حق الكفار"^(٢).

"والجمع بين الأخبار: أن الكل يُسألون، ولكن سؤال الكفار توبيخ لأنه قد ترك الشكر، وسؤال المؤمن سؤال تشريف لأنه شكر، وهذا النعيم في كل نعمة"^(٣).

ثانياً: تذكر النبي صلى الله عليه وسلم نعم الله تعالى:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بينما أبو بكر وعمر رضي الله عنهما جالسان، إذ جاءهما النبي صلى الله عليه وسلم فقال: (ما أجلسكما هاهنا؟) قالوا: والذي بعثك بالحق ما أخرجنا من بيوتنا إلا الجوع. قال: (والذي بعثني بالحق ما أخرجني غيره). فانطلقوا حتى أتوا بيت رجل من الأنصار، فاستقبلتهم المرأة، فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم: (أين فلان؟) فقالت: ذهب يستعذب لنا ماء. فجاء صاحبهم يحمل قربته فقال: مرحبا، ما زار العباد شيء أفضل من شيء زارني اليوم. فعلق قربته بكرب نخلة وانطلق فجاءهم بعدق، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (ألا كنت اجتيت؟) فقال: أحببت أن تكونوا الذين تختارون على أعينكم. ثم أخذ الشفرة، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (إياك والحلوب؟) فذبح لهم يومئذ، فأكلوا. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (لتسألن عن هذا يوم القيامة. أخرجكم من بيوتكم الجوع، فلم ترجعوا حتى أصبتم هذا، فهذا من النعيم)^(٤) فرضي الله عنهم جميعاً وأرضاهم.

ثالثاً: النعيم الذي يُسأل عنه يوم القيامة :

"قال مجاهد: عن كل لذة من لذات الدنيا -قال ابن كثير-: قول مجاهد هذا أشمل هذه الأقوال"^(٥).

(١) النكت والعيون ٦/٣٣٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/١٧٧.

(٣) تفسير جزء النبأ ابن عثيمين ٣٠٥-٣٠٦ مختصراً.

(٤) أخرجه مسلم كتاب الأشربة باب حواز استتباع غيره إلى دار من يثق برضاه بذلك... (٢٠٣٨).

(٥) تفسير القرآن العظيم ٨/٤٧٨.

قال أبو جعفر الطبري: "والصواب: أن يقال: إن الله أخبر أنه سائل هؤلاء القوم عن النعيم، ولم يخصص في خبره أنه سائلهم عن نوع من النعيم دون نوع، بل عمّ بالخبر في ذلك عن الجميع، فهو سائلهم كما قال عن جميع النعيم، لا عن بعض دون بعض" (١).

ونسوق بعض أقوال العلماء تذكيراً بنعم الله تعالى التي سنسأل عنها:

١ - ملاذ المأكول والمشروب: عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر رطباً، وشربوا ماء، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (هذا من النعيم الذي تسألون عنه) (٢). وقال الحسن البصري: نعيم الغداء والعشاء، وقال أبو قلابة: من النعيم أكل العسل والسمن بالخبز النقي (٣).

٢ - الصحة والأمن: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إن أول ما يسأل عنه - يعني يوم القيامة - العبد من النعيم أن يقال له: ألم أصح لك جسمك، وأروك من الماء البارد؟) (٤).

روى علي بن أبي طلحة رحمه الله عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ قال: النعيم: صحة الأبدان والأسماع والأبصار، يسأل الله العباد فيم استعملوها؟ وهو أعلم بذلك منهم، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ (٥) [الإسراء: ٣٦].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾

قال: (الأمن والصحة) (٦).

٣ - طيب النفس: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا بأس بالغني لمن اتقى الله، والصحة لمن اتقى الله خير من الغنى، وطيب النفس من النعيم) (٧).

(١) جامع البيان ٦١١/٢٤.

(٢) أخرجه أحمد ٣٣٨/٣ (١٤٦٧٨). قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

(٣) انظر هذه الأقوال في تفسير القرآن العظيم ٤٧٨/٨.

(٤) أخرجه الترمذي كتاب تفسير القرآن باب سورة ألكم التكاثر برقم (٣٣٥٨)، وصحيح ابن حبان (٧٣٢٠) وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٢٦٧٤).

(٥) جامع البيان ٦٠٢/٣٠، وأخرجه عبد الله بن أحمد بن حنبل في زوائد الزهد (١٥٧)، وعزاه السيوطي في الدر المنثور إلى عبد بن حميد وابن المنذر ٣٨٨/٦.

(٦) أخرجه أحمد في الزهد ٣٩٠/١، وابن أبي حاتم في تفسيره ٣٤٦٠/١٠ (١٩٤٦١). والتعليق بسنده ٢٧٩/١٠ وزاد السيوطي نسبه لابن مردويه في الدر المنثور ٦١٢/٨ (٢٩٣١٨)، وروي موقوفاً أخرجه الطبري ٥٨٢/٢٤، وهناد في الزهد ٣٦٤/٢ (٦٩٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٦١٥).

(٧) أخرجه أحمد ٣٧٢/٥ (٢٣٢٠٦)، وابن ماجه كتاب التجارات باب الحث على المكاسب (٢١٤١)، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٧٤١).

٤ - الوقت : عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ)^(١).

قال ابن كثير: "ومعنى هذا: أنهم مقصرون في شكر هاتين النعمتين، لا يقومون بواجبهما، ومن لا يقوم بحق ما وجب عليه، فهو مغبون"^(٢).

٥ - العمر والمال والعلم: فعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع خصال: عن عمره فيما أفناه؟ وعن ماله من أين اكتسبه؟ وفيم أنفق؟ وعن علمه ماذا عمل فيه؟)^(٣).

٦ - نعمة إرسال النبي صلى الله عليه وسلم: قال محمد بن كعب رحمه الله: النعيم هو ما أنعم الله علينا بمحمد صلى الله عليه وسلم وفي التنزيل: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَنِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران: ١٦٤] ^(٤).

٧ - نعمة الاصطفاء لتكون من أمة محمد صلى الله عليه وسلم و تخفيف الشرائع وتيسير القرآن: قال الله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾ [الحج: ٧٨] ، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدْكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [القمر: ١٧].

فهذه الأمور من نعم الله تعالى، ونعم الله تعالى لا تعد ولا تحصى؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَأَتَانَكُمْ مِّن كُلِّ مَآ سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم: ٣٤] وقال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [النحل: ١٨].

(١) أخرجه البخاري كتاب الرقاق باب ما جاء في الصحة والفراغ وأن لا عيش إلا عيش الآخرة (٦٤١٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم ٤٧٨/٨.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٧٨/٢٠.

(٤) جامع الترمذي كتاب صفة القيامة والرقائق والورع (٢٤١٧)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٩٤٦).

المطلب الرابع

كيف نقوم بواجب نعم الله علينا

لا سبيل إلى القيام بواجب نعم الله تعالى إلا بشكرها، ولا شك أن شكر الله تعالى على نعمه العظيمة التي لا تحصى ولا تعد واجب على العباد، وتتضح تلك الأهمية في:

- أن الأمر به والحث عليه أمر ظاهر في نصوص القرآن الكريم فمن ذلك: قوله تعالى:

﴿وَأَشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ (١١٤) [النحل ١١٤]. وقال تعالى: ﴿وَلِيْتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٦) [المائدة ٦]

- وأخبر أن الشاكر لله هو العابد له سبحانه فقال: ﴿وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (١٧٢) [البقرة ١٧٢]

- وبين سبحانه جزاء الشاكرين وعقاب الكافرين، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ (٧) [إبراهيم ٧].

- وقال تعالى منبهاً أن الله لا يعذب عباده إذا شكروه: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَعَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ (١٤٧) [النساء ١٤٧].

- وقد قسم الله تعالى الناس إلى كفور وشكور، وبين مصير هؤلاء وهؤلاء، فقال: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَنِّي وَعَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر ٧]

- وقد مدح الله الشاكرين وجعل جزاءهم إليه قال تعالى: ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (١٤٤) [آل عمران ١٤٤]، ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ (١٤٥) [آل عمران ١٤٥]، ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ (٥٣) [الأنعام ٥٣].

- وبين الله تعالى أن المستفيدين من آياته هم أهل الشكر قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُشْكُرُونَ﴾ (٥٨) [الأعراف ٥٨]. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: ٥].

- ودم وتوعد المتخلفين عن وعدهم له بالشكر فقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينَ بَحْرٍ بَرِيحٍ طَيْبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنِ أُنجَيْنَا مِنْ هَذِهِ لَنُكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (٢٣) ﴿فَلَمَّا أُنجَيْنَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغَيْتُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٢٣) [يونس ٢٢-٢٣].

- وكان ﷺ يقوم الليل حتى تتورم قدماه، فيقال له: أتصنع هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فيقول رسول الله ﷺ: (أفلا أكون عبدا شكورا)^(١).

- و"أخبر الله سبحانه أن عدو الله إبليس جعل غايته أن يسعى في قطع الناس عن الشكر، وذلك لما عرف عظم قدر مقام الشكر، وأنه من أجل المقامات وأعلهاها وذلك في قوله تعالى: ﴿ قَالَ فِيمَا أُغْوِيْتَنِ لِأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ۝١٦ ثُمَّ لَا تَبْنَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ۝١٧ ﴾ [الأعراف ١٦-١٧]"^(٢). "أي: لا تجد أكثرهم عابدين، ولا تجد أكثرهم متبعين لما أنزل الله.

فليس الشكر كلمة تقال باللسان، كما أن الإيمان بالله ليس كلمة تقال، فهي كلمة تحتاج إلى عمل، كما أن الإيمان يحتاج إلى عمل؛ ومن هنا نفهم خطورة التهديد الشيطاني لبني آدم"^(٣)، ولذلك فإن الذين يشكرون الله تعالى قليل، قال تعالى: ﴿ أَعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ ۝١٣ ﴾ [سبأ ١٣].

حقيقة الشكر؟

"الاعتراف بإنعام المنعم على وجه الخضوع له والذل والمحبة"^(٤)، وقيل: "الألا ترى معه شريكا في نعمه، وقيل: هو الإقرار بالعجز عن الشكر"^(٥).

قال ابن القيم "وبهذا يتبين أن الشكر مبني على خمس قواعد:

الأولى: خضوع الشاكر للمشكور.

الثانية: حبه له.

الثالثة: اعترافه بنعمته.

الرابعة: ثنائه عليه بها.

الخامسة: أن لا يستعملها فيما يكره"^(٦).

وَمَحَلُّ الشُّكْرِ: "يكون بالقلب خضوعاً واستكانةً ومحبةً، وباللسان ثناءً واعترافاً، وبالجوارح طاعة وانقياداً"^(٧).

ثمار الشكر:

(١) أخرجه البخاري كتاب التهجد باب قيام النبي ﷺ الليل حتى تتورم قدماه (١١٣٠)، ومسلم كتاب الجنة والنار باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة (٢٨١٩).

(٢) فقه الأديعية والأذكار ١/٢٧٢.

(٣) دراسات قرآنية ١٩٨ بتصرف.

(٤) فقه الأديعية والأذكار ١/٢٧٥.

(٥) تفسير النسفي ٤/١٣٠.

(٦) مدارج السالكين ٢/٢٤٤ مختصراً.

(٧) مدارج السالكين ٢/٢٤٦.

إن الشكر عبادة لا نهاية لها، وثمارها يانعة في العاجل والآجل، علمية وعملية ولعل أهم تلك الثمار نوجزه في ثلاث نقاط:

- ١ - أن الله يعطي الشاكر المزيد ويبارك له، ويقيه من العذاب الشديد كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ (٧) [إبراهيم ٧]. وقال: ﴿ وَسَجَّزِيَ الشَّاكِرِينَ ﴾ (١٤٥) [آل عمران ١٤٥].
- ٢ - بالشكر يتحقق رضا الله تعالى، وتؤمن عقوبته بذلك، قال تعالى: ﴿ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ [الزمر ٧]، وقال تعالى عن قوم سبأ حينما أعرضوا عن شكر الله: ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَأَشْكُرُوا لَهُ. بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ (١٥) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ (١٦) ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ يُجْزَىٰ إِلَّا الْكَافِرُونَ ﴾ (١٧) [سبأ ١٥-١٧].
- ٣ - ومن ثمار الشكر: السرور والطمأنينة والرضا: قال النبي ﷺ: (عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن: إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له) (١).

(١) أخرجه مسلم كتاب الزهد والرقائق باب المؤمن أمره كله خير (٢٩٩٩).

تفسير سورة العصر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا ۝٣ ﴾

﴿ بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣ ﴾

المبحث الأول

مقدمات حول السورة

أولاً : تسميتها :

" سميت في كثير من المصاحف وفي معظم كتب التفسير بسورة (العصر)، وسميت في بعض التفاسير وفي صحيح البخاري^(١) (سورة والعصر) بإثبات الواو على حكاية أول كلمة فيها"^(٢).

ثانياً : نزولها ومناسبتها:

هي مكية في قول جمهور المفسرين^(٣)، وهي أول ثلاث سور - مع الكوثر والنصر - هن أقصر السور في عدد آياتهن .

أما عدد آياتها (٣) آيات، وكلماتها: (١٤) كلمة، وحروفها: (٦٨) حرفاً^(٤).

مناسبتها لما قبلها:

"الإنسان الذي ألماه التكاثر بالأموال، والتفاخر بالجاه والسلطان، دون أن يتزود للآخرة بزيادة الإيمان والتقوى، هو هذا الإنسان الخاسر .. وأي خسران أكثر من أنه اشترى الدنيا بالآخرة؟ وهذا ما جاءت سورة العصر لتقرره"^(٥).

ثالثاً : موضوعها :

"هذه السورة القصيرة ذات الآيات الثلاث تمثل منهجاً كاملاً للحياة البشرية كما أرادها الله تعالى . وتبرز معالم الإيمان بحقيقته الكبيرة الشاملة في أوضح وأدق صورة. إنها تضع التوجيه الإسلامي كله في

(١) أخرجه البخاري كتاب التفسير باب تفسير سورة والعصر .

(٢) التحرير والتنوير ٥٢٧/٣٠ بتصرف .

(٣) ورد ذلك عن ابن عباس ، انظر الدر المنثور ٦/٣٩٠ .

(٤) التفسير القرآني للقرآن ٨٧/٣ .

(٥) المصدر السابق .

كلمات قصار، وتصف الأمة المسلمة في آية واحدة هي الآية الثالثة من السورة، وهذا هو الإعجاز الذي لا يقدر عليه إلا الله.

والحقيقة الضخمة التي تقررها هذه السورة بمجموعها هي: أنه على امتداد الزمان في جميع الأعصار، وامتداد الإنسان في جميع الأدهار، ليس هنالك إلا منهج واحد رابع، وطريق واحد ناج، هو ذلك المنهج الذي ترسم السورة حدوده، وتصف معلمه، وكل ما وراء ذلك ضياع وخسارة. إنه الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر"^(١).

رابعاً : فضلها وأهميتها:

يبرز فضل وأهمية سورة العصر في أمرين :

الأمر الأول: كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخذونها شعاراً لهم في ملتقاهم:

فعن عبدالله بن حصن رضي الله عنه قال: "كان الرجلان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا التقيا، لم يتفرقا إلا على أن يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر، ثم يسلم أحدهما على الآخر"^(٢).

قال ابن كثير: "وهذا الصنيع من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يدل على عظم شأن هذه السورة، وما تحمله من وصايا عظيمة يتعاهدون عليها، من الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والصبر"^(٣).

الأمر الثاني: شمولها لجميع أسس الحياة :

قال الشافعي: "لو لم يتزل غير هذه السورة لكفت الناس، وقال غيره: لأنها شملت جميع علوم القرآن"^(٤)، وقال وفي رواية: "لو تدبر الناس هذه السورة، لو سعتهم"^(٥)، وفي رواية: "لو فكر الناس كلهم في هذه السورة لكفتهم"^(٦). وفي رواية: "لو ما أنزل الله حجة على خلقه إلا هذه السورة لكفتهم"^(٧). وفي رواية (الناس في غفلة عن هذه السورة: والعصر....)"^(٨).

وذلك "لعظم شأنها مع غاية اختصارها، لو فكر الناس فيها لكفتهم؛ لجمعها للخير بخدافيره، فإنها دلت

(١) في ظلال القرآن ٣٩٦٤/٦ بتصرف واختصار.

(٢) المعجم الأوسط (٥٠٩٧)، والبيهقي في الشعب ٥٠١/٦ (٩٠٥٧)، وقال الهيثمي في مجمع الزائد ١٢٢/١١ (١٧٧٢٣)، رجاله رجال الصحيحين وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٦٤٨).

(٣) تفسير القرآن العظيم ٤٧٩/٨.

(٤) روح المعاني ٢٢٧/٣٠.

(٥) تفسير القرآن العظيم ٢٠٣/١ و ٤٧٩/٨.

(٦) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ١٥٢/٢٨، وإغاثة اللهفان ٢٥/١، ومسألة السماع ص ٤٠٤، مفتاح دار السعادة ٥٨/١.

(٧) ثلاثة الأصول ص ١٨٥، وحاشية الثلاثة الأصول ص ٧.

(٨) تهذيب الأسماء للنووي ص ٦٣، ورياض الصالحين ص ٢٢٠.

على العلم والعمل ، والدعوة إلى الحق والصبر على الأذى فيه، فتضمنت جميع مراتب الكمال الإنساني .
فهي حقيقة بأن يقال فيها ما قاله هذا الإمام الجليل"^(١).

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: " وبيان كلام الشافعي هو: أن المراتب أربعة وباستكمالها يحصل للشخص غاية كماله:

إحداها: معرفة الحق.

الثانية: عمله به.

الثالثة: تعليمه من لا يحسنه.

الرابعة: صبره على تعلمه والعمل به وتعليمه.

فهذه السورة على اختصارها هي من أجمع سور القرآن للخير بخدافيره والحمد لله الذي جعل كتابه كافياً عن كل ما سواه شافياً من كل داء هادياً إلى كل خير"^(٢).

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله: "اعلم رحمك الله، أنه يجب علينا تعلم أربع مسائل:

الأولى: العلم، وهو: معرفة الله، ومعرفة نبيه، ومعرفة دين الإسلام بالأدلة.

الثانية: العمل به.

الثالثة: الدعوة إليه.

الرابعة: الصبر على الأذى فيه.

والدليل قوله تعالى: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ وَالْعَصْرِ ﴿٢﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ﴿٤﴾"^(٣).

خامساً: المعنى الإجمالي للسورة:

أقسم الله بالدهر على أن بني آدم لفي هلكة ونقصان. إلا الذين آمنوا بالله وعملوا عملاً صالحاً، وأوصى بعضهم بعضاً بالتواضع بالحق، والعمل بطاعة الله، والصبر على ذلك"^(٤).

(١) حاشية الثلاثة أصول ص ٧.

(٢) مفتاح دار السعادة ٥٨/١ - ٥٩.

(٣) هذا نص كلام الإمام رحمه الله، وانظر: حاشية الثلاثة أصول ص ٧.

(٤) التفسير الميسر ص ٦٠١.

المبحث الثاني وقفات مع المقسم به والمقسم عليه المطلب الأول وقفات مع المقسم به

المقسم به: ﴿وَالْعَصْرِ﴾

افتتح الله تعالى هذه السورة بالمقسم بمخلوق من مخلوقاته وهو العصر، وفائدة هذا القسم: تأكيد الخبر كما هو شأن أقسام القرآن، والمقسم به من المظاهر الدالة على عظيم قدرته وسعة علمه^(١).

فما معنى العصر هنا؟

"أيا ما كان المراد من معنى العصر هنا فإن القسم به باعتبار أنه زمن يُذَكَّرُ بعظيم قدرة الله تعالى في خلق العالم وأحواله وبأمور عظيمة مباركة وعلى هذا فلهذا إطلاق لفظ العصر:

١ - أنه علم لوقت ما بين آخر وقت الظهر وبين اصفرة الشمس:

فذلك وقت يُؤَدِّنُ بقرب انتهاء النهار، ويُذَكِّرُ بخلق الشمس والأرض ونظام حركة الأرض والشمس وهي الحركة التي يتكون منها الليل والنهار كل يوم. وهو من هذا الوجه كالقسم بالضحى وبالليل والنهار وبالفجر.

وخص لأن ذلك الوقت يتهيا الناس فيه للانقطاع عن أعمالهم في النهار، كالقيام على حقولهم وجنائمهم وتجاراتهم في أسواقهم، فيُذَكِّرُ بحكمة نظام المجتمع الإنساني وما ألهم الله في غريزته من دأب عن عمل ونظام لا ابتدائه وانقطاعه.

وفيه يتحفز الناس للإقبال على بيوتهم لمبيتهم والتأنس بأهليهم وأولادهم، وهو من النعيم، وفيه إيماء إلى التذكير بمثل الحياة حين تدنو آجال الناس بعد مضي أطوار الشباب والاكتهال والهرم.

٢ - ويطلق العصر على الصلاة الموقوتة بوقت العصر:

وهي صلاة معظمة. قيل: هي المراد بالوسطى في قوله تعالى: ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ

الْوُسْطَىٰ وَقَوْمُوا لِلَّهِ قَنِينًا﴾ [البقرة: ٢٣٨].

وقد ورد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله)^(٢). "لأن التكاليف في أدائها أشق لتهافت الناس في تجاراتهم وتحاسبهم آخر النهار واشتغالهم بمعايشهم"^(٣).

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٥٢٨.

(٢) أخرجه البخاري كتاب مواقيت الصلاة باب إثم من فاتته صلاة العصر (٥٥٢)، ومسلم كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب التعليل في تفويت العصر (٦٢٦).

(٣) البحر المحيط ٨/٥٠٧.

٣ - ويطلق العصر على مدة معلومة لوجود جيل من الناس أو ملك أو نبي أو دين: ويعين بالإضافة فيقال: عصر إبراهيم وعصر الجاهلية. فيجوز أن يكون مراد هذا الإطلاق هنا ويكون المعني به عصر النبي صلى الله عليه وسلم^(١).

"فهو تعالى أقسم بزمانه صلى الله عليه وسلم في هذه الآية، وبمكانه في قوله تعالى: ﴿ وَأَنْتَ حَلُّهُنَّ هَذَا الْبَلَدِ ﴾ [البلد: ٢]، وبعمره في قوله: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الحجر: ٧٢]"^(٢).

٤ - "ويجوز أن يراد عصر الإسلام كله وهو خاتمة عصور الأديان لهذا العالم: ومناسبة القسم بالعصر لغرض السورة ظاهرة، فإنها بينت حال الناس في عصر الإسلام: بين من كفر به، ومن آمن واستوفى حظه من الأعمال التي جاء بها الإسلام، ويعرف منه حال من أسلموا وكان في أعمالهم تقصير متفاوت. أما أحوال الأمم التي كانت قبل الإسلام فكانت مختلفة بحسب مجيء الرسل إلى بعض الأمم، وبقاء بعض الأمم بدون شرائع؛ متمسكة بغير دين الإسلام من الشرك، أو بدين جاء الإسلام بنسخه مثل اليهودية والنصرانية.

٥ - ويجوز أن يفسر العصر في هذه الآية بالزمان كله"^(٣).

قال ابن جرير: "الصواب أن يقال: إن ربنا أقسم بالعصر، وهو: اسم للدهر، وهو: العشي والليل والنهار، ولم يخص مما شمله هذا الاسم معنى دون معنى، فكل ما لزمه هذا الاسم فداخل فيما أقسم به"^(٤).

قال ابن كثير: "العصر هو الزمان الذي يقع فيه حركات بني آدم من خير أو شر"^(٥).
"فالعصر هو: الزمان. وهذا هو الأصح، أقسم الله به لما يقع فيه من اختلاف الأحوال، وتقلبات الأمور، ومداولة الأيام بين الناس وغير ذلك مما هو مشاهد في الحاضر ومتحدث عنه في الغائب"^(٦).
"فلو ضيعت ألف سنة ثم تبت في اللمحة الأخيرة من العمر بقيت في الجنة أبد الأبدان، فعلمت حينئذ أن أشرف الأشياء حياتك في اللمحة الأخيرة، فكأن الدهر والزمان من جملة أصول النعم، فلذلك أقسم به ونبه على أن الليل والنهار فرصة يضيعها المكلف، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ [الفرقان: ٦٢]"^(٧).

(١) التحرير والتنوير مختصراً ٣٠/٥٢٨-٥٣٠.

(٢) التفسير الكبير ٣٢/٨٦.

(٣) التحرير والتنوير مختصراً ٣٠/٥٢٨-٥٣٠.

(٤) جامع البيان ٢٤/٦١٢.

(٥) تفسير القرآن العظيم ٨/٤٨٠.

(٦) تفسير جزء عم لابن عثيمين ٣٠٧.

(٧) التفسير الكبير ٣٢/٨٤.

المطلب الثاني

وقفات مع المقسم عليه

المقسم عليه: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾

﴿الْإِنْسَانَ﴾: "الإنسان هنا عام، لأن المراد به الجنس، وعلامة الإنسان الذي يراد به العموم أن يحل محل (أل) كلمة (كل)، فهنا لو قيل: كل إنسان في خسر لكان هذا هو معنى الآية"^(١).

﴿لَفِي خُسْرٍ﴾: الخسران: "مصدر، وهو ضد الربح في التجارة، وهو هنا لسوء العاقبة لمن يظن لنفسه عاقبة حسنة"^(٢)، وعلى هذا فالخسران المقصود في الآية هو: "ذهاب رأس مال الإنسان في هلاك نفسه وعمره بالمعاصي، وهما أكبر رأس ماله"^(٣).

والظرفية في قوله: ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾ "بيان ملازمة الخسر بإحاطة الظروف بالمظروف فكانت أبلغ من أن يقال إن الإنسان لخاسر"^(٤).

قال شيخ الإسلام: "إن الله أخبر أن جميع الناس خاسرون إلا من كان في نفسه مؤمناً صالحاً ومع غيره موصياً بالحق موصياً بالصبر"^(٥).

"والخسارة مراتب متعددة متفاوتة:

- ١ - قد يكون خساراً مطلقاً، كحال من خسر الدنيا والآخرة، وفاته النعيم، واستحق الجحيم.
- ٢ - وقد يكون خاسراً من بعض الوجوه دون بعض"^(٦)، فإن كان محسناً ندم أن لا يكون ازداد من الخير والإحسان. قال القرطبي: "إن الإنسان إذا عمر في الدنيا وهرم، لفي نقص وضعف وتراجع، إلا المؤمنين، فإنهم تكتب لهم أجورهم التي كانوا يعملونها في حال شبابهم"^(٧).

(١) تفسير جزء النبأ لابن عثيمين ٣٠٧-٣٠٨.

(٢) التحرير والتنوير ٥٣١/٣٠ باختصار.

(٣) معالم التنزيل ٥٢٢/٨.

(٤) التحرير والتنوير ٥٣١/٣٠ باختصار.

(٥) الاستقامة ٢٦٠/٢.

(٦) تيسير الكريم الرحمن ٩٣٤.

(٧) الجامع لأحكام القرآن ١٨٠/٢٠.

المبحث الثالث

صفات الناجين من الخسران

بعد أن أقسم الله تعالى بالعصر على أن كل فرد من أفراد الناس في خسارة، استثنى الله تعالى بعض الناس الذين لهم صفات معينة تقيهم من هذا الخسران، وهذه الصفات كما يأتي :

المطلب الأول

الإيمان بالله تعالى

قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ : وستعرض لهذه الصفة من عدة محاور :

المحور الأول: الإيمان وحقيقته :

لغة: مأخوذ من الأمن وهو طمأنينة النفس، وهو التصديق. قال أخوة يوسف لأبيهم: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ

لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ [يوسف ١٧]. أي وما أنت بمصدق لنا.

إلا أن الإيمان هو التصديق الذي معه أمن^(١) أي: طمأنينة. وقيل الإيمان هو: الثقة وإظهار الخضوع^(٢).

واصطلاحاً: قول باللسان واعتقاد بالجنان وعمل بالأركان يزيد بالطاعة وينقص بالعصيان^(٣).

ويشمل الإيمان بالأركان المذكورة في حديث جبريل عليه السلام المشهور، عندما سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان فقال صلى الله عليه وسلم: (أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره. قال: صدقت)^(٤).

ويشمل الإيمان كذلك سائر شعب الإيمان، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (الإيمان بضع وسبعون

شعبة، أعلاها قول : لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان)^(٥).

فالإيمان وصفٌ يشمل أعمالاً ظاهرة وباطنة، وهو درجة أعلى من الإسلام ، فتدخل أعمال الإسلام فيه.

مع التنبيه إلى أنه: " لا يكون الإيمان بدون العلم- بما أمر الله به من الإيمان- ، فهو فرع عنه لا يتم إلا

به"^(٦)، وعند انتفاء العلم بكيفية العبادات التي تزيد وتقرّب إلى الله يحصل الخلل في الإيمان، بل قد يصل

الأمر إلى الخروج من الإسلام كمن يعبد أو يصلي لقبر زعماء أو اعتقاداً منه أنه يعبد الله تعالى بعبادته

صاحب ذلك القبر.

(١) المفردات في غريب القرآن ٢١ مادة (أمن).

(٢) القاموس المحيط ١٥١٨.

(٣) كتاب الإيمان لشيخ الإسلام ص ٢٤٩.

(٤) أخرجه مسلم كتاب الإيمان باب بيان الإسلام والإيمان والإحسان (٨) . وللفائدة راجع شرح ابن رجب له في جامع العلوم

والحكم الحديث الثاني ، وشرح النووي على صحيح مسلم ، وشرح الأربعين النووية للشيخ ابن عثيمين.

(٥) أخرجه مسلم كتاب الإيمان باب شعب الإيمان (٣٥).

(٦) تيسير الكريم الرحمن ٩٣٤.

المحور الثاني: مراتب الإيمان:

وعلى هذا فإن الإيمان بالله مراتب يرتقي فيها العبد:

"المرتبة الأولى: الإيمان المانع من الخلود في النار ويسمى: [أصل الإيمان أو مطلق الإيمان]."

وحقيقته: التزام العبودية لله تعالى وحده، وإفراده بالطاعة والانقياد وإن أخل بالواجبات وقارف السيئات مادام محتسباً للمكفرات.

المرتبة الثانية: الإيمان المانع من دخول النار ويسمى: [الإيمان الواجب أو الإيمان المطلق].

وحقيقته: يتضمن مطلق الإيمان وزيادة فعل جميع الواجبات وترك المحرمات، وهذا كماله الواجب.

المرتبة الثالثة: وهي أعلى المراتب: الإيمان المرقى لصاحبه في درج الجنان ويسمى: [الإيمان

المستحب، أو الإيمان الكامل].

وحقيقته: تحقيق الإيمان المطلق مع الازدياد من فعل المستحبات وتمازج اجتناب المكروهات.

ودليل هذه المراتب قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ [فاطر ٣٢] (١).

يقول الشيخ السعدي رحمه الله: "ولما كانت هذه الأمة أكمل الأمم عقولاً وأحسنهم أفكاراً،

وأرقهم قلوباً، وأزكاهم أنفساً، اصطفاهم الله تعالى، واصطفى لهم دين الإسلام، وأورثهم الكتاب

المهيمن على سائر الكتب، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ وهم هذه الأمة.

﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ بالمعاصي، التي هي دون الكفر. ﴿وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ﴾ مقتصر على ما يجب

عليه، تارك للمحرم. ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: سارع فيها واجتهد، فسبق غيره، وهو:

المؤدي للفرائض، المكثّر من النوافل، التارك للمحرم والمكروه.

فكلهم اصطفاه الله تعالى، لوراثته هذا الكتاب، وإن تفاوتت مراتبهم، وتميزت أحوالهم، فلكل منهم

قسط من وراثته، حتى الظالم لنفسه، فإن ما معه من أصل الإيمان، وعلوم الإيمان؛ وأعمال الإيمان، من

وراثته الكتاب، لأن المراد بوراثته الكتاب: وراثته علمه وعمله، ودراسة ألفاظه، واستخراج معانيه" (٢).

المحور الثالث: أثر الإيمان في عدم الخسران:

إن الإيمان هو:

١ "أصل الحياة الكبير، الذي ينبثق منه كل فرع من فروع الخير، وتعلق به كل ثمرة من ثماره، وإلا

فهو فرع مقطوع من شجرته، صائر إلى ذبول وجفاف.

٢ وهو المحور الذي تشد إليه جميع خيوط الحياة الرفيعة، وإلا فهي مفلته لا تمسك بشيء، ذاهبة ببداءً

(١) الإيمان حقيقته، حوارمه، نواقضه عند أهل السنة والجماعة ٢٤-٢٧ باختصار.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ٦٨٩.

مع الأهواء والتزوات .

٣ وهو المنهج الذي يضم شتات الأعمال، ويردها إلى نظام تتناسق معه وتتعاون، وتنسلك في طريق واحد، وفي حركة واحدة، لها دافع معلوم، ولها هدف مرسوم .

٤ - إن الإيمان دليل على صحة الفطرة وسلامة التكوين الإنساني ، وتناسقه مع فطرة الكون كله، ودليل التجاوب بين الإنسان والكون من حوله.

فكل عمل لا يرجع إلى هذا الأصل، ولا يشد إلى هذا المحور، ولا ينبع من هذا المنهج، ولا يستند إلى هذا الدليل فهو هدر . والقاعدة الإسلامية صريحة في هذا كل الصراحة، قال تعالى: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ [إبراهيم: ١٨]، وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ [النور: ٣٩]، وهي نصوص صريحة في إهدار قيمة العمل كله، ما لم يستند إلى الإيمان، الذي يجعل له دافعاً موصولاً بالله عز وجل، وهدفاً متناسقاً مع غاية الوجود ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦] . وهذه هي النظرة المنطقية لعقيدة ترد الأمور كلها إلى الله. فمن انقطع عنه فقد انقطع وفقد حقيقة معناه" (١).

المحور الرابع: علاقة الإيمان بصفة الإنسانية:

في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ ما يدل على أن مقومات الإيمان هي بذاتها مقومات الإنسانية الرفيعة الكريمة ويبرز ذلك من خلال الآتي:

١ المتحرر الحقيقي للإنسان من العبودية:

فلتعبد لإله واحد يرفع الإنسان عن العبودية لسواه، ويقيم في نفسه المساواة مع جميع العباد؛ فلا يذل لأحد، ولا يجني رأسه لغير الواحد القهار، قال تعالى: ﴿ يَصْصَجِي السَّجْنَ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ [يوسف: ٣٩].

٢ المرابانية هي مصدر التلقي:

فهي التي تحدد الجهة التي يتلقى منها الإنسان عقيدته وقيمه وموازينه واعتباراته وشرائعه وقوانينه، فينتفي من الحياة الهوى والمصلحة، وتحل محلها الشريعة والعدالة. وترفع من شعور المؤمن بقيمة منهجه، وتمده بالاستعلاء على تصورات العقائد المختلفة وقيمتها واعتباراتها، وعلى القيم المستمدة من الارتباطات الأرضية الواقعة، قال تعالى: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ [الزمر: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿ وَإِن تَطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ

(١) في ظلال القرآن ٦/٣٩٦٦ باختصار وتصرف.

يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ [الأنعام: ١١٦].

٣ وضوح الصلة بين الخالق والمخلوق من غير واسطة:

فبيان الإيمان بتمام الألوهية ومقام العبودية على حقيقتها الناصعة، مما يصل هذه الخليقة الفانية بالحقيقة الباقية في غير تعقيد، وبلا واسطة في الطريق. ويودع القلب نوراً، والروح طمأنينة، والنفس أنساً وثقة. وينفي التردد والخوف والقلق والاضطراب كما ينفي الاستكبار في الأرض بغير الحق، والاستعلاء على العباد بالباطل والافتراء! قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [المائدة: ٢٧].

٤ الاستقامة على المنهج الذي يريده الله هو الطريق لعزة الإنسان:

فلا يكون الخير فلتة عارضة، ولا نزوة طارئة، ولا حادثة منقطعة. إنما ينبعث عن دوافع، ويتجه إلى هدف، ويتعاون عليه الأفراد المرتبطون في الله، فتقوم الجماعة المسلمة ذات الهدف الواحد الواضح، والراية الواحدة المتميزة. وتتضامن الأجيال المتعاقبة الموصولة بهذا الحبل المتين. قال تعالى بعد ذكره لعدد من الأنبياء ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَتْهُمْ أَقْتَدَهُ﴾ [الأنعام: ٩٠].

٥ الاعتقاد بكرامة الإنسان على الله:

وهذا الأمر يرفع من اعتباره في نظر نفسه، ويشير في ضميره الحياء من التدني عن المرتبة التي رفعه الله إليها. وهذا أرفع تصور يتصوره الإنسان لنفسه، أنه كريم عند الله، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَبْرِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء: ٧٠]. وكل مذهب أو تصور يحط من قدر الإنسان في نظر نفسه، ويرده إلى منبت حقير، ويفصل بينه وبين الملأ الأعلى، هو تصور أو مذهب يدعو إلى التدني ولو لم يقل له ذلك صراحة! قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: ١٧٩].

٦ - الحاسة الأخلاقية:

فهي ثمرة طبيعية وحتمية للإيمان بإله عادل رحيم عفو كريم ودود حلیم، يكره الشر ويحب الخير، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور^(١).

(١) وانظر في ظلال القرآن ٦/٣٩٦٦ - ٣٩٦٧.

المطلب الثاني عمل الصالحات

قال تعالى: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ :

نعرض لهذه الصفة من خلال المحاور التالية :

المحور الأول: ربط الفوز بالإيمان والعمل الصالح:

هذا الربط بين الإيمان والعمل الصالح له شواهد كثيرة جداً في القرآن تربو على خمسين موضعاً وسنقتصر على بعضها لبيان أهمية هذا الربط:

قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [البقرة: ٢٥].

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ

فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَدُخُلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾ [النساء: ٥٧]

قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ [المائدة: ٩].

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي

جَنَّاتٍ النَّعِيمِ ﴿٩﴾ [يونس: ٩].

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴿٢٩﴾ [الرعد: ٢٩].

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٧﴾ [الكهف: ١٠٧].

ف نجد أن الله عز وجل في هذه الآيات وغيرها ربط البشري لمن أتبع العمل الصالح بالإيمان، وتلك البشرية مما يسعى له العبد ويتحقق له به النجاح والفوز الكبير؛ لأنه دخول الجنان، ونيل رضى الرحمن، والتنعيم بما لذ وطاب مما تشتهيهِ الأنفس وتلذ الأعين، ويصفو به الخاطر، ويأمن به الناجي على مستقبله، فهو خالد، ونعيمه مخلد له، بل ومتجدد، مع تمام اللذة بالأزواج الطاهرات المطهرات، وكمال المسرات بالخدم والأثمار، وجمع ما يخطر على قلب بشر من الملذات، بل وما لا يخطر على قلب بشر.

وذلك كله بسبب إيمانهم، وجزاء عملهم الصالح؛ الذي كان موصلاً لرحمة الله وعفوه ومغفرته، ولهذا جاء وعداً من الله لعباده المؤمنين الذين يعملون الصالحات فكان وعداً مستقبلياً، ووعداً ناجزاً في الحياة الدنيا بالنصرة والتوفيق والسعادة والزيادة من العمل الصالح، لتكون درجاتهم أرفع ومقاماتهم أسمى.

المحور الثاني: أهمية العمل لتحقيق الإيمان:

"العمل الصالح وهو الثمرة الطبيعية للإيمان، والحركة الذاتية التي تبدأ في ذات اللحظة التي تستقر فيها حقيقة الإيمان في القلب، فالإيمان حقيقة إيجابية متحركة، ما إن تستقر في الضمير حتى تسعى بذاتها إلى

تحقيق ذاتها في الخارج في صورة عمل صالح. فهذا هو الإيمان؛ لا يمكن أن يظل خامداً لا يتحرك، كامناً لا يتبدى في صورة حية خارج ذات المؤمن. فإن لم يتحرك هذه الحركة الطبيعية فهو مزيف أو ميت، شأنه شأن الزهرة لا تمسك أريجها. فهو ينبعث منها انبعاثاً طبيعياً، وإلا فهو غير موجود! فالإيمان حركة وعمل وبناء وتعمير، يُتجه به إلى الله. إنه ليس انكماشاً وسلبية وانزواء في مكونات الضمير. وليس مجرد النوايا الطيبة التي لا تتمثل في حركة وهذه طبيعة الإسلام البارزة التي تجعل مع قوة بناء كبرى في صميم الحياة"^(١).

المحور الثالث: الربط بين العمل وصالح العمل :

من الملاحظ أن الله تعالى وصف العمل الذي يقي من الخسران بقوله: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي أن العمل منه أعمال غير صالحة وأعمال صالحة، وهذه تنبني على الصفة التي قبلها فإذا كانت حقيقة الإيمان واضحة في قلب الإنسان فستكون أعماله موافقة لذلك الإيمان، أما إذا كان في الإيمان خللٌ في التصور أو في الحقيقة فإن العمل سيكون غير صالح، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧].

قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الملك: ٢].

ولذلك لا يكون العمل صالحاً يقي من الخسران إلا بشرطين وهما:

الشرط الأول: الإخلاص لله تعالى في العمل :

وهو أن يكون العمل لله تعالى وحده، لا يريد به الإنسان رياءً ولا سمعةً ولا منصباً، ولا أي أمر

من أمور الدنيا، قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: ٥].

وقال صلى الله عليه وسلم: (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته

إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته

إلى ما هاجر إليه)^(٢). قال سفيان الثوري: "ما عالجت شيئاً أشد علي من نيتي"^(٣).

فلا شك أن أمر الإخلاص عظيم، وخطر الرياء جسيم في حياة الإنسان. وآفات الإخلاص

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٩٦٧ باختصار.

(٢) أخرجه البخاري كتاب بدء الوحي باب كيف كان بدأ وحي النبي صلى الله عليه وسلم (١)، ومسلم كتاب الإمارة باب قوله

صلى الله عليه وسلم: (إنما الأعمال بالنيات..) (١٩٠٧) باختلاف سير .

(٣) تذكرة السامع والمتكلم ٦٨.

كثيرة، والشهوات والمطامع لا تنقطع، فكم ممن عمل مخلصاً ولكن تحولت النية وتقلبت به الأهواء^(١).

الشرط الثاني: متابعة سنة النبي صلى الله عليه وسلم:

قال تعالى: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ﴾

﴿ [البينة: ٥] ﴾

"والمتابعة لا تتحقق إلا إذا كانت موافقة للشرع في أمور ستة وهي: السبب، والحرص، والقدر، والصفة، والزمان، والمكان"^(٢)، جمعها الله تعالى في قوله تعالى لنبية صلى الله عليه وسلم: ﴿ فَأَسْتَقِمَّ كَمَا أُمِرْتَ

وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [هود: ١١٢].

وقال تعالى: ﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمَّ كَمَا أُمِرْتُ وَلَا تَبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ لَا حِجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١٥].

وقال تعالى: ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَفُورُ ﴾ [الملك: ٢] قال الفضيل بن عياض أي: "أخلصه وأصوبه. قالوا: يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه؟! فقال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل؛ حتى يكون خالصاً صواباً. والخالص: أن يكون لله. والصواب أن يكون على السنة"^(٣).

المحور الرابع: الأعمال الصالحة التي تقي الإنسان من الخسران:

الأعمال الصالحة عامة في كل شي، ويمكن أن نقسمها إلى ثلاثة:

أولاً: أعمال صالحة لا تجوز إلا لله تعالى: ويأثم من صرفها لغير الله ولا تقبل؛ كالصلاة والزكاة

والحج، والدعاء والخوف والرجاء والاستعانة والاستغاثة والحلف..

ثانياً: أعمال صالحة في العادات: كالسعي لطلب الرزق، والنوم، والنكاح، وملاعبة الأهل

وملاطفة الأولاد، والأكل. وهذه الأعمال -بالإخلاص والمتابعة- تصبح عبادةً للمرأة وتُصلح أهدافه،

وتحول عمله من عادات ورغبات إلى طاعة وعبادة يتقرب بها إلى ربه ومولاه.

ثالثاً: أعمال صالحة في الترك: كمن يترك الكذب أو الغيبة أو السرقة أو الزنا، أو أي أمر محرم أو

مكروه فهذا مع النية يؤجر عليه.

(١) للاستزادة عن الإخلاص انظر كتاب طوق النجاة للشيخ فيصل البعداني من إصدارات مجلة البيان.

(٢) انظر هذه الأمور في مجموع فتاوى ابن عثيمين ٢٦٢/٧.

(٣) شرح نونية ابن القيم ٢٥٣/١، وللإستزادة حول الموضوع انظر: مقدمة كتاب زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم.

قال تعالى مبيناً أن حياة الإنسان كلها لله تعالى إذا أخلص النية له وحده واتبع سبيل المرسلين: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣].

وعن أبي ذر رضي الله عنه: أن ناساً قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالأجور يصلون كما نصلي ويصومون كما نصوم ويتصدقون بفضول أموالهم؟ قال صلى الله عليه وسلم: (أو ليس قد جعل الله لكم ما تصدقون؟! إن بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن منكر صدقة، وفي بضع أحدكم صدقة) قالوا: يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟! قال: (أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر)^(١).

قال الإمام النووي: " وفي هذا دليل على أن المباحات تصير طاعات بالنيات الصادقات، فالجماع يكون عبادة إذا نوى به: قضاء حق الزوجة ومعاشرتها بالمعروف الذي أمر الله تعالى به، أو طلب ولد صالح، أو إعفاف نفسه، أو إعفاف زوجته، ومنعهما جميعاً من النظر إلى حرام، أو الفكر فيه أو الهم به، أو غير ذلك من المقاصد الصالحة"^(٢)

وبعد دراستنا للصفتين السابقتين نعلم أنه يجب على الإنسان أن يصلح نفسه أولاً لينجوا من الخسران، وصلاح النفس لا يكون إلا بالإيمان والعمل الصالح. ثم يأتي دور الإنسان في إصلاح غيره وذلك بالتواصي بالحق والصبر كما سيأتي.

(١) أخرجه مسلم كتاب الزكاة باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف (١٠٠٦).

(٢) شرح صحيح مسلم ٦٩٧/٢.

المطلب الثالث التواصي على الحق

قال تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا﴾

نعرض لهذه الصفة من خلال المحاور التالية:

المحور الأول: معنى التواصي بالحق:

قال ابن جرير: أي: "وأوصى بعضهم بعضاً بلزوم العمل بما أنزل الله في كتابه؛ من أمره، واجتناب ما نهى عنه فيه"^(١).

وبكلمة ﴿وَتَوَاصَوْا﴾ تقرر "أن على أهل الإسلام أن يتعاضدوا ويتكاتفوا ويكونوا جماعة واحدة، بل أمة واحدة متماسكة مترابطة. فتواصوا تفيد لغةً التفاعل والاشتراك في الفعل بين الطرفين. ثم إن هذه الصيغة تتحدث عنهم بصيغة -الجمع بل السورة كلها ﴿ءَامِنُوا﴾ ﴿وَعَمِلُوا﴾ ﴿وَتَوَاصَوْا﴾- وهكذا معظم الخطاب في القرآن الذي وجه إلى هذه الأمة بصيغة الجماعة"^(٢).

فمن التواصي بالحق: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والوعظ والتذكير، والتعليم، والتدريب، والتربية ولذلك وسائل متعددة ووجوه متنوعة.

المحور الثاني: أهمية التواصي بالحق:

"أما التواصي بالحق فتبوز من خلاله صورة الأمة المسلمة ذات الكيان الخاص، والرابطة المميزة، والوجهة الموحدة. الجماعة التي تشعر بكيانها كما تشعر بواجبها. والتي تعرف حقيقة ما هي مقدمة عليه من الإيمان والعمل الصالح، الذي يشمل -فيما يشمل- قيادة البشرية في طريق الإيمان والعمل الصالح؛ فتواصي فيما بينها بما يعينها على النهوض بالأمانة الكبرى.

فمن خلال: لفظ التواصي، ومعناه، وطبيعته، وحقيقته تبرز صورة الأمة المتضامنة المتضامنة، الأمة الخيرة، الواعية، القيّمة في الأرض على الحق والعدل والخير"^(٣).

قال تعالى مادحاً الأمة التي تتواصي بالحق: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

(١) جامع البيان ٦١٤/٢٤.

(٢) تفسير سورة العصر - عبدالعزيز قارئ ٦١.

(٣) في ظلال القرآن ٦/٣٩٦٨ باختصار وتصرف.

وقال تعالى آمراً بالتواصي بالحق، ومحذراً من إغفال هذا الأمر: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١٠٤) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ [آل عمران: ١٠٤ - ١٠٥].

فص الله تعالى على الأمر بالتواصي بالحق، وبين أن عدم التواصي بالحق يجلب الفرقة والتزاع بين الناس.

وبين الله تعالى أن الذين لا يتواصون بالحق ملعونين فقال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ (٧٨) كَانُوا لَا

يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ [المائدة: ٧٨ - ٧٩].

وقارن الله تعالى في القرآن بين من يتواصى بالحق وبين غيره، فقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٧٦) [النحل: ٧٦].

والتواصي على الحق يؤدي إلى عمل الإنسان بالحق قبل أن يدعو إليه فبذلك يعينه على إصلاح نفسه:

قال ابن عاشور: "وأفادت صيغة التواصي بالحق وبالصبر: أن يكون شأن حياة المؤمنين قائماً على شيوع التآمر بهما ديدينا لهم. وذلك يقتضي اتصاف المؤمنين بإقامة الحق، وصبرهم على المكاره في مصالح الإسلام وأمتهم، لما يقتضيه عرف الناس من أن أحداً لا يوصي غيره بملازمة أمرٍ إلا وهو يرى ذلك الأمر خليفاً بالملازمة، إذ قل أن يُقدم أحدٌ على أمر بحق هو لا يفعله، وقد قال تعالى توبيخاً لبني إسرائيل ومن سلك طريقهم وفعل مثلهم واستن بسنتهم: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ

أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٤٤) [البقرة: ٤٤]"^(١).

"فالتواصي بالحق ضرورة، والنهوض بالحق عسير، والمعوقات عن الحق كثيرة، وعلى هذا فالتواصي: تذكيرٌ وتشجيعٌ وإشعارٌ بالقربى في الهدف والغاية، والأخوة في العبء والأمانة. فهو مضاعفة لمجموع الاتجاهات الفردية، إذ تتفاعل معاً فتضاعف. وهذا الدين - وهو الحق - لا يقوم إلا في حراسة جماعة متواصية متكافلة متضامنة على هذا المثال"^(٢).

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٥٣٤ باختصار.

(٢) في ظلال القرآن ٦/٣٩٦٩ بتصرف يسير.

المحور الثالث: من صور التواصي بالحق:

أولاً: الأمر بالمعروف:

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [فصلت: ٣٣-٣٥].

وقال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].

وعن أبي مسعود عقبة بن عمرو الأنصاري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من دل على خيرٍ فله مثل أجر فاعله)^(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً)^(٢).

ثانياً: النهي عن المنكر:

وهو من أخطر مجالات التواصي بالحق، وأهمها قال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [المائدة: ٧٨ - ٧٩].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (من رأى منكم منكراً فإِنْ استطاع أن يغيره بيده فليفعل فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان)^(٣).

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (مثل القائم على حدود الله والواقع فيها والمداهن فيها مثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وأصاب بعضهم أسفلها وأوعرها فإذا هم استقوا الماء آذوا من فوقهم فقالوا لو أنا خرقنا في موضعنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا فإذا هم تركوهم وأمرهم هلكوا جميعاً وإن أخذوا على أيديهم نجوا جميعاً)^(٤).

وعن حذيفة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (والذي نفسي بيده، لتأمرنَّ

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة باب فضل إعانة الغازي في سبيل الله بمركوب وغيره وخلافته في أهله بخير (١٨٩٣).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب العلم باب من سن سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلى هدى أو ضلالة (٢٦٧٤).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان وأن الإيمان يزيد وينقص (٤٩).

(٤) أخرجه البخاري كتاب الشركة باب هل يقرع في القسمة والاستهام فيه (٢٤٩٣).

بالمعروف، ولتتهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه، ثم تدعونه فلا يستجاب لكم^(١).

وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: يا أيها الناس، إنكم لتقرأون هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]، وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه)^(٢).
ثالثاً: دعوة غير المسلمين للإسلام:

قال بعض مشايخنا: "فمن عجائب هذه السورة أنه بكلمة ﴿وَتَوَّصَّوْا﴾ قررت أن أهل هذه الملة - ملة الإسلام - يجب أن يحملوا الرسالة إلى الآخرين، فبعد أن عرفوا الحق عليهم أن يبلغوه غيرهم؛ دعوةً وتعليماً وإرشاداً"^(٣).

وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم حينما أرسل علي رضي الله عنه لفتح خيبر أنه قال له: (فوالله لأن يهدي بك رجل واحد خير لك من حمر النعم)^(٤).

رابعاً: رفع الظلم عن المظلومين، والأخذ على يد الظالم:

قال ﷺ: (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً) قيل: أنصره مظلوماً، فكيف أنصره ظالماً؟! قال: (تجزه عن الظلم - ذلك نصره)^(٥). وقال ﷺ: (المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يسلمه)^(٦).

قال ابن حجر: "(لا يسلمه) أي: لا يتركه مع من يؤذيه ولا فيما يؤذيه، بل ينصره ويدفع عنه. وهذا أنحص من ترك الظلم. وقد يكون ذلك واجباً، وقد يكون مندوباً؛ بحسب اختلاف الأحوال"^(٧).

وقال ﷺ: (ما من امرئ يخذل امرءاً مسلماً في موضع تنتهك فيه حرمة وينتقص فيه من عرضه إلا خذله الله في موطن يحب فيه نصرته، وما من امرء ينصر مسلماً في موضع ينتقص فيه من عرضه وينتهك من حرمة إلا نصره الله في موطن يحب نصرته)^(٨).

(١) أخرجه الترمذي كتاب الفتن باب ما جاء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٢١٦٩)، وحسنه الألباني في صحيح وضعيف جامع الترمذي.

(٢) جامع الترمذي كتاب الفتن باب ما جاء في نزول العذاب إذا لم يغير المنكر (٢١٦٨). وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٩٧٣).

(٣) تفسير سورة العصر - عبدالعزيز قارئ ٦٠.

(٤) أخرجه البخاري كتاب الجهاد والسير باب دعاء النبي صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام والنبوة وأن لا يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله (٢٩٤٢)، ومسلم في فضائل الصحابة باب من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه (٢٤٠٦).

(٥) أخرجه البخاري كتاب الإكراه باب يمين الرجل لصاحبه أنه أخوه إذا خاف عليه القتل أو نحوه (٦٩٥٢).

(٦) أخرجه البخاري كتاب المظالم باب لا يظلم المسلم ولا يسلمه (٢٤٤٢). ومسلم كتاب البر والصلة والأدب باب تحريم الظلم (٢٨٥٠).

(٧) فتح الباري ٥/١١٧.

(٨) أخرجه أبو داود كتاب الأدب باب من رد عن مسلم غيبته (٤٨٨٤). والبيهقي في شعب الإيمان باب التعاون على البر والتقوى

خامساً: التواصي بالود عن أعراضهم:

قال تعالى: ﴿لَوْلَا إِذْ سَعَيْتُمُو ظَنِّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ١٢].
"هذا عتاب من الله تعالى لأهل الإيمان به فيما وقع في أنفسهم من إرجاف من أرجف في أمر عائشة رضي الله عنها. بما أرجف به. فيقول لهم تعالى: هلا أيها الناس إذا سمعتم ما قال أهل الإفك في عائشة ﴿ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا﴾" (١) وذلك لأن المؤمنين بعضهم من بعض.
فإن الإيمان رحم بين المؤمنين، يوجب عليهم ظن الخير ببعضهم، والكف عن الطعن فيهم، ومنع الطاعنين عنهم كما يمنعونهم على أنفسهم" (٢).

فقد ورد أن الآية هذه نزلت في أبي أيوب الأنصاري وزوجته رضي الله عنهما، وذلك أن أبا أيوب قالت له امرأته أم أيوب: يا أبا أيوب؛ أما تسمع ما يقول الناس في عائشة رضي الله عنها. قال: نعم؛ ، وذلك الكذب. أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب؟ قالت: لا؛ والله ما كنت لأفعله. قال: فعائشة والله خير منك" (٣).

وعن أم الدرداء عن أبي الدرداء رضي الله عنهما : أن النبي صلى الله عليه و سلم قال: (من رد عن عرض أخيه رد الله عن وجهه النار يوم القيامة) (٤).

وورد "أن سفيان الواسطي ذكر رجلاً بسوء عند إياس بن معاوية، فنظر إليه وقال: أغزوت الروم؟ قال: لا. قال: السنند والهند والترك؟ قال: لا. قال: أفسلم منك الروم والسنند والهند، ولم يسلم منك أخوك المسلم؟! قال: فلم أعد بعدها" (٥).

سادساً: الإصلاح بين الناس:

قال تعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات ٩-١٠].

فنحن بحاجة إلى الفرد الصالح الذي يتربى في بيئة تترف عليها السعادة؛ بلا نزاع وشقاق، وهنا ينشأ

١١٠/٦ (٧٦٣٢). وحسن إسناده الهيثمي في مجمع الزوائد باب فيمن قدر على نصره مظلوم أو إنكار منكر ٢٦٧/٧، وضعفه الألباني ضعيف سنن أبي داود (٤٨٨٤).

(١) تفسير الطبري ١٧/٢١٢.

(٢) موضوعات سور القرآن- سورة النور- عبد الحميد طهماز ٣١.

(٣) أخرجه الطبري في جامع البيان ٧٧/١٨، وابن كثير في البداية والنهاية ٦٠/٨. وفي التفسير ٢٦/٦. والواحدي في أسباب النزول (٢٧٠). وذكره ابن هشام في السيرة النبوية ٣/٣١٥.

(٤) جامع الترمذي كتاب البر والصلة باب ما جاء في الذب عن عرض المسلم (١٩٣١)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف الترمذي.

(٥) البداية والنهاية ٩/٣٥٠.

الأفراد في جو نفسي رائع بعيد عن التوتر والقلق، وفي مثل هذه البيئة يتخرّج الدعاة والمصلحون والمبدعون في كل مجالات الحياة الدينية والدنيوية .

ولقد أدرك العدو أن فك الرابطة الاجتماعية بين المسلمين معناه: انهيار المجتمع الإسلامي بكامله. فمتى وجدت القلاقل والمشكلات في بيئة؛ فلا تنتظر أن يتخرّج منها جيل صالح ناصح مبدع يخدم دينه وأمته وبلده.

فحاجة الأمة الإسلامية -اليوم خاصة، وفيما يستقبل من الأيام عامة- إلى التواصي على إصلاح ما انصدع من كيانها بسبب الشقاق والتزاع أمر مطلوب شرعاً؛ تأثم الأمة لو لم تقم به. **سابعاً: التواصي بمساعدة الناس في جميع أمورهم :**

قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾ [المائدة: ٢]

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كل سُلامى من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس تعدل بين الاثنين صدقة، وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة، وتميط الأذى عن الطريق صدقة)^(١).

قال أحد السلف: "من شرط الأخوة أن لا تحوج أخاك إلى الاستعانة بك والتماس النصرة منك، ولا تقصر في تفقد أحواله بحيث يشكل عليك موضع حاجته فيحتاج إلى مسألتك"^(٢). ومجالات التواصي بالحق كثيرة، وهذه صورٌ منها فقط.

المحور الرابع : التجرد في التواصي بالحق :

قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِيَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ [يونس: ٣٥].

بقدر بين الله تعالى في هذه الآية أن الوصول للحق هو الغاية من الهداية، أن على الإنسان إذا جاءه الحق أو دعي للحق أن يلتزم به ويتجرد في سامعه.

وكتب عمر بن الخطاب إلى معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما بقوله: "أما بعد فالزم الحق، يتزك الحق منازل أهل الحق، يوم لا يقضى إلا بالحق"^(٣).

(١) أخرجه مسلم كتاب الزكاة باب اسم الصدقة يطلق على كل معروف (١٠٠٩).

(٢) نظم الدرر للبقاعي ١٥٧/٨.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ٢٦٩/٧ رقم (١١٩).

ولما ولي الصديق رضي الله عنه الخلافة خطب فقال: "أيها الناس إنما أن متبع ولست بمبتدع، فإن أحسنت فأعينوني، وإن زغت فقوموني"^(١).

وأوصى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه رجلاً فقال: (ومن جاءك بالحق فاقبل منه وإن كان بعيداً، ومن أتاك بباطل فأردده وإن كان حبيباً قريباً"^(٢)).

ويكفينا في ذلك ما جعله الله عز وجل منهجاً لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ومن تبعه على دينه إلى يوم القيامة فقال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

وكان من مقالة الأنبياء كلهم لأقوامهم عندما يوصونهم بالحق: ﴿وَيَقَوْمٍ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَإِنَّ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ [هود: ٢٩].

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات ٣/٨١-٨٢.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٨٥٣٧).

المطلب الرابع التواصي بالصبر

قال تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾

نعرض هذه الصفة من خلال المحاور التالية:

المحور الأول: معنى التواصي بالصبر :

قال ابن جرير: أي "وأوصى بعضهم بعضاً بالصبر على العمل بطاعة الله"^(١).
وقال ابن كثير: "أوصى بعضهم بعضاً بالصبر على المصائب والأقذار، وأذى من يؤذي- ممن يأمرونه بالمعروف وينهونه عن المنكر"^(٢).

فالصبر يكون على أداء الطاعة على الوجه المشروع وبإخلاص للباري جل وعلا، ويكون على الأذى من المدعويين، ويكون على المشقة والتعب في تبيين الحق لهم، والصبر على عدم الاستجابة منهم. والتواصي بالصبر مفاعلة بين طرفين لا بد للإنسان منها، ويكون بوسائل وأساليب متعددة كالتعليم والقدرة والوعظ والتذكير والوصية وعرض واستعراض سيد الصابرين، ومعالجة نواقض الصبر، والأخذ بالأسباب ونحو ذلك.

المحور الثاني: أهمية التواصي بالصبر:

" إن القيام على الإيمان والعمل الصالح، وحراسة الحق والعدل، من أعسر ما يواجه الفرد والأمة . ولا بد من الصبر. لا بد من الصبر على جهاد النفس، وجهاد الغير، والصبر على الأذى والمشقة، والصبر على تبجح الباطل والشر، والصبر على طول الطريق وبطء المراحل، وانطماس المعالم، وبعُدُ النهاية! والتواصي بالصبر يضاعف المقدرة؛ بما يعثه من إحساس بوحدة الهدف، ووحدة المتجه، وعاون الجميع، وتزودهم بالحب والعزم والإصرار"^(٣).

والقيادة في الدنيا والدين لا تنال إلا بالصبر واليقين بالله، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة ٢٤].

والعاقبة للمتقين الصابرين: قال تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِبَةَ لِلْمُنْتَقِينَ﴾ [هود ٤٩].

(١) جامع البيان ٢٤/٦١٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٨/٤٨٠.

(٣) في ظلال القرآن ٦/٣٩٦٩ باختصار وتصرف .

المحور الثالث: نموذج من التواصي بالصبر في القرآن :

أولاً: وصية الله للرسول بالصبر كما صبر الأنبياء قبله:

قال تعالى: ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف ٣٥]. وقال تعالى: ﴿ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ

إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ [النحل: ١٢٧]

فهذا "توجيه زيننا محمد ﷺ، وهو الذي احتمل ما احتمل، وعانى من قومه ما عانى. وهو الذي نشأ يتيمًا، ضَعَفَ عنه الولي والحامي- ومن كل أسباب الأرض؛ واحداً بعد واحد، كما هو مجرد من كل سند أو ظهرير. وهو الذي لقي من أقاربه المشركين أشد مما لاقى من الأبعدين. وهو الذي خرج مرات ومرات يستنصر القبائل والأفراد؛ فَرَدَّ في كل مرة بلا نصره"^(١).

"فلفتل ﷺ لأمر ربه فصبر صبراً لم يصبره أحدٌ قبله، حتى رماه المعادون له عن قوس واحدة، وقاموا جميعاً بصدده عن الدعوة إلى الله، وفعلوا كل ما يمكنهم من المعادة والمخاربة"^(٢).

"وبعد ذلك كله يحتاج إلى توجيه من ربه بالصبر، ألا إنه لطريق شاق، حتى لتحتاج نفس كنفس

محمد ﷺ- في تجردها وانقطاعها للدعوة؛ وفي ثباتها وصلابتها، وفي صفاتها وشفافيتها- تحتاج إلى التوجيه الرباني بالصبر، وعدم الاستعجال... إن مشقة هذا الطريق لتحتاج إلى مواساة، وإن صعوبته لتحتاج إلى صبر"^(٣).

ثانياً: وصية الله للمؤمنين وأمرهم بالصبر:

قال تعالى: ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَاصْبِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل

عمران ٢٠٠]. "أمروا أن يصبروا على دينهم الذي ارتضاه الله لهم؛ وهو الإسلام، فلا يدعوه لسراء ولا لضراء ولا لشدّة ولا لرخاء، حتى يموتوا مسلمين، وأن يصابروا الأعداء الذين يكتمون دينهم"^(٤).

"فللصبر هو زاد الطريق في هذه الدعوة، إنه طريق طويل شاق، حافل بالعقبات والأشواك مفروش بالدماء والأشلاء، وبالإيذاء والابتلاء.. الصبر على أشياء كثيرة مما يصادف السالك في هذا الطريق الطويل.. لا تصوره حقيقة الكلمات. فالكلمات لا تنقل المدلول الحقيقي لهذه المعاناة. إنما يدرك هذا المدلول من عانى مشقات الطريق وتدوقها؛ انفعالات وتجارب ومرارات"^(٥).

(١) في ظلال القرآن ٣٢٧٦/٦. بتصرف يسير .

(٢) تيسير الكريم الرحمن ٧٨٤ بتصرف .

(٣) في ظلال القرآن ٣٢٧٦/٦ باختصار.

(٤) تفسير القرآن العظيم ١٩٥/٢ .

(٥) في ظلال القرآن ١/٥٤٥-٥٤٦.

ثالثاً: لقمان الحكيم يوصي ابنه بعدة وصايا ومنها الصبر:

قال تعالى: ﴿يَبْنِيْ اَقْرَبَ الصَّلٰوةِ وَاَمْرًا بِالْمَعْرُوْفِ وَاَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاَصْبِرْ عَلٰى مَا اَصَابَكَ اِنَّ ذٰلِكَ مِنْ عَزْمِ

الْاُمُوْر ﴿١٧﴾ [لقمان: ١٧]

أي "واصبر على ما أصابك من الشدائد والحن، لاسيما فيما أمرت به من إقامة الصلاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فالصبر على إقامة الصلاة: لأن إتمام الصلاة والمحافظة عليها قد يشق، ولذلك يقول الله تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلٰوةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيْرَةٌ اِلَّا عَلَى الْخٰشِعِيْنَ ﴿٤٥﴾﴾ [البقرة ٤٥]، وإذا أمرت بمعروف أو نهيت عن منكر وأصابك في ذلك أذي وشدّة فاصبر عليها" (١).

ثم قال تعالى في ختام الآية: ﴿اِنَّ ذٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْاُمُوْر﴾. "أي: أن الأمور التي وصى بها لقمان ابنه، والصبر على أديتها، من الأمور التي يعزم عليها، ويهتم بها، ولا يوفق لها إلا أهل العزائم" (٢).

المحور الرابع: الصبر ثلاثة أنواع:

١ - صبر على طاعة الله: قال تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِيْنَ يَدْعُوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَدُوَّةِ وَالْعَشِيِّ

يُرِيْدُوْنَ وَجْهَهُ، وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيْدُ زِيْنَةَ الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف ٢٨]. والصبر في الطاعة يكون بالصبر على الإخلاص فيها. والصبر على المجاهدة أثنائها. والصبر على الثبات عليها.

٢ - صبر عن معصية الله: ولذلك كان من السبعة الذين يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله

(ورجل دعتة امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله) (٣). وليبيان عظم الصبر عن معصية الله وصعوبة ما ابتعد عنه؛ التزاماً بما نهاه الله عنه، وبخوفه من الله، استحق أن يكون تحت ظل عرش الله تعالى.

٣ - صبر على أقدار الله: قال ﷺ: (ما يصيب العبد من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن،

ولا أذى ولا غم؛ حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياها) (٤) (٥).

(١) روح المعاني ٢١/٨٨.

(٢) تفسير السعدي ٥٩٧.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) أخرجه البخاري كتاب المرض باب ما جاء في كفارة المرضى. ومسلم كتاب البر والصلة والآداب باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك حتى الشوكة يشاكها (٢٥٧٣).

(٥) للاستزادة حول الموضوع يمكن الرجوع إلى إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي، ومدارج السالكين لابن القيم، وكتاب الصبر لابن أبي الدنيا.

تفسير سورة الهمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ، ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ، ﴿٣﴾ كَلَّا ۗ
لِيُبْنِدَنَّ فِي الْحُمْطَةِ ﴿٤﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُمْطَةُ ﴿٥﴾ نَارُ اللَّهِ الْمَوْقَدَةُ ﴿٦﴾ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ﴿٧﴾
إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ ﴿٨﴾ فِي عَمَدٍ مُّمدَّدَةٍ ﴿٩﴾﴾

المبحث الأول

مقدمات حول السورة

أولاً: تسميتها :

سميت في المصاحف ومعظم التفاسير (سورة الهمة) بلام التعريف^(١). وعونها البخاري وبعض أصحاب التفاسير (سورة ويل لكل همزة)^(٢) ، وسميت (سورة الحطمة) لوقوع هذه الكلمة فيها^(٣).

ثانياً: نزولها ومناسبتها :

وهي مكية بالاتفاق^(٤).

قيل: أنها نزلت في جماعة من المشركين أقاموا أنفسهم لِّلْمَزِ المسلمين وسبهم، واختلاق الأحداث السيئة عنهم، وسمي منهم: الأحنس بن شريق؛ وكان يلزم الناس ويعيبهم مقبلين ومدبرين، والوليد بن المغيرة؛ وكان يغتاب النبي ﷺ من ورائه، ويقدر فيه في وجهه، وأبي بن خلف، وجميل بن عامر الثقفي. وقيل: إنها مرسله على العموم من غير تخصيص، وهو قول الأكثرين^(٥).

أما عدد آياتها: (٩) آيات، وكلماتها: (٣٣) كلمة، وحروفها: (١٣٠) حرفاً^(٦).

مناسبتها لما قبلها:

"في سورة العصر أقسم الحقّ جلّ وعلا « بالعصر » على أن الإنسان في خسر ، مستثنيا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق ، وتواصوا بالصبر.

(١) التحرير والتنوير ٥٣٥/٣٠.

(٢) أخرجه البخاري كتاب التفسير باب تفسير سورة ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾. وانظر جامع البيان ٩٥٣/٢٤، وابن كثير ٤٨١/٨.

(٣) إملاء ما من به الرحمن للعكبري ٢٩٤/٢.

(٤) الجامع لأحكام القرآن ١٨١/٢٠، التحرير والتنوير ٥٣٥/٣٠.

(٥) جامع البيان ٦١٦/٢٤ - ٦١٨ ، تفسير القرآن العظيم ١٨١/٨، الجامع لأحكام القرآن ١٨١/٢٠، التحرير والتنوير ٥٣٥/٣٠.

(٦) التفسير القرآني للقرآن ٨٨/٣.

وفي هذه السورة (سورة الهمزة) عرض للإنسان الخاسر ، ومن أبن كان خسارته ، وإلى أين يكون مصيره." (١).

ثالثاً: موضوعاتها:

- ١ - وعيد من جعلوا همز المسلمين ولمزهم ضرباً من ضروب أذاهم طمعاً في أن يلجئهم المَلَلُ من أصناف الأذى إلى الانصراف عن الإسلام والرجوع إلى الشرك (٢).
- ٢ - بيان خطر الاستهزاء والانتقاص من الآخرين وخصوصاً أهل الخير والصلاح.
- ٣ - ذم من يجمع المال ويبخل به.
- ٤ - ذم الغرور بالمال وأنه لن ينفعه يوم القيامة، ووعيد من هذه صفاتهم.
- ٥ - ذكر صفة النار وحال الكفار فيها .

رابعاً: المعنى الإجمالي للسورة:

يقول الله تعالى: ﴿ وَبَلِّغْ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾ أي: شر وهلاك لكل مغتاب للناس، طعان فيهم، ﴿ الَّذِي ﴾ الذي كان همه جمع المال وتعداده، يظن أنه ضَمِنَ لنفسه بهذا المال الذي جمعه، الخلود في الدنيا والإفلات من الحساب، ولكن ليس الأمر كما ظن، لِيُطْرَحَنَّ فِي النَّارِ الَّتِي تَهْتَمُّ كُلُّ مَا يُلْقَى فِيهَا. ثم يخاطب الله نبيه صلى الله عليه وسلم ويقول له وما أدراك -أيها الرسول- ما حقيقة النار؟ إنها ﴿ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ﴾ التي من شدتها تنفذ من الأجسام إلى القلوب، وليس هذا فحسب بل ﴿ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَسَدَةٌ ﴾ أي: مطبقة ﴿ فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ ﴾ أي: في سلاسل وأغلال مطوّلة؛ لتلا يخرجوا منها (٣).

(١) المصدر السابق.

(٢) التحرير والتنوير ٥٣٥/٣٠.

(٣) أيسر التفاسير ص ٦٠١.

المبحث الثاني

وقفات حول السورة

المطلب الأول

خطر الغيبة والاستهزاء والانتقاص من الآخرين

قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾.

﴿وَيْلٌ﴾ دعاء عليهم بلخزي والعذاب والهلكة. وقيل: وادٍ في جهنم^(١)، وهذا الوادي يسيل من صديد أهل النار وقيحهم^(٢). وكلمة ﴿وَيْلٌ﴾ تشمل ذلك كله فهي وعيد وشديد لا يقدر قدره إلا الله عز وجل. ويراد به التنفير من الفعل المذكور بعده لعظم وزره عند الله عز وجل.

وكلمة ﴿لِّكُلِّ﴾ تُشعر بأن المهتدين بهذا الوعيد جماعة، وهم الذين اتخذوا همز المسلمين ولمزهم ديدناً^(٣). وفيه إشارة إلى أن كل من ارتكب هذا الجرم فهو متوعد كائناً من كان، وأن من استمرراً هذا النوع من قبائح الأفعال والسلوك استساغته وأكثر منه حتى يصير عادة له، فلا يستهان بقليله. وقوله تعالى: ﴿هُمَزَةٌ لُّمَزَةٌ﴾ "الهماز: بالقول، واللماز: بالفعل. يعني: يزدري بالناس وينتقص بهم. وقيل: طعان معياب. وقيل: يهمزه ويلمزه بلسانه وعينه، ويأكل لحوم الناس، ويطعنُ عليهم، وقيل باليد والعين، واللمزة: باللسان. وقيل همزة لحوم الناس^(٤). وهذا كقوله تعالى: ﴿هَمَّازٍ مَّشَاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم ١١].

وقيل: هم المشاءون بالنميمة، المفسدون بين الأحبة، الباغون للبرآء العيب^(٥)، قال النبي ﷺ: (شرار عباد الله تعالى المشاءون بالنميمة، المفسدون بين الأحبة، الباغون للبرآء العنت)^(٦).

وقيل: الهماز: الذي يهمز الناس بيده ويضربهم، واللمزة: الذي يلمزهم بلسانه ويعيبهم^(٧).
وقيل: الهمزة: الذي يغتاب ويطعن في وجه الرجل، واللمزة: الذي يغتابه من خلفه إذا غاب^(٨).

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٨١/٢٠.

(٢) جامع البيان ٦١٦/٢٤.

(٣) التحرير والتنوير ٥٣٦/٣٠.

(٤) ذكر هذه الأقوال بأسانيد ابن جرير في جامع البيان ٦١٦/٢٤-٦٢٠، وابن كثير في تفسير القرآن العظيم ٤٨١/٨.

(٥) انظر: جامع البيان عن ابن عباس رضي الله عنهما ٢١٧/٢٤.

(٦) أخرجه أحمد ٢٢٧/٤ (١٨٠٢٧)، قال في مجمع الزوائد ٧/٨ "وفيه شهر بن حوشب وبقية رجاله رجال الصحيحين"، وقال

الأرنؤوط: "حسن الشواهد وهذا إسناد ضعيف"، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب: حسن لغيره (٢٨٢٥).

(٧) جامع البيان ٦١٩/٢٤، معالم التنزيل ٥٢٣/٤.

(٨) جامع البيان ٦١٧/٢٤-٦١٨، الجامع لأحكام القرآن ١٨١/٢٠ وتفسير القرآن العظيم ٤٨١/٨.

واختار هذا القول النحاس^(١)، قال: ومنه قوله تعالى: ﴿ وَمِمَّنْ مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ ﴾ [التوبة ٥٨].

وقال أحدهم: تدلى بودي إذا لاقيتني كذبا *** وإن أغيب فأنت الهامز اللمزه

وقال آخر: إذا لقيتك عن سخط تكاشري *** وإن تغييت كنت الهامز اللمزه^(٢).

والأولى أن يقال: "إن الله عمّ بالقول كل همزة لمزة، كل من كان بالصفة التي وصف هذا الموصوف بها سبيله، كائناً ما كان من الناس"^(٣).

﴿ هَمْزَةٌ لُْمَزَةٌ ﴾ على وزن فُعْلة: صيغة تدل على كثرة صدور الفعل المصاغ، وأنه صار عادة لصاحبه^(٤).

ومن هنا يظهر أن الهمز واللمز والانتقاص يكون بالقول والفعل وبالإشارة، وهو أمر واقع - وقد يقع من بعض أهل الخير والصلاح - وكلها مؤاخذ به العبد، فالقاعدة الفقهية تقول: "الإشارة مُنَزَلَةٌ منزلة العبارة"^(٥)، و"دلالة الفعل كدلالة القول"^(٦).

إن الله تعالى يصف في القرآن أحداث الدعوة ويوجهها في الوقت ذاته، فجعله الله السلاح البتار الصاعق الذي يدمر كيد الكائدين ويفضح المعاندين والجاحدين، ويزلزل قلوب الظالمين، ويثبت الله به أرواح المؤمنين، قال تعالى: ﴿ وَنُنزِلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء ٨٢].

وإننا لنرى في عناية الله سبحانه بالرد على الهمزة اللمزة معنيين كبيرين:

الأول: تقبيح الهبوط الأخلاقي وتبشيع هذه الصورة الهابطة من النفوس.

والثاني: المنافحة عن المؤمنين وحفظ نفوسهم من أن تتسرب إليها مهانة الإهانة، وإشعارهم بأن الله

يرى ما يقع لهم، ويكرهه، ويعاقب عليه وفي هذا كفاية لرفع أرواحهم واستعلائها على الكيد اللئيم^(٧).

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢٨٧/٥.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٨٢/٢٠.

(٣) جامع البيان ٦٢٠/٢٤.

(٤) التحرير والتنوير ٥٣٧/٣٠.

(٥) انظر: نهاية الإقدام في علم الكلام ١٦٦/١، حاشية الدسوقي على الشرح الكبير ١٨٢/١٤، شرح زاد المستنقع

للشنقيطي ١٩٧/١٣.

(٦) انظر: الموسوعة الفقهية ٩٠٩٥/٢، وشرح زاد المستنقع للشنقيطي ١٦٢/٦.

(٧) في ظلال القرآن ٣٩٧٣/٦ بتصرف

المطلب الثاني

خوارم العلاقات بين الناس عامة

من خلال أقوال العلماء في الآيات يتبين لنا عدة أمور نهي الشارع الحكيم عنها تنبيهاً على أنها من خوارم العلاقات بين الناس ، ومنها :

أولاً : الغيبة: وهي من أعظم الهمز واللمز، قال تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَنُحِبُّ أَحَدَكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [المحجرات ١٢].

وقد نبهنا رسول الله ﷺ على معنى الغيبة وحقيقتها، فقد قال صلى الله عليه وسلم يوماً لأصحابه: (أتدرون ما الغيبة؟) قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: (ذكرك أذاك بما يكره). قيل: أرايت إن كان في أخي ما أقول؟ فقال عليه الصلاة والسلام: (إن كان فيه ما تقول فقد اغتبتته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهتته)^(١).

فالغيبة هي: أن تذكر الإنسان في غيبته بسوء وإن كان فيه^(٢).

ولقد شبه الله سبحانه الذي يغتاب أحداً من المسلمين بالذي يأكل لحم أخيه ميتاً، وهذا دليل على شناعة ما يفعله ذلك المغتاب، "وهذا من أحسن القياس التمثيلي؛ فإنه شبه تمزيق عرض الأخ بتمزيق لحمه، ولما كان المغتاب يمزق عرض أخيه في غيبته كان بمنزلة من يقطع لحمه في حال غيبة روحه عنه بالموت لما كان المغتاب عاجزاً عن دفعه بنفسه بكونه غائباً عرذ ذمه؛ كان بمنزلة الميت الذي يقطع لحمه ولا يستطيع أن يدفع عن نفسه، ولما كان مقتضى الأخوة الترحام والتواصل والتناصر فعلق عليها المغتاب ضد مقتضاها- من الذم والعيب والطعن- كان ذلك نظير تقطيعه لحم أخيه، والأخوة تقتضي حفظه وصيائه والذب عنه، ولما كان المغتاب متفكها بغيبته وذمه متحلياً بذلك شبه بأكل لحم أخيه بعد تقطيعه، ولما كان المغتاب محباً لذلك معجبا به شبه بمن يجب أكل لحم أخيه ميتاً، ومحبتة لذلك قدر زائد على مجرد أكله، كما أن أكله قدر زائد على تمزيقه، فتأمل هذا التشبيه والتمثيل وحسن موقعه ومطابقة المعقول فيه للمحسوس، وتأمل إخباره عنهم بكرامة أكل لحم الأخ ميتاً، ووصفهم بذلك في آخر الآية، والإنكار عليهم في أولها أن يجب مثل أعمال الكفار أحدهم ذلك!! فكما أن هذا مكروه في طباعهم فكيف يحبون ما هو مثله ونظيره!! فاحتج عليهم بما كرهوه على ما أحبوه، وشبه لهم ما يحبونه بما هو

(١) أخرجه مسلم كتاب البر والصلة باب تحريم الغيبة (٢٥٨٩) .

(٢) النهاية في غريب الحديث ٣/٣٩٩.

أكره شيء إليهم؛ وهم أشد شيء نفرة عنه. فلهذا يوجب العقل والفطرة والحكمة أن يكونوا أشد شيء نفرة عما هو نظيره ومشبهه. وبالله التوفيق" (١).

"ومن العجب أن الإنسان يهون عليه التحفظ والاحتراز من أكل الحرام والظلم والزنا والسرقة وشرب الخمر ومن النظر المحرم وغير ذلك، ويصعب عليه التحفظ من حركة لسانه!! حتى يرى الرجل يُشار إليه بالدين والزهد والعبادة - وهو يتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالاً يزلُّ بالكلمة الواحدة أبعد ما بين المشرق والمغرب" (٢)، وكم تَرَى من رجل متورع عن الفواحش والظلم ولسانه يَفْرِئ في أعراض الأحياء والأموات ولا يبالي بما يقول" (٣).

فينبغي التدقيق في ضابط الغيبة النبوي للحدز والتباعد عنها، فكل ما يكرهه أخوك من ذكر المعايب والصفات والأحوال فهو غيبة.

ثانياً: البهتان: وهو الكذب والافتراء (٤) وهو من أعظم أبواب الهمز بل أشدها، وهو أن تذكر أخاك بما يكره مما ليس فيه، وهو كما قال رسول الله ﷺ (وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته).

فـ"البهتان بالضم: الكذب الذي يبهت سامعه. أي: يدهشه لفظاعته، إذا كذب عليه بما يبهته من شدة تُكره. وإذا رماه في وجهه أو من ورائه بما لم يكن. والبهات: الذي يعيب الناس بما لم يفعلوا. فلبهت والبهتان: استقبالك بأمر تقذفه به وهو منه بريء لا يعلمه. وأيضا: الحيرة. والبهتان: الكذب الذي يُتَحَيَّر من عِظْمِهِ وشأنه، وقد بهته إذا كذب عليه.

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِنَبَأَيْنِ﴾ [المتحة: ١٢] قال الخطابي معناه ههنا: قذف المحصنات، وهو من الكبائر، ويدخل فيه الاغتياب لهن، ورميهن بالمعصية. وقال أيضا: لا تبهتوا الناس بالمعايب كفاحا ومواجهة . وهذا كما يقول الرجل فعلت هذا بين يديك أي بحضرتك" (٥).

"وقال الحسن: ذُكِرُ الغَيْرُ ثَلَاثَةً: الغيبة والبهتان والإفك، وكلُّ في كتاب الله عز وجل، فالغيبة: أن تقول ما فيه، والبهتان: أن تقول ما ليس فيه، والإفك: أن تقول ما بلغك" (٦). وفي الحكمة: "البهتان على البريء أثقل من السموات" (٧).

(١) أمثال القرآن لابن القيم ص ٣٣.

(٢) إشارة لحديث (إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها يزل بها في النار أبعد مما بين المشرق) أخرجه البخاري كتاب الرقاق باب حفظ اللسان، ومسلم في كتاب الزهد والرقائق باب التكلم بالكلمة يهوي بها في النار (٢٩٨٨).

(٣) الداء والدواء ص ٢٤٤، والحوار الكافي لابن القيم ص ١١١.

(٤) النهاية في غريب الحديث ١/١٦٥.

(٥) عمدة القارئ ١/١٥٤-١٥٥.

(٦) إحياء علوم الدين ٣/١٤٤.

(٧) إحياء علوم الدين ٣/١٥٥.

ثالثاً : النميمة: قال تعالى: ﴿هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم ١١].

والنميمة هي: قال العلماء: "النميمة نقل كلام الناس على جهة الإفساد بينهم"^(١).

عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (لا يدخل الجنة قتات)^(٢)، وفي رواية: (لا يدخل الجنة تمام)^(٣). وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خرج النبي ﷺ، من بعض حيطان المدينة، فسمع صوت رجلين يعذبان في قبريهما، فقال: (أما إلهما ليعذبان وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان لا يستتر من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة...) ^(٤).

"قال الغزالي ما ملخصه: ينبغي لمن حملت إليه نميمة؛ أن لا يصدق من نم له، ولا يظن بمن نم عنه ما نقل عنه، ولا يبحث عن تحقيق ما ذكر له، وأن ينهأه ويقبح له فعله، وأن يبغضه إن لم يتزجر، وأن لا يرضى لنفسه ما نهي النمام عنه فينم هو على النمام فيصير نماماً"^(٥).

قال النووي: "وهذا كله إذا لم يكن في النقل مصلحة شرعية، وإلا فهي مستحبة أو واجبة، كمن اطلع من شخص أنه يريد أن يؤذي شخصاً ظلماً فحذره منه، وكذا من أخبر الإمام أو من له ولاية بسيرة نائبة مثلاً فلا منع من ذلك"^(٦).

"وقال الغزالي ما ملخصه: النميمة في الأصل نقل القول إلى المقول فيه، ولا اختصاص لها بذلك، بل ضابطها كشف ما يكره كشفه، سواء كرهه المنقول عنه أو المنقول إليه أو غيرهما، وسواء كان المنقول: قولاً أم فعلاً، وسواء كان: عيباً أم لا، حتى لو رأى شخصاً يخفي ما، له فأفشى كان نميمة. واختلف في الغيبة والنميمة هل هما متغايرتان أو متحدتان؟ والراجح: التغاير وأن بينهما عمومًا وخصوصًا وجهاً، وذلك لأن النميمة نقل حال الشخص لغيره على جهة الإفساد بغير رضاه، سواء كان بعلمه أم بغير علمه. والغيبة ذكره في غيبته بما لا يرضيه. فامتازت النميمة بقصد الإفساد، ولا يشترط ذلك في الغيبة، وامتازت الغيبة بكونها في غيبة المقول فيه، واشتركتا فيما عدا ذلك. ومن العلماء من يشترط في الغيبة أن يكون المقول فيه غائباً"^(٧) والله أعلم.

(١) شرح النووي على صحيح مسلم ١١٢/٢.

(٢) أخرجه البخاري كتاب الأدب باب ما يكره من النميمة (٦٠٥٦). ومسلم كتاب الإيمان باب غلظ تحريم النميمة (١٠٥).

(٣) أخرجه مسلم كتاب الإيمان باب غلظ تحريم النميمة (١٠٥).

(٤) أخرجه البخاري كتاب الأدب باب النميمة من الكبائر (٦٠٥٥). ومسلم كتاب الطهارة باب الدليل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه (٢٩٢) مع وجود اختلاف في اللفظ.

(٥) فتح الباري لابن حجر ٤٨٨/١٠، وانظر إحياء علوم الدين ١٥٦/٣.

(٦) شرح صحيح مسلم ١١٣/٢، وانظر فتح الباري لابن حجر ٤٨٨/١٠.

(٧) فتح الباري لابن حجر ٤٨٨/١٠، إحياء علوم الدين ١٥٥/٣-١٥٨.

رابعاً: احتقار المسلمين والسخرية منهم:

وهو أشد أبواب الهمز واللمز وأنواعه ضرراً على الفرد والمجتمع. قال تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان ٢٠] قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُونَ قَوْمٍ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءً مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾. السخرية هي: "احتقار الناس والاستهزاء بهم، وهذا حرام لأنه قد يكون المحتقر أعظم قدراً وأحب إلى الله من الساخر"^(١).

والاحتقار هو: من الحقر أي الذلّة تقول: حقر يحقر حقراً واستحقره: رآه حقيراً، وتحقير الكلمة : تصغيره^(٢). وهو: الاستخفاف والاستهانة^(٣).

فكل ما أشعر بالاحتقار والاستهزاء والوسم بالجهل أو قلة الفهم أو التبسمات والضحكات التي تدل على السخرية؛ كل هذا مما يفسد العلاقة الأخوية بين المسلمين.

قال ﷺ: (بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم)^(٤). وقال ﷺ: (لا تظهر الشماتة لأخيك؛ فيرحمه الله ويوليئك)^(٥). وقال ﷺ: (المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يحقره ولا يخذله)^(٦).

ومن صور الاحتقار التكبر على الناس، قال النبي ﷺ: (الكبر بطر الحق وغمط الناس)^(٧)، وغمطُ الناس: الاحتقارُ لهم والازدراءُ بهم^(٨).

خامساً: التعيير وإظهار الشماتة لهم:

وهو من أكثر صور الهمز واللمز إيلاماً فعن المعرور بن سويد قال: مررنا بأبي ذر رضي الله عنه وعليه بُردٌ، وعلى غلامه مثله، فقلنا: يا أبا ذر لو جمعت بينهما كانت حُلّة؟ فقال: إنه كان بيني وبين رجل من إخوتي كلام، وكانت أمه أعجمية، فعيرته بأمه، فشكاني إلى النبي ﷺ، فلقيت النبي ﷺ فقال: (يا أبا ذر إنك امرؤ فيك جاهلية) قلت: يا رسول الله من سب الرجال سبوا أباه وأمه!! قال: (يا أبا ذر إنك امرؤ فيك جاهلية، هم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم، فأطعموهم مما تأكلون، وألبسوهم مما

(١) تفسير القرآن العظيم ٣٧٦/٧.

(٢) تهذيب اللغة ٤٥٢/١.

(٣) معجم لغة الفقهاء ص ٦٠.

(٤) أخرجه مسلم كتاب البر والصلة باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله (٢٥٦٥).

(٥) أخرجه الترمذي كتاب صفة القيامة باب ٥٤ (٢٥٠٦) وقال حديث حسن . وقال الألباني حسن الإسناد مقطوع.

(٦) تقدم تخريجه.

(٧) أخرجه مسلم كتاب الإيمان باب تحريم الكبر وبيانه (٩١).

(٨) الصحاح في اللغة ٢٦/٢.

تلبسون، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم^(١).

وقال ﷺ: (لا تظهر الشماتة لأخيك؛ فيرحمه الله ويتليك)^(٢).

والناس يكرهون أن تُبرَزَ أخطأؤهم وعيوبهم أمام الآخرين. فالتعير والتشهير والنصيحة في العلن، أو ذكر الخطأ في الملاء؛ من أسرع ما يزيل المحبة ويزرع العداوة بين الإخوان، لما يشعر به المنصوح من الفضيحة والتوبيخ بين الناس، وقد يؤكد هذا أيضاً العناد والرغبة في الانتقام من الأخ. وقد أحسن الشافعي عندما قال^(٣):

تعمدني بنصحك في انفراد	وجنبي النصيحة في الجماعة
فإن النصح بين الناس نوع	من التوبيخ لا أرضى استماعه
فإن خالفتني وعصيت قولي	فلا تجزع إذا لم تعط طاعة

و"ينبغي أن تكون النصيحة سراً لا يطلع عليها أحد، فما كان على الملاء فهو توبيخ وفضيحة، وما كان في السر فهو شفقة ونصيحة، قال الشافعي: من وعظ أخاه سراً فقد نصحه، ومن وعظه علانية فقد فضحه"^(٤).

سادساً: التناجي بين اثنين بحضور ثالث:

قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَتَنَجَّوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَجَّوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٠١﴾ إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠٢﴾ [المجادلة ٩-١٠].

وقال ﷺ: (إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الآخر حتى تختلطوا بالناس، من أجل أن ذلك يجزئه)^(٥).

والا فرق في المعنى بين الاثنين والجماعة لوجود المعنى في حق الواحد، زاد القرطبي: بل وجوده في العدد الكثير أمكن وأشد، فليكن المنع أولى، وإنما خص الثلاثة بالذكر لأنه أول عدد يتصور فيه ذلك المعنى، فمهما وجد المعنى فيه ألحق به في الحكم.

(١) أخرجه البخاري كتاب الإيمان باب المعاصي من أمر الجاهلية (٣٠)، ومسلم كتاب الإيمان باب إطعام المملوك مما يأكل وإلباسه مما يلبس ولا يكلفه ما يغلب (١٦٦١).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) ديوان الشافعي ص ٩٠.

(٤) المهذب من إحياء علوم الدين لصالح الشامي ١/٤٠٠.

(٥) أخرجه البخاري كتاب الاستئذان باب إذا كانوا أكثر من ثلاثة (٦٢٩٠)، ومسلم كتاب السلام باب تحريم مناقاة الاثنين دون

الثالث بغير رضاه (٢١٨٤).

قال بعضهم: وكلما كثر الجماعة مع الذي لا يناجى كان أبعد لحصول الحزن ووجود التهمة، فيكون أولى. واختلف فيما إذا انفرد جماعة بالتناجى دون جماعة.

وأرشد هذا التعليل إلى أن المناجى إذا كان ممن إذا خص أحدا بمناجاته أحزن الباقين امتنع ذلك ، إلا أن يكون في أمر مهم لا يقدر في الدين.

وإذا تناجى اثنان فلا يدخل معهما غيرهما حتى يستأذنهما قال ابن عبد البر: لا يجوز لأحد أن يدخل على المتناجين في حال تناجيهما. قلت -أي ابن حجر- ولا ينبغي لدخول القعود عندهما، ولو تباعد عنهما- إلا بإذنهما، لما افتتحا حديثهما سراً؛ وليس عندهما أحدٌ دل على أن مرادهما ألا يطلع أحد على كلامهما، ويتأكد ذلك إذا كان صوت أحدهما جهوريا لا يتأتى له إخفاء كلامه ممن حضره ، وقد يكون لبعض الناس قوة فهم بحيث إذا سمع بعض الكلام استدل به على باقية، فالمحافظة على ترك ما يؤذي المؤمن مطلوبة وإن تفاوتت المراتب"^(١).

(١) فتح الباري ١١/٨٤ مختصراً.

المطلب الثالث

ذم من يجمع المال ويبخل به

قال تعالى: ﴿ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ﴾ أي: جمعه بعضه على بعض، وأحصى عدده كقوله: ﴿ وَجَمَعَ فَأَوْعَى ﴾ [المعارج ١٨]. وقيل: ألماه ماله بالنهار، فإذا كان الليل، نام كأنه جيفة^(١). ولعل هذا من الأسباب التي تجعله يتحدث بالناس ويحقّرهم.

والمقصود: الذم على إمساك المال عن سبيل الطاعة، كما قال تعالى: ﴿ مَنَاعَ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴾ [ق ٢٥]^(٢) وإنما ينشأ ذلك عن بخل النفس، والتخوف من الفقر، وضعف الإيمان بالله الرزاق .

"وتعكس هذه الآية من الصور الواقعية في حياة الدعوة في عهدها الأول . وهي في الوقت ذاته نموذج يتكرر في كل بيئة، إنها صورة اللئيم الصغير النفس ، الذي يُؤتَى المال فتسيطر نفسه به، حتى ما يطبق نفسه! ويشعر أن المال هو القيمة العليا في الحياة. القيمة التي تهون أمامها جميع القيم وجميع الأخلاق، وأنه وقد ملك المال فقد ملك كرامات الناس وأقدارهم بلا حساب!

كما يظن ويعتقد أن هذا المال إله قادر على كل شيء؛ لا يعجز عن فعل شيء! حتى دفع الموت وتخليد الحياة. ودفع قضاء الله وحسابه وجزائه- إن كان هناك في نظره حساب وجزاء- والعياذ بالله من حاله"^(٣).

وقد توعد الله تعالى من يكثر المال ولا يؤدي حق الله تعالى فيه بأشد العذاب فقال تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٥﴾ [التوبة: ٣٤ - ٣٥].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم ٤٨١/٨ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٨٣/٢٠ .

(٣) في ظلال القرآن ٣٩٧٢/٦ .

المطلب الرابع

ذم الغرور بالمال وأنه لن ينفعه يوم القيامة

وقوله: ﴿ تَحَسَّبُ أَنْ مَالَهُ رَاحِلَةٌ أَوْ خَلْدَةٌ ﴾ أي: يظن أن جمعه المال يخلده في هذه الدار؟^(١) ويقيه حيا لا يموت^(٢).

فحين يملك الإنسان المال يشعر أنه يملك كل شيء؛ فهو يشتري ما يريد، ويسافر أين ما يريد، ويفعل ما يريد، بل ويسعى الناس عموماً لرضاه، ولذا فإنه يصبح مغروراً متكبراً؛ ومن هنا يصبح همّه الأول هو المال، فهو يسعى لجمعه، وينشغل في عده وحسابه؛ حتى يخيل إليه أنه سيكون خالداً في هذه الحياة الدنيا وينسى الآخرة.

وما أكثر الناس الذين يغترون بالمال ويتمنون أن يجمعوه، وأن يكون لهم النصيب الأوفر منه، كما في قصة قارون - وهو الرجل الذي أعطاه الله المال الكثير - حيث قال الله عنه: ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ﴾ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَلِيتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿ [القصص ٧٩]. هذه نظرة أصحاب الدنيا، أما الفريق الآخر فقد حكى الله عنهم: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الْأَصْبِرُونَ ﴾ [القصص ٨٠]، ثم خسف الله الأرض بقارون وعذبه ليكون عبرة لكل من يعرض عن الله بسبب انشغاله بالمال ونسيانه ربه، قال تعالى: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴾ [القصص ٨١].

وهو كذلك ينشغل بعده بعد جمعه، فحياته كلها بين جمع وعد، ونسي الهدف الأسمى الذي خُلق من أجله^(٣).

هذا في الدنيا أما في الآخرة فيتبرأ منه ماله الذي كان يعده ويكتره ولا يؤدي حقه قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا بَلِيتَنِي لِمَ أُوتِيَ كِتَابِي ﴾ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِي ﴿٢٦﴾ يَلِيَّتْهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِي ﴿٢٨﴾ هَلَاكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ ﴿٢٩﴾ نعم. لم ينفعه ماله ولا سلطانه فكان جزائه ﴿ خَذُوهُ فَعُلُوهُ ﴾ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم ٤٨١/٨.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٨٣/٢٠.

(٣) تفسير قصار السور للهميلي (٢٤).

﴿ ٣١ ﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ دَرَعَهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿ ٣٢ ﴾ ﴿لماذا كل هذا العذاب: ﴿ ٣٣ ﴾ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿ ٣٤ ﴾ وَلَا يَحْضُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿ ٣٥ ﴾﴾ [الحاقة: ٣٤ - ٣٥].

فالمال يوم القيامة لن ينفع من لا يقوم بحقه ومن يكثره من أجل الفرار من العذاب قال تعالى عن دعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿ ٨٧ ﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿ ٨٨ ﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿ ٨٩ ﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿ ٩٠ ﴾﴾ [الشعراء: ٨٧ - ٨٩].

وقال تعالى: ﴿ ٣٦ ﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَآتَتْ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿ ٣٧ ﴾﴾ [المائدة: ٣٦].

المطلب الخامس

عقاب من هذه صفاتهم وصفة ذلك العقاب

أولاً: عقاب من هذه صفاتهم:

قال تعالى: ﴿كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ﴾

﴿كَلَّا﴾ أي: ليس الأمر كما زعم ولا كما حسب. فهو رد لما توهمه الكافر. أي: لا يخلد، ولا يبقى له مال^(١).

ثم قال تعالى: ﴿لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ﴾ أي: ليلقن هذا الذي جمع مالا فعدده ﴿لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ﴾، وهي اسم من أسماء النار، صفة: لأنها تحطم من فيها^(٢).

والنبذ: الإلقاء والطرح، وأكثر استعماله في إلقاء ما يكره. قال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُودَهُ﴾

فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَرِّ فَأَنْظَرَكَيْفَ كَانَتْ عَقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ [القصص: ٤٠] فشبههم استحقاقاً لهم بحصيات أخذهن آخذ بكفه فطرحهن^(٣)، وكلمة النبذ تفيد التحقير والتصغير والإهانة لأن الكافر كان يعتقد أنه من أهل الكرامة^(٤).

وقد لوحظ فيها التقابل بين الجرم وطريقة الجزاء ونوع العقاب. فصورة الهمزة اللمزة، الذي يدأب على الهزء بالناس وعلى لمزهم في أنفسهم وأعراضهم، وهو يجمع المال فيظنه كفيلاً بالخلود! صورة هذا المتعالي الساخر المستقوي بالمال، تقابلها صورة «المنبوذ» المهمل المتردي في ﴿الْحُطَمَةِ﴾ التي تحطم كل ما يلقي إليها، فتحطم كيانه وكبريائه^(٥).

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٨٣/٢٠.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم ٤٨١/٨، والجامع لأحكام القرآن ١٨٤/٢٠.

(٣) التحرير والتنوير ٤٧٤/٣٠.

(٤) تفسير الرازي ٨٨/٣٢.

(٥) في ظلال القرآن ٣٩٧٣/٦.

ثانياً: من صفات النار :

ثم قال تعالى: ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَطْمَةُ ﴾ ﴿ على التعظيم لشأنها، والتفخيم لأمرها^(١) .

ثم بينها أكثر ببعض صفاتها:

الصفة الأولى: ﴿ نَارُ اللَّهِ الْمَوْقَدَةُ ﴾ أي: التي أوقد عليها ألف عام، وألف عام، وألف عام، فهي

غير خامدة، أعدها الله للعصاة^(٢) لقول جبريل عليه السلام حين سأله رسول الله ﷺ: (يا جبريل صف لي النار. وانعت لي جهنم؟ قال جبريل: إن الله تبارك وتعالى أمر بجهنم، فأوقد عليها ألف عام حتى ابيضت، ثم أمر فأوقد عليها ألف عام حتى احمرت، ثم أمر فأوقد عليها ألف عام حتى اسودت، فهي سوداء مظلمة لا يضيء شررها ولا يطفأ لهبها^(٣) .

والتوقد: ابتداء التهاب النار فإذا صارت جمرًا فقد خفَّ لهبها، أو زال ، فوصف النار بالموقدة يفيد أنها لا تزال تلتهب ولا يزول لهبها^(٤) .

وإضافتها لله وتخصيصها يوحي بأنها نارٌ فذَّة ، غير معهودة ، ويخلع عليها رهبة مفرعة مرعبة^(٥) . وكذلك للترويع بها بأنها نار خلقها القادر على خلق الأمور العظيمة^(٦) .

الصفة الثانية: ﴿ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ﴾ أي: تحرقهم إلى الأفئدة وهم أحياء^(٧) ، أو تأكل النار جميع ما في أجسادهم، حتى إذا بلغت إلى الفؤاد، خلقوا خلقاً جديداً، فرجعت تأكلهم^(٨) .

وخص الأفئدة لأن الألم إذا صار إلى الفؤاد مات صاحبه. أي إنه في حال من يموت؛ وهم لا يموتون، كما قال الله تعالى: ﴿ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴾ ﴿ [طه ٧٤] فهم إذا أحياء في معنى الأموات^(٩) .

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/١٨٤ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/١٨٥ .

(٣) أخرجه الترمذي كتاب صفة جهنم باب ٨ (٢٥٩١) وقال " حديث أبي هريرة في هذا موقف أصح"، والطبراني في الأوسط ٣/٨٩ (٢٥٨٢) ، والبيهقي في الشعب ١/٤٨٩ (٧٩٩) ، وأبو نعيم في الحلية ٦/١٣٩ . وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة والموضوعة ٣/٤٧٠ (١٣٠٥) .

(٤) التحرير والتنوير ٣/٤٧٥ .

(٥) في ظلال القرآن ٦/٣٩٧٣ .

(٦) التحرير والتنوير ٣/٤٧٥ .

(٧) انظر: تفسير القرآن العظيم ٨/٤٨١ .

(٨) الدر المنثور ٦/٣٩٣ ، الجامع لأحكام القرآن ٢٠/١٨٥ .

(٩) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/١٨٥ .

"والاطلاع يجوز أن يكون بمعنى الإتيان مبالغة في طلع، أي الإتيان السريع بقوة واستيلاء، فالمعنى: التي تنفذ إلى الأفئدة فتحرقها في وقت حرق ظاهر الجسد"^(١).

فإن من أهم صفات تلك النار أنها تتجاوز الجلد الخارجي ليصل عذاها إلى القلب، القلب الذي كان فيه حب المال الطاعني على كل محبة، فأصبح هو السيد المطاع في هذا القلب^(٢)، فخصرت الأفئدة التي هي القلوب بالذكر، لأنها ألطف ما في الأبدان وأشدّها تألماً بأذى يصيبها، أو لأنها محل العقائد الزائفة، والنيات الخبيثة، ومنشأ الأعمال السيئة، التي استحق هذا الهمزة اللمزة بسببها العقاب الشديد^(٣).

الصفة الثالثة: ﴿ إِنَّمَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّاةٌ ﴾ أي: مطبقة^(٤). أي: مغلقة، ومنه: آصدت الباب إذا أغلقتة^(٥). فهي مغلقة عليه، لا ينقذه منها أحد، ولا يسأل عنه فيها أحد!، وقيل: مسدودة الجوانب لا ينفتح منها جانب^(٦). ولا ضوء فيها ولا فرج، ولا خروج منها آخر الأبد^(٧).

الصفة الرابعة: ﴿ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴾ عمد من حديد، ومن نار. أو الأبواب الممدودة.

وقيل: أدخلهم في عمد فمدت عليهم بعماد، وفي أعناقهم السلاسل فسدت بها الأبواب. أو هي: القيود الطوال^(٨). موثق فيها إلى عمود كما توثق البهائم بلا احترام! وذلك العمود من نار قد أغلقت ووصدت عليه الأبواب حتى لا يمكنه النفاذ منها بحال.

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٤٧٥.

(٢) تفسير قصار السور للهميلي (٢٤).

(٣) تفسير الوسيط للطنطاوي ٣٠/٤٥٦٥.

(٤) جامع البيان ٢٤/٤٤٧ عن ابن عباس.

(٥) تفسير القرآن العظيم ٨/٤٠٩.

(٦) النكت والعيون ٦/٣٣٧.

(٧) تفسير القرآن العظيم ٨/٤٠٩.

(٨) تفسير القرآن العظيم ٨/٤٨١.

تفسير سورة الفيل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ

طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾ ﴾

المطلب الأول

مقدمات حول السورة

أولاً: تسميتها:

ورد تسميتها في كلام بعض السلف سورة (ألم تر)^(١)، وكذلك عنونها البخاري^(٢). وسميت في جميع المصاحف وكتب التفسير (سورة الفيل)^(٣).

ثانياً: نزولها ومناسبتها:

هي مكية بالاتفاق^(٤)، وعدد آياتها: (٥) آيات، وكلماتها: (٢٣) كلمة، وحروفها: (٩٣) حرفاً^(٥).

مناسبتها لما قبلها:

" في سورة « الهمزة » عرض لمن جمع المال ، واتخذ منه سلاحاً يغمز به الناس ، ويهمزهم ، ويمزق أديمهم ، ويزيل وجودهم الإنساني بين الناس ..

وسورة « الفيل » تعرض لجماعة من تلك الجماعات ، التي اجتمع ليدها قوة من تلك القوى المخيفة ، هي الفيل ، الذي يشبه قوة المال في طغيانه ، حين يجتمع ليد إنسان جهول غشوم ، طاغية ، فيتسلط على الناس ، كما يتسلط صاحب الفيل على صاحب الحمار ، أو الحصان ، مثلاً .. فكان عاقبة صاحب هذا الفيل الهلاك والدمار ، كما كان عاقبة صاحب هذا المال ، الذل والخزي ، والخسران"^(٦).

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/٢٠٠.

(٢) أخرجه البخاري كتاب التفسير باب تفسير سورة الفيل .

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/٢٠٠، التحرير والتنوير ٣٠/٥٤٣.

(٤) المحرر الوجيز ٥/٥٢٣، زاد المسير ٩/٢٣١، الجامع لأحكام القرآن ٢٠/١٨٧، التحرير والتنوير ٣٠/٥٤٣.

(٥) التفسير القرآني للقرآن ٣/٨٩.

(٦) المصدر السابق.

ثالثاً: موضوعها:

- ١ -التذكير بأن الكعبة بيت الله، وأن الله حماه ممن أرادوا به سوءاً، وأظهر غضبه عليهم فعذبهم ، لأنهم ظالمون بطمعهم في هدم مسجد إبراهيم عليه السلام- الكعبة، وهو عندهم في كتابهم.
- ٢ -وليكون ما حل بهم تذكرة لقريش: بأن فاعل ذلك هو رب ذلك البيت، فلا حظ للأصنام التي نصبوها حوله في حفظه، وتنبيه قريش؛ و تذكير لهم بما ظهر من كرامة النبي ﷺ عند الله، إذ أهلك أصحاب الفيل في عام ولادته.
- ٣ -ومن وراء ذلك تثبيت النبي ﷺ بأن الله يدفع عنه كيد المشركين، فإن الذي دفع كيد من يكيد لبيته لأحق بأن يدفع كيد من يكيد لرسوله ﷺ ودينه.
- ٤ -والتذكير بأن الله غالب على أمره، وأن لا تغر المشركين قوتهم ووفرة عددهم ولا يوهن النبي ﷺ تألب قبائلهم عليه قال تعالى في قصة قارون: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ [القصص ٧٨].

رابعاً: المعنى الإجمالي للسورة:

﴿الْمَ﴾ تعلم -أيها الرسول- ﴿كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ أي: أبرهة الحبشي وجيشه الذين أرادوا تدمير الكعبة المباركة؟ ﴿الْمَ بِجَعَلِ كَيْدَهُمْ فِي تَضَلِيلٍ﴾ أي: ما دبّروه من شر في إبطال وتضييع؟ حيث بعث عليهم ﴿طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ أي: في جماعات متتابعة، ﴿تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ﴾ أي: تقذفهم بحجارة من طين متحجّر. ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾ أي: محطمين كأوراق الزرع اليابسة التي أكلتها البهائم ثم رمت بها^(١).

(١) التفسير الميسر ٦٠١.

المبحث الأول

قصة أصحاب الفيل

قصة أصحاب الفيل على وجه الإيجاز والاختصار تتلخص في أن أبرهة الأشرم - وكان من ملوك اليمن النصارى- بنى كنيسة هائلة بصنعاء، ربيعة البناء، عالية الفناء، مزخرفة الأرجاء. سمّتها العرب القليس لارتفاعها؛ لأن الناظر إليها تكاد تسقط قلنسوته عن رأسه من ارتفاع بنائها.

فلما فرغ من بنائها عزم على أن يصرف حجّ العرب إليها كما يُحجّ إلى الكعبة بمكة، ونادى بذلك في مملكته، فكرهت العرب ذلك، وغضبت قريش لذلك، حتى قصدوا بعضهم، وتوصل إلى أن دخلها ليلاً. فأحدث فيها وكرّاً راجعاً، فلما رأى السدنة ذلك الحدث، رفعوا أمرهم إلى ملكهم أبرهة، فأقسم أبرهة ليسيرن إلى بيت مكة، وليخربنه حجراً حجراً.

وقيل: أن فتية من قريش دخلوها فأججوا فيها ناراً، وكان يوماً فيه هواء شديد فأحرقته، وسقطت إلى الأرض.

فتأهب أبرهة لذلك، وسار بجيش كبير، واستصحب معه فيلاً عظيماً لم يُرَ مثله، يقال له: محمود- وقيل: كان معه ثمانية أفيال، وقيل: اثنا عشر فيلاً- والله أعلم. وذلك ليهدم بها الكعبة، بأن يجعل السلاسل في الأركان، وتوضع في عنق الفيل، ثم يزر ليلقي الحائط جملةً واحدة.

فلما سمعت العرب بمسيره أعظموا، ورأوا أن حقاً عليهم المحاجة دون البيت، ورَدّ من أراده بكيد. وفي طريقه تصدى له بعض قبائل العرب فهزمهم أبرهة لما يريد الله عز وجل من كرامة البيت وتعظيمه. فلما انتهى أبرهة إلى مكان قريب من مكة نزل به وأغار جيشه على سرح أهل مكة من الإبل وغيرها، فأخذوه. وكان في السرح مائتا بعير لعبد المطلب، وبعث أبرهة أحد قواده إلى مكة، وأمره أن يأتيه بأشرف قريش، وأن يخبره أن الملك لم يجيء لقتالكم إلا أن تصدوه عن البيت. فجاء الرسول فدُلّ على عبد المطلب بن هاشم وبلغه عن أبرهة ما قال.

فذهب عبد المطلب مع الرسول إلى أبرهة، فلما رآه أبرهة أجله، وكان عبد المطلب رجلاً جميلاً حسن المنظر، ونزل أبرهة عن سريره، وجلس معه على البساط، وقال لترجمانه: قل له: حاجتك؟ فقال لترجمان: إن حاجتي أن يرد علي الملك مائتي بعير أصابها لي. فقال أبرهة لترجمانه: قل له: لقد كنت أعجبتني حين رأيتك، ثم قد زهدت فيك حين كلمتني، أتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك، وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئتُ لهدمه، لا تكلمني فيه؟! فقال له عبد المطلب: إني أنا رب الإبل، وإن للبيت رباً سيمنعه. قال: ما كان ليمنع مني! قال: أنت وذاك.

وقيل: إنه ذهب مع عبد المطلب جماعة من أشرف العرب فعرضوا على أبرهة ثلث أموال تمامة على أن يرجع عن البيت، فأبى عليهم، ورد أبرهة على عبد المطلب إبله، ورجع عبد المطلب إلى قريش

فأمرهم بالخروج من مكة، والتحصن في رؤوس الجبال، تخوفاً عليهم من معرة الجيش. ثم قام عبد المطلب فأخذ بخلقة باب الكعبة، وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده، ثم أرسل عبدالمطلب حَلقة الباب، ثم خرجوا إلى رءوس الجبال . وذكر أنهم تركوا عند البيت مائة بدنة مُقلّدة، لعل بعض الجيش ينال منها شيئاً بغير حق، فينتقم الله منه.

فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة، وهياً فيله، وعبأ جيشه، فلما وجهوا الفيل نحو مكة أقبل نفيل بن حبيب حتى قام إلى جنبه ثم أخذ بأذنه وقال ابرك محمود وارجع راشداً من حيث جئت، فإنك في بلد الله الحرام. ثم أرسل أذنه، فبرك الفيل، فضربوا الفيل ليقوم، فأبى، فوجهوه راجعا إلى اليمن فقام يهرول. ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك. ووجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك. ووجهوه إلى مكة فبرك!! وأرسل الله عليهم طيرا من البحر مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها: حجر في منقاره، وحجران في رجليه، أمثال الحمص والعدس، لا تصيب منهم أحداً إلا هلك. وخرجوا هاربين، وقريش وعرب الحجاز ينظرون ماذا أنزل الله بأصحاب الفيل من النقمة.

وقال عطاء بن يسار: ليس كلهم أصابه العذاب في الساعة الراهنة، بل منهم من هلك سريعاً، فخرجوا يتساقطون بكل طريق، ويهلكون على كل سهل وأصيب أبرهة في جسده، وخرجوا به معهم يسقط أنملة أنملة، حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر، فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه فيما يزعمون.

وذكر أن قريشاً أصابوا مالاً جزيلاً من أسلابهم، وما كان معهم، وأن عبد المطلب أصاب يومئذ من الذهب ما ملاً حفرة.

وكان ذلك في شهر محرم الموافق لشهر شباط-فبراير- سنة ٥٧٠ بعد ميلاد عيسى عليه السلام، وبعد هذا الحادث بخمسين يوماً ولد النبي ﷺ على أصح الأخبار، وفيها اختلاف كثير^(١).

(١) هذه القصة مختصرة من رواية ابن إسحاق في السيرة النبوية لابن هشام ٥٠/١-٥٤، وتفسير الطبري ٦٣٥/٢٤-٦٤٢ وابن كثير ٤٨٣/٨-٤٨٦ وقد ذكر د. أكرم العمري أسانيد الروايات والحكم عليها عند العلماء في السيرة النبوية الصحيحة/٩٧.

المبحث الثالث

وقفات مع الآيات

المطلب الأول

حادثة الفيل من نعم الله على قريش

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾

استفهام تقييري^(١)، يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ألم تنظر يا محمد بعين قلبك، فترى بها

﴿ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾ الذين قَدِمُوا من اليمن يريدون تخريب الكعبة من الحبشة ورئيسهم أبرهة الحبشي الأشرم^(٢).

ولما تلا عليهم رسول الله ﷺ هذه السورة كان بمكة عدد كثير ممن شهد تلك الوقعة^(٣)، وعلى هذا فيجوز أن تكون الرؤية بصرية بالنسبة لمن تجاوز سنه نيفاً وخمسين سنة عند نزول الآية ممن شهد حادث الفيل غلاماً أو فتى مثل أبي قحافة وأبي طالب وأبي بن خلف^(٤).

وجيء في تعريف الله سبحانه بوصف (رب) مضافاً إلى ضمير النبي ﷺ إيماء إلى أن المقصود من التذكير بهذه القصة تكريم النبي ﷺ إرهاباً لنبوته إذ كان ذلك عام مولده^(٥)، وأن الله تعالى هو وحده الرب الحامي القائم على أحوال العباد المستحق وحده للعبادة.

قال ابن كثير: "هذه من النعم التي امتن الله بها على قريش، فيما صرف عنهم من أصحاب الفيل، الذين كانوا قد عزموا على هدم الكعبة، وكانوا قوماً نصارى، وكان دينهم إذ ذاك أقرب حالاً مما كان عليه قريش من عبادة الأوثان، ولكن كان هذا من باب الإرهاب والتوطئة لمبعث رسول الله ﷺ".

قال ابن إسحاق: "ولما رد الله الحبشة عن مكة عَظَّمَتِ العربُ قريشاً وقالوا: هم أهل الله، قاتل الله عنهم وكفاهم مؤونة عدوهم"^(٦).

وهذا التقرير على الإجمال يفسره ما بعده من الآيات في ذكر عاقبتهم ومآل أمرهم.

(١) التحرير والتنوير ٥٤٤/٣٠.

(٢) جامع البيان ٦٢٧/٢٤.

(٣) انظر الجامع لأحكام القرآن ١٩٥/٢٠.

(٤) التحرير والتنوير ٥٤٥/٣٠ - ٥٤٦ مختصراً.

(٥) التحرير والتنوير ٥٤٥/٣٠ - ٥٤٦ مختصراً.

(٦) تفسير القرآن العظيم ٤٨٣/٨.

(٧) سيرة ابن هشام ٧٥/١. والجامع لأحكام القرآن ١٨١/٢٠.

المطلب الثاني الكيد عاقبته التضليل

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴾

أي: "ألم يجعل سعي الحبشة أصحاب الفيل في تخريب الكعبة ﴿ فِي تَضْلِيلٍ ﴾ يعني: في تضليلهم عما أرادوا وحاولوا من تخريبها^(١).

وسمى حربهم كيداً؛ لأنه عمل ظاهره الغضب من فعل الكناي الذي قعد في القليس، وإنما هو علة تعللوا بها لإيجاد سبب لحرب أهل مكة، وهدم الكعبة لينصرف العرب إلى حج القليس في صنعاء فيتصرفوا.

أو أُريدَ بكيدهم بناءهم القليس، مظهرين أنهم بنوا كنيسة، وهم يريدون أن يبطلوا الحج إلى الكعبة، ويصرفوا العرب إلى صنعاء^(٢).

والكيد: الاحتيال على إلحاق ضررٍ بالغير ومعالجة إيقاعه.

والتضليل: جعل الغير ضالاً. أي: لا يهتدي لمراده^(٣).

وهذه إشارة إلى "إبطال وعدم نوال المقصود- لأن ضلال الطريق يلزم عدم وصول السائر. والمعنى: أن الله أبطله إبطالاً شديداً، إذ لم ينتفعوا بقوتهم، مع ضعف أهل مكة وقلة عددهم. وهذا كقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴾ [غافر ٣٧] أي: ضياع وتلف. وقد شمل تضليل كيدهم جميع ما حل بهم من أسباب الخيبة وسوء المنقلب^(٤).

فُيعلم بهذا أن كل صاحب كيد لهذا الدين أو لأوليائه الله فإن الله تعالى جاعل كيده في نحره.

(١) جامع البيان ٦٢٧/٢٤.

(٢) انظر: تفسير الرازي ٩٤/٣٢. التحرير والتنوير ٥٤٨/٣٠.

(٣) التحرير والتنوير ٥٤٨/٣٠.

(٤) التحرير والتنوير ٥٤٩/٣٠ بتصرف.

المطلب الثالث

عذاب أصحاب الفيل

قال تعالى: ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾ أي: "وأرسل عليهم ربك طيراً متفرقة، يتبع بعضها بعضاً من نوح شتى"^(١). ومهمة هذه الطيور: ﴿ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴾ قال بعض أهل العلم: "حجارة من طين، طبخت بنار جهنم، مكتوب فيها أسماء القوم، لقوله تعالى: ﴿ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴾ [الذاريات ٣٣]"^(٢). وعلى هذا فهي "نفس الحجارة التي نزلت على قوم لوط"^(٣).

فإذا أصاب أحدهم حجراً منها خرج به الجذري وهو لم يُرَ قبل ذلك^(٤)، وكان الحجر كالحمصة وفوق العدسة^(٥). وجيء بصيغة المضارع لاستحضار الحالة، بحيث تُخَيَّلُ للسامع كالحادث في زمن الحال^(٦).

فكانت نهايتهم ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ والعصف: ورق الزرع، وهو جمع عصفة. لأن العصف إذا دخلته البهائم فأكلته: داسته بأرجلها، وأكلت أطرافه، وطرحته على الأرض^(٧). وهذا تمثيل لحال أصحاب الفيل بعد تلك النضرة والقوة، كيف صاروا متساقطين على الأرض هالكين^(٨).

(١) جامع البيان ٢٤/٦٢٧.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/١٩٨، وعمدة القارئ ١٨/٢٩١.

(٣) جامع البيان ٢٤/٦٣٥.

(٤) جامع البيان ٢٤/٦٣٣، وأبو نعيم في الحلية ٣/٣٣٣، والبهقي في الدلائل ١/١٣٣.

(٥) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/١٩٨.

(٦) التحرير والتنوير ٣٠/٥٥٠.

(٧) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/١٩٩، التحرير والتنوير ٣٠/٥٥١.

(٨) التحرير والتنوير ٣٠/٥٥١.

المطلب الرابع

فوائد تربوية من سورة الفيل

أولاً : بيان حرمة الكعبة ووجوب تعظيم حرمة الله تعالى :

فمع أن الخطاب مُوجَّه للنبي ﷺ إلا أنه مُوجَّه للأمة جميعها بأنها إن لم تحترم حرمة الله تعالى فسيحصل لهم ما حصل لأصحاب الفيل.

"فلم ننصركم - يا معشر قريش- على الحبشة لخيريتكم عليهم، ولكن صيانة للبيت العتيق الذي سنشرفه ونعظمه ونوقره ببعثة النبي الأمي محمد -صلوات الله وسلامه عليه- خاتم الأنبياء"^(١)، "فقصة أصحاب الفيل هي إحدى آيات قدرة الله وأثر من سخطه على من اجترأ عليه بهتك حرمة"^(٢).

ولذلك ازداد تعظيم العرب لبيت الله الحرام الذي تكفل بحفظه وحمايته من عبث المفسدين، وكيد الكائدين، وأعظمت العرب قريشاً وقالوا هم أهل الله ، قاتل الله عنهم وكفاهم العدو"^(٣).

وزاد الإسلام ذلك التعظيم مهابة وإجلالاً فهذا رسول الله ﷺ لما أطل يوم الحديبية على الثنية التي تهبط به على قريش، بركت ناقته. فزجروها فألحت. فقالوا: خلأت القصواء. أي: حرنت. فقال رسول الله ﷺ: (ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخُلُق، ولكن حبسها حابس الفيل) ثم قال صلى الله عليه وسلم: (والذي نفسي بيده، لا يسألوني اليوم خُطَّةً يُعْظَمون فيها حُرْمات الله إلا أحببهم إليها). ثم زجرها فقامت"^(٤).

وقال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: (إن مكة حرمة الله ولم يجرمها الناس فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دماً ولا يعضد بها شجرة فإن أحد ترخص لقتال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها فقولوا إن الله قد أذن لرسوله ولم يأذن لكم وإنما أذن لي فيها ساعة من نهار ثم عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس وليبلغ الشاهد الغائب)^(٥).

ثانياً : حكم من أراد الإلحاد في البيت :

قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ

سَوَاءً أَلْعَكَفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٥٥﴾ [الحج ٢٥].

(١) تفسير القرآن العظيم ٤٨٣/٨.

(٢) محاسن التفسير للقاسمي ٢٦٢/١٧.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام/١٧٦، وتاريخ الطبري ٤٤٤/١، والسيرة للندوي ص٩٢.

(٤) أخرجه البخاري كتاب الشروط باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط (٢٧٣١).

(٥) أخرجه البخاري كتاب العلم باب ليبلغ العلم الشاهد الغائب (١٠٤)، ومسلم في كتاب الحج باب تحريم مكة وصيدتها وخلاها وشجرها ولقطنتها (١٣٥٤).

قال القرطبي: "ذهب قوم من أهل التأويل إلى أن هذه الآية تدل على أن الإنسان يعاقب على ما ينويه من المعاصي بمكة وإن لم يعملها، وقد روي نحو ذلك عن ابن مسعود وابن عمر رضي الله عنهم، قالوا: (لو أن رجلا بعدن أبين هم أن يقتل رجلا بهذا البيت، لأذاقه الله من العذاب الأليم)^(١).

قلل القرطبي: هذا صحيح وقد جاء هذا المعنى في سورة (ن والقلم) في قصة أصحاب الجنة الذين بيتوا نية عدم إعطاء الفقراء حقهم من الزكاة، فأنزل الله الهلاك على جنتهم. والظلم يجمع جميع المعاصي - من الكفر إلى الصغائر، فلعظم حرمة المكان توعد الله تعالى على نية السيئة فيه، ومن نوى سيئة ولم يعملها لم يحاسب عليها إلا في مكة، هذا قول ابن مسعود وجماعة من الصحابة وغيرهم"^(٢).

قال ابن حجر: "واستثنى جماعة ممن ذهب إلى عدم مؤاخذه من وقع منه الهم بالمعصية ما يقع في الحرم المكي ولو لم يصمم لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُدَقَهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾. ويؤيد ذلك أن الحرم يجب اعتقاد تعظيمه فمن هم بالمعصية فيه خالف الواجب بانتهاك حرمة. وتعقب هذا البحث بأن تعظيم الله أكد من تعظيم الحرم ومع ذلك فمن هم بمعصيته لا يؤاخذه فكيف يؤاخذا بما دونه؟

ويمكن أن يجاب عن هذا بأن انتهاك حرمة الحرم بالمعصية تستلزم انتهاك حرمة الله لأن تعظيم الحرم من تعظيم الله فصارت المعصية في الحرم أشد من المعصية في غيره وإن اشترك الجميع في ترك تعظيم الله تعالى، نعم من هم بالمعصية قاصدا الاستخفاف بالحرم عصى، ومن هم بمعصية الله قاصدا الاستخفاف بالله كفر، وإنما المغفو عنه من هم بمعصية ذاهلاً عن قصد الاستخفاف"^(٣).

وعلى هذا فالآية مخصصة لقول النبي ﷺ: (إن الله تجاوز عن أمي ما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم)^(٤).

ثالثاً: عظم حسد النصارى وحقدهم على البيت ومن يعظمون البيت:

فإن هجومهم على مكة لم يكن بسبب فعل الأعرابي، وإنما جعلوا فعله حجة للاعتداء على الكعبة، وهذا الحسد والبغض فيهم لأهل الإسلام قائم لازم منهم إلى قيام الساعة كما قال تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصْرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة ١٢٠].

(١) أخرجه الإمام أحمد ١٥٥/٧ (٤٠٧١)، والبيهقي (٢٠٢٤)، والطبري ٥٠٨/١٦، وابن أبي حاتم ٢٤٨٣/٨ عن ابن مسعود رضي الله عنه، وصححه ابن كثير ٤١١/٥ وذكر آثاراً أخرى. وانظر الدر المنثور ٤٥٣/١٠.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٣١/١٢. باختصار.

(٣) فتح الباري ٣٢٨/١١.

(٤) أخرجه البخاري كتاب الطلاق باب الطلاق في الإغلاق والكره والسكران (٥٢٦٩). ومسلم كتاب الإيمان باب تجاوز الله عن حديث النفس (١٢٧).

رابعاً: أنَّ خونة الأمة مخذولون:

فهؤلاء العملاء الذين تعاونوا مع أبرهة وصاروا عيوناً له وجواسيس وأرشدوه إلى بيت الله العتيق ليهدمه، لعنوا في الدنيا والآخرة، لعنهم الناس، ولعنهم الله سبحانه وتعالى، وأصبح قبر أبي رغال^(١) رمزاً للخيانة والعمالة، وصار ذلك الرجل مبعوضاً في قلوب الناس^(٢).

خامساً: حقيقة المعركة مع أعداء الله :

في قول عبدالمطلب في القصة: (سنخلي بينه وبين البيت فإن خلى الله بينه وبينه، فوالله ما لنا به قوة) وهذا تقرير دقيق لحقيقة المعركة بين الله وأعدائه، فمهما كانت قوة العدو وحشوده فإنها لا تستطيع الوقوف لحظة واحدة أمام قدرة الله وبطشه ونقمته، فهو سبحانه واهب الحياة، وسالبا أيَّ وقت شاء^(٣).

(١) حيث ورد أنه هو الذي وجهه أهل الطائف ليدل أبرهة على طريق الكعبة. انظر: السيرة النبوية لابن هشام ٥٠/١-٥٤، وجامع البيان ٢٤/٦٤٠-٦٤٢، وتفسير القرآن العظيم ٨/٤٨٣-٤٨٦ وقال الشيخ أكرم العمري: وأما إسناد الطبري إلى قتادة فحسن.. السيرة النبوية الصحيحة ٩٧/١.

(٢) السيرة النبوية للصلاحي ٥٥/١.

(٣) السيرة النبوية لأبي فارس ص ١١٢.

تفسير سورة قريش

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ قُرَيْشٌ﴾ (١) إِلَيْهِمْ رِحْلَةَ الْشِتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾
الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾

المبحث الأول

مقدمات حول السورة

أولاً: تسميتها :

عنونها البخاري في صحيحه سورة ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ قُرَيْشٌ﴾ (١)، وسميت سورة قريش في المصاحف وكتب التفسير لوقوع اسم قريش فيها ولم يقع في غيرها (٢).

ثانياً: نزولها ومناسبتها :

السورة مكية عند جماهير العلماء (٣)، قال ابن عطية: بلا خلاف (٤).

أما عدد آياتها: (٤) آيات، وكلماتها: (١٩) كلمة، وحروفها: (٧٣) حرفاً (٥).

مناسبتها لما قبلها:

" أشارت سورة «الفيل» إلى هذه المنة العظيمة التي امتن بها الله سبحانه وتعالى على « قريش » إذ دفع عن بلادهم الحرام ، وعن بيته الحرام هذا المكروه ، ورد عنهم هذا البلاء ، وأخذ المعتدى على حرمة هذا البيت أخذ عزيز مقتدر .. وبهذا وجدت قريش في هذا البلد أمنها ، ووجدت في جوار البيت الحرام حماها ، وصار لها في قلوب العرب مكانة عالية ، وقدر عظيم ، لا يستطيع أحد أن يحدث نفسه بسوء ينال به أحدا من أهل هذا البلد الحرام ، وقد رأى ما صنع الله بمن أراد به أو بأهله سوءا ..

وجاءت سورة «قريش» بعد هذا ، وكأنها تعقيب على حادثة الفيل ، ونتيجة لازمة من نتائج هذه

الحادثة .. ولهذا وصل كثير من العلماء هذه السورة بسورة الفيل ، وجعل اللام في قوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ قُرَيْشٌ﴾ (١) لام تعليل ، متعلقا بقوله تعالى: ﴿جَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾ .. أي جعلهم كعصف

(١) أخرجه البخاري كتاب التفسير باب تفسير سورة ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ قُرَيْشٌ﴾ .

(٢) التحرير والتنوير ٥٥٤/٣٠ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٢٠٠/٢٠ .

(٤) المحرر الوجيز ٥٧٤/١٥ .

(٥) التفسير القرآني للقرآن ٩٠/٣ .

مأكول لإيلاف قريش" (١).

ثالثاً: موضوعها :

١- الأمر بتوحيد الله تعالى صراحة ﴿ فَلْيَعْبُدُوا ﴾ وبالإشارة إلى أثر نعم الله تعالى على العباد.

٢- أن عادة الناس مع طول إلفهم للنعم ينسونها، كما نسيت قريش أمنها في بيت الله وفي رحلاتها حيث كانوا يلقبون بآل الله فلا يُمسُون بسوء في أسفارهم.

٣- الامتنان على قريش بنعمة الأمن والرزق.

" وهذه السورة متصلة بالتي قبلها في المعنى، يقول: أهلكت أصحاب الفيل لتألف أو لتتفق قريش، أو لكي تأمن قريش فتؤلف رحلتها" (٢).

رابعاً: المعنى الإجمالي للسورة:

﴿ لِإِيْلَافِ قُرَيْشٍ ۝١ إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ ﴾ أي: اعجبوا لإلف قريش، وأمنهم، واستقامة مصالحتهم، وانتظام رحلتهم في الشتاء إلى اليمن، وفي الصيف إلى الشام، وتيسير ذلك؛ لجلب ما يحتاجون إليه، وعليه ﴿ فَلْيَعْبُدُوا ﴾ أي: فليشكروا، وليعبدوا ﴿ رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴾ وهو الكعبة- الذي شرفوا به، وليوحدوه ويخلصوا له العبادة، لأنه ﴿ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾ (٣).

(١) المصدر السابق.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/٢٠٠.

(٣) التفسير الميسر ٦٠٢.

المبحث الثاني

وقفات حول السورة

المطلب الأول

نعم الله تعالى على قريش

قال تعالى: ﴿لَا يَلْفِ قُرَيْشٍ ۖ إِذْ لَفِيهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۖ﴾

عن أم هانئ بنت أبي طالب رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: (فضل الله قريشاً بسبع خلال: أبي منهم، وأن النبوة فيهم، والحجابه، والسقاية فيهم، وأن الله نصرهم على الفيل، وأنهم عبدوا الله عز وجل عشر سنين لا يعبده غيرهم، وأن الله أنزل فيهم سورة من القرآن. ثم تلاها رسول الله ﷺ: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿لَا يَلْفِ قُرَيْشٍ ۖ إِذْ لَفِيهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۖ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۖ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ۖ﴾^(١).

فكرة منطقة لا زرع فيها ولا ماء فمن باب أولى ألا يكون فيها تجارة ولا حركة اقتصادية ، ومع

ذلك فقد جعل الله لأهل هذا البيت — وهو الكعبة — تجارة يكتسبون فيها ، حيث كانت لهم

رحلتان: رحلة إلى اليمن في الجنوب في الشتاء ، ورحلة إلى الشام في الشمال في الصيف ، ولولا تيسير

الله لهم هاتان الرحلتان لم يكن بالبيت مقام ، ولولا تثبيت الله للأمن بجوارهم للبيت — لم يستطيعوا

العيش .

فقد مكن الله لهم السير في الأرض للتجارة برحلتَي الشتاء والصيف، لا يخشون عادياً يعدو عليهم ،

وبذلك أمنهم من الجماعات، وأمنهم من المخاوف، لِمَا وَقَرَّ فِي نَفُوسِ الْعَرَبِ مِنْ حَرَمَتِهِمْ، لِأَنَّهُمْ سُكَّانُ

الْحَرَمِ وَعُمَّارُ الْكَعْبَةِ.

وبما ألهم الناس من جلب الميرة إليهم من الآفاق المجاورة؛ كبلاد الحبشة، ورد القبائل عنهم فلا يغير

على بلدهم أحد، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ

أَفَبِالْبَطْلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ۖ﴾ [العنكبوت ٦٧] فأكسبهم ذلك مهابة في نفوس الناس

وعطفاً منهم.

(١) أخرجه البيهقي في مناقب الشافعي ٣٤/١ وهو في المستدرک ٥٣٦/٢ وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وللشيخ الألباني مبحث حول هذا الحديث في السلسلة الصحيحة برقم (١٩٤٤) وذهب إلى تحسينه، والله أعلم.

"ولقد كان لحادث الفيل أثر مضاعف في زيادة حرمة البيت عند العرب في جميع أنحاء الجزيرة،

وزيادة مكانة أهله وسدنته من قريش، مما ساعدهم على أن يسيروا في الأرض آمينين، حيثما حلوا وجدوا الكرامة والرعاية، وشجعهم على إنشاء خطين عظيمين من خطوط التجارة عن طريق القوافل إلى اليمن في الشتاء، وإلى الشام في الصيف.

ومع ما كان عليه حال الأمن في شعاب الجزيرة من سوء، وعلى ما كان شائعاً من غارات السلب

والنهب، فإن حرمة البيت في أنحاء الجزيرة قد كفلت لجيرته الأمن والسلامة في هذه التجارة المغربية،

وجعلت لقريش بصفة خاصة ميزة ظاهرة، وفتحت أمامها أبواب الرزق الواسع المكفول، في أمان

وسلام وطمأنينة، وألقت نفوسهم هاتين الرحلتين الآمنتين الراجحتين فصارتا لهم عادة وإفناً^(١).

وهذا الفضل كان بسبب دعوة إبراهيم عليه السلام حيث قال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا

بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمْتِعْهُ قَلِيلًا ثُمَّ

أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ [البقرة ١٢٦].

(١) في ظلال القرآن ٦/٣٩٨٢.

المطلب الثاني

إِلْفِ نَعْمِ اللَّهِ تَعَالَى

قال تعالى: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِذْ لَفَّهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾

والإيلاف: مصدر أألف بهمزتين بمعنى ألفت^(١)، أي: أن قريشاً كانت لهم عادةً يلزمونها وهي رحلة الشتاء والصيف.

وقريش: لقب الجد الذي يجمع بطولاً كثيرةً وهو: فهر بن مالك بن النضر بن كنانة، وجميع أهل مكة هم قريش، وفيهم كانت مناصب أهل مكة في الجاهلية موزعة بينهم.

وقوله ﴿إِذْ لَفَّهِمْ﴾ عطف بيان من ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾ وهو من أسلوب الإجمال فالتفصيل للعناية بالخبر ليتمكن في ذهن السامع، ومنه قوله تعالى: ﴿لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٦٠﴾ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ...﴾ [غافر ٣٦-٣٧]. حكاية لكلام فرعون^(٢).

وهذا افتتاح مبدع إذ كان بمجرور بلام التعليل حيث أن فيه تشويق إلى متعلق هذا المجرور. فيتعلق ﴿لِإِيلَافٍ﴾ بقوله: ﴿فَلْيَعْبُدُوا﴾.

قال الطبري: "إن هذه اللام بمعنى التعجب، وإن معنى الكلام: اعجبوا لإيلاف قريش رحلة الشتاء والصيف، وتركهم عبادة رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف"^(٣).
"وتقدم هذا المجرور للاهتمام به إذ هو من أسباب أمرهم بعبادة الله التي أعرضوا عنها بعبادة الأصنام، وهذا التقديم كذلك جعله شرطاً لعامله فاقترن عامله بالفاء التي هي من شأن جواب الشرط"^(٤) قال في الكشاف: "أي: أن نعم الله عليهم لا تحصى، فإن لم يعبدوه لسائر نعمه فليعبدوه لهذه الواحدة التي هي نعمة ظاهرة"^(٥).

"والمراد بذلك ما كانوا يألفونه من الرحلة في الشتاء إلى اليمن، وفي الصيف إلى الشام في المتاجر وغير ذلك، ثم يرجعون إلى بلدتهم آمنين في أسفارهم؛ لعظمتهم عند الناس، لكونهم سكان حرم الله، فمن عرفهم احترمتهم، بل من سافر إليهم وسار معهم أمن بهم، هذا حالهم في أسفارهم، ورحلتهم في

(١) جامع البيان ٢٤/٦٥٠ - ٦٥١.

(٢) التحرير والتنوير ٣٠/٥٥٥ - ٥٥٦ باختصار.

(٣) جامع البيان ٢٤/٦٤٩.

(٤) التحرير والتنوير ٣٠/٥٥٤.

(٥) الكشاف ٤/٢٣٥ باختصار.

شتائهم وصيفهم. وأما في حال إقامتهم في البلد فكما قال الله: ﴿أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا
وَيَتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت ٦٧] (١).
وهذا الإلف وهذه العادة جعلتهم ينسون الله تعالى ولا يعبدونه حق العباداة بل كانوا يشركون معه
غيره. ولذلك أمرنا الله دائماً بالتفكر وتذكر نعمه سبحانه، فنعم الله لا تحصى ولا تعد، فكل ما في
الإنسان من خير فهو من الله، قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل ٥٣] فالإنسان إذا أمعن
التفكر والتذكر يعيش دائماً مع الله وحمده وشكره بكل أنواع الحمد والشكر .

(١) تفسير القرآن العظيم ٤٩١/٨ .

المطلب الثالث

قصة الرحلة

وكان الذي سن لهم هاتين الرحلتين: هاشم بن عبد مناف، وقصة ذلك ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن أصحاب الإيلاف هاشم وإخوته الثلاثة عبد شمس والمطلب ونوفل، وأن كل واحد منهم أخذ حبلاً - أي عهداً - من أحد الملوك الذين يبرون في تجارتهم على بلادهم - وهم: ملك الشام وملك الحبشة وملك اليمن وملك فارس. فأخذ هاشم هذا من ملك الشام وهو ملك الروم، وأخذ عبد شمس من نجاشي الحبشة، وأخذ المطلب من ملك اليمن، وأخذ نوفل من كسرى ملك فارس.

وكانوا يجعلون جُعللاً لرؤساء القبائل وسادات العشائر التي يمر بها طريق تجارتهم - يُسمى الإيلاف أيضاً - يُعطونهم شيئاً من الربح، ويحملون إليهم متاعاً، ويسوقون إليهم إبلاً مع إبلهم، ليكفونهم مؤونة الأسفار، وهم يكفون قريشاً دفع الأعداء، فاجتمع لهم بذلك أمن الطريق كله إلى اليمن وإلى الشام^(١).

وقيل: أنهم كانوا يعترتهم خصاصة، فإذا لم يجد أهل بيت طعاماً لقوتهم حمل رب البيت عياله إلى موضع معروف فضرب عليهم خباء، وبقوا فيه حتى يموتوا جوعاً، ويسمى ذلك الاعتفار^(٢)، فحدث أن أهل بيت من بني مخزوم أصابتهم فاقة شديدة فهُمُّوا بالاعتفار، فبلغ خبرهم هاشماً - لأن أحد أبنائهم كان تريباً لأسد بن هاشم - فقام هاشم خطيباً في قريش، وقال: إنكم أحدثتم حدثاً؛ تَقْلُونَ فيه وتكثر العرب، وتذلون وتعز العرب، وأنتم أهل حرم الله، والناس لكم تبع، ويكاد هذا الاعتفار يأتي عليكم، ثم جمع كل بني أبي علي رحلتين للتجارات فما ربح الغني قسمه بينه وبين الفقير من عشيرته حتى صار فقيرهم كغنيهم، ولم تزل الرحلتان من إيلاف قريش حتى جاء الإسلام وهم على ذلك^(٣).

ولذا ذكّرهم الله الرحلتين على سبيل الامتنان والالتزام فقال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۗ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ۗ﴾. ولا يمتنع اجتماع ذلك كله - بل وغيره - من الأسباب، وأياً ما كان الأمر فالرحلة آية عظيمة من الله لقريش على وجوب إفراده بالربوبية والإلوهية دون ما سواه من الأصنام والأنداد التي لا تنفعهم بل تضرهم.

(١) المنمق في أخبار قريش ٨/١، الأوائل للعسكري ٢/١، وانظر الجامع للقرطبي ٢٠/٢٠٥. والتحرير والتنوير ٣٠/٥٥٦ - ٥٥٧.

(٢) قال ابن فارس: "بالراء من العفر، وهو التراب، وتأويله على ما أظنه: ذهابهم إلى ذلك الخباء، وموتهم واحداً بعد واحد". نقله القرطبي في الجامع ٢٠/٢٠٥، وانظر تاج العروس ٣٢١٦، واللسان ٤/٥٨٣.

(٣) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٨/٢٥٨، وذكرها القرطبي في الجامع ٢٠/٢٠٥، والتحرير والتنوير ٣٠/٤٩٠.

المطلب الرابع

وجوب شكر الله تعالى على نعمه بإخلاص العبادة له

قال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴿١﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴿٢﴾﴾

أي: "أمرهم أن يعبدوا رب هذا البيت، وكفاهم المؤونة، وكانت رحلتهم في الشتاء والصيف فلم يكن لهم راحة في شتاء ولا في صيف ف ﴿أَطْعَمَهُمْ﴾ بعد ذلك ﴿مِنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ أو ألقوا الرحلة، فكانوا إذا شاءوا ارتحلوا وإذا شاءوا أقاموا، فكان ذلك من نعم الله عليهم^(١).
أما الأمن الذي آمنهم الله منه هو: الأمن من العدو والأمن الصحي، وجميع أنواع الأمن التي يطمئن إليها الإنسان^(٢). فأمرنا أن يألفوا عبادة رب مكة والمنعم عليهم برحلة بالإطعام والأمن كإفهم رحلة الشتاء والصيف^(٣).

نعم: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ فهو الذي كفل لهم الأمن فجعل نفوسهم تألف الرحلة، وتنال من ورائها ما تنال، فهو ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ﴾ وكان الأصل بحسب حالة أرضهم أن يجوعوا، فأطعمهم الله وأشبعهم من هذا الجوع ﴿وَأَمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾، وكان الأصل بحسب ما هم فيه من ضعف وبحسب حالة البيئة من حولهم أن يكونوا في خوف فأمنهم من هذا الخوف! فهو تذكير يستجيش الحياء في النفوس، ويثير الخجل في القلوب^(٤).

فالذي يستحق أن يعبد هو ﴿رَبُّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ الذي برحمته استطعم المعيشة من الرحلات

والأمن، والشكر يجب أن يكون لـ ﴿رَبِّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ لا إلى الأصنام والأوثان والأحجار، فلا ينبغي للعاقل أن يصرف أعماله - سواءً قلبية أو ظاهرة- إلا للخالق سبحانه، فهو الذي خلق وربى وأعطى، وكل ما في الوجود فمنه سبحانه، فكيف نطلب من غيره!! أو نصرف شيئاً من العبادة لغيره!! فهو خطاب للبشر جميعاً على مدار الزمان . فإن جزاء المنعم أن يشكر ولا يكفر ، وأن يعبد ولا يشرك معه أحد، وأن يطاع ولا يعصى، هذه هي الحقيقة التي يذكرها الله لقريش وكل من يأتي بعدهم.

إن ما نعيشه من نعمة الصحة والأموال والأولاد والأمن وغيرها كلها من الله وحده، جعل لها أسباباً على أيدي بعض البشر ، فالمعطي الحقيقي هو الله، ومن المعروف أن مَنْ أعطى يجب أن يُشكر، وكلما زاد العطاء وجب أن يزداد الشكر، فكيف إذا كانت كل النعم من المعطي سبحانه ألا يستحق أن يشكر!!.

(١) جامع البيان ٢٤/٦٥٠-٦٥١.

(٢) جامع البيان ٢٤/٦٥٦.

(٣) جامع البيان ٢٤/٦٥٣.

(٤) في ظلال القرآن ٦/٣٩٨٤ بتصرف واختصار.

تفسير سورة الماعون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّينِ ﴿١﴾ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يُحِضُّ عَلَىٰ طَعَامِ
الْمَسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾
وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾

المبحث الأول

مقدمات حول السورة

أولاً: تسميتها ونزولها ومناسبتها:

تُسمى سورة أُرأيت الذي^(١)، وسورة اليتيم^(٢)، وسورة أُرأيت^(٣)، والدين^(٤)، والتكذيب^(٥)، والماعون^(٦). وهي مكية عند الجمهور^(٧).

أما عدد آياتها: (٧) آيات، وكلماتها: (٢٥) كلمة، وحروفها: (١٢٥) حرفاً^(٨).

مناسبتها لما قبلها:

"جاء في سورة «قريش» تنويه عظيم بشأن الشَّبع من الجوع ، والأمن من الخوف ، حيث لا حياة بغير طعام ، ولا طعم لحياة بغير أمن! وجاءت سورة « الماعون » لتضرب — والحديد ساخن — كما يقولون — على أوتار هذه القلوب الجافية ، ولتهز تلك المشاعر الجامدة ، التي عرفت طعم الشَّبع بعد الجوع ، وذوقت هناة الأمن بعد الخوف ، حتى تندّ بالمعروف ، وتسخو بالخير ، قبل أن تنسى لذعة الجوع ، ورعدة الخوف"^(٩).

ثانياً: موضوعها :

١ - التعجب من حال من كذبوا بالبعث .

(١) اللباب لابن عادل ١٦/٤٦٥، تفسير أبي زمين ٢/٣٢٩، تفسير التعالبي ٤/٤٤٤ .

(٢) التحرير والتنوير ٣٠/٥٦٣، فتح القدير ٥/٧١١ .

(٣) جامع البيان ٢٤/٦٢٧، وفي بعض كتب التفسير .

(٤) نظم الدر ١٠/٢٣، تفسير السراج المنير (٥٢٩٨) .

(٥) التحرير والتنوير ٣٠/٥٦٣ .

(٦) روح المعاني ٣٠/٣٠٩، وفي معظم المصاحف والتفاسير .

(٧) التحرير والتنوير ٣٠/٥٦٣، جامع البيان ٢٤/٦٢٧، فتح القدير ٥/٧١١، تفسير القرآن العظيم ٨/٤٩٣ .

(٨) التفسير القرآني للقرآن ٣/٩١ .

(٩) المصدر السابق .

- ٢ - ذم أعمال وصفات الذين كذبوا بالبعث.
 ٣ - ذم من منع رعاية اليتيم والمسكين واحتقاره.
 ٤ - ذم من يتأخر عن الصلاة ويسهو عنها.
 ٥ - ذم من يمنع تبادل المنافع بين الناس عن طريق الإعارات أو التبرع.

ثالثاً: المعنى الإجمالي للسورة:

قول الله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّينِ﴾ أي: أرايت حال ذلك الذي يكذب بالبعث والجزاء؟ ﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ﴾ أي: يدفع اليتيم بعنف وشدة عن حقه؛ لقساوة قلبه، وكذلك ﴿وَلَا يُحِضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ أي: ولا يحضُّ غيره على إطعام المسكين، فكيف له أن يطعمه بنفسه؟

﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ أي: فعذاب شديد للمصلين الذين هم عن صلاتهم لاهون، لا يقيمونها على وجهها، ولا يؤدونها في وقتها.

﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾ أي: الذين هم يتظاهرون بأعمال الخير مراعاة للناس.

﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ أي: ويمنعون إعارة ما لا تضر إعارته من الآنية وغيرها، فلا هم أحسنوا عبادة ربهم، ولا هم أحسنوا إلى خلقه^(١).

(١) التفسير الميسر ٦٠١.

المبحث الثاني

وقفات مع الصفات المذمومة في السورة

إنَّ المرء قد يتصف ببعض الصفات المذمومة المذكورة في السورة ، وقد يتصف بها جميعاً ، وكلُّ مذموم منهي عنه. فإن المراد النهي عن السيئات بأنواعها والترهيب من فعلها أو مقارنة أسباب ذلك.

المطلب الأول

التكذيب بالدين

قال تعالى: ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ﴾

أي: "أرأيت يا محمد الذي يكذب بثواب الله وعقابه، فلا يطيعه في أمره ونهيه"^(١)، فهو مكذب بـ "المعاد والجزاء والثواب"^(٢).

والاستفهام يفيد "التشويق على تعرّف المكذب، وأن ذلك مما يجب على المسلم ليحترز عنه وعن فعله، وفيه تعجب منه"^(٣).

وهذا يفيد تشويه من أنكر إنكار البعث، بما ينشأ عن إنكاره من المدام ومن مخالفة للحق، وهذا إيذان بأن الإيمان بالبعث والجزاء هو الباعث الحق الذي يغرس في النفس جذور الإقبال على الأعمال الصالحة، حتى يصير ذلك لها خُلُقاً إذا شئت عليه، فزكت وانسقت إلى الخير بدون كلفة، ولا احتياج إلى أمر، ولا مخافة ممن يقيم عليه العقوبات بخلاف من إذا اختلى بنفسه وآمن الرقباء جاء بالفحشاء والأعمال النكراء^(٤).

وإن التكذيب بالدين - سواء بالكلية أو ببعضه - يقود المرء إلى المهالك الدينية والدينية ولذا جعل الله الإيمان باليوم الآخر وما فيه أساس من أسس الإيمان التي لا يقوم بدونها وربى عباده على الإيمان به وهذا ملاحظ في القرآن عموماً وفي معالجة غرائز النفس خصوصاً، وكذلك في السور المكية عموماً والمفصل خصوصاً.

(١) جامع البيان ٦٥٧/٢٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٤٩٣/٨.

(٣) روح المعاني ٣٠٩/٣٠.

(٤) انظر التحرير والتنوير ٥٦٥/٣٠.

المطلب الثاني

قهر اليتيم ومنعه الطعام وعدم الإحسان إليه

بعد عرض الاستفهام يَنْتَظِرُ من يسمع الاستفهام أين تتجه الإشارة؟ وما هي النتيجة؟ ومن هو الذي يكذب بالدين؟

وإذا الجواب ﴿ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿٣﴾ ﴾ والمعنى أشار إليه قوله تعالى: ﴿ كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿٧﴾ وَلَا تَحْضُونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿٨﴾ ﴾ [الفجر ١٧ - ١٨].

ومعنى ﴿ يَدْعُ ﴾ يدفع بعنف وقهر، قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَدْعُونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً ﴾ [الطور ١٣]^(١).
"فهذا الذي يكذب بالدين، هو الذي يدفع اليتيم عن حقه، ويظلمه، ولا يحث غيره على إطعام المحتاج من الطعام"^(٢).

ونسبة الطعام إلى المسكين إشعار بأن المسكين مالك لما يعطى له كما قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ﴿١١﴾ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٥﴾ ﴾ [المعارج ٢٤-٢٥]، فهو بيان لشدة الاستحقاق، وفيه إشارة للنهي عن الامتنان"^(٣).

"وكتى بنفي الحض عن نفي الإطعام لأن الذي يشح بالحض على الإطعام هو بالإطعام أشح"^(٤).

****فضل رعاية اليتيم والمسكين :**

وقد بين الله تعالى في مواضع أخرى من كتابة فضل رعاية المحتاج عموماً، قال تعالى في وصف صفات عباد الله الأبرار وما أعد لهم في الجنة: ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥٦﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٥٧﴾ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٥٨﴾ وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٥٩﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٦٠﴾ ﴾ [الإنسان ٥-٩].

(١) التحرير والتنوير ٥٦٦/٣٠ مختصراً .

(٢) جامع البيان ٦٥٨/٢٤ - ٦٥٩ مختصراً.

(٣) روح المعاني ٣٠/٣١٠.

(٤) التحرير والتنوير ٥٦٦/٣٠.

وبين الرسول ﷺ فضل رعاية اليتيم خصوصاً فقال: (أنا وكافل اليتيم هكذا في الجنة) وأشار بالسبابة والوسطى^(١).

و "الْيَتِيمُ فِي النَّاسِ: فَقَدْ الصَّبِيُّ أَبَاهُ قَبْلَ الْبُلُوغِ"^(٢). ولا يطلق على الرجل بعد البلوغ لحديث (لا يتم بعد احتلام)^(٣).

بخلاف المرأة فللْيَتِيمَةِ تطلق في الشرع^(٤) حتى على "البكر البالغة التي مات أبوها قبل بلوغها، فلزمها اسم اليتيم، فدُعيت به وهي بالغة. وقيل: المرأة لا يزول عنها اسم اليتيم ما لم تتزوج فإذا تزوجت ذهب عنها"^(٥).

(١) أخرجه البخاري كتاب الأدب باب فضل من يعول يتيماً (٦٠٠٥) واللفظ له، ومسلم كتاب الزهد والرفائق بلب الإحسان إلى الأرملة والمسكين واليتيم (٢٩٨٣).

(٢) النهاية في غريب الحديث ٦/٥٦٨٩.

(٣) أخرجه أبو داود كتاب الوصايا باب ما جاء متى ينقطع اليتيم (٢٨٧٣) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٦٠٩).

(٤) انظر: عون المعبود ٦/١١٧.

(٥) النهاية في غريب الحديث ٥/٦٨٩.

المطلب الثالث

السهو عن الصلاة

قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾

ولبيان الموضوع أكثر نعرض للنقاط التالية:

أولاً: خطورة تأخير الصلاة والغفلة عنها:

فالويل هو: "الوادي الذي يسيل من صديد أهل جهنم من المنافقين الذين يصلون، لا يريدون الله عز وجل بصلاتهم، وهم في صلاتهم ساهون إذا صلواها"^(١).

فالمقصود هم "المنافقون، الذين يصلون في العلانية ولا يصلون في السر. ولهذا قال: ﴿لِلْمُصَلِّينَ﴾

أي: الذين هم من أهل الصلاة وقد التزموا بها، ثم هم عنها ساهون، إما عن فعلها بالكلية، وإما عن فعلها في الوقت المقدر لها شرعاً، فيخرجها عن وقتها بالكلية، وإما عن وقتها الأول فيؤخرها إلى آخره دائماً أو غالباً. وإما عن أدائها بأركانها وشروطها على الوجه المأمور به. وإما عن الخشوع فيها والتدبر لمعانيتها، فاللفظ يشمل هذا كله، وللكل من اتصف بشيء من ذلك قسط من هذه الآية، ومن اتصف بجميع ذلك فقد تم نصيبه منها، وكمل له النفاق العملي"^(٢).

"والحمد لله الذي قال: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ (٥) ولم يقل: في صلاتهم ساهون"^(٣).

إن السهو عن الصلاة من الأمور العظيمة في مخالفة أمر الله، ويكفي أن الله وصف به هؤلاء المنافقين

في هذه السورة وتوعدهم بأشد الوعيد قال الله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ

سَاهُونَ ﴿٥﴾

وقال تعالى عن الكفار واعترافهم يوم القيامة بأن تركهم للصلاة كان سبب من أسباب دخول النار:

﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾ (١٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿١٣﴾ [المذثر ٤٢]، وقال ﷺ: (العهد الذي بيننا

وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر)^(٤). وفي حديث جابر رضي الله عنه (إن بين الرجل وبين الشرك

والكفر ترك الصلاة)^(٥).

(١) جامع البيان ٢٤/٦٥٩ مختصراً.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٨/٤٩٣، وانظر جامع البيان ٢٤/٦٦٣.

(٣) ذكره ابن كثير في التفسير عن عطاء ٨/٤٩٣.

(٤) أخرجه الترمذي كتاب الإيمان باب ترك الصلاة (٢٦٢٣) وقال الإمام الترمذي حديث حسن صحيح. وصححه الألباني في

صحيح سنن الترمذي (٢١١٣)، وصحيح سنن ابن ماجه (١٠٧٩).

(٥) أخرجه مسلم كتاب الإيمان باب بيان إطلاق أسم الكفر على من ترك الصلاة ١١٦ و١١٧.

وعن النبي ﷺ في الرؤيا التي رآها أنه قد رأى عذاب الذي يتكاسل عن الصلاة حيث قال: (أما الذي يثلغ^(١) رأسه بالحجر فإنه يأخذ القرآن فيرفضه، وينام عن الصلاة المكتوبة)^(٢).

ثانياً: الواجب علينا تجاه الصلاة:

قال تعالى عن لقمان ووصيته لابنه: ﴿يَبْنِي أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾.
وأمر سبحانه بإقامة الصلاة فقال: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾
[العنكبوت ٤٥].

وإقامتها: تكون في وقتها، مع جماعة المسجد، والمشي إليها بأدب، وتسوية الصفوف، والخشوع.
فإن "إقامتها: بحدودها وفروضها وأوقاتها"^(٣). سبب في تقويم حياة الناس وسلوكهم ومعاشرهم، وتقويم ما يقعون فيه من انحراف.

وإقامة الصلاة: دليل على صدق الإيمان. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾^(٤) أَوْلَيْكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴿ [الأنفال ٣-٤].

وقد جعل الله تعالى الصلاة مدار قبول باقي الأعمال الأخرى كما قال رسول الله ﷺ: (أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته فإن صلحت فقد أفلح وأنجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر)^(٥).

وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾^(٦) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿ [المؤمنون ١-٢].
ولذا "كان الرجل من العلماء إذا أقام الصلاة، أو قام إليها: يهاب الرحمن أن يمد بصره إلى شيء، وأن يُحدِّث نفسه بشيء من الدنيا"^(٧). ولذا "قيل: الخشوع في الصلاة هو: جمع الهمة، والإعراض عما سواها، والتدبر فيما يجري على لسانه من القراءة والذكر"^(٨).

"وقد علق الله فلاح المصلين بالخشوع في صلاتهم فدل على أن من لم يخشع فليس من أهل الفلاح، ولو اعتد له بها ثوابا لكان من المفلحين، وأما الاعتداد بها في أحكام الدنيا وسقوط القضاء فإن غلب

(١) فيثلغ بها رأسه: يعني يشدخه يقال: ثلغت رأسه فأنا أثلغه ثلغاً إذا شدخته وهشمت جزءاً منه، انظر: غريب الحديث لابن سلام ٢٥/٢.

(٢) أخرجه البخاري كتاب التهجد باب عقد الشيطان على قافية الرأس إذا لم يصل بالليل (١١٣٤).

(٣) تفسير القرآن العظيم ٦/٣٣٨.

(٤) أخرجه أبي داود كتاب الصلاة باب قول النبي ﷺ: (كل صلاة لا يتمها صاحبها تتم من تطوعه) ح (٨٦٤)، وابن ماجه كتاب إقامة الصلاة باب أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة ح (١٤٢٥) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٠٢٠).

(٥) الجامع لأحكام القرآن ١٢/١٠٣.

(٦) تفسير البغوي ٥/٤٠٩، والنسفي ٣/١١٦.

عليها الخشوع وتعقلها اعتد بها إجماعاً، وكانت السنن والأذكار عقيبتها جواهر ومكملات لنقصها، وإن غلب عليه عدم الخشوع فيها وعدم تعقلها فقد اختلف الفقهاء في وجوب إعادتها، واحتجوا بأنها: صلاة لا يثاب عليها، ولم يضمن له فيها الفلاح، فلم تبرأ ذمته منها ويسقط القضاء عنه كصلاة المرائي. قالوا: ولأن الخشوع والعقل: روح الصلاة ومقصودها ولبها فكيف يعتد بصلاة فقدت روحها ولبها وبقيت صورتها وظاهرها، قالوا: ولو ترك العبد واجباً من واجباتها عمداً لأبطلها تركه، وغايته أن يكون بعضاً من أعضائها بمرتلة فوات عضو من أعضاء العبد المعتقد في الكفارة، فكيف إذا عدت روحها ولبها ومقصودها وصارت بمرتلة العبد الميت إذا لم يعتد بالعبد المقطوع اليد يعتقد تقرباً إلى الله تعالى في كفارة واجبة فكيف يعتد بالعبد الميت^(١).

وقال بعض السلف: الصلاة كجارية تهدى إلى ملك من الملوك، فما الظن بمن يهدي إليه جارية شلاء أو عوراء أو عمياء أو مقطوعة اليد والرجل!! أو مريضة أو دميمة أو قبيحة!! حتى يهدى إليه جارية ميتة بلا روح!! وجارية قبيحة!! فكيف بالصلاة التي يهديها العبد ويتقرب بها إلى ربه تعالى. والله (طيب لا يقبل إلا طيباً)^(٢) وليس من العمل الطيب: صلاة لا روح فيها، كما أنه ليس من العتق الطيب عتق عبد لا روح فيه.

قالوا: وتعطيل القلب عن عبودية الحضور والخشوع؛ تعطيل لملك الأعضاء عن عبوديته، وعزل له عنها، فماذا تغني طاعة الرعية وعبوديتها وقد عُزِلَ ملكها وتعطل!! قالوا: والأعضاء تابعة للقلب تصلح بصلاحه وتفسد بفساده، فإذا لم يكن قائماً بعبوديته فالأعضاء أولى أن لا يعتد بعبوديتها، وإذا فسدت عبوديته بالغفلة والوسواس فأنتى تصح عبودية رعيته وجنده، ومادتهم منه وعن أمره يصدرن وبه يأتمرون ..

وقد قال الله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ۖ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۗ﴾ وليس السهو عنها تركها!! وإلا لم يكونوا مصليين. وإنما هو السهو عن واجبها: إما عن الوقت كما قال ابن مسعود رضي الله عنه وغيره. وإما عن الحضور والخشوع. والصواب: أنه يعم النوعين فإنه سبحانه أثبت لهم صلاة، ووصفهم بالسهو عنها، فهو السهو عن وقتها الواجب، أو عن إخلاصها وحضورها الواجب، ولذلك وصفهم بالرياء، ولو كان السهو سهو ترك لما كان هناك رياء، قالوا: ولو قدرنا أنه السهو عن واجب فقط؛ فهو تنبيه على التوعد بالويل على سهو الإخلاص والحضور بطريق الأولى^(٣).

(١) وهذا على سبيل تصوير حال ذلك المصلي وتنفيراً من فعله، وجلباً لطلبه الخشوع في صلاته.

(٢) أخرجه مسلم كتاب الزكاة باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها (١٠١٥).

(٣) مدارج السالكين ١/٥٢٦.

ثالثاً: ومما يعين على إقامة الصلاة وعدم السهو عنها :

١ - لإخلاص لله تعالى في الصلاة، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ
الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام ١٦٢].

٢ - لإقلاع عن الذنوب: فإن العبد يحرم لذة الطاعة بالذنب يصيبه^(١).

٣ - لمحافظة على الصلاة في وقتها: قال تعالى: ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴾
[النساء ١٠٣].

٤ - للدعاء: قال تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر ٦٠].

٥ - لاستعداد للصلاة: كما قال عليه الصلاة والسلام: (ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع
الله به الدرجات؟) قالوا: بلى يا رسول الله. قال: (إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطى إلى
المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط)^(٢).

٦ - فعل سنن الصلاة : كالترديد مع الأذان، والذكر بعد الأذان، والذكر بعد الوضوء، ولبس

ثياب حسنة نظيفة، والذهاب إلى المسجد ماشياً بطمأنينة وسكينة ، ودخول المسجد بالرجل اليمنى،
ودعاء دخول المسجد، والصلاة في الصف الأول

وإذا قام العبد المصلي بهذا، وجاهد نفسه على القيام بكل أركان الصلاة وواجباتها وسننها

وخشوعها؛ أحس بعد ذلك بمعنى قول الرسول ﷺ لبلال: (أرحنا بالصلاة يا بلال) ^(٣) وبقوله ﷺ
(وجعلت قرة عيني في الصلاة)^(٤). فلا يسهو عن الصلاة ولا يسهو في الصلاة.

(١) انظر: ابن الجوزي في صيد الخاطر ص ٣٩٤، الجواب الكافي ٣٤/١ وفيض القدير ١١٩/١ ح (١٣٣) وفتاوى ابن إبراهيم

١٨٥/١٣ والدرر السننية ٤٥٠/٢٠ وفتاوى ابن باز ٢٦٦/٦ و٣٩٩/٢٣ و٩٨/٢٣ والله أعلم.

(٢) أخرجه مسلم كتاب الطهارة باب إسباغ الوضوء على المكاره (٢٥١).

(٣) أخرجه أبو داود كتاب الأدب باب صلاة العتمة (٤٩٨٥)، مسند أحمد ٣٦٤/٥، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٨٩٢).

(٤) أخرجه النسائي كتاب عشرة النساء باب حب النساء (٣٩٤٠). وأحمد ١٢٨/٣ ح (١٢٣٥١). وصححه الحاكم على شرط

مسلم ١٧٤/٢ ح (٢٦٧٦). سلسلة الأحاديث الصحيحة ٤٢٤/٤ ح (١٨٠٩).

المطلب الرابع الرياء

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾ (٦)

"الذين هم يراؤن الناس بصلاتهم إذا صلوا، لأنهم لا يصلون رغبة في ثواب، ولا رهبة من عقاب، وإنما يصلونها ليراهم المؤمنون فيظنونهم منهم، فيكفون عن سفك دمائهم، وسي ذراريهم، وهم المنافقون الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ، يستبطنون الكفر، ويظهرون الإسلام"^(١).

**** والرياء هو: إظهار العبادة لقصد رؤية الناس لها فيحمدوا صاحبها^(٢).**

قال الفضيل: "ترك العمل لأجل الناس رياء، والعمل لأجلهم شرك، والإخلاص الخالص من هذين، وأن يعافيك الله منها"^(٣).

وهو ضد الإخلاص الذي هو: ألا تطلب لعملك شاهداً غير الله تعالى^(٤).

والفرق بين الرياء والسمعة: أن الرياء يكون في الفعل، والسمعة تكون في القول. وقيل: الرياء أن يعمل لغير الله والسمعة أن يخفي عمله ثم يحدث به الناس^(٥). أو أن الرياء في كل ما يرى، والسمعة في كل ما يُسمع. وهو أقرب إلى اللفظة: رياء، سمعة.

والرياء اليسير من الشرك الأصغر الذي أخبر عنه النبي ﷺ حيث قال: (إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر) قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: (الرياء)، يقول الله عز وجل لهم يوم القيامة إذا جزى الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء^(٦).

**** ومن مضار الرياء:**

١ - من أعظم مضار الرياء ما ورد في قول النبي صلى الله عليه وسلم: (من رأى، رأى الله به، ومن سمع؛ سمع الله به)^(٧) أي: "من رأى بعمله وسمعه الناس - ليكرموه ويعظموه ويعتقدوا خيره - سمع الله به يوم القيامة الناس، وفضحه. وقيل معناه: من سمع بعيوب الناس وأذاعها؛ أظهر الله عيوبه. وقيل: أسمعه المكروه. وقيل: أراه الله ثواب ذلك من غير أن يعطيه إياه، ليكون حسرة

(١) الطبري (٦٦٤/٢٤)

(٢) فتح الباري (٣٤٤/١١).

(٣) وتفسير البغوي ١/١٥٧، مدارج السالكين ٣/٩٥.

(٤) التعريفات للجرجاني (١٣-١٤).

(٥) انظر: فتح الباري (٣٤٤/١١).

(٦) مسند أحمد ٥/٤٢٨/٢٣٦٨٠ قال: شعيب الأرنؤوط: حديث حسن رجاله رجال الصحيح، السلسلة الصحيحة (٩٥١).

(٧) أخرجه البخاري كتاب الرقائق باب الرياء والسمعة (٦١٤٣). ومسلم كتاب الزهد والرقائق باب من أشرك بعمله غير الله

(٢٩٨٦).

عليه وقيل: معناه من أراد بعمله الناس؛ أسمع الله الناس، وكان ذلك حظه منه^(١).

٢ "الرياء محبط للأعمال المقترن بها مضيع لثوابها"، وقد يتعدى لغيرها من الأعمال فيرائي بها بعد أخلاصها.

٣ "الرياء سبب للمقت عند الله، والمرائي ملعون ومطروود من رحمة الله.

٤ "الرياء من كبائر المهلكات"^(٢).

٥ الرياء غصن من شجرة في القلب، ثمرها في الدنيا: الخوف والغم وضيق الصدر وظلمة القلب. وثمرها في الآخرة: الزقوم والعذاب المقيم—أعاذنا الله منها.

٦ لا يسلم المرائي من أن يفتضح أمره في الدنيا فيسقط من أعين الناس وتذهب هيئته، ويسمع المكروه جزاء ما قدمت يداه^(٣).

ويكفي أن الرياء سبب لهلاك العبد يوم القيامة؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت من رسول الله ﷺ يقول: (إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه: رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت. قال: كذبت! ولكنك قاتلت لأن يقال جريء، فقد قيل.

ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ورجلٌ تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن. قال: كذبت!! ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم، وقرأت القرآن ليقال هو قارئ، فقد قيل. ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار. ورجلٌ وسَّعَ اللهُ عليه وأعطاه من أصناف المال كله فأتى به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك. قال: كذبت!! ولكنك فعلت ليقال هو جواد، فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقي في النار^(٤)^(٥). النار^(٤)^(٥).

** وتتلخص طرق معالجة الرياء وتجنبه في :

- ١ - تذكر عظمة الله تعالى وحقارة العبد وضعف شكره لله وعبادته له.
- ٢ - تذكر أن الجزاء من الله هو الجزاء الأوفى، وأن العبد لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً .
- ٣ - مجاهدة النفس في دفع الرياء وتجنب أسبابه، ودعاء الله تعالى بذلك .

(١) شرح النووي على مسلم ١١٦/١٨ .

(٢) ذكر هذه الثلاث ابن حجر في الزواجر ٤٧/١، والغزالي في الإحياء ٣١٠/٣ بتصرف .

(٣) نضرة النعيم ٤٥٦٧/١٠ .

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الإمارة باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار ١٩٠٥ .

(٥) انظر الفوائد ص ٢٢٦ .

المطلب الخامس منع الخير عن الغير

قال تعالى : ﴿ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ (٧)

"يمنعون الناس منافع ما عندهم، وأصل الماعون من كل شيء منفعته، يقال للماء الذي يتزل من السحاب ماعون" (١) "فلا والله وصفهم بأنهم يمنعون الناس ما يتعاونونه بينهم، ويمنعون أهل الحاجة والمسكنة ما أوجب الله لهم في أموالهم من الحقوق؛ لأن كل ذلك من المنافع التي ينتفع بها الناس بعضهم من بعض" (٢).
"أي: لا أحسنوا عبادة ربهم، ولا أحسنوا إلى خلقه حتى ولا بإعارة ما ينتفع به ويستعان به، مع بقاء عينه ورجوعه إليهم. فهؤلاء لمنع الزكاة وأنواع القربات أولى وأولى" (٣).

*** فضل تبادل المنافع بين الناس عن طريق الإعارات أو التبرع:**

لقد حث الإسلام على تبادل المنافع، وبهذا جاءت أحكام الشريعة مبنية على هذا الحق الإنساني العظيم

ولذا قال الله تعالى : ﴿ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ (٧)

وكان من صفات النبي ﷺ التي امتدحته بها أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها واستنبطت من ذلك أنها من أسباب نجاته ونصرة الله له، والنجاة من الخزي: (والله ما يخزيك الله أبدا؛ إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق) (٤).

وقال ﷺ : (أحب الناس إلى الله تعالى أنفعهم للناس، وأحب الأعمال إلى الله تعالى سرور تدخله على مسلم، أو تكشف عنه كربة، أو تقضي عنه ديناً، أو تطرد عنه جوعاً، ولأن أمشي مع أخ في حاجة؛ أحب إلي من أن أعتكف في هذا المسجد - يعني مسجد المدينة - شهراً، ومن كف غضبه ستر الله عورته، ومن كظم غيظه - ولو شاء أن يمضيه أمضاه - ملأ الله قلبه رجاء يوم القيامة، ومن مشى مع أخيه في حاجة حتى يتهيأ له أثبت الله قدمه يوم تزل الأقدام) (٥).

وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (المؤمن يألف ويؤلف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف وخير الناس أنفعهم للناس) (٦).

(١) جامع البيان ٢٤/٦٦٥-٦٦٦.

(٢) جامع البيان ٢٤/٦٧٨.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٨/٤٩٥.

(٤) أخرجه مسلم باب بدء الوحي للنبي ﷺ (١٦٠).

(٥) أخرجه الطبراني في الكبير ١٢/٤٥٣/١٣٦٤٦، والأوسط ٦/١٣٩، وقال الألباني حسن لغيره في صحيح الجامع (٢٦٢٣).

(٦) أخرجه الطبراني في الأوسط ٦/٥٨، ومسند الشهاب ١/١٠٨ (١٢٩)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٣٢٨٩)، والسلسلة

وفي الآية نهي عن فعل ما يؤذي الناس ابتداءً من باب أولى، لأن من نهاهم عن ترك إسداء المعروف ابتداءً أوجب ترك الأذى ابتداءً، ومن تلك الصور:

نهى الشرع أن يمنع جاره من غرز خشبة في جداره أو ما في حكمها، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لا يمنع جار جاره أن يغرز خشبه في جداره)^(١).

وكذلك نهى عن كل ما يفسد الظن ومجالس الناس، ونهى عن الجلوس في الطريق لأنه يؤذي الناس إلا إذا قام بواجبها، عن حبس الماء فضل الماء.

وقد حث على ما يعين المجتمع على التلاحم والتآخي وحمل بعضهم بعضاً، ومن أبرز تلك الصور: الحث على حقوق الجار، وحقوق الأخوة، والترفع بالمنافع، وأداء الحقوق وافية، وحسن الظن، وبراءة الذمة.

الصحيحة (٤٢٦).

(١) أخرجه البخاري كتاب المظالم باب لا يمنع جار جاره أن يغرز خشبه في جداره (٢٤٦٣)، ومسلم كتاب المساقاة باب غرز الخشب في جدار الجار (١٦٠٩).

تفسير سورة الكوثر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾ ﴾

المبحث الأول

مقدمات حول السور

أولاً: تسميتها:

سميت هذه السورة في جميع المصاحف والتفاسير (سورة الكوثر)^(١) وبذلك عنونها الترمذي^(٢). وعنوانها البخاري في صحيحه سورة (إنا أعطيناك الكوثر)^(٣)، وعن البقاعي أنها تسمى (سورة النحر)^(٤).

ثانياً: نزولها ومناسبتها :

" وهي مكية عند الجمهور، واقتصر عليه أكثر المفسرين، قال ابن الجزري: أجمع من نعرفه على أنها مكية"^(٥)، وقيل مدنية في قول بعض أهل التفسير^(٦).

نزلت حين مات ابن رسول الله ﷺ فذهب أبو لهب إلى المشركين وقال: بُتِرَ محمد الليلة. فأنزل الله في ذلك: ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾^(٧)، وروي أن العاص بن وائل إذا ذكر رسول الله ﷺ يقول: دعوه فإنه رجل أبتَر لا عقب له، فإذا هلك انقطع ذكره. فأنزل الله هذه السورة"^(٨).

(١) التحرير والتنوير ٥٧٢/٣.

(٢) جامع الترمذي كتاب التفسير باب سورة الكوثر.

(٣) أخرجه البخاري كتاب التفسير باب سورة { إنا أعطيناك الكوثر }.

(٤) السراج المنير (٥٣٠٢). روح المعاني ٣١٢/٣٠.

(٥) النشر ١٩٦/١.

(٦) الجامع لأحكام القرآن ٢١٦/٢٠، زاد المسير ٢٤٧/٩ وذلك اعتماداً على ذكر موضوع النحر فيها إن كان المقصود به الأضحية فإنما شرعت بالدينية. ولحديث أنس عن نهر الكوثر وسيأتي.

(٧) الجامع لأحكام القرآن ٢٢٣/٢٠، والمحرر الوجيز عن عكرمة ٥٣٠/٥.

(٨) أخرجه ابن إسحاق بلاغا ٣٩٣/١ من سيرة ابن هشام. وانظر: الطبري ٣٢٩/٣٠، وابن كثير ٥٦٠/٤، والواحدي في أسباب الغزول (٥٤١-٥٤٢)، والدر المنثور ٦٥٢/٨. ذكره الألباني في صحيح السيرة النبوية ٢١٩/١.

وعندما قدم كعب بن الأشرف مكة قالت له قريش: أنت سيدهم ألا ترى إلى هذا الصنوبر^(١) المنبت من قومه يزعم أنه خير منا، ونحن أهل الحجيج، وأهل السدانة وأهل السقاية؟ فقال: أنتم خير منه. قال: فزلت: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾^(٢).

أما عدد آياتها: (٣) آيات، وكلماتها: (١٠) كلمات، وحروفها: (٤٢) حرفاً^(٣).

مناسبتها لما قبلها:

" في سورة « الماعون » ، توعد الله الذين لا يقيمون الصلاة ، ولا يؤدون الزكاة لأنهم مكذبون بالدين ، غير مؤمنين بالبعث والحساب ، والجزاء — توعد الله سبحانه هؤلاء ، بالويل والهلاك ، والعذاب الشديد في نار جهنم ..

وفي مقابل هذا ، جاءت سورة الكوثر تزفّ إلى سيد المؤمنين بالله واليوم الآخر ، هذا العطاء الجزيل ، وذلك الفضل الكبير من ربه .. ومن هذا العطاء ، وذلك الفضل ، ينال كل مؤمن ومؤمنة نصيبه من فضل الله ، وعطائه على قدر ما عمل"^(٤).

ثالثاً: فضلها :

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: "بيننا رسول الله ﷺ بين أظهرنا في المسجد، إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه مبتسماً، قلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: (أنزلت علي آفناً سورة) فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَحْرَسْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾ ثم قال: (أتدرون ما الكوثر؟) قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: (فإنه نهر وعَدْنِيهِ ربي - عز وجل، عليه خير كثير. هو حوض تَرْدُ عليه أمي يوم القيامة، آنيته عدد النجوم فيختلج^(٥) العبد منهم، فأقول: رب إنه من أمي؟ فيقول: إنك لا تدري ما أحدث بعدك)"^(٦).

رابعاً: موضوعها :

١- تتحدث عن فضل الله العظيم على رسوله الكريم تمسح على قلبه ﷺ بالروح والندى ، وتقرر حقيقة الخير الباقي الممتد الذي اختاره له ربه؛ وحقيقة الانقطاع والبت المقدر لأعدائه .

(١) الصنوبر والمنصير والصنبيير : أي الضعيف الفرد الذي لا غناء عنده ولا امتناع. غريب الحديث ٤٣٦/٢.

(٢) غريب الحديث لإبراهيم الحربي ٤٣٥/٢، والنسائي في الكبرى (١١٦٤٣)، وجامع البيان ٤٢/٧ و١٤٥١، وابن حبان (٦٥٧٢)، والطبراني في الكبير (١١٦٤٥) عن ابن عباس وعكرمة، وذكره الألباني في صحيح السيرة النبوية ٢٢٥/١.

(٣) التفسير القرآني للقرآن ٩٢/٣.

(٤) المصدر السابق.

(٥) فيختلج: أي يُقْتَطِعُ ويُنتزَع. انظر شرح السيوطي على مسلم ١٣٢/٢.

(٦) أخرجه مسلم كتاب الصلاة باب حجة من قال البسملة آية من أول كل سورة سوى براءة (٤٠٠).

٢- هذه السورة لرسول الله ﷺ كسورة الضحى ، وسورة الشرح . يُسرِّي عنه ربه فيها ، ويَعِدُه بالخير وأعطاه ما لم يعط أحداً من المرسلين ، ويُوعدُّ أعداءه بالبتر ، ويُوَجِّهه إلى طريق الشكر .

٣- تمثل صورة من حياة الدعوة ، وحياة الداعية في أول العهد بمكة . صورة من الكيد والأذى للنبي ﷺ ودعوة الله التي يبشر بها؛ وصورة من رعاية الله المباشرة لعبده وللقلة المؤمنة معه؛ ومن تثبيت الله وتطمينه وجميل وعده لنبيه ومرهوب وعيده لشانته .

٤ - تمثل حقيقة الهدى والخير والإيمان (كثرة وفيضاً وامتداداً)، وحقيقة الضلال والشر والكفران، (قلةً وانحساراً وانبتاراً). وإن ظن الغافلون غير هذا وذاك^(١).

خامساً: المعنى الإجمالي للسورة:

يقول الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ ﴾ أيها النبي الخير الكثير في الدنيا والآخرة، ومن ذلك نهر ﴿ الْكَوْثَرِ ﴾ في الجنة الذي حافتاه خيام اللؤلؤ المجوَّف، وطينه المسك. ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ ﴾ أي: فأخلص لربك صلاتك كلها، واذبح ذبيحتك له وعلى اسمه وحده. ﴿ إِنِّي شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ أي: إن مبغضك ومبغض ما جئت به من الهدى والنور، هو المنقطع أثره، المقطوع من كل خير^(٢).

(١) انظر إيجاز البيان للصابوني ص ٣١٧، في ظلال القرآن ٦/٣٩٨٧ بتصرف.

(٢) التفسير الميسر ٦٠٢.

المبحث الثاني

وقفات حول السورة

المطلب الأول

نعمة الله وعطائه

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ وهنا مسألتان:

المسألة الأولى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ﴾:

﴿إِنَّا﴾: افتتاح الكلام بحرف التأكيد للاهتمام بالخبر، والإشعار بأنه شيء عظيم يستتبع الإشعار بتنويه شأن النبي ﷺ، والكلام مسوق مساق البشارة وإنشاء العطاء لا مساق الأخبار بعطاء سابق. وضمير العظمة مشعر بالامتنان بعطاء عظيم^(١)، وتذكير بأن المعطي هو الله وحده ليتعلق القلب بمالك الملك والقادر على كل شيء، وأما من سواه فهو لا يضر ولا ينفع.

المسألة الثانية: ما هو الكوثر؟

﴿الْكَوْثَرَ﴾ أي: "الخير الكثير، والفضل الغزير، الذي من حملته: ما يعطيه الله لنبيه ﷺ يوم القيامة؛ من النهر الذي يقال له ﴿الْكَوْثَرَ﴾"^(٢).

فعن أنس ابن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (أُعْطِيَتْ الْكَوْثَرُ، فَإِذَا هُوَ نَهْرٌ يَجْرِي، وَلَمْ يُشَقَّ شَقًّا، وَإِذَا حَافَتَاهُ قَبَابُ اللَّوْلُؤِ، فَضْرِبَتْ بِيَدِي فِي تَرَبَّتِهِ، فَإِذَا مَسَكَهُ ذَفْرَةٌ، وَإِذَا حَصَاهُ اللَّوْلُؤُ) ^(٣). وفي رواية: (ذاك نهر أعطانيه الله - يعني في الجنة - أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، فيها طير أعناقها مثل أعناق الجُرُ). فقال عمر: يا رسول الله، إنما لناعمة؟ قال: (أكلها أنعم منها) ^(٤). وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما عُرِجَ بالنبي ﷺ إلى السماء قال: (أُتِيَتْ عَلَى نَهْرٍ حَافَتَاهُ قَبَابُ اللَّوْلُؤِ الْجَوْفِ فَقُلْتُ: مَا هَذَا يَا جَبْرِيلُ؟ قَالَ: هَذَا الْكَوْثَرُ) ^(٥).

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٥٧٢ .

(٢) تيسير الكريم الرحمن ٩٣٥ .

(٣) أخرجه أحمد ٣/١٥٢ (١٢٥٢٦)، قال شعيب الأرنؤوط "إسناده صحيح على شرط مسلم"، وأبي يعلى ٦/٢٣٦ (٣٥٢٩)، وقال محمد بن سليم: إسناده صحيح، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٥١٣).

(٤) أخرجه الترمذي كتاب صفة الجنة باب ما جاء في صفة طير الجنة (٢٥٤٢)، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٥١٤).

(٥) أخرجه البخاري كتاب التفسير باب سورة الكوثر (٤٩٦٤) .

وعن أبي عبيدة رحمه الله، عن عائشة رضي الله عنها قال: سألتها عن قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ قالت: (نهر عظيم أعطيه نبيكم ﷺ، شاطئا عليه در مجوف، آنيته كعدد النجوم)^(١).

وفي رواية قالت: (نهر في بطنان الجنة). قلت: وما بطنان الجنة؟ قالت: (وسطها)..

وعن سعيد بن جبير رحمه الله، عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في الكوثر: هو الخير الذي أعطاه الله إياه. قال أبو بشر: قلت لسعيد بن جبير: فإن ناساً يزعمون أنه نهر في الجنة؟ فقال سعيد: النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إياه^(٢). وفي رواية قال ابن عباس الكوثر: الخير الكثير^(٣).

وصح عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه فسره بالنهر أيضاً، قال رضي الله عنه: (الكوثر: نهر في الجنة، حافظه ذهب وفضة، يجري على الياقوت والدر، ماؤه أبيض من الثلج وأحلى من العسل)^(٤).

وتفسير الكوثر "بالخير الكثير: يعم النهر وغيره؛ لأن الكوثر من الكثرة، وهو الخير الكثير، ومن ذلك النهر والنبوة والقرآن وثواب الآخرة"^(٥).

وهذا النص الإلهي "يشير إلى عكس المعنى الذي أطلقه هؤلاء السفهاء ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ﴾ ما هو كثير فائض غزير، غير ممنوع ولا مبتور، فإذا أراد أحد أن يتبع هذا ﴿الْكَوْثَرَ﴾ الذي أعطاه الله لنبيه فهو واجده حيثما نظر أو تصور. إنه ﴿الْكَوْثَرَ﴾، الذي لا نهاية لفيضه، ولا إحصاء لعوارفه، ولا حدّ لمدلوله. ومن ثم تركه بلا تحديد يشمل كل ما يكثر من الخير ويزيد"^(٦).

(١) أخرجه البخاري كتاب التفسير باب سورة الكوثر (٤٩٦٥).

(٢) أخرجه البخاري كتاب التفسير باب سورة الكوثر (٤٩٦٦).

(٣) أخرجه البخاري كتاب الرقاق باب الحوض (٦٥٧٨).

(٤) جامع البيان ٦٤٥/٢٤، تفسير القرآن العظيم ٥٠١/٨.

(٥) تفسير القرآن العظيم ٥٠٢/٨ باختصار.

(٦) في ظلال القرآن ٣٩٨٧/٦ باختصار.

المطلب الثاني شكر الله على نعمه

قال تعالى: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَخَّرْ ﴾ ﴿٢١٦﴾

أي: "كما أعطيناك الخير الكثير في الدنيا والآخرة، ومن ذلك النهر الذي تقدم صفته - فأخلص لربك صلاتك المكتوبة والنافلة، ونَحْرَكَ، فاعبده وحده لا شريك له، وانحر على اسمه وحده لا شريك له. وهذا مثل قول الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿٢١٦﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ۗ وَسِعْتُهُ الْعَرْشُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمَسْمُومِينَ ﴾ ﴿٢١٦﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣] ... وهذا بخلاف ما كان المشركون عليه من السجود لغير الله، والذبح على غير اسمه، كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾ الآية [الأنعام: ١٢١]"^(١).

كُلُّ ذَلِكَ "شكراً له على ما أعطاك من الكرامة والخير، الذي لا كِفَاءَ له، وخصك به"^(٢)، "وإضافة رَبِّ ﴿ إلى ضمير المخاطب لقصد تشريف النبي ﷺ وتقريبه، وفيه تعريض بأنه يربه ويرأف به"^(٣).

و"خص هاتين العبادتين بالذكر، لأنهما من أفضل العبادات وأجل القربات، ولأن الصلاة تتضمن الخضوع في القلب والجوارح لله، وتنقلها في أنواع العبودية، وفي النحر تقرب إلى الله بأفضل ما عند العبد من النجائب، وإخراج للمال الذي جبلت النفوس على محبته"^(٤).

وفي الآية إشارة إلى "عناية هذا الدين بتخليص الحياة كلها من الشرك وآثاره. فهو دين الوحدة بكل معنى من معانيها، كما أنه دين التوحيد الخالص المجرد الواضح. ومن ثم فهو يتبع الشرك في كل مظاهره، وفي كل مكانه؛ ويطارده مطاردة عنيفة دقيقة سواء استكن في الضمير، أم ظهر في العبادة، أم تسرب إلى تقاليد الحياة، فالحياة وحدة؛ ما ظهر منها وما بطن، والإسلام يأخذها كلاً وجزءاً، ويتجه بها إلى الله خالصة واضحة ناصعة، كما في مسألة الذبائح وفي غيرها من شعائر العبادة وتقاليد الحياة"^(٥).

(١) تفسير القرآن العظيم ٥٠٣/٨ باختصار .

(٢) جامع البيان ٦٥٥/٢٤ .

(٣) التحرير والتنوير ٣٠ / ٥٧٤ .

(٤) تيسير الكريم الرحمن ٩٣٦ .

(٥) في ظلال القرآن ٦/٣٩٨٨ باختصار .

المطلب الثالث

دفاع عن النبي ﷺ

قال تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾

﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾ أي: "مبغضك وذامك ومنتقصك" ﴿هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ أي: المقطوع من كل خير، مقطوع العمل، مقطوع الذكر.

وأما محمد ﷺ، فهو الكامل حقاً، الذي له الكمال الممكن في حق المخلوق، من رفع الذكر، وكثرة الأنصار والأتباع ﷺ" (١).

"والأبتر: الذي إذا مات انقطع ذكره، فتوهوا لجهلهم أنه إذا مات بُنوه ينقطع ذكره، وحاشا وكلا!! بل قد أبقى الله ذكره على رؤس الأشهاد، وأوجب شرعه على رقاب العباد، مستمراً على دوام الآباد، إلى يوم الحشر والمعاد صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم التناد" (٢).

"ولقد صدق فيهم وعيد الله. فقد انقطع ذكرهم. بينما امتد ذكر محمد ﷺ. ونحن نشهد اليوم مصداق هذا القول الكريم، في صورة باهرة واسعة المدى!

إن الإيمان والحق والخير لا يمكن أن يكون أبتراً. وإنما الكفر والباطل والشر هو الأبتري مهما ترعرع وزها وتجبر في وقت من الأوقات. ولكن البشر ينخدعون ويغترون.. فأين الذين كانوا يقولون عن محمد ﷺ قولتهم اللئيمة، ويحسبون حينئذ أنهم قد قضوا على محمد وقطعوا عليه الطريق؛ أين هم؟! وأين ذكراهم؟! وأين آثارهم إلى جوار الكوثر!!! وصدق الله العظيم. وكذب الكائدون الماكرون" (٣).

وهذه بشرى لأتباع الرسول ﷺ السائرين على طريقه وهديه، فإن الله سيتولى الدفاع عنهم وسيبقي ذكرهم الحسن. وفي المقابل فإن أعداء الرسول ﷺ يجب عليهم أن يعودوا عودوا إلى الله قبل أن يبقى الذكر القبيح لهم والعذاب المهين في الآخرة.

عندها نقول للجميع: هلا حرصتم على بقاء ذكركم بعد موتكم، بإخلاص الدين لله وحده، وتجريد المتابعة للهادي الأمين صلى الله عليه وسلم.

(١) تيسير الكريم الرحمن ٩٣٦.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٥٠٥/٨.

(٣) في ظلال القرآن ٣٩٨٩/٦ باختصار وتصرف.

تفسير سورة الكافرون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ يَتَأَيُّهَا الْكٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنْتُمْ عٰبِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عٰبِدُ مَا عٰبَدْتُمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنْتُمْ عٰبِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾ ﴾

المبحث الأول

مقدمات حول السورة

أولاً: تسميتها :

- ١ - تُسمى المقشقشة وهو من قشقش المريض إذا صح وبرأ. أي: المبرحج من الشرك والنفاق.
- ٢ - سورة الإخلاص^(١).
- ٣ - عنونها البخاري بقوله ﴿ قُلْ يَتَأَيُّهَا الْكٰفِرُونَ ﴾^(٢).
- ٤ - وتسمى سورة العبادة.
- ٥ - وسورة الدين^(٣).
- ٦ - وفي كثير من المصاحف تسمى الكافرون؛ حيث إنها تخاطب كفرة مخصوصين قد علم الله منهم أنهم لا يؤمنون ، فهذه السورة وسورة الإخلاص تشملان على كلمة التوحيد في النفي والإثبات^(٤).

ثانياً: نزولها ومناسبتها:

هي عند الجمهور مكية^(٥) ، فقد كان المشركون عرضوا على الرسول ﷺ أن يعبدوا الله سنةً، على أن يعبد نبي الله ﷺ آلهتهم سنةً، فأنزل الله هذه السورة. فرؤي أن الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل، والأسود بن المطلب، وأميمة بن خلف، لقوا رسول الله، فقالوا: يا محمد، هلم فلنعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبد، ونشركك في أمرنا كله، فإن كان الذي جئت به

(١) الكشاف ٢٣٨/٤، روح المعاني ٣١٩/٣٠، التحرير والتنوير ٥٧٩/٣٠.

(٢) أخرجه البخاري كتاب التفسير باب سورة ﴿ قُلْ يَتَأَيُّهَا الْكٰفِرُونَ ﴾.

(٣) التحرير والتنوير ٥٧٩/٣٠ نقلاً عن بصائر ذوي التمييز للفيروز آبادي .

(٤) الكشاف ٢٣٨/٤ .

(٥) الدر المنثور ٧١١/١، روح المعاني ٣١٩/٣٠، التحرير والتنوير ٥٧٩/٣٠.

خيراً مما بأيدينا، كنا قد شَرَكْنَاكَ فِيهِ، وَأَخَذْنَا بِحُظُنَا مِنْهُ؛ وَإِنْ كَانَ الَّذِي بِأَيْدِينَا خَيْرًا مِمَّا فِي يَدَيْكَ، كُنْتَ قَدْ شَرَكْنَا فِي أَمْرِنَا، وَأَخَذْتَ مِنْهُ بِحُظِّكَ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿قُلْ يَتَّيِّبُهَا الْكَافِرُونَ﴾ حتى انقضت السورة^(١).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن قريشاً دعت رسول الله ﷺ إلى أن يعطوه مالا فيكون أغنى رجل بمكة ويزوجوه ما أراد من النساء ، فقالوا : هذا لك يا محمد وكف عن شتم آلهتنا ولا تذكر آلهتنا بسوء، فإن لم تفعل فإننا نعرض عليك خصلة واحدة ولك فيها صلاح. قال: ما هي؟ قالوا: تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة. قال: حتى أنظر ما يأتي من ربي فجاء الوحي من عند الله ﴿قُلْ يَتَّيِّبُهَا الْكَافِرُونَ﴾ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ الآية، وأنزل الله ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَمُرُّونَ أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٤﴾ بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٥﴾ [الزمر ٦٤-٦٦].^(٢)

أما عدد آياتها: (٦) آيات، وكلماتها: (٢٨) كلمة، وحروفها: (٩٤) حرفاً^(٣).

مناسبتها لما قبلها:

" الكوثر الذي أعطاه الله سبحانه وتعالى النبي صلوات الله وسلامه عليه — كان في مقابله البتر والحرمان من كل خير لمن يشأ هذا النبي ، الذي وضع الله سبحانه وتعالى ، الخير كله في يده .. وهذا مجمل ما تحدثت عنه سورة «الكوثر» وفي سورة «الكافرون» التي تأتي بعد هذه السورة ، موقف بين النبي — صلوات الله وسلامه عليه — وما أعطاه الله سبحانه من خير كثير ، يفيض من النبع الأعظم، وهو الإيمان بالله — وبين المشركين الذين عزلوا أنفسهم عن هذا الخير ، وحرموا أن ينالوا شيئا منه .. وفي هذا الموقف يعلن النبي عن هذا الخير الذي من الله به عليه ، وأنه ممسك به ، مقيم عليه ، لا يصرفه عنه شيء من هذه الدنيا ..

فهو لا يعبد غير الله سبحانه وتعالى ، ولا يتحول عن عبادته أبدا ، ولا ينظر إلى شيء وراءه من مال وبنين!!"^(٤).

ثالثاً: فضلها :

ورد في الحديث (أنها تعدل ربع القرآن)^(٥).

(١) جامع البيان ٢٤/٧٠٤، الدر المنثور ١٥/٧١٢ .

(٢) جامع البيان ٢٤/٧٠٤، والطبراني في الصغير ١/٢٦٥، وانظر الدر المنثور ١٥/٧١١، وضَعَّفَ ابن حجر إسناده في الفتح ١/٧٣٣ .

(٣) التفسير القرآني للقرآن ٣/٩٣ .

(٤) المصدر السابق.

(٥) أخرجه الترمذي كتاب فضائل القرآن باب ما جاء في إذا زلزلت (٢٨٩٣). والحاكم في المستدرک ١/٧٥٤ رقم ٢٠٧٨. وحسنه

الألباني في السلسلة الصحيحة (٥٨٦).

ومن فضلها أنها تقرأ في مواضع وهي:

١- ركعتي الطواف: عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قرأ بسورة ﴿ قُلْ يَتَّيِبُهَا
الْكَافِرُونَ ﴾ ، وبـ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ في ركعتي الطواف^(١).

٢- ركعتي الفجر: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قرأ بهما في ركعتي الفجر^(٢).

٣- الركعتين بعد المغرب: عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قرأ في الركعتين قبل الفجر
والركعتين بعد المغرب، بضعاً وعشرين مرة أو: بضع عشرة مرة ﴿ قُلْ يَتَّيِبُهَا الْكَافِرُونَ ﴾ و ﴿ قُلْ
هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾^(٣).

٤- عند النوم: عن جبلة بن حارثة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (إذا أويت إلى فراشك فاقراً :
﴿ قُلْ يَتَّيِبُهَا الْكَافِرُونَ ﴾ حتى تمر بآخرها، فإنها براءة من الشرك"^(٤).

٥- عند الوتر: عن عبد العزيز بن جريج رحمه الله قال: سألتنا عائشة رضي الله عنها بأي شيء كان
يوتر رسول الله ﷺ؟ قالت: كان يقرأ في الأولى بـ ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ وفي الثانية بـ ﴿ قُلْ
يَتَّيِبُهَا الْكَافِرُونَ ﴾ وفي الثالثة بـ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ والمعوذتين^(٥).

وعلى هذا فكان يفتح بهما يومه في الفجر، ثم يفتح بها ليلة في سنة المغرب، ثم يختم ليله بهما في صلاة
الوتر.

٦- تقرأ في الرُقَى: عن علي رضي الله عنه قال: لدغت النبي ﷺ عقرب وهو يصلي، فلما فرغ قال:
(لعن الله العقرب، لا تدع مصلياً ولا غيره) ثم دعا بماء وملح وجعل يمسح عليها ويقرأ: ﴿ قُلْ يَتَّيِبُهَا
الْكَافِرُونَ ﴾ و ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ و ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾^(٦).

(١) أخرجه مسلم كتاب الحج باب حجة النبي ﷺ (١٢١٨).

(٢) أخرجه مسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها باب استحباب ركعتي سنة الفجر والحث عليهما وتخفيفهما والمحافظة عليهما
وبيان ما يستحب أن يقرأ فيهما (٧٢٦).

(٣) أخرجه أحمد ٢٤/٢ (٤٧٦٣) قال: الأرنبوط: "إسناده صحيح على شرط الشيخين"، وصححه الألباني في الصحيحة (٣٣٢٨).

(٤) أخرجه أبو داود كتاب الأدب باب ما يقال عند النوم (٥٠٥٥)، والمعجم الكبير ٢٨٧/٢ ح (٢١٩٥)، والمعجم الأوسط
٢٧٥/٢ ح (١٩٦٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٩٢).

(٥) أخرجه أبو داود كتاب الوتر باب ما يقرأ في الوتر (١٤٢٤)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (١٢٦٩)، وصحيح سنن
أبي داود (١٢٦٢).

(٦) أخرجه الطبراني في الأوسط ٩١/٦، وفي الصغير ٨٧/٢ (٨٣٠)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٥٤٨)، وانظر: الدر
المنثور ٧١٩/١٥.

وفي الحث على قراءتها وتكرارها في كل هذه المواضع إشارة إلى تعظيم قدرها ومعانيها، وتأكيدها لما اشتملت عليه، فإن الشارع الحكيم قصد تكرارها في كل هذه المواضع لتتكرر في النفوس هذه المبادئ الأصيلة حتى تكون عقيدة راسخة لا تززعها الزوابع ولا تزيلها الفتن القوامع، والله أعلم .

رابعاً: موضوعها :

والغرض الذي اشتملت عليه السورة هو:

١ تبيين للكفار من أن يوافقهم النبي ﷺ في شيء مما هم عليه من الكفر بالقول الفصل المؤكد في الحال والاستقبال.

٢ وأن دين الإسلام لا يخالط شيئاً من دين الشرك^(١).

فهذه السورة سورة البراءة من العمل الذي يعمله المشركون، وهي آمرة بالإخلاص فيه^(٢).

خامساً: المعنى الإجمالي للسورة:

﴿ قُلْ يَتَّيِبُهَا لَكُمُ الْكُفْرُ وَهُوَ قُلُوبُكُمُ الَّتِي كَفَرْتُمْ وَأَنْتُمْ بِهَا كَافِرُونَ ﴾ ﴿١﴾ أي: قل - أيها الرسول - للذين كفروا بالله ورسوله: ﴿ يَتَّيِبُهَا

لَكُمُ الْكُفْرُ ﴾ ﴿٢﴾ بالله. ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ ﴿٣﴾ من الأصنام والآلهة الزائفة، ﴿ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ

مَا أَعْبُدُ ﴾ ﴿٤﴾ من إله واحد، هو الله رب العالمين المستحق وحده للعبادة، ﴿ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ﴾ ﴿٥﴾ من

الأصنام والآلهة الباطلة، ﴿ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ ﴾ ﴿٦﴾ مستقبلاً ﴿ مَا أَعْبُدُ ﴾ ﴿٧﴾. ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ ﴾ ﴿٨﴾ الذي أصررتم

على اتباعه، ﴿ وَلِي دِينِ ﴾ ﴿٩﴾ الذي لا أبغي غيره^(٣).

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٥٨٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٨/٥٠٧ بتصرف .

(٣) التفسير الميسر ٦٠٣.

المطلب الثاني وقفات مع السورة المطلب الأول

إعلان الانفصال الذي لا يرجى معه اتصال البراءة

قال تعالى: ﴿ قُلْ يَتَّيِبُهَا لَكُمْ فَتُكْفَرُونَ ﴾ وفيها ثلاث مسائل:

المسألة الأولى: قوله: ﴿ قُلْ ﴾ للاهتمام بما بعد القول بأنه كلام يُراد إبلاغه إلى الناس بوجه خاص، منصوص فيه على أنه مرسل بقول يبلغه، وإلا فإن القرآن كله مأمور بإبلاغه^(١). ولهذا الآية نظائر في القرآن مفتوحة بالأمر بالقول وهي خمس سور: الجن والكافرون والإخلاص والمعوذتان. وهناك آيات في وسط السور مفتوحة بالقول كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ أَلَمَّوَتَ الَّذِي تَفْرُونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلْقِيكُمْ ﴾ [الجمعة ٨] وغيرها.

وأمر آخر نلاحظه من قوله تعالى: ﴿ قُلْ ﴾ وهو أنه أمر إلهي حاسم موحى بأن أمر هذه العقيدة أمر الله وحده. ليس لمحمد ﷺ فيه شيء. إنما هو الله الأمر الذي لا مرد لأمره، الحاكم لا راد لحكمه^(٢)، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾ [يونس ١٥].

المسألة الثانية: ابتداء خطابهم بالنداء لإبلاغهم لأن النداء يستدعي إقبال أذهانهم على ما سيلقي عليهم^(٣)، عليهم^(٣)، وإشارة إلى أن هذا الخطاب موجه لكل: كافر مصر على كفره، في كل زمان، وفي كل مكان، فهو سبحانه يخاطب بهذا القرآن القرون الأولى والقرون المتأخرة، والنداء شمل كل كافر على وجه الأرض، ولكن المواجهين بهذا الخطاب هم كفار قريش^(٤).

المسألة الثالثة: أنهم "نودوا بوصف الكافرين تحقيراً لهم، وتأييداً لوجه التبرؤ منهم، وإيداناً بأنه لا يخشاهم إذا ناداهم بما يكرهون مما يثير غضبهم لأن الله كفاه إياهم وعصمه من أذاهم"^(٥).

"فلخطاب من الله كان لرسول الله ﷺ في أشخاص بأعيانهم من المشركين، قد علم أنهم لا يؤمنون أبداً، وسبق لهم ذلك في السابق من علمه، فأمر نبيه ﷺ أن يؤيسهم من الذي طمعوا فيه، وحدّثوا به أنفسهم، وأن ذلك غير كائن منه ولا منهم في وقت من الأوقات، وآيس نبي الله ﷺ من الطمع في إيمانهم، ومن

(١) التحرير والتنوير ٥٨١/٣٠.

(٢) في ظلال القرآن ٣٩٩١/٦.

(٣) التحرير والتنوير ٥٨١/٣٠.

(٤) تفسير القرآن العظيم ٥٠٧/٨.

(٥) التحرير والتنوير ٥٨١/٣٠.

أن يفلحوا أبداً، فكانوا كذلك لم يفلحوا ولم ينجحوا، إلى أن قتل بعضهم يوم بدر بالسيف، وهلك بعضهم كافراً^(١).

ناداهم بحقيقتهم، ووصفهم بصفتهم، إنهم ليسوا على دين، وليسوا بمؤمنين؛ وإنما هم كافرون، وفي هذا البراءة منهم ومن معبوداتهم بانفصال لا يرجى معه اتصال بحال من الأحوال^(٢).

المطلب الثاني

لا يجتمع دين إسلام ودين الكافرين

المحور الأول: لا نرضي الكافرين ولو مرة على حساب ديننا:

قال تعالى: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾^(٣) أي أن عبادتي غير عبادتكم، ومعبودي غير معبودكم، والمقصود أن الله يقول لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم تبرأ مما كانوا يعبدون من دون الله، ظاهراً وباطناً^(٤).

وفيه تحذير من اتباعهم مهما كان الأمر، كما قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يُرْذُوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا حَسْرِينَ﴾^(٥) [آل عمران ١٤٩]. وقال جل ذكره محذراً منهم، وكاشفاً عن حقيقة الكافرين وما تنطوي عليه نواياهم: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةَ مِّنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُؤًا مَا عَنَتُمْ قَدَّ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفَىٰ صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾^(٦) هَاتَنْتُمْ أَوْلَاءَ حُبُّوهُمْ وَلَا حُبُّوكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لِقُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ^(٧) إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾^(٨) [آل عمران ١١٨-١٢٠].

المحور الثاني: العبادة المقترنة بالشرك ليست عبادة:

﴿وَلَا أَنْتُمْ عِبَادُونَ مَا أَعْبُدُ﴾^(٩) أي: "العدم إخلاصكم في عبادته، فعبادتكم له المقترنة بالشرك لا تسمى عبادة"^(١٠).

(١) جامع البيان ٢٤/٢٠٤ مختصراً وبتصرف .

(٢) وانظر ظلال القرآن ٦/٣٩٩١.

(٣) تيسير الكريم الرحمن ٩٣٦.

(٤) تيسير الكريم الرحمن ٩٣٦.

أي: "لا تقتدون بأوامر الله وشرعه في عبادته، بل قد اخترعتم شيئاً من تلقاء أنفسكم، كما قال: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى﴾ [النجم ٢٣] فتبرأ منهم في جميع ما هم فيه، فإن العابد لا بد له من معبود يعبده، وعبادة يسلكها إليه، فالرسول وأتباعه يعبدون الله بما شرعه؛ ولهذا كانت كلمة الإسلام: (لا إله إلا الله محمد رسول الله) أي: لا معبود إلا الله، ولا طريق إليه إلا بما جاء به الرسول ﷺ، والمشركون يعبدون غير الله عبادة لم يأذن بها الله^(١).

الخوارج الثالث: توكيد مفهوم التوحيد والبراءة من الشرك:

قال شيخ الإسلام "القرآن ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، وهو ﴿الرَّكِنُ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]. ولو أن رجلاً من بني آدم له علم، أو حكمة، أو خطبة، أو قصيدة، أو مصنف، فهذب ألفاظ ذلك وأتى فيه بمثل هذا التغاير لعلم أنه قصد في ذلك حكمة، وأنه لم يخالف بين الألفاظ مع اتحاد المعنى سدى، فكيف بكلام رب العالمين، و أحكم الحاكمين، لاسيما وقد قال فيه: ﴿قُلْ لَيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ [الإسراء ٨٨]"^(٢).

الأول: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ﴾. فيدل الأول على عدم وجود الفعل، والثاني على أن ذلك قد صار وصفاً لازماً^(٣). فعبادتكم غير عبادتي، ومعبودكم غير معبودي، لأن الفعل يدل على الحدوث والتجدد والاسم يدل على اللزوم والثبات، فنفي حدوث ذلك أولاً ودل على لزوم ذلك النفي وثباته ثانياً فليس هنا تكرار إنما هو لغرض لا يفيد الأول.

فقوله: ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ﴾ "توكيد للفقرة الأولى في صيغة الجملة الاسمية وهي أدل على ثبات الصفة واستمرارها. وفيه رمز إلى تترهه ﷺ من عبادة الأصنام من سالف الزمان وإلا لقال: ولا أنا عابد ما كنا نعبد"^(٤).

الثاني: ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ وهذا التكرار لتوكيد الفقرة الثانية. كي لا تبقى مظنة ولا شبهة، ولا مجال لمظنة أو شبهة بعد هذا التوكيد المعزز بكل وسائل التكرار والتوكيد.

فالمقصود: "توكيد مفهوم التوحيد والبراءة من الشرك من ذلك، إلا أن بين الآيتين اختلاف في الصيغة. ففي الآية الأولى أتى بصيغة نفي الفعل، وفي الثانية أتى بصيغة نفي اسم الفاعل. والفرق بين

(١) تفسير القرآن العظيم ٥٠٨/٨.

(٢) مجموع الفتاوى ٥٥١/١٦.

(٣) تيسير الكريم الرحمن ٩٣٦.

(٤) التحرير والتنوير ٥٨٣/٣٠.

الفعل واسم الفاعل أن الفعل يدل على الحدوث والتجدد والوقوع ولو لمرة واحدة، والاسم يدل على الوصف اللازم ويدل على الثبوت، فكانه قال: إرضاءكم بعبادة آلهتكم لا يقع مني ولو لمرة، وأن هذا ليس وصفي ولا شأني^(١).

والمراد: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ ﴿٦٠﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٦١﴾ فِي الْمَاضِي، ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ﴾ ﴿٦٢﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٦٣﴾ فِي الْمُسْتَقْبَلِ.

الثالث: أن ذلك تأكيد محض.

قال بعض الأئمة: "المراد بقوله: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ نفى الفعل لأنها جملة فعلية.

﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ﴾ نفى قبوله لذلك بالكلية؛ لأن النفي بالجملة الاسمية أكد فكانه نفى الفعل، وكونه قابلاً لذلك. ومعناه: نفي الوقوع ونفي الإمكان الشرعي أيضاً. وهو قول حسن أيضاً، والله أعلم^(٢).

قال شيخ الإسلام: "والنفي بالجملة الثانية أعم من النفي بالأولى فإنه قال ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ﴾ بصيغة الماضي، فهو يتناول ما عبده في الزمن الماضي، لأن المشركين يعبدون آلهة شتى، وليس معبودهم في كل وقت هو المعبود في الوقت الآخر. كما أن كل طائفة لها معبود سوى معبود الطائفة الأخرى. فقوله ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ﴾ يتناول الحال والاستقبال أيضاً، والنفي بما بعد الفعل فيه زيادة معنى، كما تقول: ما أفعل هذا، وما أنا بفاعله، فنفسي لا تقبل ولا يصلح لها أن تعبد ما عبدتموه قط، ولو كنتم عبدتموه في الماضي فقط، فأني معبود عبدتموه في وقت فأنا لا أقبل أن أعبده في وقت من الأوقات"^(٣).

الخور الرابع: التمييز لا التميع:

قال تعالى في ختام السورة: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ ﴿٦٤﴾

كما قال تعالى موجهاً نبيه صلى الله عليه وسلم في التعامل مع المعاندين منهم: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيْعُونَ مِمَّا آَعَمَلُ وَأَنَا بَرِيْعٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٦٥﴾ [يونس ٤١]، وقال في صفة عباده من اتباع المرسلين عليهم الصلاة والسلام: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّعْنَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ ﴿٦٦﴾ [القصص ٥٥].

(١) الضوء المنير ٦/٤٧٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٨/٥٠٧-٥٠٨، مختصراً وبتصرف.

(٣) مجموع الفتاوى ١٦/٥٥١-٥٥٣، مختصراً.

"﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ ﴾ الكفر ﴿ وَلى دِينِ ﴾ الإسلام" (١). "وسمى دينهم ديناً لأنهم اعتقدوه وتولوه" (٢).

"إن التوحيد منهج، والشرك منهج آخر ولا يلتقيان. التوحيد منهج يتجه بالإنسان كله إلى الله وحده لا شريك له. ويحدد المنهج الذي يتلقى منه الإنسان؛ عقيدته وشريعته، وقيمه وموازينه. هذا المنهج هو التلقي عن الله، وحده بلا شريك. ومن ثم تقوم الحياة كلها على هذا الأساس، غير متلبسة بالشرك في أية صورة من صور الظاهرة والخفية.

إن التصورات الشركية تتلبس بتصورات الإيمان فيمن عرف العقيدة ثم انحرف عنها، وهي تظن بنفسها الهدى: في الوقت الذي تتعقد انحرافاتها وتتلوى!! واختلاط عقائدها وأعمالها وخلط الصالح بالفساد فيها، قد يُعْرِى الداعية بالأمل في اجتذابها إذا أقر الجانب الصالح وحاول تعديل الجانب الفاسد، وهذا الإغراء في منتهى الخطورة!

إن الكفر ككفر. والإسلام إسلام. والفارق بينهما بعيد. والسبيل هو الخروج عن الكفر بجملته إلى الإسلام بجملته. الانسلاخ من الكفر بكل ما فيه والهجرة إلى الإسلام بكل ما فيه. ف لا ترقيع ، ولا أنصاف حلول، ولا التقاء في منتصف الطريق، مهما تزيّت الجاهلية بزِيّ الإسلام، أو ادّعت هذا العنوان!

﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلى دِينِ ﴾ وهذا هو ديني: التوحيد الخالص، الذي يتلقى ويتوجه، في عقيدته وشريعته كلها من الله دون شريك في كل نواحي الحياة والسلوك.

وبغير هذه الخاتمة. سيبقى الغبش وتبقى المداهنة ويبقى اللبس ويبقى الترقيع. والدعوة إلى الإسلام لا تقوم على هذه الأسس المدخولة الواهنة الضعيفة. إنها لا تقوم إلا على الحسم والصراحة والشجاعة والوضوح . . " (٣).

ثم إن النبي ﷺ وضع للمسلمين مبدأ مخالفة غيرهم والتميز عليهم فقال: (من تشبه بقوم فهو منهم) (٤)، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ كُلُّ يَعْمَلْ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرِيكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٤]. وأمره ربه أن يتبرأ منهم إن كذبوه فقال تعالى: ﴿ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيغُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: ٤١].

قال شيخ الإسلام: "وهذه السورة يؤمر بها كل مسلم وإن كان قد أشرك بالله قبل قراءتها. فهو يتبرأ في الحاضر والمستقبل مما يعبده المشركون في أي زمان كان، وينفي جواز عبادته لمعبودهم، ويبين أن مثل هذا لا يكون ولا يصلح ولا يسوغ. فهو ينفي جوازه شرعاً ووقوعاً" (٥).

(١) أخرجه البخاري كتاب التفسير باب تفسير سورة { قال يا أيها الكافرون }.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، ٢٠/٢٢٩.

(٣) في ظلال القرآن ٦/٢٩٩٢-٣٩٩٣ بتصرف واحتصار ، ويراجع كتاب إبطال نظرية الخلط بين الأديان د. بكر أبو زيد.

(٤) أخرجه أبو داود كتاب اللباس باب في لبس الشهرة (٤٠٣١)، وحسنه غيره الألباني في صحيح الترغيب (٢٠٨٩).

(٥) مجموع الفتاوى ١٦/٤٥٤.

تفسير سورة النصر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ ﴾
فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾

المبحث الأول

مقدمات حول السور

أولاً: تسميتها :

تُسمى ١ - التوديع^(١) إشارة إلى اقتراب لحاقه بالرفيق الأعلى.

٢ - وسُميت هذه السورة في كلام السلف سورة ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾^(٢).

٣ - وفي المصاحف ومعظم التفاسير (سورة النصر) لذكر نصر الله فيها فسميت بالنصر^(٣).

٤ - و في جامع الترمذي (سورة الفتح)^(٤) لوقوع هذا اللفظ فيها، فيكون هذا الاسم مشتركاً بينها وبين ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾ [الفتح ١].

ثانياً: نزولها ومناسبتها :

هي مدنية باتفاق^(٥) وهي آخر سورة نزلت جمعاً^(٦).

عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة رحمه الله قال: قال لي ابن عباس رضي الله عنهما : يا ابن عتبة، أتعلم آخر سورة من القرآن نزلت؟ قلت: نعم، ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ قال: صدقت^(٧).

وجاء في سبب نزولها عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت: ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ دعا رسول الله ﷺ فاطمة رضي الله وقال: (إنه قد نُعيت إليّ نفسي)، فبكت ثم ضحكت، وقالت: أخبرني

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/٢٢٩.

(٢) كما ورد ذلك عن عطاء انظر جامع البيان ٢٤/٦٧٠، وانظر تفسير القرآن العظيم ٨/٥٠٩، والجامع لأحكام القرآن ٢٠/٢٣١.

(٣) التحرير والتنوير ٣٠/٥٨٩.

(٤) أخرجه الترمذي كتاب التفسير باب ومن سورة الفتح .

(٥) روح المعاني ٣٠/٣٢٧.

(٦) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/٢٢٩.

(٧) أخرجه مسلم كتاب التفسير (٣٠٢٤).

أنه نُعيت إليه نفسه فبكيت، ثم قال: (اصبري فإنك أول أهلي لحاقاً بي) فضحكت^(١).

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان عمر رضي الله عنه يُدخلني مع أشياخ بدر رضي الله عنهم، فكأن بعضهم وجد في نفسه، فقال: لِمَ يَحِلُّ هذا معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه ممن قد علمتم. فدعاهم ذات يوم فأدخله معهم، فما رُويتُ أنه دعاني فيهم يومئذ إلا ليريهم. فقال: ما تقولون في قول الله عز وجل: ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾؟ فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا. وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً. فقال لي: أأؤكدك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا. فقال: ما تقول؟ فقلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له، قال: ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ فذلك علامة أجلك ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ فقال عمر بن الخطاب: لا أعلم منها إلا ما تقول^(٢).

قالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ يكثر في آخر أمره من قول: (سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه). وقال: (إن ربي كان أخبرني أبي سأرى علامة في أمي، وأمرني إذا رأيتها أن أسبح بحمده وأستغفره، إنه كان تواباً، فقد رأيتها: ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾) ^(٣).

أما عدد آياتها: (٣) آيات، وكلماتها: (٢٦) كلمة، وحروفها: (٧٤) حرفاً^(٤).

مناسبتها لما قبلها:

"أذن النبي — صلوات الله وسلامه عليه — المشركين في سورة «الكافرون» التي سبقت هذه السورة — آذانهم بكلمة الفصل بينه وبينهم «لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِي دِينِي» .. ووراء هذه الكلمة الحاسمة القاطعة، التي أخذ بها النبي طريقه إلى ربه ومعبوده، واتخذ بها المشركون طريقهم إلى آلهتهم ومعبوداتهم — وراء هذه الكلمة تشخص الأبصار إلى مسيرة كل من النبي والمشركين الذين أخذوا طريقاً غير طريقه، لتتري ماذا ينتهي إليه الطريق بكل منهما .. وتحتفي عن الأبصار طريق أهل الشرك، وتبتلعهم رمال العواصف الهابطة عليهم من صحراء ضلالهم. أما الطريق الذي أخذه النبي صلوات الله وسلامه عليه، فها هو ذا النصر العظيم يلقيه عليه، وها

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة ١٦٧/٧، والدارمي ٥١/١ (٧٩)، وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح (٥٩٦٩)، وأحمد في المسند بنحوه ٣٤٤/١ (٣٢٠١) وقال شعيب الارنؤوط: إسناده حسن. ولفظ (ولا أراه إلا حضر أحلي) عن عائشة رضي الله عنها: أخرجه البخاري كتاب المناقب باب علامات النبوة في الإسلام (٣٦٢٤، ٣٦٢٦)، ومسلم كتاب فضائل الصحابة باب فضائل فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢٤٥٠).

(٢) أخرجه البخاري كتاب التفسير باب قوله تعالى ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ (٤٩٧٠).

(٣) أخرجه مسلم كتاب صلاة المسافر باب ما يقال في الركوع والسجود (٤٨٤).

(٤) التفسير القرآني للقرآن ٩٤/٣.

هو ذا الفتح المبين ترفرف أعلامه بين يديه، وها هو ذا دين الله الذي يدعو إليه ، قد فتحت أبوابه ، ودخل الناس فيه أفواجا"^(١).

ثالثاً: موضوعها :

"والغرض منها:

١ - الوعد بنصر كامل من عند الله - وفيه فتح مكة - والبشارة بدخول خلائق كثيرة في الإسلام بجهاد وفتح وبدون ذلك.

٢ - الإيمان إلى أنه حين يقع ذلك فقد اقترب انتقال رسول الله ﷺ إلى ربه.

٣ - وعد من الله بأنه سيغفر له مغفرة تامة، لا مؤاخذه عليه بعدها في شيء؛ مما يختلج في نفسه الخوف أن يكون منه تقصير"^(٢).

٤ - "وتكشف في الوقت ذاته عن طبيعة هذه العقيدة وحقيقة هذا المنهج، ومدى ما يريد أن يبلغ بالبشرية من الرفعة والكرامة والتجرد والخلوص، هذه القمة السامقة الوضيئة التي لم تبلغها البشرية قط إلا في ظل الإسلام. ولا يمكن أن تبلغها إلا وهي تلي الأمر الإلهي الكريم"^(٣).

رابعاً: المعنى الإجمالي للسورة:

قال تعالى: ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ أي: إذا تم لك - أيها الرسول - النصر على كفار قريش، وتم لك فتح "مكة"، ﴿ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴾ أي: ورأيت الكثير من الناس يدخلون في الإسلام جماعات جماعات، ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ أي: إذا وقع ذلك فتهياً للقاء ربك بالإكثار من التسبيح بحمده والإكثار من استغفاره، إنه كان تواباً على المسبحين والمستغفرين، يتوب عليهم ويرحمهم ويقبل توبتهم"^(٤).

(١) المصدر السابق.

(٢) التحرير والتنوير ٥٨٩/٣٠ باختصار وتصرف .

(٣) في ظلال القرآن ٦/٣٩٩٤ باختصار وتصرف .

(٤) التفسير الميسر ٦٠٣.

المبحث الثاني وقفات مع السورة المطلب الأول النصر والفتح

أولاً: معنى النصر والفتح :

قال تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾

المراد بهذا النصر: نصر الرسول ﷺ على قريش^(١)، بل ونصره على كل من قاتله من الكفار، فإن عاقبة النصر كانت له^(٢). واستعمال الماضي في معنى المضارع لتحقيق وقوعه، ولأن النصر في خيبر كان بادرة لفتح مكة^(٣).

المراد بالفتح هاهنا : "فتح مكة قولاً واحداً"^(٤) عن عمرو بن سلمة رضي الله عنه قال: كنا بماء^(٥) ممر الناس، وكان يمر بنا الركبان فنسألهم: ما للناس؟ ما للناس؟ ما هذا الرجل؟ فيقولون يزعم أن الله أرسله أوحى إليه، أو أوحى الله بكذا. فكنت أحفظ ذلك الكلام وكأنا يقر في صدري. وكانت العرب تلوم بإسلامهم الفتح^(٦)، فيقولون: اتركوه وقومه، فإنه إن ظهر عليهم فهو نبي صادق. فلما كانت وقعة الفتح بادر كل قوم بإسلامهم...^(٧).

ثانياً: النصر من الله وحده :

﴿ نَصْرُ اللَّهِ ﴾ "إنه نصر الله، يجيء به الله؛ في الوقت الذي يقدره، وفي الصورة التي يريدتها، وللغاية التي يرسمها. وليس للنبي ﷺ ولا لأصحابه من أمره شيء، وليس لهم في هذا النصر يد. وليس لأشخاصهم فيه كسب. وليس لذواتهم منه نصيب. وليس لنفوسهم منه حظ! إنما هو أمر الله يحققه بهم أو بدوهم. وحسبهم منه أن يجريه الله على أيديهم، وأن يقيمهم عليه حراساً، ويجعلهم عليه أمناء. هذا هو كل

(١) جامع البيان ٧٠٥/٢٤.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٢٣٠/٢٠.

(٣) التحرير والتنوير ٥٨٨/٣٠.

(٤) تفسير القرآن العظيم ٥١١/٨، وجامع البيان من غير ذكر: قولاً واحداً ٧٠٥/٢٤.

(٥) أي: اسم منزل يتزل فيه الناس يمرون عليه في أسفارهم.

(٦) أي: تنتظر فتح مكة حتى تعلن إسلامها.

(٧) أخرجه البخاري كتاب المغازي باب من شهد الفتح (٤٣٠٢).

حظهم من النصر ومن الفتح ومن دخول الناس في دين الله أفواجاً" (١) كما قال تعالى: ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَيْكَ اللَّهُ رَمِيٌّ وَلِيْلِي الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلََاءٌ حَسَنًا ﴾ [الأنفال ١٧].

"وإضافة النصر إلى ﴿ اللَّهُ ﴾ تشعر بتعظيم هذا النصر، وأنه نصر عزيز خارق للعادة، أوجد الله أسبابه ولم تجر على متعارف تولد الحوادث عن أمثالها" (٢)، كما قال تعالى: ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَنصَرُوا لِلَّهِ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد ٧].

ثالثاً: من علامات النصر أن يدخل الناس في دين الله أفواجاً :

قال تعالى: ﴿ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴾ ﴿

"يجوز أن تكون الرؤية علمية أي وعلمت علم اليقين أن الناس يدخلون في دين الله أفواجاً. ويجوز أن تكون رؤية بصرية بأن رأى أفواج وفود العرب يردون إلى المدينة يدخلون في الإسلام، وذلك سنة تسع وقد رأى النبي ﷺ ببصره ما علم منه دخولهم كلهم في الإسلام. بمن حضر معه الموقف في حجة الوداع فقد كانوا مائة ألف من مختلف قبائل العرب" (٣)، وعلم بمن جاءه من الوفود من تلك القبائل يبايعونه على الإسلام حتى سمي ذلك العام عام الوفود" (٤).

و﴿ دِينَ اللَّهِ ﴾ هو الإسلام لقوله تعالى: ﴿ إِنْ أَدْبِرَ عِنْدَ اللَّهِ إِلَّا سَلْمٌ ﴾ [آل عمران ١٩]. والدخول في الدين: هو "النطق بكلمة الشهادة، والتزام أحكام الدين الناشئة عن تلك الشهادة" (٥).

وقوله تعالى: ﴿ أَفْوَاجًا ﴾ "زُمرّاً، وفوجاً فوجاً" (٦)، والمقصود: جماعات جماعات، بدلاً من أن كانوا قبل ذلك أفراداً أفراداً، وحتى لو دخلت القبيلة كلها في دين الله لكانت أوزاعاً وليس كلها دفعة واحدة لما يرون من معاداة قومه له واستضعاف العرب له، واستنكارهم مخالفته إياهم شركهم. وعامة الناس تُبع للغلبة فلما رأوا نصرته على قومه وفتح الله له دخلوا أفواجاً أفواجاً. وهذا مما ينبغي للداعية مراعاته، بأن يهتم بأفراد الناس وطلاب الحق والعلم ولو كانوا قلة فإذا علم الله صدقه وإخلاصه نشر الخير والصلاح على يديه وتبعه الناس أفواجاً.

(١) في ظلال القرآن ٦/٣٩٩٦.

(٢) التحرير والتنوير ٣٠/٥٩٠.

(٣) التحرير والتنوير ٣٠/٥٩٢.

(٤) انظر السيرة النبوية للصلاحي ٢/٢٤٢.

(٥) التحرير والتنوير ٣٠/٥٩٢.

(٦) جامع البيان ٥/٧٠٥.

المطلب الثاني

الواجب عند النصر وآثره التربوية

قال تعالى: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ ﴿٢﴾

المحور الأول: الواجب عند النصر:

يفسر هذه الآية حال النبي المصطفى والقدوة المحتبى ﷺ حين فتح الله عليه مكة، فقد (دخل رسول الله ﷺ مكة وعليه عمامة سوداء بغير إحرام) ^(١)، (وهو واضع رأسه تواضعاً لله، حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح، حتى إن ذقنه ليكاد يمس واسطة الرحل، ودخل وهو يقرأ سورة الفتح ^(٢)) مستشعراً بنعمة الفتح وغفران الذنوب، وإفاضة النصر العزيز ^(٣)، وعندما دخل مكة فاتحاً -وهي قلب جزيرة العرب ومركزها الروحي والسياسي- رفع كل شعار من شعائر العدل والمساواة، والتواضع والخضوع، فأردف أسامة بن زيد ^(٤) -وهو ابن مولى رسول الله ﷺ- ولم يردف أحداً من أبناء بني هاشم وأبناء أشرف قريش وهم كثير، وكان ذلك صباح يوم الجمعة لعشرين ليلة خلت من رمضان، سنة ثمانٍ من الهجرة ^(٥). والسبب في ذلك " أنهم قالوا: أما إذا ظفر بأهل الحرم، وقد كان الله تعالى أجارهم من أصحاب الفيل -الذين لم يقدر أحد على ردهم- فليس لنا به يدان، فتبين من هذا القياس المنتج هذه النتيجة البديهية بقصة أصحاب الفيل ما رتبته الله إلا إرهاباً لنبوته ﷺ وتأسيساً لدعوته فألقوا بأيديهم وأسلموا قيادهم حاضرهم وباديهم.

ولما كان التقدير: فقد سبح الله تعالى نفسه بالحمد بإبعاد نجس الشرك عن جزيرة العرب بالفعل قال تعالى: ﴿ فَسَبِّحْ ﴾ أي: نزه أنت بقولك وفعلك - بالصلاة وغيرها - موافقة لمولايك لما فعلت تسييحاً ملبساً ﴿ بِحَمْدِ ﴾ أي: بكمال ﴿ رَبِّكَ ﴾ الذي أنجز لك الوعد بإكمال الدين وقمع المعتدين، المحسن إليك بجميع ذلك -لأن كله لكرامتك وإلا فهو عزيز حميد على كل حال- تعجباً لتيسير الله على هذا الفتح ما لم يخطر بالبال، وشكراً لما أنعم به سبحانه عليه من أنه أراه تمام ما أرسل لأجله، ولأن كل حسنة يعملها أتباعه له مثلها.

(١) أخرجه مسلم كتاب الحج باب جواز دخول مكة بغير إحرام (١٣٥٨).

(٢) أخرجه البخاري كتاب المغازي باب أين ركز النبي ﷺ الراية (٤٠٣١).

(٣) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة ص ٣٩٦.

(٤) أخرجه البخاري كتاب المغازي باب دخول النبي صلى الله عليه وسلم من أعلى مكة رقم (٤٠٣٨).

(٥) انظر: فتح الباري ٤/٨ فقد ذكر الروايات والجمع بينها والترجيح، والسيرة النبوية لأبي الحسن الندوي ص ٣٣٧.

ولما أمره ﷺ بتزيهه عن كل نقص ووصفه بكل كمال مضافا الى الرب؛ أمره بما يفهم منه العجز عن الوفاء بحقه لما له من العظمة -المشار إليها بذكره مرتين بالاسم الأعظم، الذي له من الدلالة على العظم والعلو الى محل الغيب الذي لا مطمع في دركه مما تنقطع الأعناق دونه- فقال: ﴿وَأَسْتَغْفِرُهُ﴾ أي: اطلب غفرانه -إنه كان غفارا- إيدانا بأنه لا يقدر أحد أن يقدره حق قدره لتقتدي بك أمتك في المواظبة على الأمان الثاني لهم، فإن الأمان الأول الذي هو وجودك بين أظهرهم قد دنا رجوعه الى معدنه في الرفيق الأعلى والمحل الأقدس، وكذا فعل ﷺ يوم دخل مكة مطأطئا رأسه حتى إنه ليكاد يمس واسطة الرحل ؛ تواضعا لله تعالى، وإعلاما لأصحابه أن ما وقع إنما هو بحول الله تعالى" (١).

فالواجب عند حصول النصر والظفر أمران :

أولاً: ذكر الله تعالى:

﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ أي: فسبح ربك وعظمه بحمده وشكره، على ما أنجز لك من وعده . فإنك حينئذ لاحق به، وذائق ما ذاق من قبلك من رُسله من الموت (٢).
 "فترهه تعالى بكل ذكر يدل على التزيه، حامداً له جل وعلا زيادة في عبادته والثناء عليه سبحانه، لزيادة إنعامه سبحانه عليك.

فالتسبيح التزيه المقتضي التلطف بكلمة سبحان الله.

وتحميده وهو: إثبات ما يليق به تعالى من المحامد له، لعظم ما أنعم سبحانه به عليه، وأن توقيت الأمور من عنده ليس إلا لحكمة لا يعرفها إلا هو عز وجل" (٣).

ثانياً: الاستغفار :

قال تعالى: ﴿ وَأَسْتَغْفِرُهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً ﴾

وفي أمره بهذا الاستغفار بعد النصر فوائد منها: " ليكون ذلك منه شكراً لله تعالى على نعمه، لأن تجديد النعم يوجب تجديد الشكر، وأنه نعي إليه نفسه، فطلب منه أن يجد في عمله" (٤).
 وكذلك "في الاستغفار توجهاً بالذات لحال العبد وتقصيراته، ويجوز أن يكون طلب الاستغفار بعدهما لما في مشروعية تعقيب العبادة بالاستغفار. وفي تقديمها- النصر والفتح- على الدعاء تعليم أدب الدعاء، وهو: أن لا يسأل فجأة من غير تقديم الثناء على المسؤول منه سبحانه وتعالى" (١).

(١) سبل الهدى والرشاد للصالحي ٢٥٥/٦.

(٢) جامع البيان ٧٠٧/٢٤.

(٣) روح المعاني ٣٢٩/٣٠ بتصرف.

(٤) النكت والعيون ٣٦١/٦.

والاستغفار ينفي الزهو الذي قد يساور القلب أو يتدسس إليه من سكرة النصر بعد طول الكفاح، وفرحة الظفر بعد طول العناء. وهو مدخل يصعب توقُّفه في القلب البشري. فمن هنا عَلَّمنا الاستغفار. والاستغفار مما قد يكون ساور القلب أو تدسس إليه في فترة الكفاح الطويل والعناء القاسي، والشدة الطاغية والكره الغامر، من ضيق بالشدة، واستبطاء لوعده الله بالنصر، وزلزلة كالتي قال الله عنها: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة ٢١٤] فمن هذا يكون الاستغفار.

والاستغفار من التقصير في حمد الله وشكره، فجهد الإنسان - مهما كان - ضعيف محدود، وآلاء الله دائمة الفيض والهملان . . ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا ۗ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم ٣٤] فمن هذا التقصير يكون الاستغفار . . "(٢).

"فالذي فسر به بعض الصحابة من جلساء عمر رضي الله عنهم أجمعين؛ من أنه: قد أمرنا إذا فتح الله علينا المدائن والحصون أن نحمد الله ونشكره ونسبحه، يعني نصلي ونستغفره - معنى مليح صحيح، وقد ثبت له شاهد من صلاة النبي ﷺ يوم فتح مكة وقت الضحى ثماني ركعات، فيستحب لأمر الجيوش إذا فتح بلدًا أن يصلي فيه أول ما يدخله ثماني ركعات، وهكذا فعل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يوم فتح المدائن" (٣).

وقد لبي رسول الله ﷺ أمر ربه فعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يكثُر في آخر أمره من قول: (سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه) فقلت: يا رسول الله أراك تكثُر من قول (سبحان الله وبحمده، أستغفر الله وأتوب إليه)؟ فقلت: (إن ربي كان أخبرني أني سأرى علامة في أمي، وأمرني إذا رأيتها أن أسبح بحمده وأستغفره، إنه كان تواباً، فقد رأيتها): ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۖ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ۗ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ (٤) وكان يقول ﷺ: (والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة) وفي رواية مسلم (وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة) (٥).

(١) روح المعاني ٣٠/٣٣١ .

(٢) في ظلال القرآن ٦/٣٩٩٦ .

(٣) تفسير القرآن العظيم ٨/٥١١ .

(٤) تقدم تخريجه .

(٥) أخرجه البخاري كتاب الدعوات باب استغفار النبي ﷺ في اليوم والليلة (٦٣٠٧)، ومسلم كتاب الذكر والدعاء والتوبة

والاستغفار باب استحباب الاستغفار (٢٧٠٢).

المحور الثاني: قبول الله توبة عباده:

قال تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ "أي على المسبحين والمستغفرين، يتوب عليهم ويرحمهم، ويقبل توبتهم"^(١). "وتوَّاب من صيغ المبالغة، ففيه دلالة على أنه سبحانه مبالغ في قبول توبة التائبين"^(٢) "فقد اشتملت الجملة على أربع مؤكدات، هي: إنَّ وكان، وصيغة المبالغة في التواب، وتنوين التعظيم فيه"^(٣). "وفي اختيار ﴿إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ على غفراً مع أنه الذي يستدعيه قوله ﴿وَأَسْتَغْفِرُهُ﴾ تنبيه على أن الاستغفار إنما ينفع إذا كان مع التوبة والندم والعزم على عدم العود"^(٤).

فإنَّه تعالى يحب التوابين، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ تَحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ [البقرة ٢٢٢]، وهو سبحانه يقبل توبتهم قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الشورى ٢٥]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [التوبة ١٠٤]، قال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه ٨٢].

المحور الثالث: العناية بإصلاح القلب :

وذلك بإبعاد القلب عن كل عجب يساوره أو غرور ينتابه، ألا ترى أنه صلى الله عليه وسلم بعد هذا الجهاد العظيم والنصر المبين يؤمر بالذكر والاستغفار. إنه سجل مليء بالطاعة والعبادة، فعلى ماذا يكون الاستغفار؟! إن هذا الاستغفار حتى يذكر القلب لخالقه، ويرد الفضل لصاحبه، فلا يحس القلب بالعجب، وبهذا يسلم العمل ويحصل الفوز والنجاح. بل ويستمر العمل والعطاء، فلا يتوقف لأنه اكتفى بالإنجاز السابق، بل يرى من ثمرة إنجازه السابق إحياته لمولاه، وتتبع ما يرضاه، وشكره على ما أولاه. وفي واقعنا المرُّ نجد أن نهاية الأعمال الناجحة المثمرة المديح والرفعة وادعاء الفضل وتعداد الجهود والأسباب المبذولة، ونحو ذلك مما يفسد قلب صاحبه، ويحبط العمل ويضيع بركته وأجره.

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/٢٣٣.

(٢) فتح القدير ٥/٥١٦.

(٣) التحرير والتنوير ٣٠/٥٩٦.

(٤) تفسير حقي ١٧/٤٦٠.

تفسير سورة المسد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ، وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ ﴾
وَأُمَّرَاتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥﴾

المبحث الأول

مقدمات حول السورة

أولاً: أسمائها :

- ١ - سميت هذه السورة في أكثر المصاحف وفي جامع الترمذي وأكثر كتب التفسير (سورة تبت) ^(١) تسمية لها بأول كلمة فيها.
- ٢ - وسميت في بعض المصاحف وفي بعض التفاسير (سورة المسد) ^(٢) لوروده فيها.
- ٣ - وسميها جمع من المفسرين (سورة أبي لهب) على تقدير: سورة ذكر أبي لهب ^(٣).
- ٤ - وعنوانها أبو حيان (سورة اللهب) ولم أره لغيره ^(٤).

ثانياً: نزولها ومناسبتها:

قال القرطبي: هي مكية بإجماع ^(٥).

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: صعد النبي ﷺ الصفا ذات يوم، فقال: (يا صباحاه). فاجتمعت إليه قريش، فقالوا: ما لك؟ فقال: (أرأيتم لو أخبرتكم أن العدو يُصَّبِّحكم أو يُمَسِّيكم، أما كنتم تصدقوني؟) قالوا: بلى. قال: (فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد). فقال أبو لهب: تباً لك! ألهذا جمعتنا؟ فأنزل الله: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ ﴾ ^(٦).

أما عدد آياتها: (٥) آيات، وكلماها: (٢٣) كلمة، وحروفها: (٧٧) حرفاً ^(٧).

(١) جامع البيان ٦٧٣/٢٤ ، تفسير القرآن العظيم ٥١٤/٨ ، الجامع لأحكام القرآن ٢٣٤/٢٠ وغيرهم.

(٢) معالم التنزيل ٥٧٨/٨ ، ابن أبي حاتم ٤٦٣/١٢ ، الدر ٦٦٥/١٥ ، والتحرير والتنوير ٥٩٩/٣٠.

(٣) النسفي ٣٦١/٤.

(٤) البحر المحيط ٥٢٤/٨.

(٥) الجامع لأحكام القرآن ٢٣٤/٢٠ ، وانظر التحرير والتنوير ٥٩٩/٣٠.

(٦) أخرجه البخاري كتاب التفسير باب قوله تعالى: ﴿ وَتَبَّ ۝١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ ﴾ (٤٩٧٢). ومسلم كتاب الإيمان باب ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ (٢٠٨) بزيادة ، وانظر جامع البيان ٧١٥/٢٤.

(٧) التفسير القرآني للقرآن ٩٥/٣.

مناسبتها لما قبلها:

"كانت سورة « النصر » مددا من أمداد السماء ، تحمل بين يديها هذه البشريات المسعدة للنبيّ وللمؤمنين ، وتربهم رأى العين عزّة الإسلام ، وغلبته ، وتخلع عليهم حلال النصر ، وتعقد على جبينهم إكليل الفوز والظفر.

وتحت سنابك خيل الإسلام المعقود بنواصيها النصر ، والتي هي على وعد من الله به — حطام هذا الطاغية العنيد الذي يمثّل ضلال المشركين كلّهم ، ويجمع في كيانه وحده ، سفههم ، وعنادهم ، وما كادوا به للنبيّ والمؤمنين .. إنه أبو لهب .. وامرأته حمالة الحطب"^(١).

ثالثاً: موضوعها :

١ تجرّ أبي لهب وزوجته على إساءتهما للنبي ﷺ ووعيده على ذلك، وإشارة إلى الوعيد لكل من تسول له نفسه النيل من رسولنا محمد ﷺ وشرعه.

٢ هذه السورة تبين عناية الله بعباده الصالحين- وعلى رأسهم الرسول ﷺ ، في الدنيا والآخرة.

٣ فيها بيان مصير الذي يعارض الدعوة ويؤذي الرسول ﷺ أو دعوته إلى الله عز وجل.

٤ -تضمنت أنّ الله تعالى يتولى الدفاع والرد على المسيئين والمستهزئين بالرسول صلى الله عليه وسلم أو شريعته.

٥ -فيها بيان الذم العظيم، والحزني العظيم يوم القيامة للمكذبين والمستهزئين، كما وعد الله تعالى نبيه بذلك في بداية الأمر بالتبليغ، قال تعالى: ﴿ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ۗ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولَىٰ النَّعْمَةِ وَمَهَلْهُمُ قَلِيلًا ۗ إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَحَجِيمًا ۗ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ۗ ﴾

[المزمل ١٠-١٣].

رابعاً: المعنى الإجمالي للسورة:

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۗ ﴾ أي: خسرت يدا أبي لهب وشقي بإيدائه رسول الله محمدا صلى الله

عليه وسلم، وقد تحقق خسران أبي لهب. ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۗ ﴾ أي: ما أغنى عنه ماله وولده، فلن يرُدّا عنه شيئاً من عذاب الله إذا نزل به.

﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۗ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۗ ﴾ أي: سيدخل ناراً متأججة، هو

وامرأته التي كانت تحمل الشوك، فتطرحه في طريق النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأذيتته.

﴿ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۗ ﴾ أي: في عنقها حبل محكم القتل من ليف شديد خشن، تُرْفَعُ به

في نار جهنم، ثم تُرمى إلى أسفلها^(٢).

(١) المصدر السابق.

(٢) التفسير الميسر ٦٠٣.

المبحث الثاني وقفات مع الآيات المطلب الأول

دعاء القرآن على المؤذنين للرسول ﷺ

قال تعالى: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَهُوَ دَعَا عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ ^(١) ، " وخص اليدين بالتاب؛ لأن العمل أكثر ما يكون بهما، أي خسرتا وخسر هو. وقد يعبر عن النفس باليد، كما قال الله تعالى: ﴿ ذَلِكُمْ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ ﴾ [الحج: ١٠] أي نفسك ^(٢).

" وافتتاح السورة بالتاب مشعر بأنها نزلت للتوبيخ والوعيد فذلك براعة استهلال مثل ما تفتتح أشعار الهجاء بما يؤذن بالذم والشتم ^(٣).

﴿ أَبِي لَهَبٍ ﴾ " هذا هو أحد أعمام رسول الله ﷺ واسمه: عبد العزى بن عبد المطلب، وكنيته أبو عتبة، وكان كثير الأذية لرسول الله ﷺ والبغض له، والازدراء به، والتنقص له ولدينه ^(٤).

وإنما سُمِّيَ لَبِي لَهَبٍ لإشراق وجهه وحسنه ^(٥)، " وكناه الله في السورة بأبي لهب " المعانٍ منها:

١- أن اسمه عبد العزى، والعزى: صنم، ولم يضيف الله في كتابه العبودية إلى صنم.

٢- وأنه كان بكنيته أشهر فصرح بها.

٣- وأن الاسم أشرف من الكنية، فحطه الله عز وجل عن الأشرف إلى الأنقص. ولذلك دعا الله تعالى الأنبياء بأسمائهم، ولم يُكَنَّ عن أحد منهم.

٤- وأن الله تعالى أراد أن يحقق نسبته، بأن يدخله النار، فيكون أباً لها، تحقيقاً للنسب، وإمضاء للفأل والطيرة التي اختارها لنفسه ^(٦)، " لأن الأب يطلق على ملازم ما أضيف إليه كما كنى رسول الله ﷺ عبدالرحمن بن صخر بأبي هريرة لأنه حمل هرة في كم قميصه، فكانت كنية أبي لهب صالحة موافقة لحاله من استحقاق لهب جهنم كناية عن كونه جهنمياً ^(٧).

(١) جامع البيان ٧١٤/٢٤.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٢٣٥/٢٠.

(٣) التحرير والتنوير ٦٠٠/٣٠.

(٤) تفسير القرآن العظيم ٥١٤/٨.

(٥) الدر المنثور ٧٣٤/١٥، تفسير القرآن العظيم ٥١٤/٨.

(٦) الجامع لأحكام القرآن ٢٣٦/٢٠-٢٣٧ بتصرف واختصار.

(٧) التحرير والتنوير ٦٠٢/٣٠ مختصراً.

عن عبدالرحمن بن أبي الزناد عن أبيه رحمهما الله قال: أخبرني رجل -يقال له: ربيعة بن عباد رضي الله عنه، قال: رأيت النبي ﷺ في الجاهلية في سوق ذي الحجاز وهو يقول: (يا أيها الناس، قولوا لا إله إلا الله تفلحوا) والناس مجتمعون عليه، ووراءه رجل وضيء الوجه أحول ذو غديرتين، يقول: إنه صابئ كاذب. يتبعه حيث ذهب، فسألت عنه فقالوا: هذا عمه أبو لهب^(١).

وعن ربيعة بن عباد رضي الله عنه قال: "إني لمع أبي - رجل شاب - أنظر إلى رسول الله ﷺ يتبع القبائل ووراءه رجل أحول وضيء، ذو جمّة - يقف رسول الله ﷺ على القبيلة فيقول: (يا بني فلان، إني رسول الله إليكم، أمركم أن تعبدوا الله لا تشركوا به شيئاً، وأن تصدقوني وتمنعوني حتى أنفذ عن الله ما بعثني به). وإذا فرغ من مقالته قال الآخر من خلفه: يا بني فلان، هذا يريد منكم أن تسلخوا اللات والعزى، وحلفاءكم من الجن من بني مالك بن أقيش، إلى ما جاء به من البدعة والضلالة، فلا تسمعوا له ولا تتبعوه. فقلت لأبي: من هذا؟ قال: عمه أبو لهب"^(٢).

﴿ وَتَبَّ ﴾ "تحقق خسارته وهلاكه"^(٣)، "فلتّب الأول دعاء، والثاني خبر، كما يقال: أهلّكه الله وقد هلك"^(٤).

(١) أخرجه أحمد ٣/٣٩٢ (١٦٠٦٤) قال شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن، والبيهقي في الدلائل ١٨٦/٢، والطبراني في التاريخ

٣٤٨/٢، والحاكم في المستدرک ١٥/١، والطبراني في الكبير ٥/٥٨.

(٢) أخرجه ابن هبة الله في تاريخ دمشق ٦٧/١٦٦-١٦٧ السيرة النبوية لابن هشام ١/٤٢٣.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٨/٥١٥.

(٤) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/٢٣٦.

المطلب الثاني

المستهزئين بالرسول ومن يعاونهم وجزائهم

أولاً: لن ينفع المستهزئين بالرسول ودعوته أموالهم ولا كسبهم:

كثيراً ما يفكر الناس بأن المال يمكن أن يدفع عنهم الكثير من الشرور ، ولذا قال الله تعالى: ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴾ والكسب هنا الولد^(١). أي: "ما دفع عنه عذاب الله ما جمع من المال، ولا ما كسب من جاه وولد"^(٢). فعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ لما دعا قومه إلى الإيمان قال أبو لهب: إذا كان ما يقول ابن أخي حقاً، فإني أفندي نفسي يوم القيامة من العذاب بمالي وولدي، فأنزله الله: ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴾^(٣).

إن "ماله الذي عنده والذي كسب بعمله لن يُعني عنه شيئاً من عذاب الجبار ولو كان كثيراً نعم قد ينفع المال ويغني مع أهل الدنيا بالرشاوى وغيرها لضعف أهل الدنيا وعدم إحاطتهم بكل ما يدور حولهم ولعجزهم أحياناً ولأسباب أخرى، أما مع الله العليم البصير القوي القاهر القادر فلا ينفع إلا ما ارتضاه - سبحانه - وهو العمل الصالح"^(٤) ، وكذلك لا ينفع الشكل الحسن والمظهر البراق كما كان حال أبي لهب لعنه الله.

ثانياً: مصير المستهزئين المحاربين لرسول الله صلى الله عليه وسلم والصالحين من عباد الله:

﴿ سَيَصَلَّىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ أي: "يشوى بها ويحسُّ بإحراقها"^(٥).

﴿ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ أي: ذات شرر ولهب وإحراق شديد"^(٦)، "وذكرَ اللهب: تصويراً وتشخيصاً للنار وإيحاءً بتوقدها وتلهبها"^(٧).

ثالثاً: جزاء من أعان الذين يؤذون الرسول ﷺ والذين آمنوا:

﴿ وَأُمَّرَاتُهُ ﴾ "وزوجته من سادات نساء قريش، وهي: أم جميل، واسمها: أروى بنتُ حرب بن أمية،

وأخت أبي سفيان. وكانت عوناً لزوجها على كفره وجحوده وعناده؛ فلهذا تكون يوم القيامة عوناً

(١) الدر المنثور ١٥/٧٣٤.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/٢٣٨ مختصراً.

(٣) ذكره ابن كثير في التفسير ٨/٥١٥.

(٤) انظر: المحرر الوجيز ١٥/٥٩٦.

(٥) التحرير والتنوير ٣٠/٦٠٤-٦٠٥.

(٦) تفسير القرآن العظيم ٨/٥١٥.

(٧) في ظلال القرآن ٦/٤٠٠.

عليه في عذابه في نار جهنم" (١).

﴿ حَمَالَةَ الْحَطَبِ ﴾ كانت تجيء بالشوك فتطرحه في طريق رسول الله ﷺ (٢)، أذى ونكالا له

ولأصحابه رضي الله عنهم.

﴿ فِي جِيدِهَا ﴾ أي: عَنْقِهَا ﴿ حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ أي: من ليف، عن سعيد بن المسيب قال: كانت

لها قلادة فاخرة من جوهر، فقالت: واللات والعزى لأُنْفِقَنَّهَا في عداوة محمد. ويكون ذلك عذابا في جيدها يوم القيامة (٣).

"إن هذه المرأة الشقية التي كانت تتعاون مع زوجها على أذية الرسول ﷺ بطرق عديدة وتسعى في الصد عن دعوته بقدر ما تستطيع لإعاقة الدعوة الإسلامية فجمعت على ظهرها الأوزار، فأصبحت بمنزلة من يجمع الحطب، ولذا فهي تجمع الحطب في النار لتضعه على زوجها، متقلدة حبل من مسد (٤).

رابعا: الجزء من جنس العمل:

"فلما حصل لأبي لهب وعيدٌ موافق لكنيته، جعل لامرأته وعيدٌ موافق لفظه فعلها- وهو حمل الحطب في الدنيا- فأنذرت بأنها تحمل الحطب في جهنم ليقود به على زوجها، وذلك خزي لها ولزوجها؛ إذ جعل شدة عذابه على يد أحب الناس إليه، وجعلها سببا لعذاب أعز الناس عليها" (٥) ومن أطاعته في الصد عن دين الله عز وجل وأذية الدعاة إليه .

خامسا: معجزة ظاهرة على النبوة وصدق الرسالة:

"وفي هذه السورة معجزة ظاهرة ودليل واضح على النبوة، فإنه منذ نزل قوله تعالى : ﴿ سَيَصْلَىٰ

نَارًا ذَاتَ هَبٍ ﴿٤﴾ وَأَمْرَاتُهُ حَمَالَةَ الْحَطَبِ ﴿٥﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٦﴾ فأخبر عنهما بالشقاء

وعدم الإيمان، لم يقيض لهما أن يؤمنا، ولا واحد منهما لا ظاهراً ولا باطناً، لا مسراً ولا معلناً، فكان هذا من أقوى الأدلة الباهرة على النبوة الظاهرة" (٦).

(١) تفسير القرآن العظيم ٥١٥/٨.

(٢) جامع البيان ٧١٩/٢٤ ورجحه، الدر المنثور ٧٣٨/١٥.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٢٤٢/٢٠.

(٤) معالم التنزيل ٥٨٣/٨، وتفسير القرآن العظيم ٥١٥/٨، والبيضاوي ٥٤٥، وتيسير الكريم الرحمن ٩٣٦.

(٥) التحرير والتنوير ٦٠٥/٣٠.

(٦) تفسير القرآن العظيم ٥١٧/٨.

المطلب الثالث

قصة هلاك أبي لهب

ذكر ابن إسحاق بسنده: قال أبو رافع -رضي الله عنه - مولى رسول الله ﷺ: كنت غلاماً للعباس بن عبدالمطلب رضي الله عنه ، وكان الإسلام قد دخلنا أهل البيت، فأسلم العباس وأسلمت أم الفضل رضي الله عنها ، وكان العباس يهاب قومه ويكره خلافهم وكان يكتنم إسلامه، وكان ذا مال كثير متفرق في قومه. وكان أبو لهب قد تخلف عن بدر فبعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة-وكذلك كانوا صنعوا- لم يتخلف منهم رجل إلا بعث مكانه رجلاً.

فلما جاءه الخبر عن مصاب أصحاب بدر من قريش كبتة الله وأخزاه، ووجدنا في أنفسنا قوةً وعزاً، قال: وكنت رجلاً ضعيفاً، وكنت أعمل الأقداح أنحتها في حجرة زمزم، فوالله إني لجالس فيها أنحت أقداحي وعندني أم الفضل جالسة؛ وقد سرنا ما جاءنا من الخبر. إذ أقبل أبو لهب يجر رجله بشر حتى جلس على طنب الحجر فكان ظهره إلى ظهري، فبينما هو جالس إذ قال الناس: هذا أبو سفيان قد قدم. قال: فقال أبو لهب: هلم إلي فعندك لعمرى الخبر، قال: فجلس إليه والناس قيام عليه فقال: يا ابن أخي أخبرني كيف كان أمر الناس؟ قال: والله ما هو إلا أن لقينا القوم فمنحناهم أكتافنا يقتلوننا كيف شاءوا، ويأسروننا كيف شاءوا، وأيم الله مع ذلك ما لمت الناس، لقينا رجلاً بيضاً على خيل بلق بين السماء والأرض، والله ما تليق شيئاً-أي ماتبقي- ولا يقوم لها شيء.

قال أبو رافع: فرفعت طنب الحجر بيدي ثم قلت: تلك والله الملائكة! قال: فرفع أبو لهب يده فضرب وجهي ضربة شديدة. قال: وثاورته فاحتملني وضرب بي الأرض ثم برك على يضربي، وكنت رجلاً ضعيفاً، فقامت أم الفضل إلى عمود من عمد الحجر فأخذته فضربته به ضربة فبلغت في رأسه شجة منكراً، وقالت: استضعفته أن غاب عنه سيده؟! فقام موليا ذليلاً، فوالله ما عاش إلا سبع ليال حتى رماه الله بالعدسة-قرحة قاتلة كالطاعون- فقتلته.

وزاد يونس عن ابن إسحاق: فلقد تركه ابنه بعد موته ثلاثاً ما دفناه حتى أنتن. حتى قال لهم رجل من قريش: ويحكما ألا تستحيان أن أباكما قد أنتن في بيته لا تدفناه؟ فقالا: إنا نخشى عدوة هذه القرحة. فقال: انطلقا فأنأ عينكما عليه.

فوالله ما غسلوه إلا قذفا بالماء عليه من بعيد ما يدنون منه، ثم احتملوه إلى أعلى مكة فأسندوه إلى جدار ثم رضموا عليه بالحجارة^(١).

وهنا يظهر شيء من معنى قوله تعالى: ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۖ ﴾ والله تعالى أعلم.

(١) أخرج الحاكم في المستدرک ٣/٣٦٥ (٥٤٠٦) بعضه، وانظر: السيرة النبوية لابن هشام ١/٦٤٥، والسيرة النبوية لابن كثير ٢/٤٧٩، والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن ٢٠/٢٤٣.

تفسير سورة الإخلاص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾

المبحث الأول

مقدمات حول السورة

أولاً: تسميتها:

سُمِّيَتْ:

١ - سورة قل هو الله أحد.

٢ - وسورة الله الواحد الصمد.

٣ - وسورة التوحيد لأنها تشمل على إثبات أنه تعالى واحد.

٤ - وسورة الأساس لاشتمالها على أصول الدين توحيد الله وهو أساس الإسلام،... وغيرها من الأسماء.

٥ - واشتهر اسم سورة الإخلاص لاختصاره وجمعه معاني هذه السورة لأن فيها تعليم الناس إخلاص العبادة لله تعالى^(١).

وذكر: أن سورة الكافرون والإخلاص تسميان المشقشقتين أي المبرئتين من الشرك ومن النفاق^(٢).

ثانياً: سبب نزولها ومناسبتها:

هي مكية في قول الجمهور^(٣)، فعن أبي بن كعب رضي الله عنه: أن المشركين قالوا للنبي ﷺ: يا محمد،

انسب لنا ربك. فأنزل الله: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ

يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾ فالصمد الذي لم يلد ولم يولد لأنه ليس شيء يولد إلا سيموت ولا شيء

يموت إلا سيورث وإن الله عز وجل لا يموت ولا يورث ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ قال: لم يكن له

شبيه ولا عدل وليس كمثلته شيء^(٤).

(١) التحرير والتنوير ٦٠٩/٣٠-٦١٠، وذكر الفخر الرازي أسماء أخرى تصل إلى عشرين اسماً ولم يذكر أسانيداً. انظر: التفسير الكبير ١٧٥/٣٢-١٧٦.

(٢) الكشاف ٤/٢٣٨.

(٣) نقل أنها مدنية عن غير واحد من السلف، انظر التحرير والتنوير ٦١١/٢.

(٤) أخرجه أحمد ١٣٣/٥ (٢١٢٥٧)، والترمذي كتاب تفسير القرآن باب ومن سورة الإخلاص (٣٣٦٤)، والطبري ٧٢٨/٢٤، والواحدي في أسباب النزول (٣٤٦)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي من غير قوله: والصمد الذي... (٢٦٨٠).

وعن جابر رضي الله عنه : أن أعرابياً جاء إلى النبي ﷺ، فقال: انسب لنا ربك؟! فأنزل الله عز وجل : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ إلى آخرها^(١). فالجهل بالله هو سبب نزول هذه السورة. أما عدد آياتها: (٤) آيات، وكلماتها: (١١) كلمة، وحروفها: (٤٧) حرفاً^(٢).
مناسبتها لما قبلها:

" كانت عداوة أبي لهب وزوجه للنبيّ ، ممثلة في عداوتهما لدعوة التوحيد التي كانت عنوان رسالة النبيّ ، صلوات الله وسلامه عليه ، وكلمته الأولى إلى قومه ..
وقد ساقّت هذه الكلمة أبا لهب وزوجه، ومن تبعهما في جحود هذه الكلمة، والتنكر لها ؛ ساقّتهم إلى هذا البلاء الذي لقياه في الدنيا ، وإلى هذا العذاب الأليم في جهنم المرصودة لهما في الآخرة.
وسورة « الإخلاص » وما تحمل من إقرار بإخلاص وحدانية الله من كل شرك — هي مركب النجاة لمن أراد أن ينجو بنفسه من هذا البلاء ، وأن يخرج من تلك السفينة العارقة التي ركبها أبو لهب وزوجه ، ومن اتخذ سبيله معهما من مشركي قريش ومشركاتها .. وها هو ذا النبي الكريم ، يؤذّن في القوم ، بسورة الإخلاص ، ومركب الخلاص"^(٣).

ثالثاً : موضوعها :

- ١ إثبات وحدانية الله تعالى.
 - ٢ وأنه لا يقصد في الحوائج غيره.
 - ٣ وتزويجه عن سمات المخلوقات وإبطال أن يكون له ابن.
 - ٤ وإبطال أن يكون له مثل أو شبيه^(٤).
- فهي مشتملة على توحيد الأسماء والصفات^(٥) وتوحيد الإلهية والربوبية.

رابعاً : فضلها:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: بعث النبي ﷺ رجلاً على سرية، وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم، فيختم بـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ، فقال: (سلوه: لأي شيء يصنع

(١) أخرجه الترمذي كتاب تفسير القرآن باب سورة الإخلاص (٢٦٨٠)، والطبري في جامع البيان ٧٢٩/٢٤، والواحدي في أسباب النزول (٣٤٦)، والطبراني في الأوسط ٥٦/٦ (٥٦٨٧) وعزاه في الدر المنثور ٧٤١/١ إلى ابن المنذر.

(٢) التفسير القرآني للقرآن ٩٦/٣.

(٣) المصدر السابق.

(٤) التحرير والتنوير ٦١٢/٢٤ بتصرف.

(٥) تيسير الكريم الرحمن ٩٣٧ وتيسير اللطيف المنان ص ٢٧.

ذلك؟). فسألوه، فقال: لأنها صفة الرحمن، وأنا أحب أن أقرأ بها. فقال النبي ﷺ: (أخبروه أن الله تعالى يحبه)^(١).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان رجل من الأنصار يؤمهم في مسجد قباء، فكان كلما افتتح سورة يقرأ بها لهم في الصلاة مما يقرأ به افتتح بـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ حتى يفرغ منها، ثم يقرأ سورة أخرى معها... فقال ﷺ: (يا فلان ما حملك على لزوم هذه السورة في كل ركعة؟! قال: إني أحبها. فقال ﷺ: (حُبك إياها أدخلك الجنة)^(٢).

وعن سهل بن معاذ بن أنس الجهني رحمه الله، عن أبيه رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: (من قرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ حتى يختمها، عشر مرات، بنى الله له قصرًا في الجنة). فقال عمر: إذن نستكثر يا رسول الله. فقال ﷺ: (الله أكثر)^(٣).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: (أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة؟!)، فشق ذلك عليهم وقالوا: أينما يطيق ذلك يا رسول الله؟ فقال: (الله الواحد الصمد ثلث القرآن)^(٤).

خامساً: معنى أنها تعدل ثلث القرآن:

ومعنى أنها تعدل ثلث القرآن أي:

- "في ثواب القراءة فهي تعدل ثلث القرآن إذا قرئ بدونها حتى لو كررها القارئ ثلاث مرات كان له ثواب من قرأ القرآن كله، وقيل: لا يكون تكريرها ثلاث مرات بمثلة قراءة ختمة كاملة
- وإنما تعدل ثلث القرآن إذا قرأها من لا يحسن غيرها من سور القرآن.
- وإنما تعدل ثلث معاني القرآن باعتبار أجناس المعاني لأن معاني القرآن أحكام وأخبار وتوحيد وقد انفردت هذه السورة بجمعها أصول العقيدة الإسلامية"^(٥).
- "وهذه السورة لها فضل عظيم. فهي تعدل ثلث القرآن لكن لا تقوم مقام ثلث القرآن. بدليل أن الإنسان لو كررها في الصلاة الفريضة ثلاث مرات لم تكفه عن الفاتحة، مع أنه إذا قرأها ثلاث مرات فكأنما قرأ القرآن كله، لكنها لا تجزئ عنه، ولا تستغرب أن يكون الشيء معادلاً للشيء ولا يجزئ عنه. فهذا هو النبي عليه الصلاة والسلام أخبر أن من قال: (لا إله إلا الله وحده لا

(١) أخرجه البخاري كتاب التوحيد باب ما جاء إلى دعاء النبي ﷺ إلى توحيد الله تبارك وتعالى (٧٣٧٥) ومسلم كتاب صلاة المسافرين باب فضل قراءة قل هو الله أحد (٨١٣).

(٢) أخرجه البخاري كتاب الأذان باب الجمع بين السورتين في الركعة.. (٧٧٤)، وقد أوردت الشاهد فقط من القصة.

(٣) أخرجه أحمد ١٨/٣ (١١١٤٩)، قال: شعيب الأرنؤوط: إسناده جيد.

(٤) أخرجه البخاري كتاب فضائل القرآن باب فضل قل هو الله أحد (٥٠١٥).

(٥) التحرير والتنوير ٦٢١/٢٤.

شريك له. له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، فكأنما أعتق أربعة أنفس من بني إسماعيل، أو من ولد إسماعيل)، ومع ذلك لو كان عليه رقبة كفارة، وقال هذا الذكر، لم يكفه عن الكفارة. فلا يلزم من معادلة الشيء للشيء أن يكون قائماً مقامه في الإجزاء"^(١)، "ولا تقوم مقام آيات المواثيق والطلاق والخلع والعدد ونحوها، بل هذه الآيات في وقتها، وعند الحاجة إليها أنفع من تلاوة سورة الإخلاص"^(٢).

سادساً: مواضع قراءتها:

ورد في السنة النبوية مواضع تُقرأ فيها سورة الكافرون وأشهرها:

١- ركعتا الطواف: عن جابر رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قرأ سورة ﴿قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾، و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ في ركعتي الطواف^(٣).

٢- ركعتا الفجر: فعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قرأ بهما في ركعتي الفجر^(٤).

٣- الركعتان بعد المغرب: عن ابن عمر رضي الله عنهما : أن رسول الله ﷺ قرأ في الركعتين قبل الفجر والركعتين بعد المغرب، بضعا وعشرين مرة - أو: بضع عشرة مرة ﴿قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾^(٥).

٤- عند النوم: فعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه، ثم نفث فيهما فقرأ فيهما : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه ووجهه، وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات^(٦).

٥- في أذكار الصباح والمساء: فعن معاذ بن عبد الله بن حبيب، عن أبيه رضي الله عنه قال: أصابنا طش وظلمة، فانتظرنا رسول الله ﷺ يصلي بنا، فخرج فأخذ بيدي،

(١) تفسير جزء عم للعثيمين ٣٥١.

(٢) تفسير ابن كثير ٤٣٣/٦.

(٣) أخرجه مسلم كتاب الحج باب حجة النبي ﷺ (١٢١٨).

(٤) أخرجه مسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها باب استحباب ركعتي سنة الفجر والحث عليهما وتخفيفهما والحفاظة عليهما وبيان ما يستحب أن يقرأ فيهما (٧٢٦).

(٥) أخرجه أحمد ٢٤/٢ رقم (٤٧٦٣) تعليق شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين ، السلسلة الصحيحة (٣٣٢٨).

(٦) أخرجه البخاري كتاب فضائل القرآن باب فضل المعوذات (٥٠١٧).

فقال: (قل). فسكت. قال: (قل). قلت: ما أقول؟ قال: (قل: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ والمعوذتين حين تسمي وحين تصبح ثلاثاً تكفيك كل شيء) (١).

٦- في صلاة الوتر: عن عبدالعزيز بن جريح رحمه الله قال: سألتنا عائشة رضي الله عنها بأي شيء كان يوتر رسول الله ﷺ؟ قالت: كان يقرأ في الأولى بـ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ وفي الثانية بـ ﴿قُلْ يَتَأَيُّهَا الْكٰفِرُونَ﴾ وفي الثالثة بـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ والمعوذتين (٢).

سابعاً: المعنى الإجمالي للسورة:

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (١) أي: قل - أيها الرسول -: هو الله المتفرد بالألوهية والربوبية والأسماء والصفات، لا يشاركه أحد فيها. ﴿اللَّهُ الصَّكُّدُ﴾ (٢) أي: الله وحده المقصود في قضاء الحوائج والרגائب. ﴿لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُؤَلِّدْ﴾ (٣) أي: ليس له ولد ولا والد ولا صاحبة. ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ (٤) أي: ولم يكن له مماثلاً ولا مشابهاً أحد من خلقه، لا في أسمائه ولا في صفاته، ولا في أفعاله، تبارك وتعالى وتقدس (٣).

(١) أخرجه النسائي كتاب الاستعاذة باب (١) رقم (٥٤٢٨)، والترمذي كتاب الدعوات باب (١١٦) رقم (٣٥٧٥) وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢٨٢٩).

(٢) أخرجه أبو داود كتاب الوتر باب ما يقرأ في الوتر (١٤٢٤)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (١٢٦٩)، وصحيح سنن أبي داود (١٢٦٢).

(٣) التفسير الميسر ٦٠٤.

المبحث الثاني وقفات في معاني السورة المطلب الأول وجوب معرفة الله

﴿ قُلْ ﴾: "قولاً جازماً به، معتقداً له، عارفاً بمعناه"^(١)، وافتتاح هذه السورة بالأمر بالقول لإظهار العناية بما بعد فعل القول"^(٢).

﴿ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ "قد انحصرت فيه الأحديق" فهو الأحد المنفرد بالكمال، الذي له الأسماء الحسنی، والصفات الكاملة العليا، والأفعال المقدسة، الذي لا نظير له ولا مثل"^(٣).

"وضمير ﴿ هُوَ ﴾ ضمير الشأن لإفادة الاهتمام بالجملة التي بعده وإذا سمعه الذين سألوا تطلعوا إلى ما بعده، ويجوز أن يكون ﴿ هُوَ ﴾ أيضاً عائداً إلى الرب"^(٤) المسؤول عنه.

﴿ أَحَدٌ ﴾ "لفظ أدق من لفظ «واحد» لأنه يضيف إلى معنى «واحد» أن لا شيء غيره معه. وأن ليس كمثلته شيء"^(٥).

ففي الآية أمرٌ بالبلاغ والدعوة إلى التوحيد. أي: يا محمد، يا أصحاب محمد، ويا كل المسلمين.. وحدوا الله وادعوا الناس كافة إلى توحيد الله.

وهل دعوات الأنبياء إلا على هذا الأسس العظيم ﴿ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾^(٦)، كما قال تعالى عنهم: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل ٣٦].

(١) تيسير الكريم الرحمن ٩٣٧.

(٢) التحرير والتنوير ٦١٢/٢٤.

(٣) تيسير الكريم الرحمن ٩٣٧.

(٤) التحرير والتنوير ٦١٢/٢٤.

(٥) في ظلال القرآن ٤٠٠٢/٦.

(٦) وردت هذه الجملة من الآية في مواطن متعددة في القرآن فقد وردت في سورة الأعراف الآية (٥٩) عن نوح، و الآية (٦٥) عن هود، و الآية (٧٣) عن صالح، و الآية (٨٥) عن شعيب، وذكرت كذلك في سورة هود والمؤمنون والعنكبوت وغيرها من سور القرآن.

﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ الصمد فيه معان كثيرة منها: الذي ليس بأحوف ولا يأكل ولا يشرب. ومنها: الذي لا يخرج منه شيء. ومنها: الذي لم يلد ولم يولد. ومنها: السيد الذي انتهى سؤدده. ومنها: الباقي الذي لا يفنى^(١).

"قال الطبراني في كتاب السنة بعد إيراد كثيرًا من هذه الأقوال في تفسير ﴿الصَّمَدُ﴾: وكل هذه صحيحة، وهي صفات ربنا عز وجل"^(٢).

فهو سبحانه "المقصود في جميع الحوائج. فأهل العالم العلوي والسفلي مفتقرون إليه غاية الافتقار، يسألونه حوائجهم، ويرغبون إليه في مهماتهم، لأنه الكامل في أوصافه. العليم: الذي قد كمل في علمه. الحليم: الذي قد كمل في حلمه. الرحيم: الذي كمل في رحمته. ووسعت رحمته كل شيء، وهكذا سائر أوصافه"^(٣).

إنه الحي القيوم، الرحمن الرحيم الذي خلق كل شيء وسخر لنا كثيرًا مما خلق.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ ۗ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ۗ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ ۗ فَإِنِّي تُوفِّكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ۗ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتٍ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ ۗ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأنعام ٩٥-٩٩].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الاعراف ٥٤].

ويقول عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿٥٥﴾ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَبَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ

(١) انظر: جامع البيان ٢٤/٧٣١-٧٣٧ فقد ذكر هذه المعاني وذكر الروايات فيها عن الصحابة والتابعين رضي الله عنهم.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٨/٥٢٩.

(٣) تيسير الكريم الرحمن ٩٣٧.

يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٨﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ﴿١٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ﴿٢١﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٢﴾ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاحِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ وَالْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لِّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ وَعَلَّمَتِ الْبَالَغَةَ وَالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٢٥﴾ أَفَمَن تَخْلُقُ كَمَن لَّا تَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴿ [النحل ١٠-١٨].

وقال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٧﴾ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِئْتًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٩﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴿ [النحل ٧٨-٨١].

ذلك غيظ من فيض مما عرفنا الله به عن نفسه، وهي آيات تربط القلب البشري بربه، وتغرس فيه حبه. ولا شك أن معرفة الله بأسمائه وصفاته وأفعاله وتصحيح التصور عنه سبحانه سيكون له أعظم الأثر في إصلاح النفس وإصلاح الحياة.

المطلب الثاني

تزيهه سبحانه عن كل نقص

ومن كماله سبحانه أنه ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ وذلك لكمال غناه^(١) "لأن من يُصمَدُ إليه لا يكون من حاله أن يلد، لأن طلب الولد لقصد الاستعانة به في إقامة شؤون الوالد، وتدارك عجزه، ولذلك استدل على إبطال قولهم باتخاذ الله الولد بإثبات أنه الغني في قوله تعالى ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَنِينٌ﴾ [البقرة ١١٦] فبعد أن أبطلت الآية الأولى من هذه السورة تعدد الإله، أبطلت هذه الآية تعدد الإله بطريق تولد إله عن إله لأن المتولد مساو لما تولد عنه"^(٢).

"والتعدد بالتولد مساوياً في الاستحالة لتعدد الإله، لفساد الأكوان المشار إليه بقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءِإِلَهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الانباء ٢٢] ولأنه لو تولد عن الله موجود آخر لنفى ذلك الأحديث. وبذلك يحطل اعتقاد من يقول: إن الملائكة بنات الله -تعالى عما يقولون- فعبدوا الملائكة قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الانباء ٢٦].

وجملة ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ عطف على جملة ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ أي ولم يلبده غيره وهي بمنزلة الاحتراس سداً لتجويز أن يكون له والد، وإنما قدم نفي الولد: بأنه أهم؛ إذ قد نسب أهل الضلالة الولد إلى الله تعالى، ولم ينسبوا إلى الله والداً. وفيه: الإيماء إلى أن من يكون مولوداً مثل عيسى لا يكون إلهاً، لأنه لو كان الإله مولوداً لكان وجوده مسبوقاً بعدم لا محالة، وذلك محال لأنه لو كان مسبوقاً بعدم لكان مفتقراً إلى من يخصه بالوجود بعد العدم، فبطلت بذلك عقيدة النصارى بالهية عيسى عليه السلام بتوهمهم أنه ابن الله وأن ابن الله لا يكون إلا إلهاً"^(٣).

﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ أي: لم يكن له شبيه ولا مثل^(٤) لا في أسمائه ولا في أوصافه، ولا في أفعاله، تبارك وتعالى^(٥). "لأنه ليس شيء يولد إلا سيموت، وليس شيء يموت إلا سيورث، وإن الله جل جلاله لا يموت ولا يورث"^(٦)، وهذا كما قال تعالى: ﴿بَدِيعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَحْبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام ١٠١] أي: هو مالك كل شيء وخالقه،

(١) تيسير الكريم الرحمن ٩٣٧.

(٢) التحرير والتنوير ٦١٨/٢٤.

(٣) التحرير والتنوير ٦١٨/٢٤.

(٤) جامع البيان ٧٣٨/٢٤.

(٥) تيسير الكريم الرحمن ٩٣٧.

(٦) أخرجه الطبري عن أبي العالية ٧٣٤/٢٤.

فكيف يكون له من خلقه نظير يساميه، أو قريب يدانيه، تعالى وتقدس وتتره.

قال الله تعالى: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۗ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ۗ ﴿٨٨﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۗ ﴿٨٩﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۗ وَمَا يُنْبِئُ لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ۗ ﴿٩٠﴾ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ۗ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۗ ﴿٩١﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ۗ ﴿٩٢﴾ ﴾ [مريم ٨٨ - ٩٥].

وقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۗ سُبْحٰنَهُ ۗ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۗ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ۗ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الأنبياء ٢٦ - ٢٧].

وقال تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا ۗ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ۗ ﴿١٥٨﴾ سُبْحٰنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ۗ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [الصفات ١٥٨، ١٥٩] وفي الصحيح: (لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم يجعلون له ولداً، وهو يرزقهم ويعافيهم)^(١).

(١) أخرجه البخاري كتاب الأدب باب الصبر على الأذى (٦٠٩٩).

المطلب الثالث

تحقيق التوحيد لله

إذا استقرت هذه المعاني، ووضح هذا التصور لمعاني تلك السورة العظيمة، خلص القلب من كل غاشية ومن كل شائبة، ومن كل تعلق بغير الله الواحد المتفرد بكل شيء في كل شيء.

ومن هنا ينبثق منهج كامل للحياة، قائم على ذلك التفسير وتلك المعاني:

فالتوحيد لله منهج لعبادة الله وحده، ومنهج للاتجاه إلى الله وحده في الرغبة والرغبة، في السراء والضراء في النعماء والبأساء، ومنهج للتلقي عن الله وحده، تلقي العقيدة والتصور والقيم والموازن، والشرائع والقوانين والأوضاع والنظم، والآداب والتقاليد، فالتلقي لا يكون إلا عن الله وحده، والعمل لله وحده، وفي سبيل الله وحده.

من أجل هذا كله كانت الدعوة في مراحلها الأولى قاصرة على تقرير حقيقة التوحيد في القلوب، لأن التوحيد منهج للحياة، وليس كلمة تقال باللسان أو حتى صورة تستقر في الضمير. إنما هو الأمر كله، والدين كله؛ وما بعده من تفصيلات وتفريعات لا يعدو أن يكون الثمرة الطبيعية لاستقرار هذه الحقيقة بهذه الصورة في القلوب.

والانحرافات التي أصابت أهل الكتاب من قبل وغيرهم من أهل الشرك والوثنية، والتي أفسدت عقائدهم وتصوراتهم وحياتهم، نشأت أول ما نشأت عن انطماس صورة التوحيد الخالص. ثم تبع هذا الانطماس ما تبعه من سائر الانحرافات^(١).

(١) وانظر: في ظلال القرآن ٦/٤٠٠٢-٤٠٠٤.

تفسير المعوذتين

المبحث الأول

المعوذتين وأحكام الاستعاذة

المطلب الأول

مقدمات حول المعوذتين

أولاً: أسماؤهما:

سورة الفلق وسورة الناس لهما عدة أسماء منها :

١- المعوذتين: "ووصف السورتين بذلك يجعلهما كالذي يدل الخائف على المكان الذي يعصمه من مخيفه أو كالذي يدخله المعاذ"^(١).

٢- المشققتين: بتقديم الشينين على القاف في الموضعين من قولهم خطيب مشقشق أي: مسترسل القول تشبيهاً له بالفحل الكريم من الإبل يهدر بشقشقة، وهي كاللحم يبرز من فيه إذا غضب^(٢)، والمقصود المبرئتتين من الشرك ومن النفاق، وذكر صاحب الكشاف عن سورة الكافرون والإخلاص تسميان المشققتين^(٣).

٣- المشققتين: بتقديم القاف على الشين في الموضعين أي تبرئان من الشرك ومن النفاق^(٤) كذلك، فيكون اسم المشقشقة مشتركاً بين أربع سور: الفلق، والناس، وبراءة، والكافرون^(٥).

ثانياً: نزولهما ومناسبتهما:

الأصح - والله أعلم - أنهما مدنيتان، فعن ابن عباس رضي الله عنهما: "أن من سورة القدر إلى آخر القرآن مكية، إلا إذا زلزلت الأرض وإذا جاء نصر الله وقل هو الله أحد وقل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس فإنهن مدنيتان"^(٦).

(١) التحرير والتنوير، ٦٢٣/٣٠ .

(٢) الإتيقان ١/١٥٩، التحرير والتنوير ٦٢٤/٣٠ .

(٣) الكشاف ٤/٢٣٨ .

(٤) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/٢٥١، التحرير والتنوير ٦٢٤/٣٠ .

(٥) التحرير والتنوير، ٦٢٤/٣٠ .

(٦) الناسخ والمنسوخ ٣/١٥٣، البيهقي في الدلائل ٧/١٤٤ .

وأما سبب نزولهما: فعن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: سَحَرَ النبي ﷺ رجلاً من اليهود، فاشتكى لذلك أياماً، قال: فجاءه جبريل فقال: إن رجلاً من اليهود سحرك، عقد لك عُقداً في بئر كذا وكذا، فأرسل إليها من يجيء بها. فبعث رسول الله ﷺ علياً رضي الله تعالى عنه فاستخرجها، فجاء بها فحللها قال: فقام رسول الله ﷺ كأنما نشط من عقال. فما ذكر ذلك لليهودي ولا رآه في وجهه حتى مات^(١).
وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رجل من اليهود يدخل على النبي ﷺ، وكان يأمنه، فعقد له عقداً فوضعه في بئر رجل من الأنصار، فاشتكى لذلك أياماً فأتاه ملكان يعودانه فقعد أحدهما عند رأسه والآخر عند رجليه، فقال أحدهما: أتدري ما وجعه؟ قال: فلان الذي كان يدخل عليه عقد له عقداً فألقاه في بئر فلان الأنصاري، فلو أرسل إليه رجلاً وأخذ منه العقد لوجد الماء قد اصفر ، فأتاه جبريل فترل عليه بالعودتين وقال: إن رجلاً من اليهود سحرك والسحر في بئر فلان. قال: فبعث رجلاً فوجد الماء قد اصفرَّ. فأخذ العقد فجاء بها فأمره أن يحل العقد، ويقرأ آية، فحلها فجعل يقرأ ويحل ، فجعل كلما حل عقدة وجد لذلك خفة فبرأ^(٢).

قال ابن كثير: "ولعل هذا كان من شكواه عليه السلام حين سحر، ثم عافاه الله تعالى وشفاه، ورد كيد السحرة الحساد من اليهود في رؤوسهم، وجعل تدميرهم في تدبيرهم، وفضحهم"^(٣).

عدهما:

سورة الفلق: عدد آياتها: (٥) آيات، وكلماهما: (٢٣) كلمة، وحروفها: (٧٤) حرفاً^(٤).

سورة الناس: عدد آياتها: (٦) آيات، وكلماهما: (٢٠) كلمة، وحروفها: (٧٩) حرفاً^(٥).

(١) أخرجه أحمد ٤/٣٦٧ (١٩٢٨٦) تعليق شعيب الأرنؤوط: حديث صحيح بغير هذه السياقة، والنسائي كتاب تحريم الدم باب سحرة أهل الكتاب (٤٠٨٠).

(٢) السلسلة الصحيحة ٦/٢٦٤ برقم (٢٧٦١) وذكر أنه مروى بعدة طرق وأن رواية ابن عباس أخرجهما الثعلبي. نقلاً عن التلخيص للحافظ ٤/٤٠. وأصل الخبر في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم سحر حتى كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن قال سفيان وهذا أشد ما يكون من السحر إذا كان كذا فقال: (يا عائشة أعلمت أن الله قد أفتاني فيما استفتيته فيه، أتاني رجلان فقعد أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي، فقال الذي عند رأسي للآخر: ما بال الرجل؟ قال: مطبوب قال: ومن طبه؟ قال لبيد بن أعصم - رجل من بني زريق حليف لليهود كان منافقاً. قال وفيهم؟ قال في مشط ومشاطة. قال: وأين؟ قال: في جف طلعة ذكر تحت رعوفة في بئر ذروان). قالت: فأتى النبي صلى الله عليه وسلم البئر حتى استخرجه فقال: (هذه البئر التي أريتها وكان ماءها نقاعة الحناء، وكان نخلها رؤوس الشياطين). قال فاستخرج قالت فقلت أفلا؟ - أي تنشرت - فقال: (أما والله فقد شفاني الله وأكره أن أثير على أحد من الناس شراً) البخاري كتاب الطب باب هل يستخرج السحر (٥٤٣٢) و كتاب الجزية والموادعة باب هل يعفى عن الذمي إذا سحر (٣٠٠٤)، ومسلم كتاب السلام باب السحر (٢١٨٩).

(٣) تفسير القرآن العظيم ٨/٥٣٧.

(٤) التفسير القرآني للقرآن ٣/٩٧.

(٥) المصدر السابق ٣/٩٨.

مناسبتها لما قبلها:

تضمنت "سورة الإخلاص" ما ينبغي أن يكون عليه مفهوم المخلوقين للخالق سبحانه وتعالى ، من تفردته بالألوهية ، وتزيهه أن يكون والدا أو مولودا ، وعن أن تكون له نسبة إلى المخلوقات ، إلا نسبة الدلالة على قدرته وحكمته ، وعلمه ، وأنها جميعها مفتقرة إليه في وجودها ، وفي بقائها ، وأنه سبحانه لا مثل له ، ولا شبيهه ، ولا كفاء ولا نداء ..

هذا ما أمر الله سبحانه النبي أن يؤمن به أولا ، ثم أن يؤذن به في الناس ..

ثم جاءت بعد هذا سورتا المعوذتين ؛ « الفلق » و«الناس» تقرران هذه الحقيقة ، وتؤكدانها في مجال التطبيق العملي لآثارها ، وذلك بدعوة النبي والناس جميعا أن يعوذوا بربهم ، وأن يستظلوا بحمي ربوبيته من كل ما يسوءهم ، أو ما يتوقع أن يعرض له بسوء ، فذلك هو الإيمان بالله سبحانه ، والإقرار بسلطانه القائم على هذا الوجود ، وأنه وحده الذي تتجه الوجوه كلها إليه في السراء والضراء .. فهو سبحانه القادر على كل شيء ، وهو سبحانه الذي بيده مقاليد كل شيء .. أما المخلوقون فهم جميعا على سواء في الحاجة إلى الله ، وفي الافتقار إليه ، غنيهم وفقيرهم ، قويهم وضعيفهم : ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ۝١٥﴾ [فاطر: ١٥]

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالِكُمْ فَأَدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝١٩٤﴾ [الأعراف: ١٩٤].

وقد صدرت سورة الإخلاص ، والمعوذتين بعدها ، بقوله تعالى : « قل » وهذا الأمر بالقول داخل في مقول القول الذي يقوله النبي ، ويقوله كل من يتأسسون به ، فمطلوب من النبي ، ومن المؤمنين أن يقولوا : « قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ .. قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ .. قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ » .. فهذا الأمر بالقول ، هو قرآن متعبد به ، وهو يعنى أن القرآن كلمات الله ، وأنه لا تبديل لكلمات الله ، وأن هذه الكلمات قد انطبعت في قلب النبي صلوات الله وسلامه عليه ، فهو يقرؤها من كتاب قلبه كما أنزلت عليه ، دون تبديل فيها ..^(١)

ثالثا : موضوعهما :

"سورة الفلق وسورة الناس توجيه من الله سبحانه وتعالى لنييه ﷺ ابتداء وللمؤمنين من بعده جميعا ، للعياذ بكنفه، واللياذ بحماه، من كل مخوف: خافٍ وظاهرٍ، مجهولٍ ومعلومٍ، على وجه الإجمال وعلى وجه التفصيل. فيفتح الله سبحانه لهم حماه، ويسط لهم كنفه، ويقول لهم في مودة وعطف: تعالوا إلى هنا. تعالوا إلى الحمى. تعالوا إلى مأمركم الذي تطمئنون فيه. تعالوا فأنا أعلم أنكم ضعاف وأن لكم أعداء وأن حولكم مخاوف وهنا الأمن والطمأنينة والسلام"^(٢).

(١) المصدر السابق في الموضوعين.

(٢) في ظلال القرآن ٤٠٠٦/٦ .

رابعاً : فضلها:

عن ابن عباس الجهني رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال له: (يا بن عباس ألا أدلك) أو قال: (ألا أخبرك بأفضل ما يتعوذ به المتعوذون؟) قال: بلى يا رسول الله. قال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ هاتين السورتين^(١).

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (ألم تر آيات أنزلت هذه الليلة لم ير مثلهن قط؟ قل: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾^(٢)).

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: اتبعت رسول الله ﷺ وهو راكب فوضعت يدي على قدمه فقلت: أقرئني يا رسول الله سورة هود وسورة يوسف. فقال: (لن تقرأ شيئاً أبلغ عند الله من ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾^(٣)).

وعن جابر رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: (اقرأ يا جابر). قلت: ماذا بأبي أنت وأمي؟ قال: (اقرأ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾) فقرأتهما. فقال: (اقرأ بهما فلن تقرأ بمثلهما)^(٤).

خامساً: مواضع الاستعاذة بهما:

ورد في السنة النبوية مواضع تقرأ فيها المعوذتان، وأشهرها:

١ - عند المرض: عن عائشة رضي الله عنها قالت: أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى نفث على نفسه بالمعوذات ومسح عنه بيده فلما اشتكى وجعه الذي توفي فيه طففت أنفث على نفسه بالمعوذات التي كان ينفث وأمسح بيد النبي ﷺ عنه^(٥).

٢ - عند النوم: عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان إذا آوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما وقرأ فيهما: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾

(١) أخرجه النسائي في السنة كتاب الاستعاذة باب ٢ (٥٤٣٢) وصححه الألباني في صحيح النسائي (٥٠٢٠) وفي الصحيحة (١١٠٤).

(٢) أخرجه مسلم كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب فضل قراءة المعوذتين (٨١٤).

(٣) أخرجه النسائي في السنة كتاب الافتتاح باب الفضل في قراءة المعوذتين (٩٥٣)، والإمام أحمد ١٤٩/٤ (١٧٣٧٩) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٢١٧).

(٤) أخرجه ابن حبان ٧٦/٣ رقم (٧٩٦)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ٩٤/٢ (١٤٨٦).

(٥) أخرجه البخاري كتاب المغازي باب مرض النبي ﷺ ووفاته (٤٤٣٩) واللفظ له، ومسلم كتاب السلام باب رقية المريض بالمعوذات والنفث (٢١٩٢).

النَّاسِ ﴿ ثُمَّ يَمْسَحُ بِهِمَا مَا اسْتَطَاعَ مِنْ جَسَدِهِ، يَبْدَأُ بِهِمَا عَلَى رَأْسِهِ وَوَجْهِهِ وَمَا أَقْبَلَ مِنْ جَسَدِهِ، يَفْعَلُ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ^(١) .

٣ - دبر كل صلاة: عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: (أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أقرأ بالمعوذتين في دبر كل صلاة) ^(٢) .

٤ - عند السفر والخلوة والوحشة: عن عبد الله بن خبيب رضي الله عنه قال: كنت مع رسول الله ﷺ في طريق مكة فأصبت خلوة من رسول الله ﷺ فدنوت منه فقال: (قل) فقلت: ما أقول؟! قال: (قل) قلت: ما أقول؟! قال: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ حتى ختمها، ثم قال: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ حتى تحمها ثم قال: (ما تعوذ الناس بأفضل منهما) ^(٣) .

٥ - الرقية بهما من السحر والعين: قال الترمذي: باب ما جاء في الرقية بالمعوذتين وذكر تحته حديث أبي سعيد رضي الله عنه أنه قال: كان رسول الله ﷺ يتعوذ من الجن وعين الإنسان حتى نزلت المعوذتان فلما نزلتا أخذ بهما وترك ما سواهما ^(٤) .

٦ - عند الصباح والمساء: عن عبد الله بن خبيب عن أبيه رضي الله عنهما قال خرجنا في ليلة مطيرة وظلمة شديدة نطلب رسول الله ﷺ يصلي لنا قال فأدركته فقال: (قل) فلم أقل شيئا ثم قال: (قل) فلم أقل شيئا قال: (قل) فقلت: ما أقول؟ قال: (قل) ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ والمعوذتين حين تسي وتصبح ثلاث مرات تكفيك من كل شيء ^(٥) .

٧ - عند لدغ العقرب: عن علي رضي الله عنه قال: بينا رسول الله ﷺ ذات ليلة يصلي فوضع يده على الأرض فلدغته عقرب، فتناولها رسول الله ﷺ بنعله فقتلها، فلما انصرف قال: (لعن الله العقرب لا تدع مصليا ولا غيره أو نبيا ولا غيره إلا لدغتهم) ثم دعا بماء فوجعه في إناء ثم جعل يصبه على إصبعه حيث لدغته ويمسحها ويعوذها بالمعوذتين ^(٦) .

(١) أخرجه البخاري كتاب فضائل القرآن باب فضل المعوذتين (٥٠١٧).

(٢) أخرجه الترمذي كتاب فضائل القرآن عن رسول الله ﷺ باب ما جاء في المعوذتين (٢٩٠٣)، وأبي داود كتاب الوتر باب في الاستغفار رقم (١٥٢٣)، وصحيح سنن أبي داود (١٣٤٨).

(٣) أخرجه النسائي كتاب الاستعاذة (٥٤٢٩) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٣٩٦).

(٤) أخرجه الترمذي كتاب الطب عن النبي ﷺ باب ما جاء في الرقية بالمعوذتين (٢٠٥٨). وحسنه الألباني في الكلم الطيب (٢٤٧).

(٥) أخرجه الترمذي كتاب الدعوات عن النبي ﷺ باب (١١٧) رقم (٣٥٧٥) وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢٨٢٩) وصحيح الكلم ص (١٩).

(٦) أخرجه ابن أبي شيبة في سننه ٤٤/٥ رقم (٢٣٥٥٣)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (٤٥٦٧).

٨ - القراءة بها في صلاة الفجر: عن عقبة بن عامر: أنه سأل النبي ﷺ عن المعوذتين قال عقبة فأمنا
بهما رسول الله ﷺ في صلاة الفجر^(١)

٩ - في الوتر: عن عبدالعزيز بن جريح رحمه الله قال: سألتنا عائشة رضي الله عنها بأي شيء كان
يوتر رسول الله ﷺ؟ قالت: كان يقرأ في الأولى بـ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ وفي الثانية بـ ﴿قُلْ
يَتَأْتِيهَا الْكُفْرُوتُ﴾ وفي الثالثة بـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ والمعوذتين^(٢).

١٠ - عند رؤية القمر من كسوفه: عن عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ نظر إلى القمر فقال يا
عائشة استعيذي بالله من شر هذا؟ فإن هذا الغاسق إذا وقب^(٣).
"قال الطيبي: إنما استعاذ من كسوفه لأنه من آيات الله الدالة على حدوث بليّة، ونزول نازلة ،
كما قال عليه الصلاة والسلام: (ولكن يخوف الله بعباده)^(٤)"^(٥).

(١) أخرجه النسائي في السنن كتاب الافتتاح باب القراءة في الصبح بالمعوذتين (٩٥٢)، وصححه الألباني .
(٢) أخرجه أبو داود كتاب الوتر باب ما يقرأ في الوتر (١٤٢٤)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (١٢٦٩)، وصحيح سنن أبي
داود (١٢٦٢).
(٣) أخرجه الترمذي كتاب تفسير القرآن باب ومن سورة المعوذتين (٣٣٦٦)، صحيح سنن الترمذي (٢٦٨١).
(٤) أخرجه البخاري كتاب الكسوف باب الذكر في الكسوف (١٠١٠)، ومسلم في الكسوف باب ذكر النداء بصلاة الكسوف
الصلاة جامعة (٩١٢).
(٥) تحفة الأحوذى ٢١٣/٩.

سادساً : المعنى الإجمالي للسورتين:

سورة الفلق:

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ أي: قل - أيها الرسول-: أعوذ وأعتصم برب الفلق، وهو الصبح.
﴿ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ من شر جميع المخلوقات وأذاها، ﴿ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ ومن شر ليل
شديد الظلمة إذا دخل وتغلغل، وما فيه من الشرور والمؤذيات.

﴿ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴾ ومن شر الساحرات اللاتي ينفخن فيما يعقدن من عُقد
بقصد السحر، ﴿ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ ومن شر حاسد مبغض للناس إذا حسدهم على ما
وهبهم الله من نعم، وأراد زوالها عنهم، وإيقاع الأذى بهم^(١).

سورة الناس:

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ أي: قل - أيها الرسول-: أعوذ وأعتصم برب الناس، القادر وحده على
ردّ شر الوسواس، ﴿ مَلِكِ النَّاسِ ﴾ ملك الناس المتصرف في كل شؤونهم، الغني عنهم، ﴿ إِلَهِ
النَّاسِ ﴾ إله الناس الذي لا معبود بحق سواه، ﴿ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴾ من أذى الشيطان
الذي يوسوس عند الغفلة، ويختفي عند ذكر الله.

﴿ الَّذِي يُوسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴾ الذي يبثُّ الشر والشكوك في صدور الناس، ﴿ مِنْ
الْحِجَّةِ وَالنَّكَاسِ ﴾^(٢) من شياطين الجن والإنس.

(١) التفسير الميسر ٦٠٤.

(٢) المرجع السابق.

المطلب الثاني أحكام حول المعوذتين

المسألة الأولى : تعريف الاستعاذة :

الاستعاذة لغة هي : عاذَ به يَعُوذُ : لآذَ به وَلَجَأَ إليه واعتَصَمَ^(١) .
ولفظ عاذ وما تصرف منه يدل على التحرز والتحصن والنجاة.
وفي أصله وجهان: الأول: مأخوذ من الستر، فالعائد قد استتر من عدوه بمن استعاذ به منه.
والثاني: مأخوذ من المجاورة والالتصاق، فالعائد قد استمسك بالمستعاذ واعتصم به ولزمه.
ولذلك فالوجهان حق لأن المستعبد مستتر بمعاذ- وهو الله- مستمسك به^(٢) .
" فالاستعاذة في كلام العرب: الاستجارة والتحيز إلى الشيء على معنى الامتناع به من المكروه^(٣) .
وشرعاً : اللجوء إلى الله عز وجل والاعتصام به من شر كل ذي شر^(٤) .

المسألة الثانية : أركان الاستعاذة :

الركن الأول: مستعاذ به: "ويسمى المعاذُ والمستعاذ، وهو الله وحده، ولا تنبغي الاستعاذة إلا به جل وعلا"^(٥) .

الركن الثاني : مستعاذ منه: والمستعاذ منه كل ما يصيب الإنسان من الأذى، "ولا يخلو من قسمين:
القسم الأول: شر راجع إلى الإنسان نفسه: وهو الذنوب التي تقع منه.

القسم الثاني: شر بالإنسان من غيره: وذلك الغير إما:

١ - مكلف: وهو إما أن يكون إنسان مثله أو من الجن.

٢ - غير مكلف: مثل الهوام وذوات الحُمّة^(٦) ونحوها.

وقد تضمنت المعوذتان الاستعاذة من هذه الشرور^(٧) كما سيأتي بيانه.

الركن الثالث: مستعبد: وهو الإنسان المؤمن بالله تعالى.

الركن الرابع : أداة الاستعاذة : وهي أسماء الله تعالى وصفاته .

(١) تاج العروس ٢٤٠٦ .

(٢) التفسير القيم ٥٣٨-٥٣٩ بتصرف واختصار.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٦٤/١ .

(٤) تفسير ابن كثير ١١٤/١ ، وقال الماوردي في النكت ٢٩٥/٢ : استدفاع الأذى بالأعلى من وجه الخضوع والتدلل.

(٥) نضرة النعيم ٢٠٢/٢ .

(٦) كل ما يلدغ من العقارب والحيات ونحوها .

(٧) التفسير القيم ٥٤٣-٥٤٤ .

المسألة الثالثة : حكم الاستعاذة وصيغتها:

أولاً : الحكم العام للاستعاذة :

الاستعاذة لا تكون إلا بالله وحده لا شريك له ولا يستعاذ بأحد من خلقه، والذي يصرف هذه العبادة لغير الله فقد ارتكب شركاً أكبر^(١). وقد أخبر سبحانه عن استعاذ بخلقه أن استعاذته زادت طغياناً ورهقاً، فقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن ٦]. قال ابن كثير: "كانت عادة العرب في جاهليتها إذا نزلوا واديا أو مكاناً موحشاً يعوذون بعظيم ذلك المكان من الجن أن يصيهم بشيء يسوؤهم، فلما رأت الجن أن الإنس يعوذون بهم من خوفهم منهم زادوهم خوفاً وإرهاباً وذعراً حتى ييقوا أشد منهم مخافة وأكثر تعوذاً"^(٢).

ثانياً : حكم الاستعاذة :

الاستعاذة عند قراءة القرآن مأمور بها، والجمهور على أنها مندوبة، وذكر عن عطاء أنها واجبة^(٣). قال ابن جرير: " وإنما هو -أي الأمر بها- إعلام وندب. وذلك أنه لا خلاف بين الجميع أن من قرأ القرآن ولم يستعد بالله من الشيطان الرجيم قبل قراءته أو بعدها أنه لم يضيع فرضاً واجباً"^(٤). والاستعاذة في المواطن الأخرى حكمها أيضاً الندب^(٥).

ثالثاً : صيغتها :

١- صيغتها عند قراءة القرآن: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم وهذا اختيار الجمهور^(٦) وذلك لورود هذه الصيغة في نص القرآن، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل ٩٨]. وبها كان النبي ﷺ يستعيد غالباً. وربما استعاذ النبي ﷺ كما في صلاة الليل: (أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه. ثم يقرأ) وأحياناً يزيد (السميع العليم) وهي صحيحة أيضاً^(٧).

٢- أما الاستعاذة في المواطن الأخرى فلها صيغ عديدة جاءت بها الآيات والأحاديث النبوية، ومنها: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾... والأحاديث (اللهم إني أعوذ بك... ، أعوذ بالله وقدرته... ، أعوذ بكلمات الله التامات... ،)^(٨).

(١) انظر: تيسير العزيز الحميد عند باب : من الشرك أن يستعاذ بغير الله.

(٢) تفسير ابن كثير ٢٣٩/٨ .

(٣) انظر: البحر المحيط ٥١٧/٥ .

(٤) جامع البيان ٢٩٤/١٧ .

(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٨٨/١ ، فقد توسع كثيراً في المسألة وذكر أحكاماً أخرى .

(٦) انظر: الكشف عن وجوه القراءات السبع ٩/١ ، والإقناع في القراءات السبع ١٥١/١ والجامع لأحكام القرآن ٨٦/١-٨٩ .

(٧) أخرجه أبو داود كتاب الصلاة باب من رأى الاستفتاح بسبحانك اللهم وبحمدك (٧٧٥) والترمذي كتاب الصلاة باب ما يقول عند افتتاح الصلاة (٢٤٢) وابن ماجه كتاب إقامة الصلاة باب الاستعاذة في الصلاة (٨٠٧) وغيرهم. وصححه الألباني وجمع رواياته في إرواء الغليل ٥١/٢-٥٧ .

(٨) سيأتي بيان بعض الصيغ ومواضعها في المسائل التالية.

المسألة الرابعة : مواضع الاستعاذة في القرآن :

ورد في القرآن الكريم بعض الأمور التي يستعاذ منها ونوردها هنا على سبيل الإجمال:

١ الاستعاذة عند وسوسة الشيطان ونزغهِ^(١): قال تعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف ٢٠٠]. وقال تعالى: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٦﴾ ﴾.

٢ الاستعاذة من الشياطين وحضورهم أي أمر من أمور الإنسان : قال تعالى: ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾ ﴿٣٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ تَحْضُرُونِ ﴿٣٨﴾ [المؤمنون ٩٧-٩٨]. كالغضب مثلاً، فعن سليمان بن صرد رضي الله عنه قال: استب رجلان عند النبي ﷺ ونحن عنده جلوس وأحدهما يسب صاحبه مغضباً قد احمر وجهه فقال النبي ﷺ: (إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد لو قال أعوذ بالله من الشيطان الرجيم)^(٢).

٣ الاستعاذة عند قراءة القرآن: قال تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ [النحل ٩٨].

٤ الاستعاذة من الوقوع في الظلم: قال تعالى: ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعِنَا بِهِ وَإِنَّا إِذَا لَطَلِمُونَ ﴾ [يوسف ٧٩].

٥ الاستعاذة من المتكبرين عن الحق المحتقرين له: قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَجِدُوا لَوًّا فِي آيَاتِ اللَّهِ يَغَيِّرُ سُلْطَانَ أَتْنَهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَلِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [غافر ٥٦]. وقال: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ [غافر ٢٧].

٦ الاستعاذة من الوقوع في المحرمات: قال تعالى: ﴿ وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَعَلَّقَتْ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ [يوسف ٢٣].

٧ الاستعاذة من الوقوع في الجهل: قال تعالى: ﴿ قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ [البقرة ٧٦].

(١) نَزَغُ الشَّيْطَانِ وَسَاوِسُهُ وَنَخْسُهُ فِي الْقَلْبِ بِمَا يُسْأَلُ لِلإِنْسَانِ مِنَ الْمَعَاصِي، يَعْنِي: يُلْقِي فِي قَلْبِهِ مَا يُفْسِدُهُ عَلَى أَصْحَابِهِ. انظر اللسان ٤٥٤/٨ .

(٢) أخرجه البخاري كتاب الأدب باب ما ينهى عن السباب واللعن (٦٠٤٨) واللفظ له، ومسلم كتاب البر والصلة باب فضل من يملك نفسه عند الغضب.. (٢٦١٠).

٨ الاستعاذة عند ولادة المولود: قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ ۗ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيدُهَا بِلِکَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ ﴾ [مريم: ٣٦].

٩ الاستعاذة من كل الشرور: قال تعالى: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾ ﴾ .

المسألة الخامسة: مواضع الاستعاذة في السنة:

- ١ الاستعاذة من شرور الأعمال: كما في قوله ﷺ سيد الاستغفار: (أعوذ بك من شر ما صنعت)^(١).
- ٢ الاستعاذة من الأذى: وعن عثمان بن أبي العاص الثقفي رضي الله عنه أنه شكى إلى رسول الله ﷺ وجعاً يجده في جسده منذ أسلم فقال له رسول الله ﷺ: (ضع يدك على الذي تألم من جسدك وقل : باسم الله ثلاثاً، وقل سبع مرات: أعوذ بالله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر)^(٢).
- وعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: كان من دعاء رسول الله ﷺ: (اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك، وتحول عافيتك، وفجاءة نقمتك، وجميع سخطك)^(٣).
- ٣- الاستعاذة عند الزواج: قال رسول الله ﷺ: (إذا تزوج أحدكم امرأة أو اشترى خادماً فليقل : اللهم إني أسألك خيراً وخير ما جبلتها عليه وأعوذ بك من شرها وشر ما جبلتها عليه..^(٤)).
- ٤- الاستعاذة عند نزول منزل: عن خولة بنت حكيم السلمية رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (من نزل منزلاً ثم قال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق. لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك)^(٥).

٥- الاستعاذة من العذاب والفتن: عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان يعلمهم هذا الدعاء كما يعلمهم السورة من القرآن يقول: (قولوا: اللهم إنا نعوذ بك من عذاب جهنم ، وأعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال، وأعوذ بك من فتنة الحيا والممات)^(٦).

(١) أخرجه البخاري كتاب الدعوات باب أفضل الاستغفار (٦٣٠٦).

(٢) أخرجه مسلم كتاب السلام باب استحباب وضع يده على موضع الألم (٢٢٠٢).

(٣) أخرجه مسلم كتاب الذكر باب أكثر أهل الجنة الفقراء وأهل النار النساء وبيان الفتنة (٢٧٣٩).

(٤) أخرجه أبو داود كتاب النكاح باب في جامع النكاح (٢١٦٠) واللفظ له ، وابن ماجه كتاب التجارات باب شراء الرقيق

(٢٢٥٢) وحسنه الألباني ، صحيح سنن ابن ماجه (١٨٢٥).

(٥) أخرجه مسلم كتاب الذكر باب التعوذ من سوء القضاء وغيره (٢٧٠٨).

(٦) أخرجه مسلم كتاب المساجد باب ما يستعاذ منه في صلاة (٥٩٠).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفراش فالتمسته فوقعت يدي على بطن قدميه وهو في المسجد وهما منصوبتان وهو يقول: (اللهم أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك)^(١).

٦- الاستعاذة عندما يرى الإنسان في منامه ما يكره: قال النبي ﷺ: (الرؤيا الصالحة من الله، والحلم من الشيطان، فمن رأى شيئاً يكرهه فلينفث عن شماله ثلاثاً وليتعوذ من الشيطان فإنها لا تضره)^(٢). ومواقع حصر الاستعاذة في السنة لا يمكننا في هذا الموضوع لكثرة الأحاديث في ذلك، وتكفيها منه الإشارة.

المسألة السادسة: من فوائد الاستعاذة:

- ١ - أهما "حصن حصين من الشيطان الرجيم .
- ٢ - أن من استعاذ بالله واعتصم به أعاده الله .
- ٣ - أهما صمام أمن في الحياة وجنة من كل خطر .
- ٤ - إظهار الضعف والذلة والانكسار لله وتلك حقيقة العبودية .
- ٥ - أن الوقاية خير من العلاج .
- ٦ - أن الأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل على الله .
- ٧ - أن الاستعاذة تزيل الغضب وتريح النفس .
- ٨ - أن الاستعاذة تقي الإنسان من شرور جوارحه .
- ٩ - أن الاستعاذة مظهر من أهم مظاهر الاستغفار .
- ١٠ - في الاستعاذة بالمعوذتين أثناء المرض إتباع لسنة المصطفى ﷺ وكفى بذلك بركة .
- ١١ - أنه بالاستعاذة من جار السوء يحمى الإنسان نفسه ويصون عرضه .
- ١٢ - أن الاستعاذة تقي الإنسان من ضرر الحيوان المؤذي كالأفعى ونحوها .
- ١٣ - أنه بالاستعاذة من الشيطان يندفع الأثر النفسي السيئ الناجم عن الحلم .
- ١٤ - أنه بالاستعاذة يتجنب الإنسان الضرر حتى يرحل من منزله الذي تعوذ فيه"^(٣) .

(١) أخرجه مسلم كتاب الصلاة باب ما يقال في الركوع والسجود (٤٨٦).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التعبير باب من رأى النبي صلى الله عليه وسلم في المنام (٦٩٩٥) ، ومسلم كتاب الرؤيا أول حديث في الكتاب (٢٢٦١).

(٣) نضرة النعيم ٢٢٦/٢ بتصرف يسير.

المطلب الثالث

الرقية وأحكامها

الرقية لغةً: بضم الراء وسكون القاف، جمعُه رُقَى ورُقِيَات؛ العودَة يتلفظ بها للمريض^(١). والمراد بالرقية: "ما يرقى به من الدعاء لطلب الشفاء"^(٢) مع النفث أو المسح على موضع الألم. وهي مشروعة ونافعة - بإذن الله - إذا كانت من القرآن والأدعية الصحيحة. ويمكن إجمال أحكام الرقية في النقاط التالية:

أولاً: حكم الرقية:

لا شك ولا ريب أن العلاج بالقرآن الكريم وبما ثبت عن النبي - ﷺ - من الرقى هو علاج نافع وشفاء تام قال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءً ﴾ [فصلت ٤٤] ، وقال: ﴿ وَنُنزِلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء ٨٢]، و(من هنا لبيان الجنس، فإن القرآن كله شفاء^(٣)). وقال تعالى: ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس ٥٧].

فالقرآن هو الشفاء التام من جميع الأدواء، وكيف تقاوم الأدواء كلام رب الأرض والسماء الذي لو نزل على الجبال لصدعها، أو على الأرض لقطعها، قال ابن القيم رحمه الله: "فمن لم يشفه القرآن فلا شفاه الله ومن لم يكفه فلا كفاه الله"^(٤).

وقال رحمه الله تعالى: "لقد مر بي وقت في مكة سقمت فيه، ولا أجد طبيباً ولا دواء فكنيت أعالج نفسي بالفاتحة، فأرى لها تأثيراً عجبياً، أخذ شربة من ماء زمزم وأقرأها عليها مرارا ثم أشربه فوجدت بذلك البرء التام، ثم صرت أعتمد ذلك عند كثير من الأوجاع فأتنتفع به غاية الانتفاع، فكنيت أصف ذلك لمن يشتكي ألماً فكان كثيرٌ منهم يبرأ سريعاً"^(٥).

وكذلك العلاج بالرقى النبوية الثابتة من أنفع الأدوية، والدعاء إذا سلم من الموانع من أنفع الأسباب في دفع المكروه وحصول المطلوب، فهو من أنفع الأدوية، وخاصة مع الإلحاح فيه، وهو عدو البلاء، يدافعه ويعالجه، ويمنع نزوله، أو يخففه إذا نزل^(٦).

(١) معجم لغة الفقهاء ٢٢٦.

(٢) قاله الطيبي. انظر: فيض القدير ١/٤٩٠، وحاشية العدوي على الرسالة ١/٤٥٢.

(٣) الجواب الكافي ص ٢٠.

(٤) زاد المعاد ٤/٣٥٢.

(٥) انظر: زاد المعاد ٤/١٧٨، والجواب الكافي ص ٢١.

(٦) انظر: الجواب الكافي ص ٢٢ - ٢٥.

ثالثاً: شروط جواز الرقية :

وقد أجمع العلماء على جواز الرقى عند اجتماع ثلاثة شروط :

١- أن تكون بكلام الله تعالى أو بأسمائه وصفاته أو كلام رسوله ﷺ .

٢- أن تكون باللسان العربي أو بما يعرف معناه من غيره .

٣- أن يعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها بل بقدرة الله تعالى - والرقية إنما هي سبب من الأسباب^(١) .

وهناك أحاديث جاءت في النهي عن الرقية كما ورد في قوله عليه الصلاة والسلام: (إن الرقى والتمائم والتولة شرك)^(٢) قال في فتح المجيد: "هذا يشير إلى أن الرقى الموصوفة بكونها شركاً، وهي التي يستعان بها بغير الله، وأما إذا لم يذكر فيها إلا أسماء الله وصفاته وآياته، والمأثور عن النبي ﷺ، فهذا حسن جائز أو مستحب"^(٣) .

ثالثاً: شروط الشفاء من الرقية :

إن الآيات والأذكار والدعوات والتعوذات - التي يُستشفى بها ويُرقى بها - هي في نفسها نافعة شافية بأمر الله، ولكن تستدعي قبول وقوة الفاعل وتأثيره فمتى تخلف الشفاء كان لضعف تأثير الفاعل، أو لعدم قبول المنفعل، أو لمانع قوي فيه يمنع أن ينجح فيه الدواء؛ فإن العلاج بالرقى يكون بأمرين: أمر من جهة المريض، وأمر من جهة المعالج.

فالذي من جهة المريض يكون بقوة نفسه وصدق توجهه إلى الله تعالى، واعتقاده الجازم بأن القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين، والتعوذ الصحيح الذي قد تواطأ عليه القلب واللسان؛ فإن هذا نوع محاربة، والمحارب لا يتم له الانتصار من عدوه إلا بأمرين: أن يكون السلاح صحيحاً في نفسه جيداً، وأن يكون الساعد قوياً.

الأمر الثاني: من جهة المعالج بالقرآن والسنة؛ أن يكون فيه هذان الأمران أيضاً، ولهذا قال ابن التين رحمه الله: "الرقى بالمعوذات وغيرها من أسماء الله هو الطب الروحاني إذا كان على لسان الأبرار من الخلق حصل الشفاء بإذن الله تعالى"^(٤) .

(١) انظر فتح الباري ١٠ / ١٩٥، وفتاوى العلامة ابن باز ٣٨٤/٢ .

(٢) أخرجه أبو داود كتاب الطب باب في تعليق التمام (٣٨٨٣) وابن ماجه (٣٥٣٠) .

(٣) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ١٤٧ .

(٤) فتح الباري ١٠ / ١٩٦ .

تفسير سورة الفلق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾ .

المبحث الأول

وقفات مع الاستعاذ به والمستعاذ منه

المطلب الأول

المستعاذ به

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ الفلق : الصبح^(١)، وقيل: فالفلق الحب والنوى، وفالق الإصباح^(٢) "فالاستعاذة برّب الصبح الذي يُؤمّن بالنور من شر كل غامض مستور، أو الاستعاذة برّب الخلق الذي يُؤمّن من شر خلقه، فالمعنى يتناسق مع ما بعده"^(٣).

"فحقيقة الفلق: الانشقاق عن باطن شيء، هو هنا: ظهور الصبح بعد ظلمة الليل، ورب الفلق: هو الله، لأنه الذي خلق أسباب ظهور الصبح، وتخصيص وصف الله بأنه رب الفلق دون وصف آخر؛ لأن شراً كثيراً يحدث في الليل: من لصوص، وسباع، وذوات سموم، وتعذر السير، وعسر النجدة، وبعد الاستغاثة، واشتداد آلام المرضى، حتى ظن بعض أهل الضلالة الليل إله الشر.

فالمعنى: أعوذ بفالق الصبح من شرور الليل، فإنه قادر على أن ينجيني في الليل من الشر، كما أنج أهل الأرض كلهم بأن خلق لهم الصبح، فوصف الله بالصفة التي فيها تمهيد للإجابة"^(٤).

وهي الحكمة في اختيار هذا الفلق ليستعاذ بربه.. فهو أقرب لطلب المستعبد، وهو أقرب إلى حاجته، والتجاءه بربه سبحانه فهو العظيم المحيط علمه وأمره بهذه المخلوقات كلها.

(١) رجع هذا المعنى ابن كثير في تفسيره ٥٣٥/٨، والطبري ٢٢٥/٣٠، وكذلك الإمام البخاري انظر: الفتح ٧٤١/٨.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ٩٣٧ باختصار.

(٣) في ظلال القرآن ٤٠٠٧/٦.

(٤) التحرير والتنوير ٦٢٦/٣٠ بتصرف.

المطلب الثاني المستعاذ منه

والاستعاذة هنا من عدة أمور:

١ - ﴿ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ .

"من شر جميع المخلوقات" (١) "فللخلايق شرور في حالات اتصال بعضها ببعض. كما أن لها خيراً ونفعاً في حالات أخرى .

والاستعاذة بالله هنا من شرها ليبقى خيرها، والله الذي خلقها قادر على توجيهها وتدبير الحالات التي يتضح فيها خيرها لا شرها" (٢).

ثم " عطف أشياء خاصة هي مما شمله عموم ﴿ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ وهي ثلاثة أنواع من الشرور: أحدهما: وقت يغلب وقوع الشر فيه وهو الليل. والثاني: صنف من الناس أقيمت صناعتهم على إرادة الشر بالغير. والثالث: صنف من الناس ذو خلق من شأنه أن يبعث على إلحاق الأذى بمن تعلق به" (٣) فقال:

٢ - ﴿ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾

" الغاسق: الليل. والوقب: غروب الشمس" (٤) أي: من شر ما يكون في الليل حين يغشى الناس، وتنتشر فيه كثير من الأرواح الشريرة، والحيوانات المؤذية" (٥).

"فهو الليل وما فيه. الليل حين يتدفق فيغمر البسيطة. والليل حينئذ مخوف بذاته. فضلاً على ما يثيره من توقع للمجهول الخافي من كل شيء: من وحش مفترس يهجم. ومتلصص فاتك يقتحم . وعدو مخادع يتمكن. وحشرة سامة تزحف. ومن وساوس وهواجس وهموم وأشجان تتسرب في الليل، وتخنق المشاعر والوجدان، ومن شيطان تساعد الظلمة على الانطلاق والإيحاء. ومن شهوة تستيقظ في الوحدة والظلام. ومن ظاهر وخاف يدب ويثب، في الغاسق إذا وقب" (٦).

(١) تفسير القرآن العظيم ٥٣٥/٨.

(٢) في ظلال القرآن ٤٠٠٧/٦.

(٣) التحرير والتنوير ٥٢٧/٣٠.

(٤) تفسير القرآن العظيم ٥٣٦/٨.

(٥) تيسير الكريم الرحمن ٩٣٧.

(٦) في ظلال القرآن ٤٠٠٧/٦.

"وتنكير ﴿عَاسِقٍ﴾ للجنس لأن المراد جنس الليل، وتنكير ﴿عَاسِقٍ﴾ في مقام الدعاء يراد به العموم لأن مقام الدعاء يناسب التعميم.

وتقييد ذلك بظرف ﴿إِذَا وَقَبَ﴾ أي: إذا اشتد ظلمته، لأن ذلك وقت يتحينه الشطار وأصحاب الدعارة والعيب، لتحقق غلبة الغفلة والنوم على الناس فيه" (١).

٣ - ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾

أي: "السواحر إذا رقيين ونفثن في العقد" (٢).

والسحر هو: "عُقْدٌ وَرُقَى يَتَكَلَّمُ بِهِ أَوْ يَكْتُبُهُ السَّاحِرُ أَوْ يَعْمَلُ شَيْئًا يُؤْثِرُ فِي بَدَنِ الْمَسْحُورِ أَوْ قَلْبِهِ مِنْ غَيْرِ مَبَاشَرَةٍ لَهُ" (٣).

"وإنما جيء بصفة المؤنث لأشخصن الغالب عند العرب أن يتعاطى السحر النساء، فالأوهام الباطلة تنفسي بينهن لأنهن لا يجدون ما يشغلن به أوقاكن، وعطف ﴿الْأَنفَثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ على شر الليل لأن الليل وقت يتحين فيه السحرة إجراء شعوذهم لئلا يطلع عليهم أحد.

وإنما جعلت الاستعانة من النفثات لا من -النفث فلم يقل: إذا نفثت في العقد - للإشارة إلى أن الساحر يحرص على أن لا يترك شيئاً مما يحقق له ما يعم له لأجله إلا احتال على إيصاله إليه، فربما أغرى به من يغتاله أو من يتجسس على أحواله، ليُري لمن يسألونه السحر أن سحره لا يتخلف ولا يخطئ" (٤).

وقال ابن القيم: "والجواب المحقق إن ﴿الْأَنفَثَاتِ﴾ هنا: هن الأرواح والأنفس النفثات، لا النساء النفثات؛ لأن تأثير السحر إنما هو من جهة الأنفس الحيثة والأرواح الشريرة، وسلطانه إنما يظهر منها، فلهذا ذكرت النفثات هنا بلفظ التأنيث دون التذكير والله أعلم" (٥).

٤ - ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾

والحاسد هنا: "هو الذي يحب زوال النعمة عن المحسود" (٦).

لأن "الحاسد هو: الذي يكره نعمة الله على غيره، فتجده يضيق ذرعاً إذا أنعم الله على هذا الإنسان بمال، أو جاه، أو علم أو غير ذلك فيحسده. ولكن الحُساد نوعان: نوع يحسد ويكره في قلبه نعمة الله

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٥٢٧.

(٢) المغني ٨/١٥٠.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٨/٥٣٦.

(٤) التحرير والتنوير ٣٠/٥٢٨ مختصراً.

(٥) بدائع الفوائد ٢/٤٤٧-٤٤٨، وانظر البحر المحيط ٨/٥٣١، وتفسير جزء عم لابن عثيمين ص ٣٥٧.

(٦) تيسير الكريم الرحمن ٩٣٧.

على غيره، لكن لا يتعرض للمحسود بشيء، تجده مهموماً مغموماً من نعم الله على غيره، لكنه لا يعتدي على صاحبه. والشر والبلاء إنما هو بالحاسد إذا حسد. ولهذا قال: ﴿ إِذَا حَسَدَ ﴾^(١).

"فإن مما يدعو الحاسد إلى أذى المحسود أن يتطلب حصول أذاه لتوهم أن السحر يزيل النعمة التي حسده عليها، ولأن ثوران وجدان الحسد يكثر في وقت الليل، لأن الليل وقت الخلوة وخطور الخواطر النفسية والتفكير في الأحوال الحافة بالحاسد والمحسود"^(٢).

"وقد يغلب الحسد صبر الحاسد وأناته فيحمله على إيصال الأذى للمحسود بإتلاف أسباب نعمته أو إهلاكها رأساً، وقد كان الحسد أول أسباب الجنايات في الدنيا إذ حسد أحد ابني آدم أخاه على أن قبيل قربانه ولم يقبل من الآخر، كما قصه الله تعالى في سورة المائدة .

وتقييد الاستعاذة من شره بوقت ﴿ إِذَا حَسَدَ ﴾؛ لأنه حينئذ يندفع إلى عمل الشر بالمحسود حين

يجيش الحسد في نفسه فتتحرك له الحيل والنوايا لإلحاق الضرر به"^(٣).

وهذا "تعميم في كل ما يستعاذ منه، وقد خص شرّ هؤلاء من كل شرّ لحفاء أمره، وأنه يلحق الإنسان من حيث لا يعلم، كأنما يغتال به. وعُرِّفَتِ النِّفَاتَاتُ؛ لأن كل نفاثة شريرة. ونُكِّرَ غَاسِقٌ: لأن كل غاسق لا يكون فيه الشر، إنما يكون في بعض دون بعض. وكذلك كل حاسد لا يضرّ. ورب حسد محمود؛ وهو الحسد في الخيرات. ومنه قوله ﷺ: (لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالا فسلط على هلكته في الحق ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها)^(٤) (٥).

"وأعيدت كلمة ﴿ مِنْ شَرِّ ﴾ بعد حرف العطف في هذه الجملة. وفي الجملتين المعطوفتين عليها مع أن حرف العطف مغن عن إعادة العامل؛ قصداً لتأكيد الدعاء تعرضاً للإجابة. وهذا من الابتهاال فيناسبه الإطناب"^(٦).

(١) تفسير جزء عمّ لابن عثيمين ص ٣٥٧ ، وانظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام ١٠/١٢٩، وحاشية ابن القيم على سنن أبي داود ١٣/١٦٨، والبحر المحيط ٨/٥٣١.

(٢) التحرير والتنوير ٣٠/٥٢٨.

(٣) التحرير والتنوير ٣٠/٥٢٨.

(٤) أخرجه البخاري كتاب العلم باب الاعتباط في العلم والحكمة (٨٠) ومسلم كتاب صلاة المسافرين باب من يقوم بالقرآن ويعلمه (٨١٦).

(٥) الكشف ٤/٢٤٤.

(٦) التحرير والتنوير ٣٠/٥٢٧.

المبحث الثاني

خطر السحر والحسد وطرق الوقاية منهما

المطلب الأول

خطورة السحر وطرق الوقاية منه

أولاً : خطورة السحر : تتمثل خطورة السحر في حرمة إجمالا ومن الحكم في تحريمه:

١ - أن السحر علم يتعلم من الشياطين؛ قال تعالى: ﴿ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ

السِّحْرَ ﴾ [البقرة ١٠٢].

٢ - السحرة لا يفلحون، قال تعالى: ﴿ قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا

يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴾ [يونس ٧٧].

٣ - الله تعالى لا يصلح عمل السحرة المفسدين قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ

السِّحْرَ إِنَّ اللَّهَ سَيَبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [يونس ٨١]. وقال تعالى: ﴿

وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴾ [طه ٦٩].

٤ - السحر من الموبقات: قال رسول الله ﷺ: (اجتنبوا الموبقات الشرك بالله والسحر)^(١).

٥ - السحر كفر بالله: قال رسول الله ﷺ: (من أتى عرافاً أو ساحراً أو كاهناً يؤمن بما يقول فقد

كفر بما أنزل على محمد ﷺ)^(٢)، قال الذهبي: الساحر لا بد وأن يكفر إذ ليس للشيطان

غرض في تعليمه الإنسان السحر إلا ليشرك بالله، وحد الساحر القتل لأنه كفر بالله^(٣).

٦ - قال رسول الله ﷺ: (من أتى عرافاً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة)^(٤).

ثانياً: من مضار السحر:

١ - يفرق بين المرء وزوجه.

٢ - الساحر معول هدم في المجتمع.

٣ - عمل بغيض وخلق ذميم.

(١) أخرجه البخاري كتاب الطب باب الشرك والسحر من الموبقات (٥٧٦٤)، ومسلم كتاب الإيمان باب بيان الكبائر وأكبرها (٨٩) بزيادة.

(٢) الترغيب والترهيب ٣٦/٤ وقال: رواه الطبراني في الكبير ورواته ثقات، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٣٠٤٧) .

(٣) الكبائر (١٤٠١٦) باختصار وتصرف يسير.

(٤) أخرجه مسلم كتاب السلام باب تحريم الكهانة.. (٢٢٣٠).

- ٤ - يغضب الرب ويسخط العبد.
 ٥ - يورث الخسران في الدنيا والآخرة.
 ٦ - هلاك للساحر وضرر بالمسحور^(١).

ثانياً : كيفية العلاج من السحر والوقاية منه:

- ١ - التصبح بسبع تمرات مطلقاً وأفضلها عجوة عالية المدينة: قال النبي ﷺ (من اصطحب كل يوم تمرات عجوة من تمر المدينة لم يضره سم ولا سحر ذلك اليوم إلى الليل).
 وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ - قال: (مَنْ اصْطَبَّحَ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعَ تَمْرَاتٍ مِنْ عَجْوَةٍ، لَمْ يَضُرَّهُ سُمْ وَلَا سِحْرٌ ذَلِكَ الْيَوْمَ إِلَى اللَّيْلِ)^(٢). وفي رواية: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: (مَنْ تَصَبَّحَ بِسَبْعِ تَمْرَاتٍ عَجْوَةٍ لَمْ يَضُرَّهُ ذَلِكَ الْيَوْمَ سُمْ وَلَا سِحْرٌ)^(٣). وفي أخرى: (من أكل سبع تمرات مما بين لابتي المدينة على الريق لم يضره يومه ذلك سم ولا سحر وإن أكلها حين يمسي لم يضره سم حتى يصبح)^(٤).
- ٢ - الإستعاذة بالله منه: قال تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾.
- ٣ - تقوى الله: قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق ٢].
- ٤ - التوكل على الله والاعتماد عليه فمن يتوكل على الله فهو حسبه، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق ٣].
- ٥ - الإكثار من قراءة القرآن والأدعية المأثورة في كل وقت وفي كل حال.
- ٦ - الرقية الشرعية.
- ٧ - استخراج السحر وإبطاله وهذه من طرق علاج السحر بعد وقوعه.
- ٨ - استعمال الأدوية المباحة والتي يعرفها الأطباء وأهل العلم^(٥).

(١) نضرة النعيم ١٠/٤٦٠١.

(٢) أخرجه البخاري كتاب الطب باب الدواء بالعجوة للسحر (٥٧٦٨) واللفظ له ، ومسلم كتاب الأشربة باب فضل تمر المدينة (٢٠٤٧).

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب الطب باب في تمر العجوة (٣٨٧٦) وصححه الألباني.

(٤) أخرجه أحمد ١/١٦٨ (١٤٤٢). قال الهيثمي ٤١/٥ رجاله رجال الصحيح . وأصله في صحيح مسلم (٢٠٤٧).

(٥) نضرة النعيم ١٠/٤٦٠١، عالم السحر والشعوذة د. عمر الأشقر ١٩٩-٢٠٧.

المطلب الثاني

خطورة الحسد وطرق الوقاية منه

أولاً : خطورة الحسد :

ذكر الله تعالى أن الحسد من صفات الكفار قال تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ ﴾ [البقرة ١٠٩]. وذمهم فقال تعالى: ﴿ أَمْ تَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۗ ﴾ [النساء ٥٤].

وقد ذم النبي ﷺ الحسد والحاسد فقال: (..ولا يجتمعان في قلب عبد الإيمان والحسد)^(١)، وقال: (لا يزال الناس بخير ما لم يتحاسدوا)^(٢). وقال: (العين حق)^(٣).

قال الماوردي: " اعلم أن الحسد خلق ذميم، مع أضراره بالبدن، وإفساد للدين حتى لقد أمر الله بالاستعاذة منه فقال: ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ ﴿٥﴾ وناهيك بحال ذلك شراً ولو لم يكن من دم الحسد إلا أنه خلق ديني، يتوجه نحو الأكفاء والأقارب، ويختص بالمخالط والصاحب، وهو كذلك بالنفس مضر، وعلى المهم مصر حتى ربما أفضى بصاحبه إلى التلف من غير نكاية بعدو ولا إضرار بمحسود"^(٤).

وأضف على ذلك أن "البخل والحسد مشتركان في أن صاحبهما يريد منع النعمة عن الغير، ثم يتميز البخل بعدم دفع ذي النعمة شيئاً، والحاسد يتمنى إلا يعطى أحد سواه شيئاً"^(٥). قال بعض الأدباء: "ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم من الحسود نفس دائم، وهم لازم وقلب هائم"^(٦).

ثانياً : دواعي الحسد :

- ١ - بغض المحسود فيأسى عليه بفضيلة تظهر.
- ٢ - أن يظهر من المحسود فضل يعجز عنه يكره تقدمه فيه.
- ٣ - أن يكون في الحاسد شح بالفضائل، فيعترض على قضاء الله له^(٧).

(١) أخرجه النسائي في السنن كتاب الجهاد فضل من عمل في سبيل الله على قدمه (٢٩١٢) وحسنه الألباني.

(٢) أخرجه الطبراني ٣٠٩/٨ ، رقم (٨١٥٧) . قال الهيثمي ٧٨/٨ رجاله ثقات. وصححه الألباني (٣٣٨٦) الصحيحة.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الطب باب العين حق (٥٧٤٠)، ومسلم في كتاب السلام باب الطب والمرض والرقى (٢١٨٧).

(٤) أدب الدنيا والدين للماوردي ٢٦٠-٢٦١.

(٥) الكلبيات ٢٤٢.

(٦) أدب الدنيا والدين للماوردي ١٧٦.

(٧) هذه الثلاثة أمور ذكرها الماوردي في أدب الدنيا والدين ١٧٦.

٤ - الخوف من فوت المقاصد، وهذا يختص بمتزاحمين على مقصود واحد^(١)، وهي أمور الدنيا، وأما أمور الآخرة فإنها لا تضيق على المتزاحمين.

ثالثاً: مضار الحسد:

- ١ - إسخاط الله تعالى في معارضته، إذ ليس يرى قضاء الله عدلاً ولا لنعمه من الناس أهلاً.
- ٢ - حسرات النفس وسقام الجسد.
- ٣ - انخفاض المترلة، وانحطاط المرتبة.
- ٤ - سمقت الناس له، وعداوتهم.
- ٥ - يجلب النقم ويزيل النعم.
- ٦ - منبع الشرور العظيمة ومفتاح العواقب الوخيمة.
- ٧ - سيورث الحقد والضغينة في القلب.
- ٨ - معمول هدم في المجتمع.
- ٩ - دليل على سفول الخلق ودناءة النفس^(٢).

رابعاً : دواء الحسد :

١ علاج الحسد عن الحاسد :

مرض الحسد يمكن أن يعالج بأمور: إتباع دين الله تعالى، والتوبة إلى الله تعالى، والرجوع إلى الله في آدابه فيقهر نفسه على اجتناب مذموم الأخلاق، وتذكر أن العقل السليم يستقبح هذا الأمر، أن يجاهد نفسه على عدم التفكير في نعم غيره ويرضى بقضاء ربه له، وإشغال الذهن بالتفكير في آيات الله ونعم الله عليه، الدعاء لمن يتميز بنعمة من الله.. وغيرها من الأسباب المعينة.

٢ علاج الحسد عند المحسود :

قال ابن القيم: "ويندفع شر الحاسد عن المحسود بعشرة أسباب:

- ١ - التعوذ بالله من شره، والتحصن به واللجوء إليه.
- ٢ - تقوى الله، فمن اتقى الله حفظه ولم يكله إلى غيره.

(١) إحياء علوم الدين ٣/٢٠٠.

(٢) نضرة النعيم ١٠/٤٤٢٩.

- ٣ - الصبر على عدوه، وأن لا يقاتله ولا يشكوه.
- ٤ - التوكل على الله فمن توكل على الله فهو حسبه.
- ٥ - فراغ القلب من الاشتغال به الفكر فيه وأن لا يخافه.
- ٦ - الإقبال على الله تعالى وعلى عبادته، قال تعالى: ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ۗ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ۗ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ﴿١١﴾ ﴾ [الرعد ١١].
- ٧ - تجريد التوبة إلى الله لأن الله يقول: ﴿ وَمَا أَصْبَحُكُمْ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [التوبة ٣٠].
- ٨ - الصدقة والإحسان ما أمكن، فما حرس إنسان نعمة بمثل شكرها ولا عرضها للزوال بمثل العمل فيها بمعاصي الله، وقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال: (صنائع المعروف تقي مصارع السوء)^(١).
- ٩ - إطفاء نار الحاسد بالإحسان إليه وهذا من أعظمها قال تعالى: ﴿ وَلَا تَسْتَوِيَ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ۗ ادْفَعِ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿١٤﴾ ﴾ [فصلت ٣٤-٣٥].
- ١٠ - تجريد التوحيد، والترحل بالفكر في الأسباب إلى المسبب فهو الذي يكشفها عنه قال تعالى: ﴿ وَإِن يَمَسَّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ۗ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ۗ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۗ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٧﴾ ﴾ [سونس ١٠٧] ^(٢).

(١) صحيح الترغيب والترهيب ١/٢٦١ (٨٩٠) وقال الألباني حسن لغيره .

(٢) مختصر من بدائع الفوائد ٢/٤٦٣-٤٧٠، وانظر التفسير القيم لابن القيم ٥٨٥-٥٩٣، وبدائع التفسير ٥/٤١٦-٤٢٥-الضوء المنير ٥/٥٣١ باختصار وزيادة في الأدلة ، وانظر تفسير سورة الناس للشيخ محمد ابن عبد الوهاب ص ٥٠ معالم في طريق طلب العلم للسدحان ٩٣-١١٤.

تفسير سورة الناس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾

الَّذِي يُوسَّوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٦﴾ ﴾

تنقسم السورة إلى قسمين ، ندرسها في المطالب التالية :

المبحث الأول

وقفات مع المستعاذ به والمستعاذ منه

المطلب الأول

المستعاذ به

الله سبحانه وتعالى برحمته يوجه رسوله ﷺ وأُمَّته إلى العياذ به والالتجاء إليه بقوله : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ

النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَهِ النَّاسِ ﴾ .

ويتبين هذا في عدة نقاط :

أولاً : ما يستفاد من قوله تعالى : ﴿ قُلْ ﴾ :

"الأمر بالقول يقتضي المحافظة على هذه الألفاظ لأنها التي عينها الله للنبي ﷺ ليتعوذ بها فإجاباتها مرجوة، فالهدف من الأمر إنشاء معنى في النفس تدل عليه هذه الأقوال الخاصة، وإذ قد كانت من القرآن فالمحافظة على ألفاظها متعينة والتعوذ يحصل بمعناها وبألفاظها حتى كلمة ﴿ قُلْ ﴾ .

والخطاب في ﴿ قُلْ ﴾ للنبي ﷺ وإذا قد كان قرآناً كان خطاب النبي ﷺ به يشمل الأمة حيث لا دليل

على تخصيصه به، فلذلك أمر النبي ﷺ بعض أصحابه بالتعوذ بهذه السورة"^(١).

ثانياً : يبين سبحانه الاستعاذة به بصفات :

ربط سبحانه الاستعاذة بصفات معينة، وهذه الصفات:

الرب: الرب الراعي والحامي لعباده.

والملك: الحاكم المتصرف في ملكه، وكل ما سوى الله مملوك له.

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٦٢٥-٦٢٦.

والإله: هو المعبود، والله سبحانه هو المستحق للعبادة وحده دون من سواه.

ولماذا هذه الصفات الثلاث؟

وهذا الربط والاصطفاء لهذه الصفات يتطلب استحضار معاني هذه الصفات حين الاستعاذة، فهذه الصفات الثلاث حماية من الشر الذي يتدسس إلى الصدور وهي لا تعرف كيف تدفعه لأنه مستور .

قال القرطبي: " وإنما ذكر أنه ﴿ بَرَبِ النَّاسِ ﴾، وإن كان ربا لجميع الخلق لأمرين:

أحدهما: لأن الناس معظمون، فأعلم بذكرهم أنه رب لهم وإن عظموا.

الثاني: لأنه أمر بالاستعاذة من شرهم، فأعلم بذكرهم أنه هو الذي يعيد منهم" (١).

وأمر ثالث وهو: " أن الشر المستعاذ منه مَصَّبُهُ إلى الناس فناسب أن يستحضر المستعاذ إليه بعنوان أنه رب من يلقون الشر ومن يُلْقَى إليهم، ليصرف هؤلاء ويدفع عن الآخرين" (٢).

"إنما قال: ﴿ مَلِكِ النَّاسِ ﴾ إلهِ النَّاسِ لأن في الناس ملوكاً؛ يُدَكَّرُ أنه ملكهم، وفي الناس من

يعبد غيره؛ فَدَكَّرُ أنه إلههم ومعبودهم، وأنه الذي يجب أن يستعاذ به ويلجأ إليه، دون الملوك والعظماء" (٣).

"وقد رتبت أوصاف الله بالنسبة إلى الناس ترتيباً مخرجاً: رب ثم ملك ثم إله:

١ - فالله خالق الناس، ثم هم غير خارجين عن حكمه إذا شاء أن يتصرف في شؤونهم، ثم زيد بياناً بوصف إلهيته لهم ليتبين أن ربوبيته لهم وحاكميته فيهم ليست كربوية بعضهم بعضاً وحاكمية بعضهم في بعض.

٢ - وفي هذا الترتيب إشعار بمراتب النظر في معرفة الله تعالى، فإن الناظر يعلن بادئ ذي بدء بأن له رباً، بسبب ما يشعر به من: وجود نفسه، ونعمة تركيبه. ثم يتغلغل في النظر فيشعر بأن ربه هو الملك الحق الغني عن الخلق. ثم يعلم أنه المستحق للعبادة فهو إله الناس كلهم" (٤).

٣ - "بدأ باسم الرب، وهو اسم لمن قام بتدبيره، وإصلاحه من أوائل عمره إلى أن صار عاقلاً كاملاً، فحينئذ عرف بالدليل أنه عبد مملوك" (٥).

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/٢٦٠.

(٢) التحرير والتنوير ٣٠/٦٣٢.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/٢٦١.

(٤) التحرير والتنوير ٣٠/٦٣٢ - ٦٣٣.

(٥) فتح القدير ٥/٥٣١.

٤ - وبدأ بالربوبية لأنها الأعم فتشمل كل شيء من حيوان وجماد، وهي أول ما يُسأل عنه ﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهْرُ ﴿١٦﴾ [الرعد: ١٦].

ثم الملك وهو أكثر من الإلهية وعامة الخلق مقرون بالربوبية، ولكن أشكل عليهم وألبس عندهم ملك غيره؛ حقيقة مما هو غير خارج عن ملكه سبحانه، أو توهمًا كما في الأشجار والأحجار والمعبودات.

ثم الألوهية هي عقيدة خلاصة المكلفين من الإنس والجن، وهي سر إرسال الرسل قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ [الأنبياء: ٢٥].

ثالثاً: فائدة تخصيص الناس بإضافة تلك الصفات:

خصص الله الربوبية والملك والإلهية للناس مع أن الله ربُّ كل شيء، وملك كل شيء، وإله كل شيء لمميزات وإشارات منها:

١- "استشعار قرب الله ورعايته لمن هو ربه وملكهم وإلههم في موقف العياد والاحتماء"^(١)، وهذا يستلزم الإخلاص والصدق في تلك الاستعادة.

٢- "إشارة إلى كل الناس بدون تخصيص جنس أو لون"^(٢)، فلا يخرج شيء عن ربوبيته وملكه ولو كان كافراً أو شيطاناً ظالماً.

٣- "وكرر لفظ الناس في الثلاث مواضع: لأن عطف البيان يحتاج إلى مزية إظهار، ولأن التكرار يقتضي مزيد شرف للناس"^(٣).

(١) في ظلال القرآن ٦/٤٠١٠.

(٢) التحرير والتنوير ٣٠/٦٣٣ بتصرف.

(٣) فتح القدير ٥/٥٣١.

المطلب الثاني

المستعاذ منه

قال تعالى: ﴿ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿١﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٢﴾ مِنَ الْجِنَّةِ

وَالنَّاسِ ﴿٣﴾ ﴾

وفي هذه الجملة عدة نقاط:

أولاً: يبين لنا الله سبحانه وتعالى هنا صفة هذا المستعاذ منه وهي:

١- ﴿ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ ﴾ "يعني: من شر الشيطان. والوسوسة: حديث النفس"^(١) "وهي: الكلام

الخفي، وإطلاق ﴿ الْوَسْوَاسِ ﴾ يشمل: الشياطين التي تلقي في أنفس الناس الخواطر الشريرة، قال تعالى:

﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ ﴾ [طه ٢٠] ويشمل الوسواس: كل من يتكلم كلاماً خفياً من الناس - وهم

أصحاب المكائد والمؤامرات - المقصود منها إلحاق الأذى؛ من اغتيال نفوس، أو سرقة أموال، أو إغراء

بالضلال والإعراض عن الهدى. لأن شأن مذاكرة هؤلاء بعضهم مع بعض أن تكون سراً لئلا يطلع

عليها من يريدون الإيقاع به"^(٢).

٢- ﴿ الْخَنَّاسِ ﴾ : "مأخوذ من خنس، ومعناه: الاختفاء بعد الظهور، وقيل: الرجوع للوراء،

والخناس مأخوذ من هذين المعنيين. كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: (الشيطان جاثم على قلب ابن

آدم فإذا ذكر الله تعالى خنس، وإذا غفل وسوس)^(٣) أي: تأخر وأقصر، فسمي بالخناس لأنه جبان

يهرب ويتوارى عند ذكر الله، "ثم إذا غفل الإنسان عاوده بالوسوسة"^(٤). والمراد: أن الخنس صار عادة

له"^(٥).

قال القرطبي: "ووصف بالخناس لأنه كثير الاختفاء، ومنه قوله تعالى: ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالْخَنَّاسِ ﴾ [التكوير

١٥] يعني النجوم، لاختفائها بعد ظهورها. وقيل: لأنه يخنس إذا ذكر العبد الله، أي يتأخر. وقيل: سمي

خناساً لأنه يرجع إذا غفل العبد عن ذكر الله"^(٦). "فهو يتصل بعقل الإنسان وعزمه من غير شعور منه

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/٢٦١.

(٢) التحرير والتنوير ٣٠/٦٣٣.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في الصنف ١٣٥/٧ (٣٤٧٧٤) وعبد الرزاق في مصنفه ١٣٥/٧ (٣٤٧٧٤)، والحاكم في المستدرک

٥٩١/٢ (٣٩٩١) وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. والبيهقي في شعب الإيمان ١٦٩/٢ (٦٦٦)

والمقدسي في المختارة ١٠٥/٣٦٧ (٣٩٣)، وذكره البخاري تعليقاً في كتاب التفسير باب سورة الناس .

(٤) وانظر بدائع الفوائد ٢/٤٧٩ ط الباز الأولى ٤١٦، وانظر التفسير القيم ٢/٣١٩.

(٥) التحرير والتنوير ٣٠/٦٣٤.

(٦) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/٢٦٢.

فكأنه خنس فيه، وأهل المكر والكيد والتختل خناسون؛ لأنهم يتحيلون غفلات الناس ويتسترون بأنواع الحيل لكيلا يشعر الناس بهم^(١).

ثانياً : حدد الله تعالى عمل هذا المستعاذ منه:

﴿ الَّذِي يُوسِّسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴾ : "ووسوسته: هو الدعاء لطاعته بكلام خفي، يصل مفهومه إلى القلب من غير سماع صوت"^(٢) كما قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ [الأنعام: ١١٢].

وبيان العمل: "لتقريب تصوير الوسوسة كي يتقيها المرء إذا اعترته لخبائثها وذلك بأن يبين أن مكان إلقاء الوسوسة هو صدور الناس وبواطنهم فعبّر بها عن الإحساس النفسي"^(٣) قال تعالى: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَرَ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرًا مَّا هُمْ بِبَلِغِيهِ ﴾ [غافر: ٥٦]، وقال النبي صلى الله عليه وسلم (الإثم ما حاك في الصدر وتردد في القلب)^(٤).

(في صدور) كل (الناس) بلا استثناء، ولكن من يستمع إليه ويصغي إليه ويعمل بوسوسته يهلك وأما من طرحه وذكر الله فقد نجا.

فالوسواس الخناس هو: "الشيطان الموكل بالإنسان، فإنه ما من أحد من بني آدم إلا وله قرين يُزين له الفواحش"^(٥) وقد ثبت في الصحيح أنه: (ما منكم من أحد إلا قد وُكِّلَ به قرينة)، قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: (نعم، إلا أن الله أعانني عليه، فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير)^(٦).

وعن أنس رضي الله عنه في قصة زيارة صفية رضي الله عنها النبي ﷺ وهو معتكف، وخروجه معها ليلا ليردها إلى منزلها، فلقيه رجلان من الأنصار، فلما رأيا رسول الله ﷺ أسرع، فقال رسول الله: (على

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٦٣٤.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/٢٦٣.

(٣) التحرير والتنوير ٣٠/٦٣٤.

(٤) أخرجه مسلم كتاب البر والصلة والآداب باب تفسير البر والإثم (٢٥٥٣).

(٥) تفسير القرآن العظيم ٨/٥٣٩.

(٦) أخرجه مسلم كتاب صفة القيامة والجنة والنار باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس وأن مع كل إنسان قرينا (٢٨١٤).

رسلكما، إنها صافية بنت حُيي). فقالا: سبحان الله يا رسول الله!! فقال: (إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئا، أو قال: شرًّا)^(١).

ثالثاً : حدد شخصية المستعاذ منه :

﴿ مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ : " ﴿ مِنْ ﴾ هنا بيانية بينت ﴿ الَّذِي يُوسَّسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴾ فهو إما صنف من الجنَّة وهو أصله، وصنف من الناس وما هو إلا تبع وولي للصنف الأول"^(٢).

عن أبي ذر رضي الله عنه قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو في المسجد، فجلست، فقال: (يا أبا ذر، هل صليت؟). قلت: لا. قال: (قم فصل). قال: فقمت فصليت، ثم جلست فقال: (يا أبا ذر تعوذ بالله من شر شياطين الإنس والجن). قال: قلت: يا رسول الله، وللإنس شياطين؟ قال: (نعم)... الحديث^(٣).

وجمع الله هذين الصنفين في قوله: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ [الأنعام ١١٢].

قال الحسن: هما شيطانان، أما شيطان الجن فيوسوس في صدور الناس، وأما شيطان الإنس فيأتي علانية، وقال قتادة: إن من الجن شياطين، وإن من الإنس شياطين، فتعوذ بالله من شياطين الإنس والجن^(٤).

"ووجه الحاجة إلى هذا البيان خفاء ما ينجر من وسوسة نوع الإنسان، لأن الأمم اعتادوا أن يحذرهم المصلحون من وسوسة الشيطان، وربما لا يخطر بالبال أن من الوسواس ما هو شر من وسواس الشياطين، وهو وسوسة أهل نوعهم وهو أشد خطراً وهم بالتعوذ منهم أجدر؛ لأنهم منهم أقرب، وعليهم أخطر وأهم في وسائل الضرر أدخل وأقدر.

وقدم ﴿ الْجِنَّةِ ﴾ على ﴿ النَّاسِ ﴾ هنا لأنهم أصل الوسواس كما علمت، بخلاف تقديم الإنس على الجن في قوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ﴾ لأن خبثاء الناس أشد مخالطة للأنبياء من الشياطين، لأن الله عصم أنبياءه من تسلط الشياطين على نفوسهم قال تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَنٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾^(٥) [الأعراف ٤٢].

(١) أخرجه البخاري كتاب بدأ الخلق باب صفة إبليس وجنوده (٢٠٣٥). ومسلم كتاب السلام باب بيان أنه يستحب لمن رؤي خاليا بامرأة وكانت زوجته أو محرماً له أن يقول هذه فلانة ليدفع ظن السوء به (٢١٧٤).

(٢) التحرير والتنوير ٢٠/٦٣٥.

(٣) أخرجه النسائي في السنن كتاب الاستعاذة باب الاستعاذة من شر شياطين الإنس (٥٥٠٧)، وأحمد ١٧٨/٥ رقم (٢١٥٨٦)، مصنف وعبد الرزاق في مصنفه (٢٥٧٩)، وضعف إسناده: الهيثمي ٣٩٥/١ و٣٨٦/٨ والألباني في ضعيف النسائي (٥٥٠٧).

(٤) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/٢٦٣.

(٥) التحرير والتنوير ٢٠/٦٣٥.

رابعاً : فائدة تكرار لفظ الناس:

"وتكرير كلمة ﴿النَّاسِ﴾ في هذه الآيات المرتين الأوليين باعتبار معنى واحد لقصد تأكيد ربوبية الله تعالى وملكه وإهيته للناس، وأما تكريره المرة الثالثة بقوله: ﴿فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ فهو إظهار لأجل بُعد المعاد إليه الضمير، وأما تكريره المرة الرابعة بقوله: ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ فلأنه بيان لأحد صنفي الذي يوسوس في صدور الناس، وذلك غير ما صدق كلمة ﴿النَّاسِ﴾ في المرات السابقة"^(١).

خامساً : فائدة هذا التدرج وهذه المقدمات في ذكر شخصية المستعاذ منه :

"هذا الترتيب يثير في الحس اليقظة والتلفت والانتباه لتبين حقيقة الوسواس الخناس، بعد إطلاق صفته في أول الكلام؛ ولإدراك طريقة فعله التي يتحقق بها شره، تأهباً لدفعه أو مراقبته!
والنفس حين تعرف بعد هذا التشويق والإيقاظ أن الوسواس الخناس يوسوس في صدور الناس خفية وسراً، وأنه من الجلالة الخافية، وهو كذلك الناس الذين يتدسسون إلى الصدور تدسس الجنّة، ويوسوسون وسوسة الشياطين. إنَّ النفس حين تعرف هذا تتأهب للدفاع، وقد عرفت المكنم والمدخل والطريق!"^(٢).

(١) التحرير والتنوير، ٢٠/٦٣٥-٦٣٦.

(٢) في ظلال القرآن ٦/٤٠١١ باختصار.

المبحث الثاني

وقفات حول وسوسة شياطين الإنس والجن

أولاً: طريق معرفة وسوسة الجن:

"ووسوسة الجنة لا ندري كيف تتم، ولكننا نجد آثارها في واقع النفوس وواقع الحياة. ونعرف أن المعركة بين آدم وإبليس قائمة؛ وأن الشيطان قد أعلنها حرباً تنبثق من خليقة الشر فيه، ومن كبرياته وحسده وحقده على الإنسان! وأنه قد استصدر بها من الله إذناً، فأذن فيها سبحانه لحكمة يراها"^(١) فهو مع كل واحد منا كما قال المصطفى ﷺ: (ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن) قالوا: وإياك يا رسول الله!! قال: (وإياي إلا أن الله أعاني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير)^(٢).

وقد بين الله ورسوله لنا طرق إغواء الشيطان وفتنته، وحذرنا الشارع الحكيم منه أشد التحذير، ومن سلوك طريقه، وبين لنا ما يعصمنا من ذلك، ووعدنا بالمغفرة والتوبة لو رجعنا إلى الله سبحانه، واستعدنا من ذلك الشيطان وشر أعمالنا التي اتبعنا فيها الشيطان وإغواءه ووسوسته وتزيينه.

ثانياً: طريق معرفة وسوسة الإنس :

"وأما الناس فنعرف عن وسوستهم الشيء الكثير، فنعرف منها ما هو أشد من وسوسة الشياطين! فمن هؤلاء: رفيق السوء فهو يوسوس بالشر إلى رفيقه من حيث لا يحتسب. وكذلك أعوان السوء الذين يوسوسون لكل مسؤول حتى تتركه فاسداً مفسداً. وكذلك النمام الواشي الذي يفسد بين الناس. ومروجي ومشيعي الشهوات، وغيرهم كثير وأمثلتهم في الواقع كثيرة، فهم معروفون في كلامهم وسمتهم ولباسهم، قوم يقظهم الشيطان لخدمته بل هم شر من الشيطان!!"^(٣).

ثالثاً : وسوسة الجن والإنس باقية إلى قيام الساعة :

وسوسة الجن والإنس معركة قائمة إلى يوم القيامة، يتقوون الغفلة من بني آدم قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦٦﴾ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٧﴾ قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ﴿٦٨﴾ وَأَسْتَفْزِرُّ مِنْ أَسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ

(١) في ظلال القرآن ٤٠١١/٦ باختصار .

(٢) أخرجه مسلم كتاب صفة القيامة والجنة والنار باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس وأن مع كل إنسان قريناً (٢٨١٤).

(٣) في ظلال القرآن ٤٠١٢/٦ مختصراً .

وَرَجَلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٥﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٦﴾ [الإسراء ٦١-٦٥].

رابعاً : حكم حديث النفس :

إن حديث النفس من الوسوسة التي يقذفها الشيطان في قلب ابن آدم، ولذا فإن الشارع الحكيم رفع المؤاخذة عن ابن آدم في تلك الخواطر والأفكار التي قد تمر بخاطرهم، ولكن شرط أن لا تتحول إلى إرادة، فقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: (إن الله عز وجل تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم به) ^(١).

خامساً : طريق النجاة من خطر الجن والإنس :

"إذا كان الله قد أذن لإبليس بالوسوسة، فهو لم يسلطه إلا على الذين يغفلون عن ربهم وملكهم وإلههم، فأما من يذكرونه فهم في نجاة من الشر ودواعيه الخفية قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل ٩٩]، فالخير إذن يستند إلى القوة التي لا قوة سواها، يستند إلى الرب الملك الإله، والشر يستند إلى وسواس خناس، يضعف عن المواجهة، ويخنس عند اللقاء، وينهزم أمام الاستعاذة بالله. فهذه الصفة تدل من جهة على تخفيه واختبائه حتى يجد الفرصة سانحة فيدب ويوسوس. وتوحي بضعفه أمام من يستيقظ لمكره، ويحمي مداخل صدره. فهو سواء كان من الجنة أم كان من الناس إذا وجّه خنس، وعاد من حيث أتى، وقبع واختفى. أو كما قال ابن عباس رضي الله عنهما في تمثيله المصور الدقيق: (فإذا ذكر الله تعالى خنس، وإذا غفل وسوس) ^(٢).

وهذا الفهم، يقوي القلب على مواجهة الوسواس، لأنه ضعيف أمام عدة المؤمن في المعركة، فهو يحمي القلب من الهزيمة، ويفعمه بالقوة والثقة والطمأنينة.

ولم يترك الله الإنسان أمام هذه الوسواس مجرداً من العدة ^(٣) بل جعل الله له جنة بالإيمان، إذ جعله للإنسان حصناً حصيناً قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر ٤٢]. فالإيمان حصن ومنعة وسلاح، فإذا أغفل الإنسان جنته وعدته وسلاحه فهو إذن وحده الملوم.

ومن أهم شعب الإيمان التي يذهب الله بها وسوسة شياطين الإنس والجن:

١ الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم: قال تعالى: ﴿وَمَا يَنْزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ

(١) أخرجه البخاري كتاب الإيمان والنذور باب إذا حنت ناسيا (٥٢٦٩) ومسلم كتاب الإيمان باب تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب إذا لم تستقر (١٢٧).

(٢) تقدم تخريجه .

(٣) في ظلال القرآن ٤٠١١/٦ بتصرف واختصار .

بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿ [الأعراف ٢٠٠]. قال تعالى: ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ تَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ [المؤمنون ٩٧-٩٨].

٢ ذكر الله تعالى: قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَئِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف ٢٠١]. وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: عثر بالني ﷺ حماره، فقلت: تعس الشيطان. فقال النبي ﷺ: (لا تقل: تعس الشيطان؛ فإنك إذا قلت: تعس الشيطان، تعاظم. وقال: بقوتي صرعته، وإذا قلت: بسم الله، تصاغر حتى يصير مثل الذباب)^(١).

٣ الصلة الدائمة بالله عز وجل: باللسان والجنان والعمل وهو حقيقة الذكر . . فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (الشيطان جاثم على قلب ابن آدم فإذا ذكر الله تعالى خنس، وإذا غفل وسوس)^(٢).

٤ ذكر الله تعالى ودعاؤه والاستعاذة به: عن خولة بنت حكيم السلمية قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (من نزل منزلاً ثم قال أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك)^(٣).

٥ النفث: قال النبي ﷺ (الرؤيا الصالحة من الله والحلم من الشيطان فمن رأى شيئاً يكرهه فلينفث عن شماله ثلاثاً وليتعوذ من الشيطان فإنها لا تضره)^(٤).

(١) أخرجه أبو داود في سننه كتاب باب ٨٥ رقم (٤٩٨٢)، وأحمد ٥٩/٥ (٢٠٦١٠)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣١٢٨).

(٢) تقدم تخريجه .

(٣) أخرجه مسلم كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار باب في التعوذ من سوء القضاء ودرك الشقاء وغيره (٢٧٠٨).

(٤) أخرجه البخاري كتاب التعبير باب من رأى النبي ﷺ في منامه (٦٩٩٥)، صحيح مسلم كتاب الرؤيا باب ١ (٢٢٦١).

الخاتمة

الحمد رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا الأمين، محمد ﷺ وعلى من استن بسنته واقتدى بهديه إلى يوم الدين، وبعد:

إِنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ كَمَا وَصَفَهُ اللَّهُ ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل ١٠٢] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى ٥٢] فهو بلا شك منهج كامل شامل لجميع شؤون الحياة، ويقود إلى حياة أخروية فيها السعادة والهناء، والرضا بفضل بديع الأرض والسموات.

إنَّه العقيدة والعبادة، والتعامل والأخلاق، وهو العلم والعمل، وفيه الصبر والرضا، وغير ذلك من شؤون الحياة، علمنا ذلك من خلال عرضنا لهذه السور العظيمة، التي خاطبت العقول والقلوب، خاطبت المؤمنين والكافرين، وحاجت المنكرين المستكبرين، وربت العقلاء المتفكرين في آيات رب العالمين.

نخرج من هذه السور بعد عرض جوانب منها، بفوائد جمّة، وأخلاق متعددة، وحجج مقنعة، وآيات باهرة، وحكم متميزة.

وقد تبين من خلال عرض آيات هذه السور النتائج والتوصيات الإجمالية التالية:

النتائج:

- ١ نخبه الله تعالى في هذه السور على أخلاق هي عماد الأخلاق، ومنها تنبثق وتترتب عليها جميع الفضائل والمحامد، فلنتأمل في هذه الأخلاق: خُلِقَ الشكر، وحماية حمى التوحيد، وإقامة الصلاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر، وبذل المعروف، وكف الأذى، وإتباع الهدى.
- ٢ هذه الأخلاق هي أخلاق لا إله إلا الله، أخلاق التوحيد، وهي أخلاق العبادة، فإنك ترى أن الله تعالى ضمن آياته: الأمر بالتوحيد وهو عقيدة، والشكر والصلاة وهما عبادة، ليبين لنا أن هذه أخلاق أيضاً ولا تتم على أكمل وجه إلا إذا تمت الأخلاق، فلنتأمل هذه الأخلاق وتناسقها في الآيات لنترى ترابطها وشمولها وأهميتها.
- ٣ بين الله تعالى في هذه السور أسس التوحيد، بحجة ظاهرة، يخاطب فيها العقول والقلوب، عن طريق بيان قدرته وعظمته ونعمته واستحقاقه بذلك للعبادة وحده لا شريك له.

- ٤ ربط الخالق عباده بالإيمان بالغيب الذي يجعلهم يطبقون ما تعلموه من هذه الآيات، فالجزاء والحساب هو الحافز على العمل والاجتهاد، والخسران والبوار في ترك ما شرعه.
- ٥ أظهر الربُّ للمكلفين أنَّ الجزاء والحساب غيب، ينبهنا عليه ربنا ولا نعلم كنهه وكيفيته إلا بما أخبرنا الله به وأخبرنا به رسوله ﷺ، لأن عقولنا الضعيفة الضيقة لا تستطيع الإمام بهذا الغيب وكنهه، ولكن نحن مطالبون بالعمل، ولسنا مطالبون بمعرفة الغيب.
- ٦ أن من خلق الله من يتأثر بآيات الله فيكون التأثر واضحاً على جميع تصرفاته، وشخصيته الإسلامية متميزة عن أي شخصية أخرى، وتجعل لهم قيمة عند الخلق وقبل ذلك عند الخالق جل وعلا.
- ٧ أن الذين لا يتأثرون بآيات الله، ولا يقيمون لها اعتباراً، ويستبدلوها بكل ما يبعدهم عن هديها، فأولئك ليس لهم قيمة نافعة في مجتمع الحياة، ولا في آخرتهم.
- ٨ عظيم إعجاز القرآن في أسلوبه وترتيبه ومضمونه، يتضح ذلك من أوجه التناسب بين قصار السور. وأن كتاب الله قد حوى على إيجاز ألفاظه سعادة الدنيا وراحتها، وسعادة الآخرة ونعيمها.
- ٩ أن النبي صلى الله عليه وسلم هو القدوة العملية في كل شؤون الحياة، وهذا يتضح بجلاء في معاني تلك السور وألفاظها. وأن أعظم أسباب الثبات في الملمات والمهام الجسام هو حسن الاقتداء والسير على أثر الحبيب صلى الله عليه وسلم فهو القائد لمصلحة الدنيا والدين.

التوصيات:

- ١.
٢. من أراد أن يوجه الناس ويرشدهم إلى دين الله تعالى، فعليه أن يبدأ بإصلاح القلوب، وإزالة ما فيها من شوائب الاعتقادات، وتعليق تلك القلوب بخالقها جل وعلا، لكي يسهل بعد ذلك عليها تقبل الأوامر والنواهي، والالتزام بذلك.
- ٣.
- ٤.
- ٥.
- ٦.
- ٧.

هذا باختصار شديد أهم ما وصلت إليه في ما تحدثت عنه الآيات وركزت عليه وعلى بيانه، فما كان في عملي هذا من صواب فمن الله وحده، وما كان فيه من خطأ فمني ومن الشيطان، وأسأل الله تعالى أن يعلمنا ما ينفعنا، وأن يلهمنا العلم النافع والعمل الصالح، وأن يجبر تقصيرنا ويعفو عن خطأنا.

كما أسأله سبحانه أن يجزي خيراً كل من ساعدني في هذا البحث أو أسدى إلي نصيحة، أو صحح لي معلومة، أو ساعدني على استخراجها.

كما أسأله سبحانه أن يكون هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وأن يبارك في صوابه، وأن ينفع به كل طالب للحق وللطريق المستقيم.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

ثبت المراجع

- ١ - الإبطال لنظرية الخلط بين دين الإسلام وغيره من الأديان - تأليف الشيخ بكر بن عبدالله أبو زيد - دار العاصمة الرياض - ط١ (١٤٢١هـ).
- ٢ - الإتقان في علوم القرآن - جلال الدين السيوطي - دار التراث - القاهرة .
- ٣ - الأحاديث المختارة - الحافظ أبو عبدالله محمد بن عبدالواحد بن أحمد الحنبلي المقدسي المشهور بالضياء المقدسي - تحقيق: عبدالملك بن عبدالله بن دهيش - مكتبة النهضة الحديثة - مكة المكرمة ط ١ - (١٤١٠هـ).
- ٤ - أحكام الجنائز وبدعها - للمحدث محمد ناصر الدين الألباني، الطبعة (٤ت)، المكتب الإسلامي، بيروت ١٤٠٦هـ.
- ٥ - أحكام القرآن - محمد بن عبدالله المعروف بابن العربي - تحقيق: علي بن محمد البجاوي - دار المعرفة - بيروت .
- ٦ - أحكام القرآن - أحمد بن علي الرازي الجصاص أبو بكر - دار إحياء التراث العربي - بيروت ، (١٤٠٥هـ) - محمد الصادق قمحاوي .
- ٧ - إحياء علوم الدين - أبو حامد الغزالي - دار المعرفة - بيروت .
- ٨ - أدب الدنيا والدين، علي بن محمد الماوردي تحقيق مصطفى السقا - الطبعة الرابعة - بيروت : دار الكتب العلمية ١٣٩٨/٥١٣٩٨م.
- ٩ - الأدب المفرد - محمد بن إسماعيل البخاري - دار الصديق - الطبعة : ط١ : ١٤٢١هـ.
- ١٠ - إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم - محمد بن محمد العمادي أبو السعود - دار إحياء التراث العربي - بيروت .
- ١١ - إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل - محمد ناصر الدين الألباني - نشر: المكتب الإسلامي - بيروت - ط٢ (١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م).
- ١٢ - أسباب نزول القرآن - علي بن أحمد الواحدي - دار القبلة - ط٢ (١٤٠٤هـ).
- ١٣ - الاستقامة، لابن تيمية، تحقيق الدكتور محمد رشال سالم، ط. جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٤٠٤/١٩٨٣.
- ١٤ - أسرار ترتيب القرآن - عبدالرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي أبو الفضل - تحقيق : عبدالقادر أحمد عطا دار الاعتصام - القاهرة
- ١٥ - الأصول الثلاثة وأدلتها للشيخ محمد بن عبد الوهاب، الناشر: مكتبة دار البيان، دمشق، بدون رقم طبعة، ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م.
- ١٦ - إعراب القرآن : لأبي جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النحاس ، تحقيق : الدكتور زهير غازي زاهد ، طبعة عالم الكتب - بيروت ، الطبعة الثانية ١٤٠٩ هـ .
- ١٧ - إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان - محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبدالله - تحقيق: محمد حامد الفقي - دار المعرفة - بيروت - الطبعة الثانية (١٣٩٥هـ) .

- ١٨ الإقناع في القراءات السبع - أحمد بن علي بن الباذش - تحقيق: د. عبدالمجيد قطامش - مكة المكرمة - مركز البحث العلمي بجامعة أم القرى - ١٤٠٣هـ.
- ١٩ أعتال القرآن - محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبدالله - دراسة وتحقيق: ناصر بن سعد الرشيد ، مطابع الصفا ، مكة المكرمة ، المملكة العربية السعودية ، الثانية ، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م
- ٢٠ إجملاء ما من به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن- أبوالبقاء عبدالله بن الحسين بن عبدالله العكبري- تصحيح وتحقيق: إبراهيم عطوة عوض- مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر - الطبعة الثانية- ١٣٨٩هـ-١٩٦٩م.
- ٢١ أنوار التتزيل وأسرار التأويل - المشهور بـ(تفسير البيضاوي)، لأبي الخير عبد الله بن عمر البيضاوي- دار الفكر، ١٤٠٢هـ.
- ٢٢ أنوار التتزيل وأسرار التأويل - تفسير البيضاوي : ط : مصطفى البابي الحلبي - القاهرة - ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م.
- ٢٣ الأوائل - للعسكري الحسن بن عبدالله بن سهل العسكري ت٣٩٥هـ- دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- ٢٤ إيجاز البيان في سور القرآن- محمد بن علي الصابوني-مكتبة الغزالي - الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
- ٢٥ أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير- أبو بكر الجزائري : جابر بن موسى بن عبدالقادر بن جابر - مكتبة العلوم والحكم- المدينة المنورة- السعودية- ط٥- (١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م).
- ٢٦ الإيمان - شيخ الإسلام أحمد بن عبدالحليم بن تيمية، تحقيق: عصام الدين الصبابطي، الناشر : دار الحديث، القاهرة، ط الأولى ١٤١٤هـ-١٩٩٣م.
- ٢٧ الإيمان أولاً لو كانوا يعلمون- مقالة من إعداد: أبي عبد الرحمن هشام بن فهمي العارف المقدسي - نشرتها جريدة القدس العدد ١١٧٧٢ تاريخ ١٩/٣/١٤٢٣ الموافق ٢٠٠٢/٥/٣١م، ونشرها في كتاب كلمات في الدعوة والمنهاج (نور على الدرب) - سلسلة اقرأ (١) - منشورات الدعوة السلفية كتاب رقم (٧٧) .
- ٢٨ الإيمان حقيقته، حوارمه، نواقضه عند أهل السنة والجماعة- عبدالله بن عبدالحميد الأثري- تقديم : د.عبد الرحمن بن صالح المحمود.
- ٢٩ بحر العلوم - أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندي الفقيه الحنفي - تحقيق : د.محمود مطرجي-نشر دار الفكر - بيروت.
- ٣٠ البحر المحيط - محمد بن يوسف أبي حيان الأندلسي - دار الفكر - بيروت ط(١٤٠٣هـ).
- ٣١ بدائع التفسير- ابن القيم: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبدالله - جمع وتحقيق: يسري محمد- دار ابن الجوزي- الدمام - ط(١٤١٤).

- ٣٢ بدائع الفوائد- ابن القيم: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبدالله - تحقيق : هشام عبدالعزيز عطا ، عادل عبدالحميد العدوي ، أشرف أحمد الحج - مكتبة نزار مصطفى الباز - مكة المكرمة- ط ١ (١٤١٦هـ - ١٩٩٦م).
- ٣٣ بداية الهداية وتهذيب النفوس بالآداب الشرعية- أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي- مطبعة محمد شاهين- القاهرة.
- ٣٤ البداية والنهاية - الحافظ ابن كثير الدمشقي - دار الكتب العلمية - بيروت - ط (١٤٠٧هـ).
- ٣٥ بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، محمد بن يعقوب الفيروزآبادي تحقيق محمد علي النجار، المكتبة العلمية - بيروت.
- ٣٦ بغية الطلاب من موضوعات سورة الأحزاب -دراسة موضوعية- د.محمد بن عبدالعزيز العواجي- دار طيبة الخضراء - مكة المكرمة ط ١ (١٤٣٠هـ).
- ٣٧ بينات الرسول ومعجزاته - عبدالمجيد بن عزيز الزنداني - مركز البحوث بجامعة الإيمان باليمن- صنعاء - الطبعة الثانية ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م.
- ٣٨ تاج العروس من جواهر القاموس ، محمد مرتضى الزبيدي ، المطبعة الخيرية القاهرة سنة ١٣٠٦ هـ .
- ٣٩ تاريخ أبي سعيد هاشم بن مرثد الطبراني عن أبي زكريا يحيى بن معين المتوفى سنة ٢٣٣هـ ، تحقيق : نظر محمد الفاريابي - الطبعة الأولى ١٤١٠هـ.
- ٤٠ التاريخ الإسلامي مواقف وعبر- د.عبدالعزیز بن عبدالله الحميدي- دار الدعوة- الإسكندرية- ط ١ (١٤١٨هـ).
- ٤١ تاريخ الرسل والملوك ، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري ، تحقيق أبو الفضل إبراهيم ، طبعة دار المعارف القاهرة سنة ١٣٨٣ هـ ١٩٦٤ م .
- ٤٢ تاريخ دمشق - على بن العسن بن هبة الله الشافعي المعروف بابن عساكر - دار الفكر بيروت- ط (١٤١٥هـ) .
- ٤٣ التبيان في إعراب القرآن - لأبي البقاء محب الدين عبدالله بن أبي عبدالله الحسين بن أبي البقاء عبد الله بن الحسين العكبري. تحقيق : علي محمد الجاوي. ط : عيسى الحلبي - القاهرة - ١٣٩٦ هـ .
- ٤٤ التحرير والتنوير - ابن عاشور - الدار التونسية للنشر - تونس - ١٩٨٤م.
- ٤٥ تحفة الأحوزي بشرح جامع الترمذي - محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري أبو العلا - دار الكتب العلمية - بيروت .
- ٤٦ تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم - بدر الدين محمود إبراهيم ابن جماعة الكنايني الحموي المصري ، بيروت ، دار الكتب العلمية .
- ٤٧ الترغيب والترهيب- لزكي الدين عبدالعظيم بن عبدالقوي المنذري- - مكتبة دار التراث- القاهرة.
- ٤٨ التعريفات - للشريف الجرجاني مكتبة لبنان - بيروت سنة ١٩٧٨م .
- ٤٩ تفسير الخازن المسمى (لباب التأويل في معاني التنزيل) - الخازن: علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي - دار الفكر - بيروت - لبنان - (١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩م).

- ٥٠ تفسير السراج المنير — المؤلف: شمس الدين محمد بن أحمد الشربيني - دار الكتب العلمية — بيروت.
- ٥١ تفسير السور القصار - جمال الهيميلي - مذكرة مرقومة بالحاسب.
- ٥٢ تفسير الفخر الرازي - المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب - فخر الدين الرازي - دار الفكر - بيروت - ط٣ (١٤٠٥هـ).
- ٥٣ تفسير القرآن العزيز - ابن أبي زمنين: محمد بن عبدالله - تحقيق: أبو عبدالله حسين بن عكاشة ومحمد بن مصطفى الكتر - الفاروق الحديثة للنشر - القاهرة - ط١ - ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م.
- ٥٤ تفسير القرآن العظيم - إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي - تحقيق سامي بن محمد السلامة - دار طيبة للنشر والتوزيع - ط١ (١٤١٨هـ - ١٩٩٧م).
- ٥٥ تفسير القرآن العظيم - عبدالرحمن بن أبي حاتم الرازي - تحقيق: أسعد محمد الطيب - مكتبة نزار مصطفى الباز - مكة المكرمة - ط١ (١٤١٧هـ).
- ٥٦ التفسير القرآني للقرآن - تأليف: د. عبدالكريم الخطيب - نشر: دار الفكر العربي - القاهرة - ١٩٧٠م.
- ٥٧ التفسير القيم، محمد بن أبي بكر الشهير بابن قيم الجوزية - جمع: محمد أويس الندوي، تحقيق: محمد حامد الفقهي، طبع دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٣٩٨هـ.
- ٥٨ التفسير الميسر - عدد من أساتذة التفسير تحت إشراف الدكتور عبدالله بن عبدالمحسن التركي - موقع جمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.
- ٥٩ التفسير الوسيط - د. محمد سيد طنطاوي - نشر مطبعة السعادة - القاهرة - الطبعة الثالثة ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م.
- ٦٠ تفسير جزء عم (تفسير القرآن الكريم) - محمد بن صالح العثيمين - اعتنى به: فهد بن ناصر السليمان - دار الثريا للنشر - الطبعة الثانية ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.
- ٦١ تفسير سورة العصر - عبدالعزيز بن عبدالفتاح القارئ - مكتبة الدار - المدينة المنورة - الطبعة الأولى ١٤١٤هـ.
- ٦٢ تفسير سورة الناس - محمد بن عبدالوهاب - تحقيق: د. فهد بن عبدالرحمن الرومي - نشر مجلة البحوث الإسلامية - دار الإفتاء بالرياض.
- ٦٣ تلخيص الحبير في أحاديث الرافعي الكبير - أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني - تحقيق: السيد عبدالله هاشم اليماني المدني - المدينة المنورة (١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م).
- ٦٤ التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد - أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري - وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية - المغرب، (١٣٨٧هـ) - تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي، محمد عبد الكبير البكري .
- ٦٥ تحذيب الأسماء واللغات - أبو زكريا محي الدين بن شرف النووي - دار الكتب العلمية - بيروت.
- ٦٦ تحذيب اللغة - أبو منصور محمد بن أحمد الأزهرى - مطبعة الدار المصرية للتأليف والنشر والترجمة - القاهرة - سنة ١٩٦٦م .

- ٦٧ تهذيب تاريخ دمشق: علي بن الحسين بن هبة الله المعروف بابن عساكر، هذبه ورتبه: عبد القادر بدران، الطبعة الثانية، دار المسيرة، بيروت ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
- ٦٨ تيسير العزيز الحميد - سليمان بن عبد الله بن عبد الوهاب.
- ٦٩ تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان - عبدالرحمن بن ناصر السعدي - تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق - مؤسسة الرسالة - بيروت - ط١ (١٤١٦هـ - ١٩٩٦م).
- ٧٠ تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن - عبد الرحمن بن ناصر السعدي - طبع ونشر وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - السعودية - ط١ - ١٤٢٢هـ.
- ٧١ جامع الأصول جامع الأصول في أحاديث الرسول: مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن الأثير الجزري، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، (الطبعة بدون)، مكتبة الحلواني، مطبعة الملاح، مكتبة دار البيان، ١٣٩١هـ - ١٩٧١م.
- ٧٢ جامع البيان عن تفسير آي القرآن - محمد بن جرير الطبري - تحقيق د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي - مركز البحوث والدراسات الإسلامية - القاهرة - ط١ (١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م).
- ٧٣ جامع الترمذي - محمد بن عيسى الترمذي - بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع - الرياض - (١٤١٩هـ - ١٩٨٩م) - اعتناء فريق بيت الأفكار الدولية.
- ٧٤ الجامع لأحكام القرآن - محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي - دار الكتاب العربي.
- ٧٥ الجواب الكافي - ابن القيم الجوزية - دار الكتاب العربي بيروت - ط٢ - ١٤١٤هـ.
- ٧٦ الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي (الداء والدواء) - محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله - دار الكتب العلمية - بيروت .
- ٧٧ الجواهر الحسان في تفسير القرآن (تفسير الثعالبي) - لابن مخلوف الثعالبي - مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت .
- ٧٨ حاشية ابن القيم على سنن أبي داود - محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية - دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الثانية ، ١٤١٥هـ.
- ٧٩ حاشية الأصول الثلاثة - تأليف: عبدالرحمن بن محمد بن قاسم الحنبلي النجدي - نشر: دار الزاحم - الطبعة الثانية ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م .
- ٨٠ حاشية الدسوقي على الشرح الكبير - محمد عرفة الدسوقي - نشر: دار الفكر للطباعة والنشر .
- ٨١ حاشية العدوي على الرسالة - علي العدوي - مطبوع مع شرح الخرشبي - نشر: دار الكتاب الإسلامي لإحياء ونشر التراث الإسلامي - القاهرة - مصر .
- ٨٢ الحجة للقراء السبعة - أبو علي الحسن بن عبدالغفار الفارسي - تحقيق: بدر الدين قهوجي و بشير جويجاتي - دمشق - دار المأمون .
- ٨٣ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء - أبو نعيم أحمد بن عبدالله الأصبهاني - دار الكتاب العربي - بيروت - ط٤ (١٤٠٥هـ).

- ٨٤ المدر المنثور في التفسير بالمأثور - لجلال الدين السيوطي - تحقيق د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي - مركز هجر للبحوث والدراسات الإسلامية والعربية - القاهرة - ط١ (١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م).
- ٨٥ درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية، تحقيق د. محمد رشاد سالم، مكتبة ابن تيمية - القاهرة.
- ٨٦ دراسات قرآنية - محمد قطب - دار الشروق - القاهرة - ط٨ (١٤٢٥).
- ٨٧ المدر السنينة في الأجوبة النجدية - جمع الشيخ عبد الرحمن بن محمد بن قاسم - ط المكتب الإسلامي بيروت من مطبوعات دار الإفتاء بالمملكة العربية السعودية وقد طبع بأمر جلالة الملك فيصل - ط الثانية عام ١٣٨٥هـ.
- ٨٨ دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، للحافظ أبي بكر أحمد البيهقي، تحقيق عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت - ط١، (١٤٠٥هـ).
- ٨٩ دلائل النبوة، أبو نعيم الأصفهاني، تحقيق: محمد رواس قلعجي، وعبد البر عباس، ط ٢، بيروت، دار النفائس، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م.
- ٩٠ الديقاح على مسلم - الحافظ عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي - حقق أصله وعلق عليه: أبو اسحق الحويني الاثري - دار ابن عفان للنشر والتوزيع المملكة العربية السعودية الخبر - ط١ (١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م)
- ٩١ ديوان الشافعي ، صححه وقدم له الدكتور إحسان عباس ، ط ١ ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٩٦ م.
- ٩٢ الترحيق المختوم : صفى الرحمن المباركفوري - الجامعة السلفية - مكتبة دار السلام - الرياض ٤١٤١ هـ - ٤٩٩١ م.
- ٩٣ روح البيان - (تفسير حقي) - للبروسوى إسماعيل حقى البروسوى - ط دار الفكر بدون تاريخ.
- ٩٤ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني - شهاب الدين محمود الألوسى البغدادي - دار الفكر - بيروت - ط ١٤٠٣.
- ٩٥ التروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام - السهيلي - دار الكتب الحديثة - (ط ١٣٨٧هـ).
- ٩٦ رياض الصالحين - الإمام النووي - المكتب الإسلامي - بيروت - تحقيق : محمد ناصر الدين الألباني.
- ٩٧ زاد المسير في علم التفسير - عبد الرحمن بن على الجوزي - المكتب الإسلامي - بيروت - ط٤ (١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م).
- ٩٨ زاد المعاد في هدي خير العباد - ابن القيم: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبدالله - تحقيق : شعيب الأرنؤوط - عبدالقادر الأرنؤوط - مؤسسة الرسالة - بيروت، ومكتبة المنار الإسلامية - الكويت - ط ١٤ (١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م).
- ٩٩ زوائد عبدالله بن احمد بن حنبل في المسند مع دراسة عن الإمام عبدالله وجهوده في خدمه السنة - د. عامر حسن صبري - دار البشائر الإسلامية - بيروت - ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.
- ١٠٠ - الزواجر عن اقتراف الكبائر - ابن حجر الهيتمي - تحقيق مركز الدراسات والبحوث بمكتبة نزار مصطفى الباز - نشر المكتبة العصرية - لبنان - صيدا - بيروت - ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م

- ١٠١ - سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد (السيرة الشامية) - محمد بن يوسف الصالحى الشامى - تحقيق: مصطفى عبدالواحد - نشر وزارة الأوقاف المصرية، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامى - القاهرة (١٤١٤هـ - ١٩٩٣م).
- ١٠٢ - سلسلة أعمال القلوب - محمد المنجد - دار الضياء - القاهرة - ط١ (١٤٢٤هـ).
- ١٠٣ - سلسلة الأحاديث الصحيحة - محمد ناصر الدين الألبانى - المكتب الإسلامى - بيروت - ط٤ (١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م).
- ١٠٤ - سنن ابن ماجه - محمد بن يزيد ابن ماجه القزوينى - بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع - الرياض - (١٤١٩هـ - ١٩٨٩م) - اعتناء فريق بيت الأفكار الدولية.
- ١٠٥ - سنن أبي داود - سليمان بن الأشعث السجستاني - بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع - الرياض - (١٤١٩هـ - ١٩٨٩م) - اعتناء فريق بيت الأفكار الدولية.
- ١٠٦ - سنن الدارمى: عبدالله بن عبدالرحمن بن الفضل بن بهرام الدارمى، (الطبعة بدون)، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، (التاريخ بدون).
- ١٠٧ - السنن الكبرى - النسائى: أحمد بن شعيب أبو عبدالرحمن النسائى - تحقيق: د. عبدالغفار سليمان البندارى، سيد كسروى حسن - دار الكتب العلمية - بيروت - ط١ (١٤١١هـ - ١٩٩١م).
- ١٠٨ - السنن الكبرى - البيهقى: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقى - تحقيق: محمد عبدالقادر عطا - مكتبة دار الباز - مكة المكرمة - (١٤١٤هـ - ١٩٩٤م).
- ١٠٩ - السنن الكبرى: أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقى، الطبعة الأولى، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بالهند، حيدر آباد الدكن، ١٣٤٧هـ. سنن البيهقى
- ١١٠ - سنن النسائى - أحمد بن شعيب النسائى - بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع - الرياض - (١٤١٩هـ - ١٩٨٩م) - اعتناء فريق بيت الأفكار الدولية .
- ١١١ - السيرة النبوية - ابن كثير: الإمام أبي الفداء إسماعيل - تحقيق مصطفى عبدالواحد - دار الفكر - بيروت، لبنان - ط٢ (١٣٩٨هـ).
- ١١٢ - السيرة النبوية - ابن هشام - تحقيق مصطفى السقا - مؤسسة علوم القرآن (دمشق بيروت) - دار القبالتين للثقافة الإسلامية - جدة.
- ١١٣ - السيرة النبوية - ابن هشام: عبدالملك بن هشام بن أيوب الحميرى المعافرى أبو محمد - تحقيق طه عبد الرؤوف سعد - نشر دار الجيل - بيروت - (١٤١١هـ)
- ١١٤ - السيرة النبوية - الذهبي: محمد بن أحمد - تحقيق: حسام الدين القدسى - مكتبة الهلال - بيروت.
- ١١٥ - السيرة النبوية - الندوى: أبو الحسن علي الحسينى الندوى - دار الشروق - جدة - ط٣ (١٤٠١هـ).
- ١١٦ - السيرة النبوية الصحيحة - أكرم ضياء العمري - مكتبة العبيكان - الرياض - ط٣ (١٤١٨هـ).
- ١١٧ - السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث - على محمد الصلابى - مكتبة الصحابة - الشارقة - ط١ (١٤٢٢هـ).

- ١١٨ - السيرة النبوية - لابن كثير - أبي الفداء إسماعيل بن كثير - تحقيق مصطفى عبدالواحد - دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان.
- ١١٩ - السيرة النبوية لأبي حاتم البستي، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت ط ١ (١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م).
- ١٢٠ - السيرة النبوية لأبي محمد عبدالملك بن هشام الحميري النحوي. مع شرح أبي ذر الحشني. تحقيق: د. همام عبدالرحيم سعيد ومحمد عبدالله أبو صعيك - مكتبة المنار - ط ١ (١٤٠٩هـ).
- ١٢١ - السيرة النبوية، دراسة تحليلية، محمد أبو فارس، دار الفرقان، عمان - الطبعة الأولى ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
- ١٢٢ - سيرة خاتم النبيين للأطفال - الندوي: أبو الحسن علي الحسيني الندوي - القاهرة - دار الكلمة ١٩٩٨،
- ١٢٣ - شرح البخاري لابن بطال - أبو الحسن علي بن خلف بن عبدالملك بن بطال البكري القرطي - مكتبة الرشد السعودية / الرياض - ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م - الطبعة: الثانية.
- ١٢٤ - شرح القواعد الفقهية - الشيخ أحمد بن محمد الزرقاء - دار القلم - دمشق - الطبعة الثانية ١٤٠٩هـ.
- ١٢٥ - الشرح الممتع على زاد المستقنع - محمد بن صالح العثيمين - بإشراف مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية - دار ابن الجوزي للنشر - السعودية - الدمام - الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.
- ١٢٦ - شرح زاد المستقنع - محمد المختار الشنقيطي - مذكرة .
- ١٢٧ - شرح سنن ابن ماجه - السيوطي ، عبدالغني فخر الحسن الدهلوي - قديمي كتب خانة - كراتشي.
- ١٢٨ - شرح نونية ابن القيم (توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة الإمام ابن القيم) - أحمد بن إبراهيم بن عيسى - تحقيق: زهير الشاويش - المكتب الإسلامي - بيروت - الطبعة الثالثة ١٤٠٦هـ.
- ١٢٩ - شعب الإيمان - أبو بكر أحمد بن الحسيني البيهقي - تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول - دار الكتب العلمية - بيروت - ط ١ (١٤١٠هـ).
- ١٣٠ - شعب الإيمان - البيهقي: أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الحُسْرُو جَرْدِي الخراساني البيهقي - حققه وخرجه: د. عبدالعلي عبدالحميد حامد - نشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية بومباي بالهند - ط ١ (١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م).
- ١٣١ - الصبر - أبو بكر عبدالله بن محمد بن عبيد بن أبي الدنيا القرشي - تحقيق محمد خير يوسف - دار ابن حزم - بيروت - الطبعة الأولى ١٤١٨هـ.
- ١٣٢ - الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية) - إسماعيل بن حماد الجوهري - دار العلم للملايين - بيروت - الطبعة الرابعة - يناير ١٩٩٠.

- ١٣٣ صحیح ابن حبان بترتیب ابن لبان - محمد بن حبان بن أحمد البستي - تحقیق شعيب الأرنؤوط - مؤسسة الرسالة - بيروت - ط٢ (١٤١٤هـ-).
- ١٣٤ صحیح ابن خزيمة - محمد بن إسحاق بن خزيمة أبو بكر السلمي النيسابوري - تحقیق: د. محمد مصطفى الأعظمي - نشر: المكتب الإسلامي - بيروت - (١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م).
- ١٣٥ صحیح الأدب المفرد - محمد ناصر الدين الألباني - دار الصديق للنشر والتوزيع - الجليل - ط٢ (١٤١٤هـ-١٩٩٤م).
- ١٣٦ صحیح البخاري: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، تحقیق: مصطفى البغا، دمشق، دار ابن كثير، ١٤٠٧ هـ.
- ١٣٧ صحیح الترغيب والترهيب - محمد ناصر الدين الألباني - مكتبة المعارف - الرياض - ط٥.
- ١٣٨ صحیح الجامع الصغير وزياداته - محمد ناصر الدين الألباني - تعليق وفهرسة زهير الشاويش - المكتب الإسلامي - بيروت - ط١ (١٤٠٨هـ-١٩٨٨م).
- ١٣٩ صحیح السيرة النبوية - (ما صح من سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر أيامه وغزواته وسراياه والوفود إليه) - محمد ناصر الدين الألباني - الطبعة الأولى - المكتبة الإسلامية - عمان - الأردن.
- ١٤٠ صحیح سنن ابن ماجه: ناصر الدين الألباني، مكتب التربية العربية لدول الخليج الرياض، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- ١٤١ صحیح سنن أبي داود: ناصر الدين الألباني، مكتب التربية العربية لدول الخليج الرياض، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- ١٤٢ صحیح سنن الترمذي: ناصر الدين الألباني، مكتب التربية العربية لدول الخليج الرياض، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- ١٤٣ صحیح سنن النسائي: ناصر الدين الألباني، مكتب التربية العربية لدول الخليج الرياض، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- ١٤٤ صحیح مسلم: مسلم بن الحجاج، ت ٢٦١ هـ، تحقیق: محمد فؤاد عبد الباقي، البابي الحلبي بمصر ١٩٥٥.
- ١٤٥ صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة - د. محمد فوزي فيض الله - دار القلم - دمشق - الدار الشامية - بيروت، الطبعة الأولى - ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.
- ١٤٦ صيد الخاطر - ابن الجوزي - تحقیق: محمد محي الدين الأصغر - دار الإشراف - ط١ (١٤١١هـ).
- ١٤٧ ضعيف الترغيب والترهيب - محمد ناصر الدين الألباني - مكتبة المعارف - الرياض.
- ١٤٨ ضعيف سنن ابن ماجه - محمد ناصر الدين الألباني - تعليق وفهرسة زهير الشاويش - المكتب الإسلامي - بيروت - ط١ (١٤٠٨هـ-١٩٨٨م).

- ١٤٩ - ضعيف سنن الترمذي - محمد ناصر الدين الألباني - تعليق وفهرسة زهير الشاويش - المكتب الإسلامي - بيروت - ط١ (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م).
- ١٥٠ - الضوء المنير على التفسير - أبو عبدالله محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الدمشقي الشهير بابن قيم الجوزية -، جمع: علي الحمد الصالحي - نشر: مؤسسة النور بالرياض.
- ١٥١ - الطبقات الكبرى - ابن سعد: محمد بن سعد الزهري، دار صادر، ودار بيروت للطباعة والنشر، ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م.
- ١٥٢ - طريق النبوة والرسالة - د. حسين مؤنس - دار الرشاد - ط٢ (١٤١٨هـ - ١٩٩٧م).
- ١٥٣ - طوق النجاة - فيصل بن محمد البعداني - مطبوعات مجلة البيان - الرياض - السعودية.
- ١٥٤ - عالم السحر والشعوذة - د. عمر سليمان الأشقر. ط الأولى ١٤١٠هـ - مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع، الكويت، دار النفائس الكويت.
- ١٥٥ - العبودية - شيخ الإسلام أحمد بن عبدالحليم بن تيمية - المكتب الإسلامي.
- ١٥٦ - عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين - للإمام محمد بن أبي بكر بن القيم - تحقيق: محمد عثمان الخشت - دار الكتاب العربي - الطبعة الثانية ١٤٠٦ هـ .
- ١٥٧ - العدة شرح العمدة - بهاء الدين المقدسي - قدم له وعلق عليه: محب الدين الخطيب - الطبعة الثانية - مصر - المكتبة السلفية.
- ١٥٨ - العدة في شرح العمدة - بهاء الدين المقدسي - تحقيق د/ عبدالله بن عبد المحسن التركي - مؤسسة الرسالة - بيروت - ط١ (١٤٢١هـ).
- ١٥٩ - عمدة القاري شرح صحيح البخاري - بدر الدين العيني - دار الفكر - بيروت (١٣٩٩ هـ).
- ١٦٠ - عون المعبود شرح سنن أبي داود - محمد شمس الحق العظيم آبادي أبو الطيب - دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الثانية، (١٤١٥هـ).
- ١٦١ - غرائب القرآن و رغائب الفرقان - (تفسير النيسابوري) - نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري - نشر دار الكتب العلمية - بيروت ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م ط١
- ١٦٢ - غرائب القرآن و رغائب الفرقان، نظام الدين النيسابوري، تحقيق: إبراهيم عطوة عوض، القاهرة، مكتبة ومطبعة الحلبي، ١٩٦٢ م.
- ١٦٣ - غريب الحديث - القاسم بن سلام الهروي أبو عبيد - دار الكتاب العربي - بيروت - ط١ (١٣٩٦) - تحقيق: د. محمد عبد المعيد خان .
- ١٦٤ - غريب الحديث - حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي البستي أبو سليمان - جامعة أم القرى - مكة المكرمة - ط (١٤٠٢هـ) - تحقيق: عبد الكريم إبراهيم العزباوي.
- ١٦٥ - غريب الحديث - أبو إسحاق إبراهيم الحربي - تحقيق: د. سليمان بن إبراهيم العايد - جامعة أم القرى - ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥ م.
- ١٦٦ - الفتاوى الكبرى - أحمد بن عبدالحليم بن تيمية الحراني أبو العباس - دار المعرفة - بيروت - ط١ (١٣٨٦هـ).

- ١٦٧ - فتاوى ورسائل الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ - جمع وترتيب محمد بن عبدالرحمن بن قاسم - مطبعة الحكومة بمكة المكرمة - ط الأولى ١٣٩٩هـ.
- ١٦٨ - فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: محب الدين الخطيب، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، القاهرة، دار الريان للتراث، ١٤٠٧ هـ.
- ١٦٩ - فتح الرحيم الملك العلام - عبدالرحمن بن ناصر السعدي - اعتنى به : د. عبدالرزاق بن عبدالمحسن البدر - دار ابن الجوزي - الدمام - السعودية - ط ٣ - ١٤٢٤هـ.
- ١٧٠ - فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير - محمد بن علي الشوكاني - دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - المنصورة - ط ١ (١٤١٥)هـ.
- ١٧١ - فتح المجيد شرح كتاب التوحيد - الشيخ عبدالرحمن بن حسن بن عبدالوهاب - طبعة دار البيان - دمشق.
- ١٧٢ - فضائل الأوقات - أبو بكر احمد بن الحسين البيهقي - دراسة و تحقيق سلطان بن عبدالمحسن بن عبدالعزيز الخميس ؛ ١٤١٠هـ.
- ١٧٣ - فقه الأدعية والأذكار - عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر - دار ابن عفان للنشر والتوزيع - الرياض ١٤١٩هـ.
- ١٧٤ - فقه السنة - السيد سابق - شركة منار الدولية - القاهرة - (١٤١٦هـ - ١٩٩٥م).
- ١٧٥ - الفوائد - ابن القيم الجوزية - تحقيق محمد عثمان - دار الكتب العلمية - بيروت - ط ٣ - ١٤١٥هـ.
- ١٧٦ - في ظلال القرآن - سيد قطب - دار العلم للطباعة والنشر - جدة - ط ١٢ (١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م).
- ١٧٧ - فيض القدير شرح الجامع الصغير - المكتبة التجارية الكبرى - مصر - الطبعة الأولى ، ١٣٥٦هـ.
- ١٧٨ - القاموس المحيط - الفيروز آبادي - مؤسسة الرسالة - بيروت - ط ٢ (١٠٧هـ - ١٩٨٧م).
- ١٧٩ - القيامة الكبرى - د. عمر بن سليمان الأشقر - دار النفائس - الأردن - ط الثامنة - ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.
- ١٨٠ - الكبائر - محمد بن عثمان الذهبي - دار الندوة الجديدة - بيروت .
- ١٨١ - كتاب الزهد - أحمد بن حنبل .
- ١٨٢ - الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل - جار اله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي - دار المعارف - بيروت .
- ١٨٣ - كشف الستور في نهي النساء عن زيارة القبور - للشيخ حماد الأنصاري - مجلة الجامعة الإسلامية عدد (٥٢) - المدينة المنورة - السعودية.
- ١٨٤ - الكشاف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها - مكّي بن أبي طالب القيسي - تحقيق: د. محيي الدين رمضان - مؤسسة الرسالة - الطبعة الثانية ١٤٠١هـ.

- ١٨٥ -الكشف والبيان عن تفسير القرآن- الثعلبي: أبو إسحاق أحمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري- دار إحياء التراث العربي- بيروت (١٤٢٢هـ).
- ١٨٦ -الكلام على مسألة السماع- أبو عبدالله محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الدمشقي الشهير بابن قيم الجوزية - تحقيق: راشد بن عبدالعزيز الحمد - نشر دار العاصمة، الرياض، ط١، ١٤٠٩هـ.
- ١٨٧ -الكليات: معجم المصطلحات والفروق اللغوية: أبو البقاء الكفوي، تحقيق: عدنان درويش، ومحمد المصري، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٣ م.
- ١٨٨ -اللباب في علوم الكتاب- أبو حفص عمر بن علي ابن عادل الدمشقي الحنبلي - تحقيق : الشيخ عادل أحمد عبدالموجود، والشيخ علي محمد معوض -دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - ط١ (١٤١٩هـ-١٩٩٨ م).
- ١٨٩ -لسان العرب - محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري - دار صادر - بيروت - ط١.
- ١٩٠ -لطائف الإشارات- (تفسير القشيري) - عبدالكريم القشيري - ط دار الكتاب العربي بالقاهرة.
- ١٩١ -لقاء الباب المفتوح - (لقاءات الباب المفتوح سلسلة لقاءات كان يعقدها فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين - طيب الله ثراه - بمثله كل خميس من شوال ١٤١٢هـ - حتى صفر ١٤٢١هـ) - دار الوطن للنشر والتوزيع - الرياض - السعودية.
- ١٩٢ -لمسات بيانية في نصوص من التتريل- د. فاضل صالح السامرائي - جامعة الشارقة- بحث منشور على الشبكة في موقع صيد الفوائد - والمكتبة الشاملة.
- ١٩٣ -مجمع الزوائد ومنبع الفوائد- علي بن أبي بكر الهيثمي- دار السعادة- القاهرة- ودار الكتاب العربي- بيروت- ط٣ (١٤٠٢هـ).
- ١٩٤ -مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية - جمع وترتيب / عبد الرحمن بن محمد بن قاسم ومساعدته ابنه محمد - الرئاسة العامة لشؤون الحرمين - المملكة العربية السعودية . (١٤٠٤هـ).
- ١٩٥ -مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين - محمد بن صالح العثيمين - جمع وترتيب: فهد بن ناصر السليمان - دار الهداية للنشر- الطبعة الثالثة ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤ م.
- ١٩٦ -مجموع فتاوى ومقالات متنوعة - عبدالعزيز بن عبدالله بن باز - جمع وترتيب: د. محمد بن سعد الشويعر - نشر مؤسسة الحرمين الخيرية- الطبعة الرابعة ١٤٢٣هـ.
- ١٩٧ -محاسن التأويل - محمد جمال الدين القاسمي.
- ١٩٨ -المحرر الوجيز في الكتاب العزيز - عبد الحق بن عطية الأندلسي- مؤسسة دار العلوم- الدوحة - ط١ (١٣٩٨هـ- ١٩٧٧م).
- ١٩٩ -محمد رسول الله - محمد صادق عرجون - دار القلم - ط٢ (١٤١٥هـ).
- ٢٠٠ -مختصر معارج القبول- حافظ بن أحمد آل حَكَمي- اختصار الشيخ هشام بن عبدالقادر آل عُقْدة- دار طيبة الخضراء ١٤٢١هـ
- ٢٠١ -مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين - محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله - دار الكتاب العربي - بيروت - الطبعة الثانية ، ١٣٩٣ - ١٩٧٣.

- ٢٠٢ - مدارك التتزيل وحقائق التأويل- (تفسير النسفي) - أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي، مطبوعات محمد علي صبيح وأولاده - ميدان الأزهر - القاهرة.
- ٢٠٣ - المستدرک علی الصحیحین - محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري - تحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا- دار الكتب العلمية - بيروت - ط ١ (١٤١١هـ - ١٩٩٠م).
- ٢٠٤ - مسند أبي داود الطيالسي- سليمان بن داود أبو داود الفارسي البصري الطيالسي - دار المعرفة - بيروت.
- ٢٠٥ - مسند الإمام أحمد - أحمد بن حنبل الشيباني - مؤسسة قرطبة - القاهرة - مذيّل بأحكام شعيب الأرنؤوط عليها.
- ٢٠٦ - مسند الإمام أحمد - مؤسسة الرسالة - بيروت - ط ١ (١٤١٨هـ - ١٩٩٧م) - بإشراف المحقق الشيخ شعيب الأرنؤوط.
- ٢٠٧ - مسند الحميدى ، لأبي بكر عبد الله بن الزبير الحميدى ، مراجعة حبيب الرحمن الأعظمى ، طبعة دار الكتب العلمية بيروت سنة ١٣٨١ هـ .
- ٢٠٨ - مشكاة المصابيح - محمد بن عبد الله الخطيب - المكتب الإسلامي - بيروت - ط ٣ - ١٤٠٥هـ - تحقيق : الشيخ الألباني .
- ٢٠٩ - المصنف في الأحاديث والآثار - أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبه الكوفي - مكتبة الرشد - الرياض - الطبعة الأولى ، ١٤٠٩ - تحقيق : كمال يوسف الحوت.
- ٢١٠ - المصنف- لأبي بكر عبد الرزاق الصنعائي- تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي- المكتب الإسلامي- بيروت (١٩٨٣م).
- ٢١١ - معارج القبول بشرح سلم الوصول - حافظ حكيم - دار ابن القيم - الدمام - ط ١ (١٤١٠هـ).
- ٢١٢ - معالم التتزيل معالم التتزيل - أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي - حققه محمد عبدالله النمر، عثمان جمعة ضميرية، سليمان مسلم الحرش - دار طيبة - الرياض - ط ٤ (١٤١٧هـ - ١٩٩٧م).
- ٢١٣ - معالم في طريق طلب العلم - عبدالعزيز بن محمد السدحان - دار العاصمة - الرياض السعودية- ط ٣ - ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
- ٢١٤ - المعجم الأوسط- سليمان بن أحمد الطبراني- تحقيق: طارق بن عوض الله الحسيني - دار الحرمين - القاهرة- ط ١٥١هـ.
- ٢١٥ - المعجم الصغير- سليمان بن أحمد الطبراني- تحقيق: محمد شكور محمود الحاج أمرير- المكتب الإسلامي- بيروت- ودار عمار بعمان- الأولى ١٤٠٥هـ.
- ٢١٦ - المعجم الكبير - سليمان بن أحمد الطبراني - تحقيق: حمدي بن عبدالمجيد السلفي - مكتبة العلوم والحكم- الموصل- ط ٢ (١٤٠٤هـ).
- ٢١٧ - معجم لغة الفقهاء عربي إنجليزي فرنسي- محمد رواس - دار النفائس - ط (١٤١٦هـ).

- ٢١٨ - معجم مقاييس اللغة ، لأحمد بن فارس ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، طبعة مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة سنة ١٩٧٠ م .
- ٢١٩ - المغني - ابن قدامة - تحقيق د/ عبدالله بن عبد المحسن التركي و د/ عبد الفتاح محمد الحلو - هجر للنشر والتوزيع - القاهرة - ط٢ (١٤١٢هـ - ١٩٩٢م) .
- ٢٢٠ - مفتاح دار السعادة، ابن القيم، بيروت، دار الكتب العلمية .
- ٢٢١ - مفردات ألفاظ القرآن- الراغب الأصفهاني- تحقيق:صفوان عدنان داوودي- دار القلم- دمشق- ودار الشامية- بيروت- ط١ (١٤١٢هـ - ١٩٩٢م) .
- ٢٢٢ - المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام - د. جواد علي - دار العلم للملايين، بيروت- ومكتبة النهضة، بغداد - الطبعة الثانية عام ١٩٧٦م .
- ٢٢٣ - من موضوعات سور القرآن - سورة النور - عبد الحميد محمود طهماز - دار القلم دمشق - الدار الشامية بيروت - ط١ (١٤١٢هـ - ١٩٩٢م) .
- ٢٢٤ - منامات الرسول ﷺ - عبد القادر الشيخ إبراهيم - دار القلم العربي - حلب - ط١ (١٤١٩هـ) .
- ٢٢٥ - المنمق في أخبار قريش - ابن حبيب : محمد بن حبيب (ت ٢٤٥هـ) - تحقيق خورشيد أحمد - ط١ ، بيروت ، عالم الكتب ، ١٤٠٥ هـ .
- ٢٢٦ - المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج- أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي- دار إحياء التراث العربي - بيروت - الطبعة الثانية ، (١٣٩٢هـ) .
- ٢٢٧ - المهذب من إحياء علوم الدين - صالح احمد الشامي - دار القلم ، الدار الشامية - دمشق ، بيروت- ط٢ (١٤١٩هـ - ١٩٩٨م) .
- ٢٢٨ - الموافقات في أصول الشريعة - لأبي إسحاق الشاطبي - مكتبة الرياض الحديثة- الرياض .
- ٢٢٩ - الموسوعة الحديثية - مسند الإمام أحمد - مؤسسة الرسالة - بيروت - ط١ (١٤١٨هـ - ١٩٩٧م) - بإشراف المحقق الشيخ شعيب الأرنؤوط .
- ٢٣٠ - الموسوعة الفقهية الكويتية- وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية - الكويت - الطبعة : ١٤٠٤ - ١٤٢٧ هـ .
- ٢٣١ - موسوعة شروح الموطأ - تحقيق : عبد الله بن عبد المحسن التركي - مركز هجر - القاهرة - ط١ (١٤٢٦هـ) .
- ٢٣٢ - موطأ الإمام مالك - مالك بن أنس أبو عبدالله الأصبحي - دار إحياء التراث العربي - مصر - محمد فؤاد عبد الباقي .
- ٢٣٣ - الناسخ والمنسوخ في القرآن العزيز : لأبي عبيد القاسم بن سلام الهروي ، دراسة وتحقيق : محمد ابن صالح المديفر ، مكتبة الرشد - الرياض ، الطبعة الأولى ١٤١١ هـ .
- ٢٣٤ - الناسخ والمنسوخ في كتاب الله عز وجل واختلاف العلماء في ذلك - أحمد بن محمد النحاس - تحقيق ودراسة د/ سليمان بن إبراهيم اللاحم - مؤسسة الرسالة - ط١ (١٤١٢هـ - ١٩٩١م) .

- ٢٣٥ -نصرة النعيم في مكارم وأخلاق الرسول الكريم - إعداد مجموعة من المتخصصين- دار الوسيلة - جدة- ط١(١٤١٨هـ).
- ٢٣٦ -نظم الدرر في تناسب الآيات والسور - بهاء الدين إبراهيم بن عمر البقاعي - دار الكتاب الإسلامي - القاهرة - ط٢(١٤١٣هـ).
- ٢٣٧ -النكت والعيون- أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي - تحقيق: السيد بن عبدالمقصود بن عبدالرحيم - دار الكتب الثقافية - بيروت - ط١ (١٤١٢هـ - ١٩٩٢م).
- ٢٣٨ -نهایة الإقدام في علم الكلام ، لأبي الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني ، تحقيق ألفرد جيوم ، طبعة اكسفورد سنة ١٩٣٤ م .
- ٢٣٩ -النهاية في غريب الحديث - ابن الأثير - تحقيق طاهر احمد الزاوي ومحمود محمد الطانحي - المكتبة العلمية - بيروت.
- ٢٤٠ -النهج الأسمى في شرح أسماء الله الحسني - محمد الحمود النجدي- مكتبة الإمام الذهبي بالكويت- الطبعة الأولى - ١٤١٢هـ.
- ٢٤١ -هكذا كان النبي صلى الله عليه وسلم في رمضان - فيصل بن محمد البعداني - مطبوعات مجلة البيان - الرياض - السعودية.
- ٢٤٢ -الوحي وتبليغ الرسالة - د.يحيى بن إبراهيم يحيى - دار الخضير للنشر والتوزيع - المدينة النبوية- ط١ (١٤٢٠هـ).
- ٢٤٣ -وقفات تربوية مع السيرة النبوية- عبدالحميد البلالي- ط٣ (١٤١١هـ).

٢	المقدمة
٣	أهداف المشروع
٣	أولاً: أسباب اختيار المشروع:
٤	أسباب ومناسبات المشروع
٤	ثانياً: خطة البحث:
٦	ثالثاً: منهجية البحث:
١٤	أولاً: نزول سورة الضحى ومناسبتها:
١٤	تفسير سورة الضحى
١٤	سبب نزول سورة الضحى
١٤	المبحث الأول: مقدمات حول سورة الضحى
١٤	مناسبة سورة الضحى لما قبلها
١٥	ثالثاً: المعنى الإجمالي لسورة الضحى:
١٥	ثانياً: موضوع سورة الضحى :
١٦	أولاً: المقسم به
١٦	ثانياً: المقسم عليه
١٦	المبحث الثاني: وقفات حول سورة الضحى
١٦	المطلب الأول: وقفات مع المقسم به والمقسم عليه
١٧	ثالثاً: الحكمة من فتور الوحي:
١٨	المطلب الثاني: بشرى ووعد من الله لنبىه محمد صلى الله عليه وسلم
١٩	المطلب الثالث: صور رحمة الله تعالى ورعايته لنبىه صلى الله عليه وسلم
٢٢	المطلب الرابع: واجب النبى صلى الله عليه وسلم تجاه هذه النعم
٢٦	أولاً: تسمية سورة الشرح ونزولها ومناسبتها :
٢٦	تفسير سورة الشرح
٢٦	ثانياً: موضوع سورة الشرح :
٢٦	المبحث الأول: مقدمات حول سورة الشرح
٢٦	مناسبة سورة الشرح لما قبلها
٢٦	نزول سورة الشرح
٢٧	ثالثاً: المعنى الإجمالي لسورة الشرح:
٢٨	المبحث الثاني: وقفات مع سورة الشرح
٢٨	المطلب الأول: تعدد نعم الله تعالى على نبينا محمد ورفع مكانته في العالمين

٣٠	النقطة الأولى: مواطن الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم:
٣١	النقطة الثانية: ومن مظاهر رفع ذكره صلى الله عليه وسلم غير ما سبق:
٣٣	المطلب الثاني: بشرى من الله تعالى
٣٤	وقفه مع مبدأ التيسير في الإسلام:
٣٥	المشقة التي تجلب التيسير سبعة أنواع
٣٦	أولاً: متابعة العمل:
٣٦	المطلب الثالث: ذكر مواقع التيسير وأسباب الانشراح
٣٧	ثانياً: حسن الرجاء:
٣٨	المسألة الأولى: الذكر بعد العبادة:
٣٨	المسألة الثانية: الفرح بعد العبادة:
٣٨	المطلب الرابع: ماذا بعد العبادة
٤٠	المطلب الخامس: حسن الختام لسورة الشرح
٤١	أولاً: تسميتها :
٤١	تفسير سورة التين
٤١	ثانياً: نزول سورة التين ومناسبتها :
٤١	المبحث الأول: مقدمات حول سورة التين
٤١	مناسبة التين لما قبلها
٤٢	ثالثاً: فضل سورة التين :
٤٢	خامساً: المعنى الإجمالي لسورة التين:
٤٢	رابعاً: موضوع سورة التين :
٤٣	المبحث الثاني: وقفات مع سورة التين
٤٣	المطلب الأول: وقفات مع المقسم به
٤٣	الوقفة الأولى: رفع شأن التين والزيتون:
٤٤	الوقفة الثانية: رفع شأن الأماكن المشرفة:
٤٦	المطلب الثاني: وقفات مع المقسم عليه
٤٦	الوقفة الأولى: تكريم الله تعالى للنوع البشري:
٤٧	أولاً: جزاء من كفر :
٤٧	الوقفة الثانية: بيان جزاء من كفر نعمة التكريم وجزاء من شكرها:
٤٨	ثانياً: جزاء من شكر:
٤٩	ثالثاً: وقفة مع نوعية الجزاء:
٥٠	المطلب الثالث: تذكير بموضوع الإيمان بالجزاء والحساب
٥١	أولاً: العادل في حكمه:
٥١	المطلب الرابع: الشهادة لله بالحكمة والحكم والإحكام

٥٢	ثالثاً: "أحكم الحاكمين علماً وقدرة وعدلاً وحكمة:
٥٢	ثانياً: المتقن خلقه:
٥٣	أولاً: تسمية سورة العلق:
٥٣	تفسير سورة العلق
٥٣	ثانياً: نزول سورة العلق:
٥٣	المبحث الأول: مقدمات حول سورة العلق
٥٥	ثالثاً: فضل سورة العلق ومناسبتها :
٥٥	رابعاً: موضوع سورة العلق:
٥٥	مناسبة العلق لما قبلها
٥٦	خامساً: المعنى الإجمالي لسورة العلق:
٥٧	المبحث الثاني: وقفات حول سورة العلق
٥٧	المطلب الأول: حدث عظيم في تاريخ البشرية
٥٩	أولاً: البداية بالأمر بالبسملة:
٥٩	المحور الأول: أسرار التوجيه في آيات سورة العلق
٥٩	المطلب الثاني: آيات التوجيه الأولى للأمة
٦٠	ثالثاً: من أعظم آثار الرب صفة الخلق والبدء :
٦٠	ثانياً: اختيار اسم الله (الرب) في بداية الترتيل:
٦٠	خامساً: أول خلق الإنسان ومبدأه وأول مرحلة من مراحل
٦١	سادساً: بيان كرم الله تعالى على خلقه:
٦٢	ثامناً: مصدر العلم والتعلم
٦٢	سابعاً: المنة بتعليم الإنسان
٦٤	أخلاقيات النبي صلى الله عليه وسلم قبل التوجيه
٦٤	أولاً: حال النبي صلى الله عليه وسلم قبل الوحي إليه
٦٤	كان يخلو صلى الله عليه وسلم بغار حراء فيتحنث فيه :
٦٤	المحور الثاني: أثر الوحي على الدعوة
٦٥	أنواع الوحي
٦٥	الرؤيا الصالحة أول الوحي
٦٦	ثانياً: ما حدث وقت الوحي إليه :
٦٧	أثر المرأة الصالحة في خدمة الدعوة
٦٧	ما حصل بعد الوحي
٦٨	سنة تكذيب المرسلين
٦٨	فتور الوحي
٦٩	أولاً: الصفة الذميمة: الطغيان عند الاستغناء:

٦٩	المطلب الثالث: صفة الطغيان عند الإنسان وعلاجها
٧٠	ثانياً: العلاج بالتذكر بالرجوع إلى الله :
٧١	أولاً: طغيان من يحارب الهدى ويكذب به ويؤذي أهله:
٧١	المطلب الرابع: صورة من طغيان الإنسان وعاقبتها
٧٢	جزاء هذا الطغيان
٧٣	ثانياً: الزجر والوعيد:
٧٤	ثانياً: التهديد بعدم منفعة الأصحاب المساعدين في عداء الدعوة:
٧٦	التقرب لله تعالى بالطاعة
٧٦	ثالثاً: واجب الدعوة أمام هذا الطغيان :
٧٦	عدم طاعة الطغاة
٧٨	تسمية سورة القدر
٧٨	تفسير سورة القدر
٧٨	مقدمات حول سورة القدر
٧٨	نزول سورة القدر ومناسبتها
٧٩	المعنى الإجمالي لسورة القدر
٧٩	موضوع سورة القدر
٨٠	أنزل الله القرآن في ليلة القدر
٨٠	وقفات حول سورة القدر
٨٢	لماذا سميت بليلة القدر
٨٣	عظم أمر ليلة القدر
٨٣	ليلة مباركة
٨٣	نزول القرآن في ليلة القدر
٨٤	ليلة القدر خير من ألف شهر
٨٤	نزل فيها القرآن هداية للناس وبيان وفرقان
٨٥	ليلة فرق فيها من كل أمر حكيم
٨٥	الملائكة تنزل في هذه الليلة
٨٥	هذه الليلة أذن الله تعالى لشريعته أن تحكم الأرض وأن تسود
٨٦	هذه الليلة سالمة من كل شر
٨٧	تسلم الملائكة ليلة القدر على أهل المساجد حتى يطلع الفجر
٨٧	غفران ما تقدم من الذنوب
٨٨	تعيين ليلة القدر
٩٠	الحكمة من إخفاء الله عين هذه الليلة
٩١	علامات ليلة القدر

٩٢ ماذا يستحب في هذه الليلة
٩٤ تسمية سورة البينة
٩٤ تفسير سورة البينة
٩٤ مقدمات حول سورة البينة
٩٥ نزول سورة البينة ومناسبتها
٩٦ موضوع سورة البينة
٩٨ إصرار الكفار مع احتياجهم إلى رسالة جديدة
٩٨ وقفات مع سورة البينة
١٠١ صفات البينة
١٠٣ تفرق أهل الكتاب مع وجود البينة عندهم
١٠٥ من صفة البينة جمعها أصول الشرائع
١١٠ جزاء الكفار من أهل الكتاب والمشركين
١١٠ جزاء أهل الإيمان وجزاء أهل الكفر
١١٣ سبب حصول الخير للمؤمنين
١١٥ تفسير سورة الزلزلة
١١٥ مقدمات حول سورة الزلزلة
١١٥ نزول سورة الزلزلة ومناسبتها
١١٦ فضل سورة الزلزلة
١١٦ موضوع سورة الزلزلة
١١٦ المعنى الإجمالي لسورة الزلزلة
١١٧ زلزال يوم القيامة
١١٧ مشهد وأحوال يوم القيامة
١١٩ حال الناس في ذلك الهول
١٢٠ الأرض تشهد بأمر الله
١٢١ مشهد القيام للحساب
١٢٢ لا تحقرن شيئاً
١٢٤ تفسير سورة العاديات
١٢٤ مقدمات حول سورة العاديات
١٢٤ نزول سورة العاديات ومناسبتها
١٢٥ موضوع سورة العاديات
١٢٥ المعنى الإجمالي لسورة العاديات
١٢٦ المقسم به (العاديات..)

١٢٦	وقفات مع المقسم به في سورة العاديات
١٢٧	الخيال في الإسلام
١٢٧	ماذا يراد بالمقسم بالعاديات
١٢٩	الصفات الإنسانية في سورة العاديات
١٢٩	الصفة الأولى كنود
١٢٩	وقفات مع المقسم عليه في سورة العاديات
١٣٠	الصفة الثانية شديد في حب الخير
١٣٢	التخويف بعرض مشهد البعث والحشر
١٣٢	تقويم وعلاج تلك الصفات
١٣٣	التخويف بكشف وإظهار وإزالة النقاب عما كان في صدورهم
١٣٦	التحذير بيان الجزاء والحساب بالإشارة إلى علم الله تعالى وخبرته بهم
١٣٨	أثر الإيمان بالغيب عموماً وبالأخرة خصوصاً في تهذيب النفس المسلمة
١٣٨	وقفات إيمانية مع سورة العاديات
١٣٩	الوعظ أسلوب تربوي مهم في تهذيب النفس المسلمة
١٤١	اسم سورة القارعة
١٤١	تفسير سورة القارعة
١٤١	مقدمات حول سورة القارعة
١٤١	نزول سورة القارعة ومناسبتها
١٤٢	موضوع سورة القارعة
١٤٣	وقفات حول سورة القارعة
١٤٣	يوم القيامة هو يوم القارعة
١٤٣	وصف يوم القيامة
١٤٤	من أهوال يوم القيامة
١٤٥	لمسة بيانية في وصف القيامة
١٤٦	أقسام الناس يوم القارعة وجزائهم
١٤٦	معنى الموازين
١٤٦	من ثقلت موازينه
١٤٧	ما الذي يوزن في الميزان
١٤٩	الذي يثقل الميزان
١٥٠	معنى خفة الموازين
١٥٠	معنى عيشة راضية
١٥٠	من خفت موازينه
١٥١	المقصود بـ(أمه هاوية)

١٥١	وصف الهاوية بأنها نار حامية
١٥٣	لمسة بيانية في وصف أحوال القيامة
١٥٤	تسمية سورة التكاثر
١٥٤	تفسير سورة التكاثر
١٥٤	مقدمات حول سورة التكاثر
١٥٤	نزول سورة التكاثر ومناسبتها
١٥٦	معاني آيات سورة التكاثر
١٥٦	موضوع سورة التكاثر
١٥٩	التحذير من الغفلة والاهتمامك في الدنيا
١٥٩	وقفات مع سورة التكاثر
١٦١	أهمية زيارة المقابر
١٦١	تذكر الآخرة وأول دار فيها
١٦٢	حكم زيارة القبور للنساء
١٦٥	آداب زيارة القبور
١٦٦	أولاً من المسؤول يوم القيامة
١٦٦	تعدد نعم الله على الإنسان
١٦٦	ثالثاً النعيم الذي تُسأل عنه يوم القيامة
١٦٦	ثانياً: تذكّر النبي صلى الله عليه وسلم نعم الله تعالى
١٦٩	كيف نقوم بواجب نعم الله علينا
١٧٠	حقيقة الشكر
١٧٢	تسمية سورة العصر
١٧٢	تفسير سورة العصر
١٧٢	مقدمات حول سورة العصر
١٧٢	موضوع سورة العصر
١٧٢	نزول سورة العصر مناسبتها
١٧٣	فضل سورة العصر
١٧٥	وقفات مع المقسم به والمقسم عليه في سورة العصر
١٧٥	وقفات مع المقسم به(العصر)
١٧٧	وقفات مع المقسم عليه في سورة العصر
١٧٨	الإيمان وحقيقته
١٧٨	صفات الناجين من الخسران
١٧٨	الصفة الأولى الإيمان بالله تعالى
١٧٩	أثر الإيمان في عدم الخسران

١٧٩	مراتب الإيمان
١٨٠	علاقة الإيمان بصفة الإنسانية
١٨٢	أدلة الفوز بالإيمان والعمل الصالح
١٨٢	أهمية العمل لتحقيق الإيمان
١٨٢	الصفة الثانية عمل الصالحات
١٨٣	الربط بين العمل وصلاح العمل
١٨٣	الشرط الأول الإخلاص لله تعالى في العمل
١٨٤	الأعمال الصالحة التي تقي الإنسان من الخسران
١٨٤	الشرط الثاني متابعة سنة النبي صلى الله عليه وسلم
١٨٦	أهمية التواصي بالحق
١٨٦	الصفة الثالثة التواصي على الحق
١٨٦	معنى التواصي بالحق
١٨٨	من صور التواصي بالحق
١٩١	التجرد في التواصي بالحق
١٩٣	أهمية التواصي بالصبر
١٩٣	الصفة الرابعة التواصي بالصبر
١٩٣	معنى التواصي بالصبر
١٩٤	نموذج من التواصي بالصبر في القرآن
١٩٥	الصبر ثلاثة أنواع
١٩٦	لمسة بيانية في سورة العصر
١٩٧	تسمية سورة الهمة
١٩٧	تفسير سورة الهمة
١٩٧	نزول سورة الهمة ومناسبتها
١٩٨	موضوع سورة الهمة
١٩٩	خطر الغيبة والاستهزاء والانتقاص من الآخرين
١٩٩	وقفات حول سورة الهمة
٢٠١	خوارم العلاقات بين الناس عامة
٢٠٤	احتقار المسلمين والسخرية منهم
٢٠٤	التعير وإظهار الشماتة لهم
٢٠٥	التناجي بين اثنين بحضور ثالث
٢٠٧	ذم من يجمع المال ويخل به
٢٠٨	ذم الغرور بالمال وأنه لن ينفعه يوم القيامة
٢١٠	عقاب من هذه صفاتهم

٢١١ من صفات النار
٢١٣ تسمية سورة الفيل
٢١٣ تفسير سورة الفيل
٢١٣ نزول سورة الفيل ومناسبتها
٢١٤ موضوع سورة الفيل
٢١٥ وقفات مع سورة الفيل
٢١٧ حادثة الفيل من نعم الله على قريش
٢١٨ الوقفة الثالثة الكيد عاقبة التضليل
٢١٩ الوقفة الرابعة عذاب أصحاب الفيل
٢٢٠ بيان حرمة الكعبة ووجوب تعظيم حرمة الله تعالى
٢٢٠ حكم من أراد الإلحاد في البيت
٢٢٠ الوقفة الخامسة فوائد تربوية من سورة الفيل
٢٢١ حسد النصارى وحقدهم على البيت ومن يعظمون البيت
٢٢٢ حقيقة المعركة مع أعداء الله
٢٢٢ خونة الأمة مخذولون
٢٢٣ تسمية سورة قريش
٢٢٣ تفسير سورة قريش
٢٢٣ نزول سورة قريش ومناسبتها
٢٢٤ المعنى الإجمالي لسورة قريش
٢٢٤ موضوع سورة قريش
٢٢٥ نعم الله تعالى على قريش
٢٢٥ وقفات حول آيات سورة قريش
٢٢٧ إلف نعم الله تعالى
٢٢٩ قصة الرحلة
٢٣٠ وجوب شكر الله تعالى على نعمه بإخلاص العبادة له
٢٣١ تسمية سورة الماعون ونزولها ومناسبتها
٢٣١ تفسير سورة الماعون
٢٣١ موضوع سورة الماعون
٢٣٢ المعنى الإجمالي لسورة الماعون
٢٣٣ الصفة الأولى التكذيب بالدين
٢٣٣ وقفات مع الصفات المذمومة في سورة الماعون
٢٣٤ الصفة الثانية قهر اليتيم ومنعه الطعام وعدم الإحسان إليه

٢٣٤ فضل رعاية اليتيم والمسكين
٢٣٦ خطورة تأخير الصلاة والغفلة عنها
٢٣٦ الصفة الثالثة يسهون عن الصلاة
٢٣٩ مما يعين على إقامة الصلاة وعدم السهو عنها
٢٤٠ الفرق بين الرياء والسمعة
٢٤٠ من مضار الرياء
٢٤٢ الصفة الخامسة منع الخير عن الغير
٢٤٢ فضل تبادل المنافع بين الناس عن طريق الإعارات أو التبرع
٢٤٤ تسمية سورة الكوثر
٢٤٤ تفسير سورة الكوثر
٢٤٤ نزول سورة الكوثر ومناسبتها
٢٤٥ فضل سورة الكوثر
٢٤٥ موضوع سورة الكوثر
٢٤٦ المعنى الإجمالي لسورة الكوثر
٢٤٧ ما هو الكوثر؟
٢٤٧ نعمة الله وعطائه
٢٤٧ وقفات حول سورة الكوثر
٢٤٩ شكر الله على نعمه
٢٥٠ دفاع عن النبي ﷺ:
٢٥١ تسمية سورة الكافرون
٢٥١ تفسير سورة الكافرون
٢٥١ نزول سورة الكافرون ومناسبتها
٢٥٢ فضل سورة الكافرون
٢٥٤ موضوع سورة الكافرون
٢٥٥ إعلان الانفصال الذي لا يرجى معه اتصال (البراءة)
٢٥٥ وقفات مع سورة الكافرون
٢٥٦ العبادة المقترنة بالشرك ليست عبادة
٢٥٦ لا نرضي الكافرين ولو مرة على حساب ديننا
٢٥٨ التمييز لا التمييع
٢٦٠ تسمية سورة النصر
٢٦٠ تفسير سورة النصر
٢٦٠ نزول سورة النصر ومناسبتها

٢٦٢ المعنى الإجمالي لسورة النصر
٢٦٢ موضوع سورة النصر
٢٦٣ معنى النصر والفتح
٢٦٣ النصر من الله وحده
٢٦٣ وقفات مع سورة النصر
٢٦٤ من علامات النصر أن يدخل الناس في دين الله أفواجاً
٢٦٥ الواجب عند النصر
٢٦٨ العناية بإصلاح القلب
٢٦٨ قبول الله توبة عباده
٢٦٩ أسماء سورة المسد
٢٦٩ تفسير سورة المسد
٢٦٩ نزول سورة المسد ومناسبتها
٢٧٠ المعنى الإجمالي لسورة تبت
٢٧٠ موضوع سورة المسد
٢٧١ وقفات مع آيات سورة المسد
٢٧٣ جزاء من أعان الذين يؤذون الرسول ﷺ والذين آمنوا
٢٧٣ لن ينفع المستهزئين بالرسول ودعوته أمواهم ولا كسبهم
٢٧٣ مصير المستهزئين المحاربين لرسول الله والصالحين من عباد الله
٢٧٤ الجزء من جنس العمل
٢٧٤ معجزة ظاهرة على النبوة وصدق الرسالة
٢٧٥ قصة هلاك أبي لهب
٢٧٦ تسمية سورة الصمد
٢٧٦ تفسير سورة الإخلاص
٢٧٦ سبب نزول سورة الصمد ومناسبتها
٢٧٦ مقدمات حول سورة الصمد
٢٧٧ فضل سورة الصمد
٢٧٧ موضوع سورة الصمد
٢٧٨ معنى أنها تعدل ثلث القرآن
٢٧٩ مواضع قراءة سورة الصمد
٢٨٠ المعنى الإجمالي لسورة الصمد
٢٨١ وجوب معرفة الله
٢٨١ وقفات في معاني السورة
٢٨٤ تزيهه سبحانه عن كل نقص

٢٨٦	تحقيق التوحيد لله
٢٨٧	أسماءهما
٢٨٧	تفسير المعوذتين
٢٨٧	المعوذتين وأحكام الاستعاذة
٢٨٧	نزول المعوذتين ومناسبتها
٢٨٩	موضوع سورتي المعوذتين
٢٩٠	فضل سورتي المعوذتين
٢٩٠	مواضع الاستعاذة بهما
٢٩٣	المعنى الإجمالي لسورتي المعوذتين
٢٩٤	أركان الاستعاذة
٢٩٤	تعريف الاستعاذة
٢٩٥	حكم الاستعاذة
٢٩٥	حكم الاستعاذة وصيغتها
٢٩٥	الحكم العام للاستعاذة
٢٩٥	صيغة الاستعاذة
٢٩٦	مواضع الاستعاذة في القرآن
٢٩٧	مواضع الاستعاذة في السنة
٢٩٨	من فوائد الاستعاذة
٢٩٩	حكم الرقية
٢٩٩	الرقية وأحكامها
٣٠٠	شروط الشفاء من الرقية
٣٠٠	شروط جواز الرقية
٣٠١	تفسير سورة الفلق
٣٠١	المستعاذ به في سورة الفلق
٣٠٢	المستعاذ منه في سورة الفلق
٣٠٥	خطر السحر والحسد وطرق الوقاية منهما
٣٠٥	خطورة السحر
٣٠٥	خطورة السحر وطرق الوقاية منه
٣٠٦	كيفية العلاج من السحر والوقاية منه
٣٠٧	خطورة الحسد
٣٠٧	خطورة الحسد وطرق الوقاية منه
٣٠٨	دواء الحسد
٣٠٨	مضار الحسد

٣١٠	تفسير سورة الناس
٣١٠	ما يستفاد من قوله تعالى : ﴿قُلْ﴾
٣١٠	المستعاذ به في سورة الناس
٣١٠	يبين سبحانه الاستعاذة به بصفات
٣١١	لماذا هذه الصفات الثلاث ؟
٣١٢	لماذا تخصيص الناس ؟
٣١٣	المستعاذ منه في سورة الناس
٣١٣	يبين لنا الله سبحانه وتعالى هنا صفة هذا المستعاذ منه
٣١٤	حدد الله تعالى عمل هذا المستعاذ منه
٣١٥	حدد شخصية المستعاذ منه
٣١٦	فائدة تكرار لفظ الناس
٣١٦	فائدة هذا التدرج وهذه المقدمات في ذكر شخصية المستعاذ منه
٣١٧	كيف نعرف وسوسة الإنس
٣١٧	كيف نعرف وسوسة الجن
٣١٧	وسوسة الجن والإنس باقية إلى قيام الساعة
٣١٧	وقفات حول وسوسة شياطين الإنس والجن
٣١٨	طريق النجاة من خطر الجن والإنس
٣١٨	هل نحن محاسبون بما تحدثنا به نفوسنا ؟
٣٢٠	الخاتمة
٣٢٠	النتائج
٣٢١	التوصيات:
٣٢٣	ثبت المراجع
٣٣٨	فهرس المحتويات